

فردريك كوبلستون

تاريخ الفلسفة

(من أوغسطين إلى دانز سكوت)

المجلد الثاني

القسم الأول

ترجمة

إمام عبدالفتاح إمام

إسحاق عبيد

مراجعة وتقديم

إمام عبدالفتاح إمام

تاريخ الفلسفة

المجلد الثانى - القسم الأول

(من أوغسطين إلى دانزسكوت)

المركز القومي للترجمة

إشراف : جابر عصفور

- العدد : 1544

- تاريخ الفلسفة - (المجلد الثاني - القسم الأول) : من أوغسطين إلى دافنسكوت

- فريدريك كويلستون

- إمام عبد الفتاح وإسحاق عبيد

- الطبعة الأولى 2010

هذه ترجمة كتاب:

A History of Philosophy

Volume II

By Frederick Copleston

Copyright © Frederick Copleston 1950

All Rights Reserved

حقوق الترجمة والنشر بالعربية محفوظة للمركز القومي للترجمة.

شارع الجبلية بالأوبرا - الجزيرة - القاهرة . ت: ٢٧٣٥٤٥٢٤ - ٢٧٣٥٤٥٢٦ فاكس: ٢٧٣٥٤٥٥٤

El-Gabalaya St., Opera House, El-Gezira, Cairo

E-Mail:egyptcouncil@yahoo.com Tel.: 27354524 - 27354526 Fax: 27354554

تاريخ الفلسفة

المجلد الثانى

(من أوغسطين إلى دانزسكوت)

القسم الأول

ترجمة : إمام عبد الفتاح إمام ، وإسحاق عبيد

مراجعة وتقديم : إمام عبد الفتاح إمام



2010

<p>بطاقة الفهرسة إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية إدارة الشؤون الفنية</p>	<p>كوبلستون، فردريك . تاريخ الفلسفة (مج ٢) القسم الأول : (من أوغسطين إلى دانسكوت) / فردريك كوبلستون ، ترجمة : إمام عبد الفتاح إمام ، إسحاق عبيد ، مراجعة وتقديم : إمام عبد الفتاح إمام ط ١ - القاهرة : المركز القومى للترجمة ، ٢٠١٠ ٤٠٤ ص ٢٤ سم . ١ - الفلسفة - تاريخ . (أ) إمام ، إمام عبد الفتاح (مترجم ومراجع ومقدم) (ب) عبيد ، إسحاق (مترجم مشارك) . ١٠٩ (ج) العنوان</p>
<p>رقم الإيداع ٢٠١٠ / ٧٢٥٣ الترقيم الدولى 5 - 7 - 704 - 977 - 978 I.S.B.N. طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية</p>	

تهدف إصدارات المركز القومى للترجمة إلى تقديم الاتجاهات والمذاهب الفكرية المختلفة للقارئ العربى وتعريفه بها ، والأفكار التى تتضمنها هى اجتهادات أصحابها فى ثقافتهم ، ولا تعبر بالضرورة عن رأى المركز .

المحتويات

7 مقدمة بقلم المراجع
11 فلسفة العصور الوسطى
13 الفصل الأول : مدخل
25 الباب الأول : المؤثرات الفكرية السابقة للعصور الوسطى
27 الفصل الثاني : عصر الآباء
63 الفصل الثالث : القديس أغسطينوس (١)
77 الفصل الرابع : القديس أغسطينوس (٢)
97 الفصل الخامس : القديس أغسطينوس (٣)
105 الفصل السادس : القديس أغسطينوس (٤)
115 الفصل السابع : القديس أغسطينوس (٥)
123 الفصل الثامن : القديس أغسطينوس (٦)
129 الفصل التاسع : ديونسيوس المنحول
141 الفصل العاشر
149 الباب الثاني
151 الفصل الحادي عشر : النهضة الكارولنجية
159 الفصل الثاني عشر : جون سكوتوس إريوجينا

163 الفصل الثالث عشر: حول سكوت إرجينا.
189 الباب الثالث: القرون العاشر. والحادي عشر والثاني عشر
191 الفصل الرابع عشر
217 الفصل الخامس عشر
229 الفصل السادس عشر
241 الفصل السابع عشر
253 الفصل الثامن عشر
259 الباب الرابع: الفلسفة الإسلامية- الفلسفة اليهودية - الترجمات.
261 الفصل التاسع عشر
279 الفصل العشرون: الفلسفة اليهودية
285 الفصل الحادي والعشرون: الترجمات
295 الباب الخامس: القرن الثالث عشر
297 الفصل الثاني والعشرون
305 الفصل الثالث والعشرون
317 الفصل الرابع والعشرون
333 الفصل الخامس والعشرون. القديس بوناغنتورا (١)
345 الفصل السادس والعشرون: القديس بوناغنتورا (٢)
357 الفصل السابع والعشرون: القديس بوناغنتورا (٣)
373 الفصل الثامن والعشرون: القديس بوناغنتورا (٤)
381 الفصل التاسع والعشرون: القديس بوناغنتورا (٥)

مقدمة

بقلم المراجع

أصدرنا المجلد الأول من موسوعة كويلستون الكبرى منذ سبع سنوات^(١) ولقد ذكرت في تقديمي لذلك المجلد شيئاً عن "فريدك كويلستون" (١٩٠٧ - ١٩٩٤) الفيلسوف وعالم اللاهوت الشهير وعن مؤلفاته الغزيرة، وكنت أمل أن يظهر الترجمة العربية للمجلدات الأخرى تبعاً، لكن ظروفًا كثيرة حالت دون تحقيق هذا الأمل، الذي كاد يتحول إلى سراب، لكن المثابرة والجد والإصرار على العمل الجاد جعلت الدماء تتدفق من جديد في عروق ذلك المشروع الكبير^(٢).

أما هذا المجلد الذي استمر عملنا فيه ما يقرب من أربع سنوات، فقد قسمه كويلستون إلى خمسة أجزاء أو أبواب على النحو التالي:

الباب الأول: يدور حول المؤثرات الفكرية السابقة للعصور الوسطى، وهو يشتمل على تسعة فصول (فضلاً عن الفصل الأول الذي جعله مدخلاً للكتاب كله) ثم جاء الفصل الثاني من عصر آباء الكنيسة بصفة عامة.

(١) وبالتحديد عام ٢٠٠٢، وكان عنوانه "اليونان.. وروما" - وقد صدر عن المشروع القومي للترجمة العدد ٤٣٦

(٢) اشترك معي الصديق العزيز الأستاذ الدكتور: إسحاق عبيد الذي كان نصيبه من بداية الكتاب حتى الفصل الخامس عشر (القديس نونافنتورا) حيث يبدأ الجزء الخاص بي حتى نهاية الكتاب مع المراجعة لضبط المصطلح الفلسفي.

ثم توقف المؤلف لدراسة القديس أوغسطين في ستة فصول، عرض في الفصل الأول منها لحياته ومؤلفاته وعلاقته بالفلسفة، ثم بدأ يعرض نظريات القديس أوغسطين المختلفة: نظرية المعرفة بأنواعها المختلفة: المعرفة الطوباوية- والمعرفة والشك، ثم المعرفة التجريبية وطبيعة الحس.. إلخ. وفي الفصل الثالث تحدث عن الله عند القديس أوغسطين، والأدلة على وجود الله من خلال الحقائق الأزلية، والبديهيات العالمية، والصفات الإلهية المتتالية. ثم ينتقل "كويلستون" من الله إلى العالم والخلق الحر للعالم من العدم والروح والجسد والبذور الأولى والخلود وأصل الروح. وأخيراً يتوقف المؤلف عند الأخلاق والسياسة عند القديس أوغسطين؛ فيتحدث في الفصل السابع عن السعادة، والحرية والواجب، والالتزام والحاجة إلى النعمة ويجعل الفصل الأخير عن السياسة، وعن المدينتين الدولة ومدينة بابل، وينتهي إلى أن الكنيسة أسمى من الدولة.

أما الباب الثاني: فيتحدث فيه المؤلف عن الأسرة الكارولنجية نسبة إلى أسرة من الفرنجة كُتبت لها السيادة في فرنسا وألمانيا، وكان على رأسها شارلمان ومدرسة الأمراء... إلخ. ثم يتحدث عن جونس سكوت إريجين (أويوحنا الإسكتلندي) في فصلين الأول عن حياته وأعماله والثاني عن فلسفته وآرائه في الطبيعة، والله، والخلق والأفكار الإلهية في هذا العالم.. إلخ .

أما الباب الثالث: فيتحدث عن الفلاسفة المسلمين: الفارابي وابن سينا، وابن رشد، ويختمه بالحديث عن دانتي والفلاسفة المسلمين، ويخصص الفصل العشرين عن الفلسفة اليهودية، بينما يجعل الفصل الحادي والعشرين عن الترجمات: الترجمة عن اليونانية والعربية وأثر الترجمات في الفكر الأوروبي الوسيط.

والواقع أن كويلستون يتحدث عن فلاسفة العصر الوسيط بعمق وتفصيل شديد؛ فهو يخصص للقديس بوناغنتورا خمسة فصول تبدأ من حياته وأعماله مارة بفلسفته عن وجود الله وعلاقته بمخلوقاته، وينتهي بالنفس البشرية وخلودها.

وإذا كان يخصص الفصل الثلاثين للقديس ألبرت الكبير، فإنه يخصص أحد عشر فصلاً للقديس توما الإكويني تبدأ من حياته ومؤلفاته، وتنتهي بالمجادلات عن القديس

توما وأرسطو في الفصل الحادي والأربعين. والواقع أن ما كتبه عن القديس توما يُعد كتاباً كاملاً وشاملاً .

وينتهي الكتاب بملحقين: الأول مقتضب عن ألقاب الشرف التي كانت تطلق على فلاسفة العصور الوسطى في هذا المجلد. أما الملحق الثاني فهو موسع يشتمل على مجموعة ضخمة من المراجع العامة أولاً، ثم مجموعة من المراجع الخاصة بكل فصل.

ومع ذلك كله فهذا المجلد ليس سوى القسم الأول من حديث كويلستون عن العصور الوسطى، ويليه المجلد الثالث ليواصل الحديث عن العصور الوسطى أيضاً: "من أوكام حتى سويرز" وهو المجلد الثالث من هذه الموسوعة الكبرى.

بقي أن ننهي هذه المقدمة بكلمة سريعة عن موضوعين:-

الموضوع الأول: هو الحملة العنيفة التي شنّها كويلستون على هيغل ، واتهمه فيها بالجهل بفلسفة العصر الوسيط، وأن هيغل فضلاً عن ذلك يكتب العصر الوسيط من وجهة نظره.

أما الموضوع الثاني: فهو هجومه على الماركسية بغير مبرر، فهو يرى أنها فرضت على من يؤرخ للفلسفة أن يستعرض الخلفية الاجتماعية والسياسة للعصر الذي يتصدى له وتأثير ذلك على الفكر الفلسفي ومساره.

أما أن هيغل كان يجهل فلسفة العصر الوسيط، فقد يكون ذلك صحيحاً فالمعلومات عن العصر الوسيط لم تكن كافية في زمن هيغل وكويلستون نفسه يتحدث عن التغيرات الكبيرة التي طرأت على معلوماتنا عن هذه الفلسفة الوسيطة من خلال أعمال الكتاب المحدثين ابتداء من ١٨٨٠؛ أي بعد وفاة هيغل (عام ١٨٣١) بما يقرب من نصف قرن!.

أما أنه كتب عن العصر الوسيط من وجهة نظره فهذا حقه؛ لأن هيغل فيلسوف ليس مجرد مؤرخ محايد للفلسفة!

أما هجوم كوبلستون على الماركسية، فليس له ما يبرره كما أن الفكرة التي تقول إن المؤثرات الاجتماعية والسياسية والخلفية والاجتماعية للعصر تؤثر في الفلسفة- فقد أخذتها الماركسية عن هيجل الذي يقول في تصديره "فلسفة الحق" إن كلاً منا هو ابن عصره وريبب زمانه، والفلسفة هي عصرها ملخصاً في الفكر^(١) وقد استخدمها برتراندرسل أيضاً في كتابه "تاريخ الفلسفة الغربية وصلته بالظروف السياسية والاجتماعية من أقدم العصور حتى العصر الحاضر" الذي أصدره عام ١٩٤٦ وعلى أية حال فنحن لا نملك سوى الإشادة بهذا الجهد الرائع الذي بذله هذا الفيلسوف واللاهوتي الكبير في تقديم تاريخ شامل للفلسفة الغربية.

والله نسأل أن يهدينا جميعاً سواء السبيل

إمام عبد الفتاح إمام

(١) قارن هيجل: "أصول فلسفة الحق" ترجمة د. إمام عبد الفتاح إمام - دار التنوير بيروت عام - الثانية عام ١٩٨٣ ، ص ٨٨ .

فلسفة العصور الوسطى

الفصل الأول

مدخل

١ - فى هذا الجزء الثانى من مؤلفنا عن تاريخ الفلسفة، كنت أمل فى أن ألتبع تطور الفكر الفلسفى طوال حقبة "العصور الوسطى"، إلى جانب المنظومة الفكرية التى تبلورت فيما بين النهضة الكارولنجية فى أواخر القرن الثامن للميلاد (جون سكوتس إريوجينا أول الفلاسفة المشاهير فى العصور الوسطى ولد حوالى سنة ٨١٠)^(*) وبين نهاية القرن الرابع عشر. وبعد التفكير صرت مقتنعا بأن أكرس جزءين من هذا العمل لفلسفة العصور الوسطى. وقد انتهى الجزء الأول^(١) من هذا العمل بعرض لفلسفة الأفلاطونية الجديدة، خاليا من أخطار الكتاب المسيحيين الأوائل، ولذا فإننى قد أثرت أن أعرض لهذه الأفكار المسيحية المبكرة فى هذا الجزء من العمل حقيقة أن رجلا من أمثال القديس جريجورى من نيسا، والقديس أغسطينوس ينتميان لعصر الإمبراطورية الرومانية، وأنهما كانا من أنصار الأفلاطونية بمعناها الواسع، وبأنه لا يمكن لنا أن نضعهما بين فلاسفة العصور الوسطى، ولكن تبقى حقيقة أنهما كانا مفكرين مسيحيين

(*) جون سكوت إريوجينا (٨١٠-٨٧٧م) - وهو يوحنا الإسكتلندى Johannes Scotus وإضافة كلمة إريوجينا لا تصيف جديداً؛ لأنها تعنى الأيرلندى، ولفظ إسكتلندى كانت تعنى أيرلندى فى القرن التاسع. وهو بالطبع غير دانتزسكوت (١٢٦٦-١٢٠٨) الفيلسوف واللاهوتى الفرنسيسكانى المعروف الذى سيكتب عنه المؤلف عدة فصول فى نهاية الكتاب (المراجع).

(1) A History of philosophy. Vol, I, Greece and Rome, London, 1946

وأصحاب أثر واضح على أهل العصور الوسطى، والحق أنه لا يمكن لنا أن نتفهم فكر القديس أنسلم أو القديس بونا فنتورا دون أن نتعرف أولاً فكر القديس أغسطين كذلك لا يمكن لنا أن ندرك فكر جون سكوت إريوجينا دون تعرف أولاً على أفكار القديس جريجورى من نيسا والمفكر الذى انتحل اسم ديونيسيوس، وعليه ليس هنالك ما يبرر الاعتذار من جانبنا عندما نبدأ تاريخ الفكر الفلسفى الوسيط بالتعرض لمفكرين ينتمون زمنياً لحقبة الإمبراطورية الرومانية.

ومن ثم فهذا الجزء يبدأ بالفقرة المسيحية الباكرا، وصولاً إلى القرن الثالث عشر، مشتملاً المفكر دانز سكوت (حوالى ١٢٦٥-١٣٠٨). وفى الجزء الثالث من هذا العمل هنالك معالجة لفلسفة القرن الرابع عشر، مع وقفة متأنية مع فلسفة وليم أوكام. وسوف يتضمن هذا الجزء معالجة لفلسفة عصر النهضة فى القرنين الخامس عشر والسادس عشر، ثم نخرج على ما عرف باسم "الفكر المدرسى فى العصر الفضى"، رغم أن المفكر فرانسيس سواريز لم يمت إلا سنة ١٦١٧، أى بعد مولد رينيه ديكارت بواحد وعشرين عاماً.

وقد يبدو هذا الترتيب تعسفياً أو مجحفاً للبعض، والحق أنه قد يكون كذلك، ولكن ينبغى ملاحظة أنه من الصعب تماماً أن يرسم خطأً فاصلاً بين فلسفة العصور الوسطى والفلسفة الحديثة، ويتضح ذلك من حقيقة أن الفيلسوف رينية ديكارت يدخل ضمن الفلاسفة المدرسين المتأخرين زمنياً، وذلك على خلاف ما تواتر بين الكتاب. ومع ذلك فإننا لم نبين هذا المتجه من القواصل، وعندما نضمن فى الجزء الثالث بعض الفلاسفة من العصر الحديث، فإننا نعقد التمهيد لمحتويات الجزء الرابع وتوضيح مذاهب الترابط بين المذاهب الفلسفية الرائدة بدءاً من فرانسيس بيكون فى إنجلترا وديكارت فى فرنسا، وصولاً إلى عما نويل كانط ورغم المنهج المتبع فى هذه التقسيمات الزمنية علينا أن نتذكر أن الخطوط الفاصلة فى تاريخ الفلسفة ليست خطوطاً قريبة ملزمة؛ ذلك لأن الانتقال من عصر إلى عصر يتم بطريقة تدريجية، وليس بين عشية وضحاها يلاحظ أيضاً أن هنالك تشابكاً وتداخلاً بين العصور المتتالية زمنياً، ومن ثم لا يمكن فصل هذه العصور أحدها عن الآخر بشكل قاطع.

٢ - فى الماضى كان يُنظر إلى فلسفة العصور الوسطى على أنها ليست جديدة بالدراسة الجادة؛ وذلك ظنا بأن هذه الفلسفة كانت مجرد تابعة لللاهوت ولا يمكن التمييز بين الاثنين، وبأنها فى أحسن الحالات تتسم بالعقم والتلاعب بالألفاظ. وبمعنى آخر كان من المسلم به أن الفلسفة الأوروبية تقتصر على حقيقتين أساسيتين هما الحقبة الكلاسيكية القديمة التى شهدت فلسفة أفلاطون وأرسطو، ثم الحقبة الحديثة التى ساد فيها سلطان العقل، بعد زوال هيمنة الكنيسة، وإنقشاع عصور الظلام وقيودها، وعندما أجبرت السلطات الدينية على أن تكتفى بعالم اللاهوت ومفرداته، إلى أن جاء ديكارت وراح يحطم القيود ويعطى العقل مكانته وحرية. ويمكن تشبيه هاتين الحقيقتين القديمة والحديثة بالرجل الحر، فى حين أن حقبة العصور الوسطى كانت أشبه ما يكون بحال العبيد.

والواقع أنه كان يُنظر إلى فلسفة العصور الوسطى بنفس النظرة المتدنية التى وصمت بها تلك العصور بشكل عام؛ ويتضح ذلك من اللغة المستخدمة فى وصف المفكرين المدرسين من جانب فرانسيس بيكون وريتبه ديكارت على سبيل المثال، وكما هى الحال مع أتباع فلسفة أرسطو فى تقييمهم للأفلاطونية من خلال المنظور الأرسطى النقدى، كذلك كانت الحال عند بيكون وديكارت اللذين راحا يهاجمان الفلاسفة المدرسين، مع أن هذا الموقف يتجنى على العديد من المفكرين العظماء الذين لا تنطبق عليهم وصمة "المدرسين المنحطيين"؛ الذين افتتقوا باللفظ على حساب المعنى أو بالمظهر على حساب الجوهر. وهذه النظرة المتعالية هى التى جعلت المؤرخين يعزفون عن أفكار هؤلاء الفلاسفة، وراحوا يهاجمونها دون أن يطلعوا على محتواها، ثم وصفوها بأنها مجرد تلاعب جاف بالألفاظ وتبعية متدنية لللاهوت، وقد فات على هؤلاء أن يدركوا مثلاً أنه مثلما كان فلاسفة العصور الوسطى يعتمدون أساساً على اللاهوت، فكذلك كان الفلاسفة المحدثون يعتمدون أيضاً على عوامل أخرى خارجية، وإن كانت بعيدة عن اللاهوتيات ولم يدرك هؤلاء المؤرخون أن مفكراً مثل دانتز سكوت يستحق أن يُنظر إليه كفيلسوف بريطانى عظيم لا يقل شأننا عن جون لوك نفسه. وعندما يمتدح هؤلاء المؤرخون أفكار ديفيد هيوم مثلاً، فإنهم ليسوا على دراية بأن نفرا من

مفكرى العصور الوسطى المتأخرة قد سبقوا هذا الفيلسوف الإسكتلندى فى العديد من أفكاره.

وسوف نعرض هنا لمثال واحد ليبيّن لنا موقف واحد من عمالقة الفلسفة الحديثة ألا وهو جورج فلهلم فردرش هيجل: لقد كان حرياً بالفيلسوف الكبير فى طرحه الجدلى لتاريخ الفلسفة أن يعطى فلسفة العصور الوسطى حقها فى مساحة الفكر الفلسفى، دون أن يتخذ موقفاً معادياً لهذه الفلسفة الوسطية. ومع أنه سيعترف بفضل فلسفة العصور الوسطى فى جانب واحد ألا وهو التعبير عن "المحتوى المطلق" للمسيحية فى مصطلح فلسفى، إلا أنه فى نفس الوقت يصر على أن هذا كان مجرد تكرار سطحي أو ظاهري لمحتوى اللاهوت فى قضية الإيمان؛ حيث يصور الإله كقوة خارجية وكان الإيمان بالنسبة لهيجل ضرباً من الوعى الدينى لا يرقى بحال إلى مصاف الفكر الفلسفى والعقل الخالص، ومن ثم فإن فلسفة العصور الوسطى- عند هيجل- كانت مجرد فلسفة بالاسم فقط، وليس بالجوهر، وعليه فإن هيجل يعلن أن الفلسفة المدرسية لم تكن أكثر من ترديد للاهوت، ويقصد هيجل بذلك أن ما يسمى بالفلسفة الوسيطة قد عاجلت قضية الألوهية من منطلق لاهوتى (من ذلك على سبيل المثال: العلاقة بين الله والعالم فى قصة الخلق) بعيداً عن التفكير العقلانى العلمى الفلسفى. وعلى ذلك فإن فلسفة العصور الوسطى كانت فلسفة بالاسم فقط، ولكنها لاهوتية فى جوهرها، ومن ثم يصبح تاريخ الفلسفة الوسيطة تاريخاً يبعث على الملل لا أثر فيه لتقديم فكرى يذكر.

لقد جاءت آراء هيجل عن فلسفة العصور الوسطى انطلاقاً من مذهبه الخاص، ومن رؤيته عن الصلة بين الدين والفلسفة، وبين الإيمان والعقل والمباشرة بالتوسط، وهذه جميعاً قضايا لا يمكن لنا مناقشتها فى هذا الجزء على أننا نود أن نوضح هنا أن معالجة هيجل لفلسفة العصور الوسطى تنم عن جهل حقيقى لمسار هذه الفلسفة. والحقيقة التى لا شك فيها أن هيجل لم يكن يملك المعرفة الكافية عند تعرضه لهذه الفلسفة. وكيف يتأتى لنا- على سبيل المثال- أن نعزو معرفة حقيقية لكاتب يضع روجر بيكون تحت مظلة "الزهاد"، الذى انشغل بالفيزياء، ويأثّر فى جميع الأحوال لم يكن

صاحب تأثير فكري يذكر؟ إن كل ما يحسب لبيكون عند أتباع هيجل هو أنه اخترع البارود والمرايا والتلكسويات (توفى بيكون سنة ١٢٩٧م) وواقع الأمر أن هيجل في أحكامه هذه كان يعتمد على كتاب من أمثال تنميان وبركر (Tenneman & Brucker) للحصول على معلومات عن فلسفة العصور الوسطى، في حين أن الدراسات القيمة المبكرة عن هذه الفلسفة لم تظهر إلا في منتصف القرن التاسع عشر.

إننا في عرضنا لموقف هيجل من فلسفة العصور الوسطى لا نقصد بحال أن نسيء إليه، وإنما نحن نحاول إبراز التغير الكبير الذي طرأ على معلوماتنا عن هذه الفلسفة الوسيطة من خلال أعمال الكتاب المحدثين بداية من سنة ١٨٨٠ تقريبا وفي حين أنه في الإمكان التماس الأعذار لفكر مثل هيجل لعدم إلمامه الكامل بالقضية، إلا أننا لا نجد مبررا يشفع لمواقف الكثيرين من المحدثين تجاه هذه الفلسفة خاصة بعد ظهور أعمال علماء كبار من أمثال "بومكر"، "إهرلي" و "جرايمان"، "ودي ولف"، "ويلستر"، "جاير"، و "ماندوينت"، "بلزر"... إلخ؛ ناهيك عن الأخطاء التي أقيت على هذه الفلسفة من خلال نشر النصوص وتحقيقها على يد آباء كواركي الفرنسيين (١٠). وبعد ظهور سلسلة بيتراج، وبعد نشر أعمال تاريخية مثل مؤلفات موريس دي ولف، وإتين جليسون، والأعمال التي قدمتها أكاديمية العصور الوسطى الأمريكية. من كل هذا وذاك لا يمكن أن ننظر إلى فلسفة العصور الوسطى على أنها تقتصر إلى الثراء أو التنوع، أو أنها كانت من نمط واحد متدن. هذا ولقد نجحت مؤلفات كتاب من أمثال جليسون في إظهار حلقات التواصل بين فلسفة العصور الوسطى والفلسفة الحديثة؛ فلقد أوضح جليسون أن فلسفة ديكرت كانت تقوم على الفكر الوسيط أكثر مما كان يظن قبل ذلك. ولا زال الطريق طويلا لتحقيق وتفسير نصوص العصور الوسطى (ويكفي هنا الإشارة إلى شروح وليم الأوكامي لكتاب الأحكام). ولقد أصبح في الإمكان الآن، أن نرصد تطور فلسفة العصور الوسطى من خلال النصوص والنماذج العديدة، وذلك في نظرة أكثر شمولية ورحابة في الأفق.

(١٠) Franciscan Quaracchi.

٢ - لو أننا سلّمنا بأن فلسفة العصور الوسطى كانت أكثر ثراءً وتنوعاً عما كان يظن في السابق، أليس صحيحاً أن نقول إن هذه الفلسفة كانت وثيقة الصلة باللاهوت إلى حد لا يمكن معه التمييز بينهما عملياً؟ أيضاً أليس صحيحاً أن الغالبية العظمى من فلاسفة العصور الوسطى كانوا من الكهنة، واللاهوتيين الذين راحوا يدرسون الفلسفة من منطلق لاهوتي أو كمدافعين عن العقيدة في المقام الأول؟.

من المهم أولاً أن نؤكد على أن الصلة بين اللاهوت والفلسفة كانت قضية تشغل فكر العصور الوسطى، كما أن العديد من المفكرين قد اتخذوا مواقف متباينة حول هذه الصلة. لقد انصبّت جهود المفكرين في أول الأمر على محاولة تفهم الوحي الإلهي، بقدر ما يتاح للعقل البشري من فهم، وذلك تحت شعار "أومن أولاً لكى أتفهم" (-credo ut intelligam) مطبقين الجدل العقلي على أسرار الإيمان في محاولة لفهم الاثنين. وبهذا المنهج وضع هؤلاء المفكرون قواعد اللاهوت المدرسي؟ وهذا التأمل من صلب اللاهوت، وليس من الفلسفة، على أن بعض المفكرين، وهم يحاولون التعمق في هذه الأسرار اللاهوتية، يبدون لأول وهلة كعقلانيين؟ أشبه ما يكونون بهيجل قبل ظهوره بأمد طويل على أنه لا يمكن بحال النظر إلى هؤلاء كعقلانيين بالمعنى الحديث للمصطلح؛ فعندما حاول القديس أنسلم - على سبيل المثال - أو ريتشارد من سان فكتور البرهنة على سر الثالوث المقدس من خلال "العلية الضرورية" فإنهما لم يكونا يقصدان بحال الانتقاص من صلب العقيدة أو المساس بكمال الوحي الإلهي (وسوف نعود إلى هذه النقطة في موضع لاحق) إلى هذا الحد كان هذان المفكران يعملان تحت مظلة اللاهوت، ولم يحاولا وضع حدود فاصلة بين عالمي الفلسفة واللاهوت. ولكنهما في نفس الوقت قد طرقا قضايا فلسفية وخرجا بحجج فلسفية أيضاً.

لقد كان القديس أنسلم واحداً من أبرز المؤسسين لللاهوت المدرسي، ولكنه في نفس الوقت قد قدم الشيء الكثير للفلسفة المدرسية، وذلك - على سبيل المثال - من خلال البراهين العقلانية التي ساقها عن وجود الله. وليس من الإنصاف في شيء أن نصف أبيلارد كفيلسوف، في حين أننا ننظر إلى القديس أنسلم كمجرد رجل لاهوت.

وفى القرن الثالث عشر أقدم القديس توما الإكوينى على رسم حدود بين اللاهوت القائم على الوحي الإلهى، وبين الفلسفة (متضمنة بطبيعة الحال ما نطلق عليه اللاهوت الطبيعى) التى تقوم على العقلانية دون لجوء إلى الوحي الإلهى. وفى نفس القرن وضع القديس بوناغنتورا وجهة نظره "التكاملية" من منظور أوغسطينى، ولكن هذا العالم الفرنسيكانى كان يعتقد أن معرفة الله من خلال مساق فلسفى أمر شبه مستحيل ومنقوص، إلا أنه فى نفس الوقت كان مدركا أن هناك حقائق فلسفية يمكن إقامة الحجة عليها من خلال العقل فقط. لقد تمثل الخلاف بين بوناغنتورا وبين القديس توما الإكوينى على الوجه التالى: كان القديس توما يعتقد بإمكانية وضع مذهب فلسفى مقنع فى محاولة لفهم الذات الإلهية، وهو وإن كان مذهباً غير مكتمل إلا أنه ليس زائفاً. أما بوناغنتورا فكان يعتقد أن عدم اكتمال البرهان يعنى البطلان، فحتى لو سلمنا بإمكانية وجود فلسفة طبيعية دون اللجوء إلى اللاهوت، إلا أن هذا لا يعنى إمكانية وجود ميتافيزيقا حقيقية؛ فلو أن أحد الفلاسفة يبرهن بالعقل على وحدة الله دون أن يؤمن بوجود الأقاتيم الثلاثة فى الإله الواحد، فإنه بذلك يعزى إلى الله وحدة ليست بحال هى الوحدة الإلهية من منطلق الإيمان المسيحى.

من ناحية أخرى كان القديس توما جادا تماما عندما أعطى للفلسفة "ميثاقها" الذى تستحقه. إن من ينظر إلى أقوال القديس توما نظرة سطحية يخيل إليه أن هذا المعلم عندما ميز بين النوعا اللاهوتية وبين الفلسفة إنما كان يضع فاصلا صوريا بين المساقين، لم يكن هو شخصا يؤمن به أو يطبقه، ولكن هذا الانطباع غير صحيح، كما يتضح من المثال التالى: كان القديس توما يؤمن بأن الوحي يعلمنا قصة خلق العالم فى زمن معين؛ يعنى أن العالم ليس له صفة الأبدية لا يمكنه البرهنة على أبدية العالم ولا على خلق هذا العالم فى زمن معين، وإن كان بإمكانه التذليل على مقدرة الله فى خلقه. ومن هنا كان الخلاف بينه وبين بوناغنتورا؛ لأنه كان يقر بمحدودية كل من الفلسفة واللاهوت فى فهم قصة الخلق هذه.

من ناحية ثالثة، لو جاز لنا أن نقول بأن فلسفة العصور الوسطى لم تكن تختلف عن اللاهوت، فلنا أن نتوقع من المفكرين من أصحاب الإيمان الواحد أن يتقبلوا فلسفة واحدة مع وجود بعض الخلاف في الجدل حول الوحي الإلهي، ولكن الأمر لم يكن كذلك: فالقديس بوناغنتورا، والقديس توما الإكويني، ودانزسكوت، وجايلز الروماني، وكذلك، وإليم الأوكامي كانوا جميعاً يقررون إيماناً واحداً، ولكن مقارنة كل من هؤلاء من خلال الأطر الفلسفية كانت تختلف وأحدثها عن الأخرى في أكثر من موقف. وسواء أكانت فلسفاتهم متساوية مع مقتضيات اللاهوت أم لم تكن، فهذه قضية أخرى (كانت فلسفة وإليم الأوكامي في أكثر من موضع غير متسقة مع هذه المقتضيات) المهم أن هؤلاء المفكرين جميعاً، من كان منهم متسقاً مع أطر اللاهوت القويم أو لم يكن، إلا أنهم قد عاشوا جنباً إلى جنب رغم اختلاف أفكارهم.

في مقدور المؤرخ أن يتتبع خطوط تطور وتنوع الفلسفة في العصور الوسطى، ولهذا لا بد من إقرار حقيقة وجود فلسفة خاصة بهذه العصور، وبدون ذلك لن يكون هناك تاريخ لهذه العصور.

في هذا السياق يتحتم علينا أن نبحث عن الصلة بين الفلسفة واللاهوت، وعلينا أيضاً أن نعترف - انطلاقاً من الخلفية العامة للعقيدة المسيحية - بأن مفكرى العصور قد اضطلعوا بالتأمل في هذا الكون من منطلق ديني مشترك فيما بينهم. سواء أكان هذا المفكر أو ذاك يفصل بين عالم اللاهوت وعالم الفلسفة أو لا يفصل، إلا أنه في نفس الوقت كان ينظر إلى هذا الكون من منطلق إيمانه المسيحي الذي لا فكاك منه، وقد يتجرد هذا المفكر أو ذاك من فكرة الوحي، ولكن هذا لا يعنى بحال الفكاك من خلفيته المسيحية وإيمانه الكامن في عقله، على أن هذا لا يعنى أن الحجج الفلسفية والبراهين العقلية عند هؤلاء تختلف عن العقلانية بمفهومنا الحديث. ولذا فإنه يتوجب علينا أن نتناول كل قضية أو برهان على عواهنها، بما لها وما يحلها، وألا ننعثها دون تنكر بأنها مجرد لاهوت في عباءة فلسفية، لأن صاحبها كان في الأساس مسيحياً.

٤ - أما وقد تبين لنا وجود فلسفة خاصة بالعصور الوسطى، رغم أن الغالبية العظمى من فلاسفة تلك العصور كانوا مسيحيين، وفي نفس الوقت من علماء اللاهوت،

فإننا نود في النهاية أن نوضح الهدف من هذا العمل، وأيضا طريقة معالجتنا لمختلف القضايا المطروحة .

ليس في نيتنا أن نعرج على كل الآراء لجميع فلاسفة العصور الوسطى، وبعبارة أخرى فالجزءان الثاني والثالث من هذا الكتاب ليسا بدائرة معارف حول الفلسفة في العصر الوسيط ومن جانب آخر نحن لا نقصد تقديم مجرد مسح عام ومختصر عن هذه الفلسفة، لقد حاولنا تتبع تطور الفلسفة في تلك العصور، مع إغفال لبعض الأسماء، بهدف التركيز على المفكرين الذين أثروا على الفكر الفلسفي وتطوره، وقد حظى بعض هؤلاء المفكرين بنصيب أوفر من المساحة؛ وذلك لمناقشة آرائهم بشيء من الإسهاب للخروج برؤية واضحة عن ثراء وتنوع الفكر الوسيط. وهذه المهمة ليست بالأمر الهين، ولكنها تستحق كل هذا الجهد من جانبنا ، وعليه فإنني لم أتردد في الإطالة مع فلسفة كل من القديس نونافنتورا، والقديس توما الإكويني، ودانزسكوت وأوكام، وذلك لتتبع التطور الذي مرت به فلسفة العصور الوسطى قبالة درجة النضج، ثم التدهور الذي حل بها في آخر المطاف.

وفي ضوء الحديث عن "التدهور" فلربما يذهب البعض إلى أنني أتحدث كفيلسوف وليس كمؤرخ. وهذا أمر حقيقي؛ لأنه إذا كان على المرء أن يتقفى نمطا معقولا في فلسفة العصور الوسطى، فلا بد إذن أن يكون لديه مبدأ في الانتقاء، وهذا نهج أميل إلى الفلسفة منه إلى التاريخ. إن مصطلح "التدهور" ينطوي على مذاق قيمي، وعليه فإن استخدام هذا المصطلح قد يبدو للبعض تجاوزا للساحة المشروعة للمؤرخ، ولربما كان الأمر كذلك بمعنى أو بآخر، ولكن هذه الرؤية لا تنطبق على مؤرخ الفلسفة بأية حال؛ لأنها تضيق المجال على الكاتب إلى حد كبير. ولا يمكن بحال لكاتب من أتباع هيجل، أو ماركس، أو من أتباع المدرسة الوضعية، أو من أتباع كانط، لا يمكن لهذا أو ذاك أن يسجل تاريخا دون أن تكون له رؤية فلسفية فلماذا إذن يدان كاتب من أتباع القديس توما الإكويني عند تعريجه على رؤيته الفلسفية الذاتية؟ وفي يقيننا أنه بدون أرضية فلسفية يصبح تاريخ الفلسفة غامضا أو مجرد خيوط متراصة لا رابط بينها!

عندما نتحدث عن "التدهور" فإننا نعنى مدلول هذا المصطلح تماما؛ ذلك لأننى أرى فى فلسفة العصور الوسطى مراحل ثلاث: الأولى هى المرحلة التمهيدية وصولا إلى القرن الثانى عشر، ثم تليها مرحلة البناء التركيبى فى القرن الثالث عشر، وأخيراً فى القرن الرابع عشر تأتى مرحلة النقد الهدام. والتدهور ثم الأفول على أننى من جانب آخر إن أتردد فى الاعتراف بأن المرحلة الأخيرة كانت أمراً حتمياً ومفيداً فى نفس الوقت؛ لأنها قد حركت الفلاسفة المدرسين لكى يطوروا مبادئهم ويقيموها على أسس متينة قادرة على مواجهة الانتقادات الموجهة إليهم، وأيضاً لكى يستخدموا ما استمدت من أفكار تعود عليهم بالنفع. لقد كانت حقبة السفسطائيين فى الفلسفة اليونانية القديمة (مصطلح سفسطائى بالمعنى الذى وضعه أفلاطون) تثير أسئلة فرضت نفسها على الفلسفة اليونانية، ومع مرور الوقت رأى البعض فيها بعض النتائج الإيجابية. ولا يمكن لأحد ممن يقدرون فكر أفلاطون وأرسطو أن ينظر إلى نشاط السفسطائيين على أنه كان بمثابة الكارثة على مسار الفلسفة اليونانية.

تتمثل الخطة العامة لهذا الجزء والجزء التالى فى عرض للحقب الرئيسية ولخطوط التطور فى فلسفة العصور الوسطى ففى البداية نتصدى لمعالجة فكر أباء الكنيسة الذين أثروا على العصور الوسطى؛ من أمثال بوؤثيوس، والكاتب الذى انتحل اسم ديونسيوس، وفوق هذا وذاك القديس أوغسطين من هيبو. وبعد هذا الجزء التمهيدى من المجلد الأول، نمضى إلى الفكر الوسيط، والنهضة الكارولنجية، وإقامة المدارس، والجدل حول المفاهيم الكونية، وقيام الجدل، ثم أعمال القديس أنسلم فى القرن الحادى عشر، ثم مدارس القرن الثانى عشر خاصة مدارس شارتر وسان فكتور ويعقب ذلك وقفة مع كل من الفلسفة العربية والفلسفة اليهودية، وبيان تأثيرهما كقنوات لتوصيل الفكر الأرسطى الصحيح وشروحه إلى الغرب المسيحى. أما المرحلة الثانية فهى حقبة القرن الثالث عشر، عندما ازدهرت فلسفات كل من القديس بوناڤنتورا، والقديس توما الإكوينى، ودانزسكوت على وجه الخصوص. وتأتى المرحلة التالية فى القرن الرابع عشر الذى شهد النقد الهدام لمدرسة أوكام بمعناها الواسع. وأخيراً قدمنا معالجة للفكر السائد فى فترة الانتقال من فلسفة العصور الوسطى إلى الفلسفة الحديثة، تمهيدا لتفهم أوضح لهذه الفلسفة الأخيرة، وذلك فى الجزء الرابع من هذا العمل.

وختاماً هنالك نقطتان تستحقان الذكر: الأولى هي أنه ليس من مهام مؤرخ الفلاسفة أن يقدم أفكاره الخاصة به، أو أفكار غيره من المحدثين، لتصبح بديلاً لأفكار القدامى، وكان هؤلاء القدامى لم يكونوا على وعى بفجوى ما يقولون؛ فعندما تحدث أفلاطون عن تفاصيل "الذكريات الماضية" لم يكن بحال يبشر بالنراء التي توصل إليها عما نويل كانط، ومع أن القديس أغسطينوس قد سبق ديكرت بقوله "عندما أشك أشعر بوجودي"، فإن هذا لا يدعونا إلى أن نجبر فكر أغسطينوس لنضعه في قالب ديكرتي من جانب آخر يلاحظ أن بعض المشكلات التي أثارها الفلاسفة المحدثون قد أثّرت أيضاً على يد مفكرى العصور الوسطى، وإن كانت في أوضاع مختلفة، وإذا فإنه من المشروع أن ننهب إلى التوافق هنا وهناك بين بعض التساؤلات والإجابات في مختلف العصور كذلك من الطبيعي أن نشير إلى بعض المشكلات التي صادفت فلاسفة العصور الوسطى التي تشبه المشكلات التي واجهت الفلاسفة المحدثين.

ومع أنني تجنبت الإشارات المتعددة لمراجع الفلسفة الحديثة، فقد سمحت لنفسى أن أعقد بعض المقارنات مع فلاسفة لاحقين، أملاً في إمكانية وضع مذهب لفلسفة العصر الوسيط، لتعين من يتصدى لدراسة الفكر المعاصر. وفي هذا وذاك أخذت على عاتقي عدم الاستغراق في تلك المناقشات والمقارنات، ليس فقط من باب الحرص على مساحة الكتابة، ولكن أيضاً من أجل الاتساق التاريخي.

النقطة الثانية هي أن الماركسية قد أثّرت على عقول الكثيرين من الكتاب؛ حيث فرضت على من يؤرخ للفلسفة أن يستعرض الخليفة الاجتماعية والسياسية للعصر الذي يتصدى له، وأثر ذلك على الفكر الفلسفي ومساره، ولكننا قد أثّرنا رغم ذلك أن نركز على الفلسفة في ذاتها، وليس على المحيط الاجتماعي والسياسي؛ ذلك لأنه من السخف أن نفترض أن جميع الفلاسفة قد تأثرت بالمحيط الاجتماعي والسياسي. حقيقة أن فهم المحيط السياسي الذي يعيش فيه الفيلسوف أمر مرغوب فيه، ولكن عندما نتصدى - مثلاً - لمبادئ القديس توما الإكويني حول الجوهر والوجود، أو لنظرية سكوت عن ماهية الوجود، ليس ثمة حاجة على الإطلاق للتعرج على مراجع في

السياسة أو الاقتصاد، فلقد تأثر أفلاطون بتقدم علوم الرياضيات، كما تأثرت فلسفة العصور الوسطى باللاهوت، كما تأثر ديكارت بالفيزياء، وتأثر برجسون بعلم الأحياء وهلم جرا، ولكن لابد لنا وأن نعتزف فى هذا المقام بأن العلوم الأخرى تتأثر بالفعل بالعوامل الاقتصادية، وهنا تصدق نظرية ماركس الفلسفية.

جدير بالذكر أيضا أنه إلى جانب محدودية مساحة هذا العمل التى لم تتح لى فرصة الخوض كثيرا فى القضايا السياسية والاجتماعية والاقتصادية بصدد الحديث عن فلسفة العصور الوسطى، فإننى قد تعمدت إغفال ما يقال عن تفسير البنية الفوقية الإيديولوجية من خلال تفهم الخلفية الاقتصادية. إن هذا الكتاب هو كتاب لتاريخ الفلسفة فى حقبة محددة هى العصور الوسطى، فهو ليس كتابا فى التاريخ السياسى أو التاريخ الاقتصادى للعصور الوسطى الأوروبية.

الباب الأول

المؤثرات الفكرية السابقة
للعصور الوسطى

الفصل الثانى

عصر الآباء

المسيحية والفلسفة اليونانية- اليونان المدافعون عن العقيدة (أرستيدس، القديس جوستين الشهيد، تاتيان، أثناغوراس، ثيوفيلوس)- الفنوصية والكتاب المناهضون لها (القديس إيريناؤس، هيبوليتوس)- المدافعون اللاتين عن العقيدة (مينوكيوس، فيلكس، ترتوليان، أرنوبيوس، لاكتانتيوس)- مدرسة الإسكندرية للتعليم الشفهى لمبادئ العقيدة (كلمنت، أوريجين)- الآباء اليونانيون (القديس باسل، يوسبيوس، القديس جريجورى من نيسا)- الآباء اللاتين (القديس أمبروز)- القديس يوحنا الدمشقى - الخلاصة.

١ - ظهرت المسيحية فى العالم كعقيدة موحى بها؛ فلقد بشر بها المسيح كعقيدة للفداء والخلاص والمحبة، وليست كمذهب مجرد أو نظرية. ولقد أرسل المسيح تلاميذه للبشارة، وليس لشغل الكراسى الأكاديمية مثلما يفعل أساتذة الجامعات على سبيل المثال. ومن هنا فإن المسيحية كانت بمثابة "الطريق" إلى معرفة الله على أرض الواقع المعيش^(١)، ولم تكن أبداً نظرية فلسفية تُضاف إلى قائمة مدارس الفلسفة الكلاسيكية. وكانت مهمة رسل المسيح أو تلاميذه وخلفائهم منصبة على تحويل العالم من الوثنية إلى العقيدة الجديدة، ولم يكن مهمهم استنباط نظرية فلسفية جديدة. ولما كان هؤلاء الرسل يبشرون برسالتهم بين اليهود، فإن الهجوم الذى قوّلوا به كان هجوماً لاهوتياً.

(١) إشارة إلى قول السيد المسيح "أنا هو الباب" إنجيل يوحنا الإصحاح العاشر: ٩ (المراجع).

أما بالنسبة لغير اليهود، فإننا نعلم من واقع موعظة القديس بولس في أثينا أن المواجهة هنا كانت مع الفلاسفة اليونان بالمعنى الأكاديمي.

على أنه عندما ثبتت المسيحية أقدامها وأخذت في الانتشار، فإنها أثارت الشكوك والعداوة، ليس فقط في نفوس اليهود والسلطات السياسية المسئولة آنذاك، وإنما أيضا لدى جموع المثقفين والكتاب الوثنيين. وكان الهجوم على المسيحية يرجع من جانب إلى جهل بالدين الجديد، أو الارتياب عن غير دراية، أو الخوف من هذا "المجهول الجديد"، أو بسبب الصورة الخاطئة التي رسمها البعض لهذه العقيدة. ومن جانب آخر جاء الهجوم على أسس نظرية تستند إلى قواعد الفلسفى أو المستوى اللاهوتى. وعلى هذا فإن كُتّاب آباء الكنيسة الأول من المدافعين عن العقيدة قد تضمنت عناصر فلسفية، ولكن هذا لا يعنى أن هذه الكتابات قد شكّلت مذهباً فلسفياً بعبئته؛ حيث إن اهتمام هؤلاء الآباء كان منصبا بالدرجة الأولى على الأمور اللاهوتية دفاعاً عن العقيدة. على أنه عندما أصبحت المسيحية تقف على أرض صلبة، وشاعت تعاليمها بين الناس، وصار في مقدور الكُتّاب المسيحيين أن يطوروا من فكرهم وعلمهم، أخذ البُعد الفلسفى يظهر بوضوح فى هذه الكتابات، خاصة فى مواقف المواجهة مع الفلاسفة الوثنيين المتضلعين فى الفلسفة.

أقد كان للموقف الدفاعى لآباء الكنيسة أثاره على تطور الفلسفة المسيحية، ويرجع هذا إلى سببين: الأول، وهو لا يتصل بالعقيدة، فقد تمثل فى الموقف العدائى الذى قوبلت به العقيدة الجديدة، والثانى، وهو يتصل بالعقيدة نفسها، ذلك أنه كلما ازدادت رغبة المثقفين المسيحيين فى التعمق فى العقيدة بقدر ما كانت تسمح الظروف، فإنهم قد تبحروا فى محتوى الخطاب الدينى لكى يكونوا رؤية شاملة عن العالم والحياة الدنيا على ضوء هذه العقيدة. وهذا العامل الأخير قد بدأ يفعل فعله لدى الآباء فى أواخر القرن الأول الميلادى، وقد وصل ذروته فى فكر القديس أغسطينوس، وأما السبب الأول وهو التبحر فى أمور العقيدة، فهو إرهابية للموقف القائل: إنى أؤمن لكى أتفهم، وهو مبدأ كان قائماً عند الآباء منذ البداية. ورغبة من هؤلاء الآباء فى التفهم والاستيعاب من ناحية، وفى تحديد معالم العقيدة فى مواجهة الهرطقات من ناحية أخرى، فإن المحتوى

الأصلي للرسالة السماوية أصبح أكثر وضوحاً ونماءً، بمعنى أن المفاهيم التي وردت بشكل ضمنى أصبحت الآن واضحة جلية ويمكن الإفصاح عنها وعن محتواها. فمنذ البداية- على سبيل المثال- قبل المسيحيون فكرة لاهوت وناسوت المسيح، ولكن المعانى التى تنطوى عليها هذه الفكرة لم تتبلور إلا بمرور الوقت، بعد أن صيغت فى مفاهيم محددة، من قبيل اكتمال الناسوت فى شخص المسيح يعنى أنه كان يملك إرادة بشرية. وهذه المفاهيم كانت بطبيعة الحال مفاهيم لاهوتية، كما أن التقدم من المعانى المتضمنة إلى معانٍ مفصح عنها يمثل خطوة إلى الأمام فى العلوم اللاهوتية. وهذه المسيرة قد تضمنت استخدام مفاهيم ومقولات اقتبسها آباء الكنيسة من الفلسفة يضاف إلى ذلك أنه لما لم يكن لدى المسيحيين فلسفة خاصة بهم (وذلك بالمعنى الأكاديمي لمصطلح الفلسفة)، فإنه كان من الطبيعي أن يلتفت هؤلاء الآباء إلى الفلسفات السائدة آنذاك، التى كانت من بطون الأفلاطونية المحملة برواقد أخرى كثيرة. وبصفة عامة يمكن القول بأن الأفكار الفلسفية للكتاب المسيحيين المبكرين كانت أفلاطونية أو أفلاطونية محدثة فى نزعتها (مع جرعة من الفلسفة الرواقية)، وأن التراث الأفلاطونى قد ظل يهيمن على الفكر المسيحى، ومع ذلك فلا بد لنا أن نتذكر أن الكتاب المسيحيين لم يكونوا يفرقون بشكل قاطع بين اللاهوت والفلسفة؛ ذلك أنهم وهم يسعون إلى تقديم الحكمة أو "الفلسفة" المسيحية بمعناها الواسع، التى كانت فى الأصل لاهوتية الطابع، قد ضمنتها أبعاداً فلسفية بالمعنى الدقيق للكلمة. ولذا فإن مهمة مؤرخ الفلسفة هى أن ينحى هذه التدخلات الفلسفية جانباً ليتفحصها، ولا يمكن بطبيعة الحال أن نتوقع منه أن يقدم صورة كاملة للفكر المسيحى المبكر، لسبب بسيط وهو أنه- من الناحية النظرية- ليس مؤرخاً للاهوت الدوجماتيقي أو لشروحه وتأويلاته.

ولما كان الفلاسفة الوثنيون يصبون هجومهم على الكنيسة ومعتقداتها من ناحية، فى حين كان المدافعون المسيحيون واللاهوتيون يلجأون إلى اقتباس أسلحة خصومهم للرد عليهم من ناحية أخرى، فإن هذا المناخ قد جعل الكتاب المسيحيين يتأرجحون فى موقفهم من الفلسفة القديمة؛ فهم تارة يرون فيها عدواً ومنافساً للمسيحية، وأخرى يلجأون إلى ساحتها وأسلحتها للرد على خصومهم، بل إن البعض من هؤلاء الكتاب قد

رأوا في الفلسفة القديمة إرهاباً من العناية الإلهية لتمهد الطريق لظهور البشارة المسيحية. وهكذا فإنه في حين أن كاتباً مثل ترتوليان يرى في الفلسفة سقط متاع هذه الدنيا الفانية، نجد كلمنت الإسكندري ينظر إلى الفلسفة على أنها هبة من الله أو وسيلة تهذيبية لإعداد العالم لتقبل رسالة المسيح؛ مثلاً كان الناموس بالنسبة لليهود وسيلة للتعليم والتهديب. وكان كلمنت يعتقد - مثلاً كان يعتقد جنستين من قبله - أن أفلاطون قد اقتبس حكمته من موسى والأنبياء الآخرين (وهذا ما كان يذهب إليه الكاتب اليهودي فيلون من قديم)، ومثلاً حاول فيلون مصالحة الفلسفة اليونانية مع العهد القديم، كذلك حاول كلمنت مصالحة الفلسفة اليونانية أيضاً مع العقيدة المسيحية، وهذا أيضاً ما نجده عند القديس أغسطينوس نفسه في اعترافاته الكثير من الأفكار الأفلاطونية المحدثّة عندما عرض وجهة النظر المسيحية.

٢ - وبالنسبة للمجموعة الأولى من الكتاب المسيحيين الذين ضمنوا كتاباتهم بعض الأفكار الفلسفية، يمكننا أن نحصر منهم المدافعين الأول الذين تصدوا للدفاع عن العقيدة المسيحية ضد هجوم الوثنيين عليها (أو بالأحرى لمخاطبة السلطات الإمبراطورية أن للمسيحية الحق في التواجد على الساحة) - ومن بين هؤلاء الكتاب: أرسطيدس، وجستين، وميليتو، وتاتيان، وأثناغوراس، وثاوفيلوس من أنطاكية. وفي محاولتنا لتقديم صورة مختصرة لفكر أو فلسفة هؤلاء الآباء الكنسيين، فإننا إنما نهدف بالدرجة الأولى إلى رسم خلفية موجزة للفكرة الأساسية لهذا الكتاب، ومن ثم فإننا سوف نمر على هؤلاء الكتاب مرور الكرام، وذلك بقدر إبراز هوية العناصر الفلسفية التي وردت ضمن كتاباتهم:

(أ) مارقيانوس أرسطيدس: وهو الملقب بلقب "فيلسوف من أثينا"، وقد كتب دفاعاً عن المسيحية يؤرخ بسنة ١٤٠م على وجه التقريب، وموجه إلى الإمبراطور أنطونينوس بيوس^(١).

وينصب جزء وأخر من هذا العمل على الهجوم على الآلهة الوثنية اليونانية والمصرية، مع انتقاد لاذع لأخلاق اليونان. ويعلن أرسطيديس في بداية دفاعه أنه "في غاية الدهشة والعجب من نظام هذا العالم"، رغم إدراكه أن "العالم وكل ما يدب عليه وفيه من حركة، إنما يتحرك بفعل محرك آخر، وبأن ما يحرك هو بالضرورة أقوى من ذاك الذى يدفع للحركة"، مختتماً بأن "محرك العالم هو رب الكل، الذى خلق كل شيء من أجل الإنسان". وبهذا يقدم أرسطيديس في إيجاز صورة للعالم ونظامه وحركته، وهو يحدد المحرك والمدبر لهذا العالم برب السماوات الذى يعزو إليه الكاتب صفات الخلود والكمال والإعجاز والحكمة والخير. ويتضح من هذا أن أرسطيديس يعالج قضية اللاهوت بصفة مبدئية، وليس لأسباب فلسفية بحثية، وصدفة الأول والأخير هي الدفاع عن العقيدة المسيحية.

(ب) فلافيوس جستينوس (القديس جستين الشهيد): هناك مساحة أكبر للفلسفة في كتابات جوستين، الذى ولد في بلدة نابلس لأبوين وثنيين حوالى سنة ١٠٠م، وقد اعتنق جوستين المسيحية، واستشهد في مدينة روما قرابة سنة ١٦٤م. وفي "محاورته" مع شخص يدعى تريفو، يعلن جوستين أن الفلسفة هي أثنى هدية منحها لنا الله، وهي تستهدف قيادة الإنسان إلى الله، مع أن جوهر الفلسفة ووحدتها أمور لم يقطن إليها أغلب الناس، ومن ثم انقسم الفلاسفة إلى شعاب متباينة^(١). وأما بالنسبة له شخصياً، فإنه قد قصد أول الأمر أبواب الرواقيين، ولكن تبين له فيما بعد أن فكرة الرواقيين عن الله فكرة عاجزة، ولذا فإنه قصد إلى المشائين، ولكنه سرعان ما هجرهم عندما تكشف له أنه لم يكن سوى واحد من "اللاهثين" عبثاً^(٢). ويعد تجريته مع المشائين قصد جوستين إلى واحد من أتباع فيثاغوراس المشاهير، ولكن

(1) 2.1.

(2) 2.3.

نظرا لقلة حيلته فى الموسيقى والهندسة والفلك، فإنه لم يرق فى عينى المعلم الجديد. ولما كان جوستين غير راغب فى إضاعة وقته فى تحصيل هذه العلوم، فإنه قصد إلى أروقة الأفلاطونيين، حيث استهوته أخبارهم عن المثاليات الأزلية، الأمر الذى جعله مهيناً لمعاينة الربوبية، التى تمثل حجر الزاوية فى فلسفة أفلاطون^(١) وبعد ذلك بقليل وقع جوستين فى جدال مع واحد من المسيحيين الذى كشف له عن عجز الفلسفة الوثنية، وحتى الأفلاطونية نفسها، عن الكشف عن الحقيقة^(٢). وهكذا فإن جوستين يمثل لنا نموذجاً الوثنى المثقف الذى هجر الوثنية واعتنق الديانة المسيحية، وهو مع شعوره بأن هذا التحول كان بمثابة نهاية لمرحلة من مراحل تجواله الفكرى، لم يكن بمقدوره أن يتخذ موقفاً سلبياً أو عدائياً تجاه الفلسفة اليونانية.

وتفصح كلمات جوستين فى "محاورته" أنه يقدر الفلسفة الأفلاطونية تقديرًا حقاً، خاصة فيما يتعلق بأفكارها عن العالم اللامادى وعن الكائن الأعلى المفارق للجوهر، التى وجد فيها شيئاً من صفات الخالق، ومع ذلك فإن جوستين يقرر بأنه مقتنع بأن الطريق السليم والأمن لمعرفة الله، أى "الفلسفة" الحقّة، إنما يتأتى فقط عن طريق قبول الرسالة الموحى بها من الله، وهو فى أطروحتيه الدفاعيتين يستخدم مصطلحات أفلاطونية من قبيل وصفه لله "بالخالق لكل والكون المادى جميعاً"^(٣) على أنه ينبغى ملاحظة أن استخدام جوستين لمصطلحات أفلاطونية أو أفلاطونية محدثة لا يعنى أنه كان مدركاً لدلالة هذه المصطلحات فى سياقها الفلسفى الدقيق، وإنما جاء استخدامه لهذه المفردات من واقع دراساته أو إلمامه العام ومن تعاطفه مع الفلسفة الأفلاطونية. وعلى هذا فإنه لا يتكرر أحياناً فى الكشف عن التشابه بين التعاليم المسيحية والأفلاطونية فيما يتصل - على سبيل المثال - بقضية الثواب والعقاب بعد الموت^(٤).

(1) 2,4-6.

(2) 3,1ff.

(3) E.g. Apologia, 1,8,2.

(4) Ibid, 1,8,4.

كما أنه يعلن عن إعجابه الشديد بشخص الفيلسوف سقراط؛ فعندما راح سقراط مدفوفاً بسلطان "الكلمة" (Logos، التي كان هو بمثابة أدواتها، يدعو الناس إلى طريق الحق بعيداً عن الزيف، حكم عليه القوم بالإعدام بشبهة المروق والإلحاد، وبالمثل- يقول جوستين - فإن المسيحيين الذين يؤمنون "بالكلمة المجسدة" نفسها، والذين يستنكرون الآلهة الزائفة، هم أيضاً قد باتوا يوصون بالإلحاد⁽¹⁾. وبمعنى آخر فإن فكر سقراط الذي كان يروى لإعلان الحق، كان تمهيداً لرسالة المسيح، وكما أن سقراط قد أدين بعقوبة الموت، فإن ذلك كان سابقة للحكم على المسيح وأتباعه بنفس العقوبة فيما بعد. ويعتقد جوستين أن أفعال البشر ليست محتومة كما يقول الرواقيون؛ وذلك لأن البشر يقدمون على طريق الصواب أو الضلأ بمحض اختيارهم الحر. أما ما حل بسقراط وأمثاله من اضطهاد فهو من فعل أبالسة البشر، في حين أن أبيقور وزيانته يحظون بالتقدير والاحترام⁽²⁾.

يتضح من هذا العرض أن جوستين لم يضع حداً فاصلاً بين اللاهوت والفلسفة بالمعنى الدقيق؛ فهو يؤمن بوجود حكمة واحدة، أو "فلسفة" واحدة، تجلت معالمها في شخص المسيح، ومن خلاله اكتملت الرسالة، وهذا- في تقديره - ما تضمنته أفضل الأفكار الفلسفية الوثنية خاصة عند الأفلاطونيين، تمهيداً لظهور بشارة المسيح. ويلاحظ جوستين أن الفلاسفة الوثنيين عند تعريفهم للحق لم يكن لديهم سوى سلطان "الكلمة"، أما المسيح فهو "الكلمة" ذاتها وقد صارت جسداً. إن هذه النظرية التي يبيدها جوستين عن الفلسفة اليونانية وعن صلاتها بالأفكار المسيحية كانت ذات أثر بعيد وفعال على الكتاب اللاحقين.

(ج) تاتيان: طبقاً لشهادة إيريناوس⁽³⁾، كان تاتيان تلميذاً لجوستين، وهو من أصل سوري، وقد تضلعت في الآداب والفلسفة اليونانية، ثم اعتنق المسيحية.

(1) Ibid, 1,5,3 ff.

(2) Ibid, 1,5,3 II (7), 3.

(3) Against the Heresies, 1,28.

وليس هناك ما يبرر الشك فى القول بـ"تلميذة تاتيان على يد جستين الشهير، وإن كان تاتيان فى "رسالته إلى اليونانيين" لا يخفى خلافه مع أستاذه المتعاطف مع الفلسفة اليونانية فى بعض جوانبها، وهو شديد الاقتناع بـ"اللوغوس"، كما أنه يميز بين النفس (بسيكى) والروح (ينقما)، كما أنه يعتقد أن الخلق قد تم فى لحظة زمنية معينة، ويصر أيضاً على الإرادة الحرة لبنى البشر. وهذه المعانى جميعاً قد استوحاها تاتيان—كما يقول—من الكتاب المقدس والتعاليم المسيحية، ولذا فهو لا يستند كثيراً إلى العلوم اليونانية أو الفكر اليونانى فى خطابه، وإن كانت كتاباته لا تخلو من تأثير هذا الفكر عليه بين الفينة والأخرى. وواقع الأمر أن تاتيان كان مفكراً متشدداً إلى أبعد الحدود، فنحن نعلم من القديس إيريناىوس ومن القديس جيروم^(١) أنه فى أعقاب استشهاد جستين وقع تاتيان فى خلاف حاد مع رجال الكنيسة، واعتنق الأفكار الغنوصية التى كان ينادى بها فالنتينيان، ثم قام بعدها بتأسيس طائفة من الزهاد أو "المتعفين"، الذين أدانوا شرب الخمر، واستخدام النساء للزينة، كما وصفوا الزواج بالرجس والدنس^(٢).

هذا ولا يشك تاتيان فى مقدرة الفعل البشرى على البرهنة على وجود الله من واقع صنائع الخالق ومخلوقاته، كما أنه يستعين بمفاهيم ومقولات فلسفية من أجل تطوير علوم اللاهوت؛ ومن ذلك—على سبيل المثال—قوله بأن "الكلمة" المنبثقة من الجوهر الإلهى "لا تقع فى فراغ" أبداً مثل كلام البشر، وإنما هى تبقى فى جوهرها كأداة ربانية فاعلة للخلق. وهو بهذا يستخدم فكرة التماثل بين مولد الفكر البشرى والنطق به فى الكلمة؛ وذلك لكى يشرح لنا معنى انبثاق "الكلمة". كما أنه عندما يعرض لقضية الخلق، فإنه يستخدم لغة تذكرنا بمحاورة "طيمائوس" لأفلاطون حول فكرة "الخلق للكون المادى". ورغم أن تاتيان يستعين بمصطلحات وأفكار مستقاة من الفلسفة الوثنية،

(1) E.g. Adv. Jovin., 1,3, Comm., in Amos.

(2) Irenaeus, Against the Heresies, 1,28.

إلا أنه لا يبدي تعاطفًا مع هذه الفلسفات، بل إنه يعلن أن الفلاسفة اليونان قد أخذوا بعض الأفكار الصائبة من الكتاب المقدس، وأما ما جاعوا به من عندهم فهو ضلال وانحراف. من ذلك - على سبيل المثال - قوله بأن الرواقيين قد انصرفوا عن فكرة العناية الإلهية وأحلوا محلها نظريتهم عن الحتمية والقدرية. ولعله من سخریات الأقدار أن تاتيان وهو يرسم خطأ فاصلاً بين "السفسطة" الوثنية (على حد تعبيره) والحكمة المسيحية قد انتهى به المطاف ليدان بالهرطقة من قبل الكنيسة!

(د) أثيناغوراس: يمثل أثيناغوراس في كتاباته شيئاً من الكياسة في الحكم على اليونان الأقدمين، وهو في ذلك يتفق مع منهج جوستين الشهيد؛ فلقد خاطب أثيناغوراس الإمبراطورين ماركوس أوريليوس، وكومودوس "فاتحى أرمينيا وسرماتيا، والفيلسوفين قبل كل شيء" في "التماس من قبل المسيحيين"، وذلك قرابة سنة ١٧٧م، يدافع فيه عن المسيحيين ضد الاتهامات الثلاثة الموجهة إليهم؛ من إلحاد، واحتفالات يتم فيها أكل لحوم البشر، وزواج بالمحارم. وفي تصديده للاتهام الأول يقدم أثيناغوراس دفاعاً عقلانياً عن العقيدة المسيحية التي تؤمن بإله واحد أزلي، وهو يستهل دفاعه بالتذكير بالفلاسفة القدامى من أمثال فيلولائوس، وأفلاطون، وأرسطو، والرواقيين، كما أنه يقتبس فقرات من محاورات "طيمائوس" لأفلاطون عن صعوبة البحث في "خالق الكون وسيده"، وكذا عن استعصاء نقل هذه المعرفة لكافة البشر. ثم يتساءل أثيناغوراس لماذا يوصف المسيحيون وقد توصلوا إلى معرفة الخالق بأنهم ملاحدة، في حين أن أفلاطون لم يوهم بالإلحاد، مع أنه قد نادى بفكرة "الخالق للكون المادى". وإذا كان الشعراء والفلاسفة قد اجتهدوا في معرفة الله، وكان الناس يستمعون إلى ما وصلوا إليه، فإنه من السخف أن يرفض الناس الاستماع إلى روح الله تخاطبهم من خلال أفواه الأنبياء!

ويمضى أثيناغوراس بعد هذا ليسفه من فكرة تعدد الآلهة أو الأوثان المادية، معلناً أن الله وحده هو الذى يشكل المادة (مع أن أثيناغوراس يدرك بالكاد صورة الله بمنأى

عن الحيز المادى)، وبأن الله هو العلة الأولى وراء كل ما هو فان وعرضى. وهو هنا يركز على حجج أفلاطونية صرفة. والواضح أن أثيناغوراس يمشى على خطى جوستين الشهيد؛ فهو يقول بوجود "فلسفة" أو "حكمة" واحدة، التى لا يمكن التوصل إليها إلا من خلال الرسالة المسيحية، رغم أن الفلاسفة اليونان كانوا قد توصلوا إلى شيء من هذه الحقيقة. وعليه فإنه يدعو الإمبراطور الفيلسوف ماركوس أوريليوس الذى يجلس الشعراء والفلاسفة القدامى إلى أن يعطى المسيحية حقها من التقدير، وإن كان لا يدعو إلى اعتناق هذه العقيدة. ويتضح من هذا الخطاب أن أثيناغوراس كان فى موقف الدفاع اللاهوتى عن المسيحية، ولكنه يستخدم فى دفاعه حججاً وأفكاراً فلسفية للوصول إلى هدفه. وعند تعرضه لعقيدة قيام الأجسام من الموت، فإنه خلافاً لوجهة نظر أفلاطون، يحتاج بأن الجسد مكون جوهرى للإنسان المتكامل؛ ذلك لأن الإنسان ليس مجرد روح تستخدم الجسد كوعاء^(١).

(هـ) ثيوفيلوس الأنطاكي كتب ثيوفيلوس أطروحة موجهة "إلى أطواخيوس" حوالى سنة ١٨٠م، يؤكد فيها أن نقاء الروح أمر حتمى لكل من يتطلع إلى معرفة الله. ثم ينتقل إلى الحديث عن الصفات الإلهية، موضحاً أن البشر عاجزون بعقولهم المحدودة عن فهم اللامحدود وغير المدرك، القادر، الحكيم، الأزلى إلى أبد الأبد. وكما أن روح الإنسان - وهو غير مرئى، لا يدرك إلا من خلال حركات الجسم، فكذا الله لا يدركه البشر إلا من خلال أعماله وعنايته الإلهية. ولكن ثيوفيلوس لم يكن دقيقاً فى عرضه لآراء الفلاسفة اليونان، لكنه كان يحمل لأفلاطون تقديرًا ووقارًا واحترامًا،^(٢) وإن كان يأخذ عليه أنه لم يعتقد فى الخلق من العدم، كما أنه لا يوافق أفلاطون فى آرائه عن الزواج (وإن كان ما ينسبه ثيوفيلوس هنا لأفلاطون مغلوطيناً).

٢ - إن هؤلاء الكتاب الذين عرجنا عليهم قد كتبوا أطروحاتهم باليونانية، وكان شغلهم الشاغل دحض الاتهامات التى شنّها الوثنيون على المسيحية. والآن يمكننا أن

(1) On the Resurrection.

(2) Ad Autol. 3,6.

نتوقف قليلاً عند القديس إيريناوس الذي تصدى لتنفيذ آراء الغنوصيين، مع التعرّيج أيضاً على هيپوليتوس. فلقد كتب الرجلان باليونانية لمهاجمة الآراء الغنوصية التي ازدهرت في القرن الثاني. والواقع أن كتابات هيپوليتوس جديرة بالاهتمام؛ لأنها تحمل إشارات عديدة إلى الفلسفة والفلاسفة اليونان.

وعن الغنوصية يكفي في هذا السياق أن نقول بصفة عامة بأنها كانت خليطاً مزعجاً من الأفكار التوراتية الإنجيلية واليونانية والمشرقية في ماعون واحد. وكان هدف الغنوصيين إحلال فكرة "المعرفة" (gnosis) كبديل لفكرة الإيمان، إلى جانب طرح أفكار عن الصفات الإلهية، والخلق، وأصل الشر والخلص. والغنوصية من هذا المنطلق كانت موجهة إلى ذاك النفر من النخبة المسيحية الذين كانوا يرون أنفسهم على درج ثقافي رفيع لا يرقى إليه عوام المسيحيين. ولقد كانت هناك غنوصية يهودية قبل ظهور الصيغة المسيحية للغنوصية. ويمكن أن ننظر إلى هذه الأخيرة على أنها هرطقة مسيحية، عندما قام الغنوصيون بإدخال عناصر مسيحية على أفكارهم. والحق أن الغنوصية كانت محملة بعناصر شرقية وهلينية لدرجة يصعب معها أن تصنفها كهرطقة مسيحية بالمعنى المتواتر عن الهرطقات، مع أنها كانت تمثل خطراً حقيقياً في القرن الثاني؛ لأنها أفسدت عقول عدد وافر من المسيحيين الذين استهوتهم الشطحات اللاهوتية الفلسفية المتشابكة التي قدّمها الغنوصيون تحت مظلة "المعرفة". ولقد ظهرت طوائف عديدة من الغنوصيين تحت مسميات مختلفة؛ فهناك أتباع كيرنثوس، وجماعة مارقيون، وأتباع أوفيت، ومريدي بسليدس، ثم طائفة فالنتينوس. ونحن نعلم أن مارقيون كان مسيحياً أنزلت عليه لعنة الحرمان الكنسي. أما أتباع أوفيت فأغلب الظن أنهم يرجعون إلى أصول يهودية من الإسكندرية، وأما الغنوصيون المشاهير من أتباع باسليدس وفالنتينوس (القرن الثاني) فإننا لا نعلم أنهم كانوا أصلاً من المسيحيين.

ولعل أهم ما في الغنوصية من أفكار بصفة عامة فكرة الثنائية بين الله والمادة، وهذا يجعلها قريبة الشبه بالأفكار المانوية في مراحلها المتأخرة. ويعتقد الغنوصيون أن الفراغ الكائن بين الله والمادة ممتلئ بسلسلة من "الفيض" أو الخلائق الوسيطة التي

كان من ضمنها المسيح. وتصل عملية "الفيض" إلى تمام لحظة الرجوع إلى الله عن طريق الخلاص.

وفى الصيغة التى وضعها مارقيون- كما هو متوقع المسيحية للغنوصية، ويمكن أن ننظر إلى هذه الأخيرة على أنها هرطقة مسيحية، عندما قام الغنوصيون بإدخال عناصر مسيحية على أفكارهم. والحق أن الغنوصية كانت محملة بعناصر شرقية وهلينية لدرجة يصعب معها أن نصفها كهرطقة مسيحية بالمعنى المتواتر عن الهرطقات، مع أنها كانت تمثل خطراً حقيقياً فى القرن الثانى؛ لأنها أسست عقول عدد وافر من المسيحيين الذين استهوتهم الشطحات اللاهوتية الفلسفية المتشابكة التى قدمها الغنوصيون تحت مظلة "المعرفة" ولقد ظهرت طوائف عديدة من الغنوصيين تحت مسميات مختلفة؟ فهناك أتباع كيرنثوس، وجماعة مارقيون، وأتباع أوفيت، ومريو باسليدس، ثم طائفة فالنتينوس. ونحن نعلم أن مارقيون كان مسيحياً أنزلت عليه لعنة الحرمان الكنسى، أما أتباع أوفيت فأغلب الظن أنهم يرجعون إلى أصول يهودية من الإسكندرية، وأما الغنوصيون المشاهير من أتباع باسليدس وفالنتينوس (القرن الثانى) فإننا لا نعلم أنهم كانوا أصلاً من المسيحيين.

وفى الصيغة التى وضعها مارقيون- كما هو متوقع منه- تأتى العناصر الدينية المسيحية فى موقع الصدارة، حيث يرد إله العهد القديم "الصانع" فى مرتبة أدنى لإله العهد الجديد، الذى ظل غير معروف للعالم حتى أظهر نفسه للكون فى صورة يسوع المسيح. على أن هذا البعد المسيحى تكمن أهميته فى أفكار باسليدس وفالنتينوس، حيث يرد المسيح كمخلوق أدنى (كواحد من الأيونات (Eons فى هيراركية هرمية من الفيض الإلهى وشبيه الإلهى، كما أن رسالة المسيح لا تعدو أن تكون بلاغاً للبشر أن خلاصهم يكمن فى المعرفة (gnosis) وحيث إن المادة شر، فإنها لا يمكن أن تكون من صنع الله المتعالى، وإنما هى من فعل "الأرخون الأكبر" الذى عبده اليهود إلها لهم. من هذا يتضح أن الأفكار الغنوصية لم تكن أفكاراً ثنائية خالصة بالمعنى الذى قال به المانويون؛ لأن "خالق الكون المادى" الذى هو إله العهد القديم، لم يكن، عند هذه

الجماعات، "مبدأ" أو "أصلاً" منعزلاً للشر (يلاحظ هنا تأثير الأفكار الأفلاطونية المحدثّة في مطلق مبدأ الثنائية)، ذلك لأن الهدف الأهم عند هؤلاء الغنوصيين لم يكن مبدأ الثنائية بقدر ما هو منصب على "المعرفة" كطريق الخلاص. أما تبني الغنوصيين للأفكار المسيحية، فإنما يرجع إلى رغبتهم في استمالة المسيحيين وذلك بوضع "المعرفة" كبديل للإيمان.

ولسنا بحاجة إلى أن ندخل في تفاصيل أبعد من هذا في الغنوصية وشروطها "الفيض"، وكفى أن نقرر أن خلفيتنا العامة كانت مزيجاً من أفكار شرقية ويونانية (من قبيل أفكار الفيثاغوريين والأفلاطونيين الجدد، مع جرعات متفاوتة من العناصر المسيحية المستقاة من التعاليم المسيحية، ومن أسفار مشكوك في صحتها. وبالنسبة لنا اليوم فإنه يصعب علينا أن نتبين كيف كانت الغنوصية تمثل خطراً على الكنيسة أو على عقول الناس، ولكن ينبغي أيضاً أن نتذكر أن هذه الأفكار قد ظهرت في وقت شهد زخماً من المدارس الفلسفية والعقائدية السرية لإشباع العطش الروحي لأصل العصر. يضاف إلى هذا أن الأفكار الأخروية والفلسفية اللاهوتية، المحاطة بهالة من سحر "وحكمة الشرق" كانت لا تزال تستهوى عقول بعض الناس، مثلما كانت الحال حتى وقت قريب من عصرنا الحديث.

أ - القديس إيريناؤوس (ولد حوالي سنة ١٢٧م): هاجم إيريناؤوس الغنوصيين في أطروحة بعنوان "ضد الهرطقة"، مبيناً لهم أنه لا يوجد سوى إله واحد، خالق السماء والأرض وكل شيء ثم يعرج على فكرة "التدبير" الإلهي، والقناعات السائدة عند البشر كافة، مبيناً أن الكفار أنفسهم قد توصلوا بإعمال عقولهم إلى معرفة الله الخالق، وذلك من حقيقة الخليقة من حولهم^(١).

لقد خلق الله العالم بمحض إرادته هو، وليس بالجبر^(٢). كما أن الله قد خلق العالم من العدم، وليس من مادة كان لها وجود من قبل، كما يزعم الغنوصيون، اعتماداً على

(1) 2,9,1.

(2) 2,1,1,2,5,3.

آراء نكساجوراس، وإمبدوقليس، وأفلاطون^(١). وعلى أنه، بالنسبة لإيريناويوس، رغم أنه في مقدور العقل البشرى أن يعرف الله عن طريق العقل والوحى، فإنه عاجز عن إدراك الربوبية التى يتعالى جوهرها على طاقة العقل الإنسانى. ولذا فإن الزعم بمعرفة الأسرار الإلهية والاسترسال فيما وراء الإيمان البسيط والمحبة، كما يفعل الغنوصيون، إنما هو مجرد غرور بشرى وصلف من جانب الإنسان. كما أن فكرة التناسخ فكرة ضالة، فى حين أن القانون الوضعى لا ينفى، وإنما يؤكد ويعزز من القانون الطبيعى. وخلاصة القول عند إيريناويوس أن "تعاليم الرسل هى المعرفة الحقّة"^(٢).

وطبقاً لإيريناويوس فإن الغنوصيين قد اقتبسوا معظم أفكارهم من الفلاسفة اليونان، أما الأخلاقيات فقد استوحوها من أبيقور والكلبيين، وأما فكرة التناسخ فهى من عند أفلاطون. إن هذه الفكرة التى تربط بين النظريات الغنوصية والفلاسفة اليونان هى التى حملها بعد إيريناويوس تلميذه هيپوليتيتوس.

ب - هيپوليتيتوس (ت. قرابة سنة ٢٣٦م): وهو كما يقول فوتيوس^(٣) كان تلميذاً لإيريناويوس، وقد استفاد الكثير من تعاليم أستاذه. ففي مقدمة أطروحته بعنوان "فضل الفلسفة" يعلن عن هدفه (وإن كان لم يحقق هذا الهدف تماماً) فى أن يكشف سرقات الغنوصيين لأفكار الفلاسفة القدامى، بعد أن شوهوا محتواها الأصلية. ولتحقيق هذا الهدف فإنه يعرض لأفكار هؤلاء الفلاسفة، معتمداً فى مصادره على "التسبيحة فى شكر الله" التى وضعها ثيوفراستس، وإن كانت اقتباساته منها غير دقيقة.

(1) 2,14,4.

(2) 4,33,8.

(3) Bibl., Cod. 121.

والإتهام الأساسى الذى يوجهه هيپوليتيتوس ضد الفلاسفة اليونان أنهم كانوا يمجدون المخلوقات بعبارات رنانة، ولكنهم كانوا يجهلون خالق كل هذه الصنائع جميعاً، التى جبلها الله من العدم بحكمته الربانية، فهو العارف لكل شيء منذ الأزل.

٤ - جاءت كتابات هؤلاء الكتاب باليونانية، فى حين أن البعض الآخر من المدافعين عن العقيدة كتبوا باللاتينية ومن بينهم:

منيكيوس فيلكس؛ وترتوليان؛ وأرنوبيوس؛ ولاكتانتىوس. ويعد ترتوليان أهم هؤلاء جميعاً.

أ - منيكيوس فيلكس: لا نعرف بالضبط إن كان منيكيوس قد عبر عن موقفه من الفلسفة اليونانية قبل أم بعد ترتوليان. وفى كل الأحوال فإن أطروحته بعنوان "أوكتافيوس" قد لقيت قبولاً واسعاً أكثر من كتابات ترتوليان. ويعتقد منيكيوس أن البرهنة على وجود الله بصفة يقينية، إنما تتأتى من تأملنا فى منظومة الطبيعة، ومن تكوين الكائنات الحية خاصة الجنس البشرى. كما أن وحدانية الله تستلهم من وحدانية النظام الكونى، وذلك ما نادى به الفلاسفة اليونان. فلقد اعترف أرسطو بإله واحد، كما أن الرواقيين كانت لديهم عقيدة فى العناية الإلهية، فى حين أن أفلاطون قد استخدم لغة شبيهة بتعاليم المسيحية فى محاوره "طيمائوس"، وذلك فى إشارته إلى خالق الكون وأب الكل.

ب - ترتوليان: ولد ترتوليان قرابة سنة ١٦٠م لأبوين وثنيين، وقد تلقى تعليمه فى القانون وعمل فى ساحة القضاء فى روما. وقد اعتنق ترتوليان المسيحية، ولكنه تردى فى الهرطقة "المونتانية"، وهى طائفة متشددة فى أمور التطهر المتزايد. وهو أول كاتب لاتينى مسيحى مميز، ونجد فى كتاباته احتقاراً بالغاً للوثنية وعلومها. وهو يتساءل عما عساه يجمع بين الفيلسوف وبين الإنسان

المسيحي؛ فالأول ابن للعقلية اليونانية القديمة ومسابقات الضلال، أما الثاني فهو ابن للسماء وعدو للضلال؛ لأنه يحب الحق^(١) ويعتقد ترتوليان أنه حتى حكمة سقراط نفسه كانت حكمة قاصرة؛ لأنه لا يمكن لأحد أن يعرف الله في معزل عن التعرف إلى المسيح، كما لا يمكن معرفة المسيح في معزل عن التعرف بالروح القدس. يضاف إلى ذلك أن سقراط قد اعترف بأنه كان يسترشد بالشيطان^(٢) أما أفلاطون فقد وجد صعوبة في التعرف إلى خالق الكون وربّه، في حين أن أبسط المسيحيين لم يجد صعوبة في التعرف إلى الله^(٣) ويعتقد ترتوليان أن الفلاسفة اليونان هم "الأخبار" الذين اعترف منهم الهرطقة بدعهم^(٤)؛ فلقد اقتبس فالتينوس من الأفلاطونيين، ونهل مارقيون من الرواقيين، في حين أن الفلاسفة أنفسهم قد اقتبسوا أفكارهم من "العهد القديم" ثم شوهموا وادعوا أنها من بنات أفكارهم هم^(٥).

ورغم التضاد الذي يرسمه ترتوليان بين الحكمة المسيحية والفلسفة اليونانية، فإنه يطرح أفكاراً فلسفية من عنده، متأثرة بأفكار رواقية، ثم إنه يمضى ليؤكد أن وجود الله يتضح يقيناً من خلال صنائعه^(٦)، كما أن أزلية الخالق تدل على كماله (فالكامل لا يمكن أن يكون مجزئاً أو مخلوقاً)^(٧). ولكن ترتوليان يفاجئنا بمقولة أن كل شيء، بما في ذلك الذات الإلهية، لها طبيعة "جسدية"، وإن كانت طبيعة الذات الإلهية "فريدة في نوعها". وحجة صاحبنا في ذلك أن لا شيء يخلو من "الجسد" إلا ما ليس له وجود^(٨) ويتساءل ترتوليان: "من ذا الذي ينكر أن الله روح؟" ثم يستطرد قائلاً بأن الروح لها وجود مادي من نوع خاص بها، ومن نفس جوهرها^(٩). وفي حين استنتج

(1) Apol., 46.

(2) De Anima, 1.

(3) Apologia.

(4) De Anima, 3.

(5) Apol., 47.

(6) De Resurrect., 2-3.

(7) Herm., 28.

(8) De Carne Christi, II a.

(9) Adv., V; Prax., 7.

كتاب كثيرون من هذه العبارات أن ترتوليان كان صاحب عقيدة "مادية"، مثلما فعل الرواقيون من قبل، يرى البعض الآخر أن ترتوليان عندما يذكر "الجسد" في هذا السياق، فهو إنما يستخدمه بمعنى "الجوهر"، بعد أن جانب الصواب في اختيار مفردات لغته. غير أنه في موضع آخر يعود ليتحدث عن الروح البشرية بأنها "جسدية" وعرضة "للمعاناة"^(١). وبشكل عام يمكن القول بأن جدلية ترتوليان عن طبيعة الروح تتسم بالكثير من الغموض والشطط؛ فهو على سبيل المثال يذهب إلى أن السبب في قيامة الأجساد بعد الموت يرجع إلى أن الروح لا تقدر على تحمل الألم دون أن تساندها مادة صلبة وهي "الجسد".

إن لغة ترتوليان تشي بضرب من ضروب "المادية" المفجة، وإن كان قصده لا يتسق مع هذه اللغة التي يستخدمها؛ فهو عندما يقول بأن روح الطفل مستمدة من بذرة والده فهي أقرب إلى "شئلة النبات"^(٢) فإنه يبدو مادي المذهب، كما أنه يستخدم هذه "التناقضية" لإثم الخطيئة الأولى لآدم. ولقد نحا بعض الكتاب اللاحقين هذا النحو، دون أن يدركوا ما ينطوي عليه من دلالات مادية. وتشير كل هذه الدلائل إلى أن ترتوليان كان مادي المذهب، كما أن كلماته كثيراً ما تخالف ما كان يرمى إليه من معان؛ فهو عندما يتحدث عن حرية الإرادة وعن خلود الروح يناقض أفكاره المادية؛ لأن الصفات التي يخلعها على الروح لا تتساق مع هذه الأفكار المادية.

ومع هذا فلا بد لنا من الاعتراف بأن ترتوليان، رغم ما يؤخذ عليه، كان صاحب فضل كبير في تطوير الفكر اللاهوتي المسيحي، وفي صك مصطلحات فلسفية بعينها في عالم أوروبا اللاتيني؛ من ذلك صكه لمصطلح "أقنوم" (Persona لأول مرة في اللسان اللاتيني. ويلاحظ ترتوليان أن "الأقنوم" الثلاثة ليست مجزأة أو مفارقة واحدها عن الآخرين في الجوهر"^(٣)). أما في تصويره "للکمة" (Logos)^(٤) فهو متأثر بتعاليم

(1) De Anima, 7 Cf., 8.

(2) De Anima, 19.

(3) Sermo Ration.

(4) Apol., 21.

الرواقيين من أمثال زينون وكليانثيز. وأخيراً فإن الحكم على قوامة إيمان ترتسوايان أو انحرافه عن أركان العقيدة، فهذا ليس من بين اهتماماتنا في هذا الكتاب.

ج - أما أرنوبيوس فإنه في أطروحته بعنوان "ضد الأمميين" (حوالي سنة ٢٠٢) يبدأ بعض الملاحظات الغربية عن الروح؛ فهو رغم أنه يؤكد على فكرة "الخلق" خلافاً للأفلاطونيين القائلين بالوجود الأزلي، فإنه يجعل أداة الخلق في مرتبة أدنى من الألوهية. وفي حين أنه يخص الروح بالغبطة التي منحها إياه الله، فإنه يذكر على الروح خلودها الطبيعي. وهذه الفكرة عن الخلود الذي وهبه الله للروح تتسق مع التعاليم المسيحية والسعي وراء الحياة الفاضلة. وفي حين يهاجم أرنوبيوس النظرية الأفلاطونية عن "التذكر"، فإنه يعود ليؤكد الأصل التجريبي لأفكارنا باستثناء واحد وهو فكرتنا عن الله. ويسوق في هذا مثال طفل يولد ثم يترك في عزلة وصمت وجهل عما حوله حتى يشب عن الطوق، فإنه - في تقديره - لن يدرك شيئاً على الإطلاق؛ إذا ليس ثمة معرفة لديه يستقيها من "التذكر" لخبرة سابقة! أما براهين أفلاطون عن الوجود الأزلي في محاورته "مينون" فليست مقنعة، حسبما يقول.

د - أما لاكلانتايوس في أطروحته عن "صنائع الله" (ما بين أعوام ٢٥٠ - ٢٢٥م) فإنه يؤكد أن الله هو خالق الروح، وذلك بخلاف ما نادى به أصحاب نظرية "التناقلية".

هـ - كان الهجوم الذي شنّه كل من إيرينايوس وهيبوليتوس على الغنوصية سبباً في إثارة زويعة من المعارضة الشديدة للفلسفة اليونانية من جانب الكتاب المسيحيين الذين بالغوا في ربطها بالفلسفة اليونانية، التي رأوا فيها أرضاً خصبة لنمو الهرطقة. ولكن الغنوصية، من جانب آخر، قد ساهمت في بناء "معرفة" غير مهترقة، استندت في مفرداتها إلى اللاهوت والفلسفة في ماعون واحد. وهذا ما تميزت به مدرسة الإسكندرية في منهجها "التعليمي" لمبادئ المسيحية. ويقف على رأس هذه المجموعة كل من كلمنت السكندري، وتلميذه أوريجين؛

أ - تيطوس فلاقيوس كلمنت (كلمنت السكندري): ولد كلمنت قرابة سنة ١٥٠م في أثينا، ثم وفد إلى الإسكندرية سنة ٢٠٢م أو ٢٠٣م، وتوفي فيها سنة ٢١٩م. كان كلمنت مدفوعاً في مواقفه بالمبدأ القائل: "إنى أؤمن لكى أتعدل"، ومن ثم فإنه رأى ضرورة طرح الحكمة المسيحية من خلال "المعرفة" الحقّة وليس المعرفة الضالّة. وقد سار كلمنت على نفس الخطى التى كان قد اتبعها من قبل جوستين الشهيد فى رؤيته للفلاسفة اليونان، الذين اعتبرهم بمثابة الإرهاصات المبكرة للمسيحية، والأرض التربوية فى العالم الهلنى لتقبل الرسالة السماوية، ولذا فإنه لم يظهر تجاه هؤلاء الفلاسفة أى نوع من الازدراء أو يتهم بفساد الرأى. ويعتقد كلمنت أن "الكلمة" الربانية هى التى تنير الأرواح، وكما أن اليهود كانوا يستنبطون بموسى والأنبياء، فإن اليونانيين كانوا يستنبطون بالفلاسفة بحيث كانت الفلسفة لليونان تمثل ما كان يمثل الناموس للعبرانيين^(١). حقيقة أن كلمنت كان يعتقد - مثل سلفه جوستين - أن اليونان قد اقتبسوا من العهد القديم، ولكنهم شوهوا ما اقتبسوه بدافع الغرور، ولكنه مع هذا شديد الاقتناع بأن "نور الكلمة" قد مكّن الفلاسفة اليونان من الوصول إلى حقائق عديدة، فإن الفلسفة هى فى واقع الأمر جماع هذه الحقائق، التى ليست حكراً على مدرسة فلسفية واحدة بعينها؛ لأنها كانت مطروحة فى عدة مدارس فلسفية أخرى بدرجات متفاوتة. هو بعد هذا يصف أفلاطون بأنه كان أكثر الفلاسفة عظمة وشموعاً فى فكره^(٢).

ويعتقد كلمنت أن الفلسفة لم تكن مجرد تمهيد لظهور المسيحية، وإنما هى أيضاً معين هام لفهم تعاليم الدين؛ ذلك أن الشخص الذى يسلم بالإيمان دون أن يتفهم، إنما يشبه الطفل مقارنة بالإنسان الكامل النضج. فالإيمان الأمى والقبول السلبي ليسا بالشئ المثالى، ولكن العلم والتأمل والتعدل تصبح كلها دون طائل ما لم تتسق مع وحى الرسالة السماوية. ومؤدى هذا أن كلمنت كان بمثابة أول الرواد المسيحيين من الداعين إلى العلم، وربط المسيحية بالفلسفة، واستخدام التأمل الفعلى فى تفصيل وشرح

(1) Strom., 1,5.

(2) Paedagogus, 3,II

اللاهوت. ولكن كلمنت يتحفظ في مسألة معرفة الله؛ لأن هذه المعرفة لا تتأتى عن طريق البرهان؛ لأن الله ليس كمثله شيء مما نعرفه، كما أنه ليس بالمدرَك، وهو إذ يقرر عجز العقل البشرى عن إدراك الصفات الإلهية، يوصى بالإيمان بشفاف القلب وصولاً إلى راحة النفس. وواقع الأمر أن كلمنت ينطلق من مقولات أفلاطون عن الخير في كتابه "الجمهورية"، وكذا من أفكار مشابهة عند فيلون لي طرح منهج أو "أسلوب النفى" (Via negative)، وهذا ما كان يعتز به الزهاد والمتصوفة (كتولهم عن غير المدرَك وغير المرئى... إلخ)، والذي وصل إلى أوجه في كتابات ديونيسيوس المنحول.

٢ - أوريجين: وهو من أبرز أساتذة مدرسة الإسكندرية للتربية الدينية، وقد ولد سنة ١٨٥م أو ١٨٦م، وتضلع أوريجين في دراسة الفلاسفة اليونان، ويظن أنه كان يداوم على محاضرات أمونيوس زاخاس معلم أفلوطين (صاحب فلسفة الأفلاطونية المحدثة). وقد اختير أوريجين مديراً لمدرسة الإسكندرية، ولكنه اضطر للتخلي عن هذا المنصب لمواجهة الحملة التي أثارها آباء الكنيسة ضد تعاليمه، وذلك في مجمعي ٢٣١م و ٢٣٢م، إلى جانب إدانته أيضاً لدخوله سلك الكهنوت (فرغم قيامه بخصى نفسه تمت سيامته كاهناً في فلسطين) وقد قام أوريجين بتأسيس مدرسة في بلدة قيصرية بفلسطين، حيث كان القديس جريجورى ثوماتورغوس واحداً من تلاميذه. وقد توفي أوريجين سنة ٢٥٤م أو ٢٥٥م، نتيجة للتعذيب الذي لقيه في عهد الإمبراطور دكيوس في موجة جديدة من الاضطهاد.

ويعد أوريجين أعظم المفكرين المسيحيين في الحقبة السابقة لمجمع نيقيا المسكون (٣٢٥م)، وما من شك في أنه كان متمسكاً بقواعد الأرثوذكسية، إلا أن رغبته في مصالحة الفلسفة الأفلاطونية مع المسيحية، وكذا اجتهاده الزائد في تفسير الكتاب المقدس تفسيراً رمزياً، وليس حرفياً قد أوقعه في بعض الآراء المخالفة للأرثوذكسية؛ من ذلك أنه بتأثير الأفلاطونية أو الأفلاطونية المحدثة راح يقول بأن الله روح كامل ('Moas' Enos^(١))، كما أنه في كتابه الموجه ضد الموجه "ضد الفيلسوف الوثني كلئوس" (٢)

(1) De Principiis, 1,1,6.

(2) 7,28.

يردد أفكار أفلاطون عن "الخير"، وهو يقول أيضاً بأن الله خالق العالم منذ الأزل وبموجب طبيعته: "إن الله وهو الخير الكلى، فاعل" منذ الأزل، متواصل وفيضى أبداً.

ولا يقبل أوريجين القول بأن الله قد خلق العالم فى زمن ما؛ لأن هذا القول ينطوى على صيرورة أو تحول فى الإرادة الإلهية، وهى صفات يتنزه عنها الخالق^(١). ويجب ملاحظة أن هاتين الفكرتين عن أزلية العالم ونفى الصيرورة عن الإرادة الإلهية من معطيات عقل أوريجين، وليستا من عند الأفلاطونيين المحدثين، إن الله - يقول أوريجين - هو خالق المادة الأولى بالمعنى الدينى المسيحى^(٢)، كما أن العوالم لا نهائية، عالم بعد الآخر ويخالف أحدهما الآخر أيضاً^(٣). أما عن الشر فهو ليس عنصراً إيجابياً، وإما هو سلب الخير أو انتفاؤه، وعليه لا يمكن بحال القول بأن الله هو الذى خلق الشر^(٤). والكلمة (لوغوس) عند أوريجين هى سر الخلق، وهى "فكرة الفكر" (Idea Idean)^(٥)؛ والكلمة صار كل شىء فهى الوسيط بين الله وخلائقته^(٦). أما الروح القدس فهو منبثق من الربوبية، وفى إثره الأرواح المخلوقة التى تصبح أبناء الله بواسطة الروح القدس، فى توحيد مع "الابن"، وفى شركة طويابوية فى رحاب الأب^(٧). ويعتقد أوريجين أن الأرواح عندما خلقها من الله كانت شبيهة وأحدثها بالآخرى فى طبيعتها، ولكن الإثم هو الذى ألبس تلك الأرواح بالجسد، وهكذا جاء التباين فيما بينها، نتيجة لمسلكها قبل دخول هذا العالم. والأرواح تملك الإرادة الحرة فى هذه الدنيا، وتتأى أفعالها أيضاً بفعل النعمة الربانية التى تجازى كل روح كنمو أعمالها قبل أن تتلبس الجسد.

ورغم كل هذا - فما يعتقد أوريجين - فإن الأرواح جميعاً، بما فى ذلك أرواح الأبالسة والشياطين أيضاً، سوف تتطهر بعد روح من العذاب، لتصبح بعد التطهر خليفة بأن تتحد بخالقها. وبهذا يفصح أوريجين عن عقيدته فى عودة كل الأشياء فى مداها إلى منتهى أمرها، إلى المبدأ الأول، حيث الله هو الكل فى الكل^(٨).

(1) De Principiis, 1,2,10; 3,4,4.

(2) Ibid., 2,1,4.

(3) Ibid., 3,5,3;2,3,4-5.

(4) In Joann., 2,7.

(5) Contra Celsum, 6,64.

(6) De Principiis, 2,6,1.

(7) Ibid., 6,1,3.

(8) Ibid., 3,8,1,ff.,1,8,3.

ويلاحظ أن هذا الرأي الأوريجيني- الأفلاطوني المحدثي يخالف المبادئ الأرثوذكسية؛ إذ إنه ينكر فكرة الجحيم والعذاب الأبدي للأشرار، وواقع الأمر أن أوريجين قد حاول أن يمزج بين العقيدة المسيحية والأفكار الأفلاطونية والأفلاطونية المحدثّة، فحديثه عن الابن والروح القدس في الثالوث المقدس، وإن كان في الإطار الربوبي، إلا أن الصورة في مجملها تبدو من بنات "فكرة" الفيض الإلهي عند فيلون السكندري والأفلاطونيين المحدثين. وينفس القدر جاءت أفكاره عن "الكلمة" كفكرة الفكر، وكذا فكرة الخلق الأزلي بالضرورة للعالم. أما نظرية الوجود القبلي فهي أفلاطونية صرفة.

وطبيعة الحال فإن الأفكار الفلسفية التي تبناها أوريجين قد ألبسها جلباباً مسيحياً، ولذا يحق أن نعتبره أول المفكرين المسيحيين الذي ابتدع صيغة توفيقية بين المسيحية والفلسفة الكلاسيكية، وإن كان هو نفسه يعزى أفكاره إلى إصحاحات الكتاب المقدس في اجتهاد وتؤويل. يلاحظ أيضاً أن هذا الحماس الزائد الذي أبداه أوريجين للفكر اليوناني الوثني قد أدى به في كثير من الأحيان إلى آراء مخالفة لقوامة الأرثوذكسية، مما عرضه لكثير من المصادمات والمتاعب مع رجال الكنيسة.

٦ - لقد انشغل آباء الكنيسة اليونان في القرنين الرابع والخامس بالقضايا اللاهوتية؛ فلقد دخل القديس أثناسيوس (ت. ٣٧٣م) في صراع شرس ضد أريوس والأريوسيين؛ أما القديس جريجوري النازيانزي (ت. ٣٩٠م) والمعروف "باللاهوتي" فقد اهتم بقضايا الثالوث وطبيعة المسيح؛ وأما القديس يوحنا خرايزوستوم (ت. ٤٠٦م) فقد اشتهر كواحد من أعظم الوعاظ في شروحه للكتاب المقدس. وفي دفاع هؤلاء الآباء جميعاً عن أمور لاهوتية مثل الثالوث المقدس واتحاد الأقانيم الثلاثة، فإنهم قد استخدموا بعض المصطلحات الفلسفية، ولكن مواهبهم في اللاهوتيات لا تجعل منهم فلاسفة بالمعنى الدقيق للكلمة. على أن القديس بازل (ت. ٣٧٩م) الذي كان قد درس في جامعة أثينا مع القديس جريجوري النازيانزي، فإنه يوصى في "رسالة إلى الشباب" بدراسة الشعراء والمؤرخين والفلاسفة اليونان، بعد استبعاد ما قد يمس الأخلاق

الكريمة منها، وحجته فى ذلك أن الأدب اليونانى والتعلم أداة طيبة للتربية، وإن كانت التربية الأخلاقية تبقى الأهم من هذا وذاك (يلاحظ أن القديس بازل فى وصفه لعالم الحيوان يعتمد كلية على كتابات أرسطو).

ومع أننا لسنا فى مقام الخوض فى القضايا اللاهوتية التى شغلت هؤلاء الآباء، إلا أن اثنين منهما يستحقان مساحة فى هذا الكتاب، وهما المؤرخ يوسيبوس (يوساب)، والقديس جريجورى من نيقية:

أ - يوسيبوس القيصارى (من قيصرية فلسطين): ولد يوسيبوس فى فلسطين سنة ٢٦٥م، وتدرج فى سلك الكهنوت حتى أصبح أسقفاً لمدينة قيصرية سنة ٣١٢م، وهى مسقط رأسه، وتوفى سنة ٣٣٩م أو ٣٤٠م. وإلى جانب كونه مؤرخاً مرموقاً لتاريخ الكنيسة، اشتهر يوسيبوس بقوة حجته فى الدفاع عن العقيدة، وهو فى هذا الصدد يبدى موقفه من الفلسفة اليونانية وبصفة عامة نظر يوسيبوس إلى الفلسفة اليونانية، وبخاصة الأفلاطونية بمثابة الأعداء الفكرى للعالم الوثنى لتقبل رسالة المسيحية، وإن كان واعياً تماماً للخطأ الذى تردى فيه هؤلاء الفلاسفة والمتناقضات التى وقعت بين مختلف مدارسهم. ورغم حدته فى بعض المواقف، فإنه كان بشكل عام متعاطفاً مع الفكر الكلاسيكى ومقدراً له. ويتضح هذا الموقف بشكل جلى فى كتاب "الإعداد الإنجيلي"، حيث نجده يشارك كلا من جستين الشهيد وكلمنت السكندرى وأريجين فى تقديرهم للفلسفة، وحيث يتضح لنا أنه كان متضلعاً فى معرفته بالآداب اليونانية. والحق أن يوسيبوس كان عالماً فذاً، ويعتبر كتابه مصدراً هاماً للتعرف إلى بعض الأفكار الفلسفية المفقودة لبعض المفكرين القدامى.

وقد حذا يوسيبوس حذو أسلافه من المفكرين فى تقديرهم الخاص لأفلاطون، فهو يخصص ثلاثة أجزاء كاملة من كتابه "الإعداد الإنجيلي" (١١-١٣) للحديث عن الأفلاطونية. وكان كلمنت السكندرى قد وصف أفلاطون "بالنبي موسى يكتب

باليونانية"، وهذا ما ذهب إليه أيضا يوسبيوس^(١)، بل إنه وصف أفلاطون "برسول الخلاص"^(٢). ولكن يوسبيوس، مثله في ذلك مثل كلمنت وأوريجين وفيلون، وأعتقد أن أفلاطون قد استقى الكثير من العهد القديم^(٣). وإن كان لم يستبعد أن يكون أفلاطون قد توصل إلى بعض الحقائق بنفسه أو بكشف نوارنى من به الله عليه^(٤). ويرغم يوسبيوس أن أفلاطون لم يكن فقط على اتفاق مع ما ورد في العهد القديم عن الله، وإنما هو أيضا قد تكلم عن الثالوث المقدس، ووضح أن يوسبيوس في هذه النقطة الأخيرة يتبنى تؤولات الأفلاطونيين المحدثين للمبادئ الثلاثة التي نادى بها أفلاطون وهي: الواحدة أو الخير؛ والعقل المدبر؛ ثم الروح^(٥). أما الأفكار أو المثاليات فهي مثاليات ربانية، أو مثاليات "اللوغوس"، وهي الأنموذج الأمثل للخلق، كما أن الصورة التي يقدمها أفلاطون في محاورة "طيماوس" شبيهة بالصورة التي وردت في سفر التكوين^(٦). كذلك يرى يوسبيوس اتفاقاً بين ما ورد في الكتاب المقدس وبين أفكار أفلاطون عن الأزلية^(٧)، في حين أن العبر الأخرى الواردة في محاورة "فيدروس" تذكرنا - كما يقول - برسائل القديس بولس^(٨)، كما أن "المدينة الفاضلة" تحاكي فكرة الحكم الإلهي في العهد القديم^(٩).

ولكن يوسبيوس بعد هذا يحتفظ بقوله إن أفلاطون وهو يقر هذه الحقائق قد التبست عليه مع بعض الأفكار الخاطئة^(١٠)؛ فعقيدته عن الله وعن الخلق مشوبة بفكرة "الفيض" وأزلية المادة، كما أن أفكاره عن الروح والأزلية متأثرة بنظريته عن الوجود

(1) 11,28.

(2) 13,13.

(3) 10,2'10,8;10,14.

(4) 11,8.

(5) 11,16;11,20.

(6) 11,23; 11,29;11,31.

(7) 11,27.

(8) 12,27.

(9) 13,12;12,16.

(10) 13,19.

القبلى"، وأيضاً بفكرة تناسخ الأرواح. وبهذا يصبح أفلاطون- عند يوسيبوس- مجرد نبي لم يقدر له أن يلج "أرض الميعاد" ليعاين الحقيقة، وإن كان باجتهاده قد قاربها. والحقيقة عند يوسيبوس تكمن فى التعاليم المسيحية، فهى "الفلسفة الحقّة" يضاف إلى هذا أن فلسفة أفلاطون كانت للصفوة المثقفة، بعيدة عن متناول عامة الناس، فى حين أن المسيحية جاءت للخاصة والعامة على حد سواء، للرجال والنساء، للغنى والفقير، لأهل العلم والبسطاء الناس، ومن خلالها يصبح الجميع "فلاسفة"، كما يقول يوسيبوس.

ليس هناك محل مناقشة آراء يوسيبوس عن الفيلسوف أفلاطون، وإنما يكفى أن نقرر أنه كسائر الكتاب المسيحيين الآخرين يضع أفلاطون فى مكانة خاصة، كما أنه يضع حداً فاصلاً بين اللاهوت بمعناه الدقيق وبين الفلسفة بمعناها الدقيق أيضاً. وواضح أن "الحكمة" الوحيدة التى يعترف بها هؤلاء الكتاب هى تعاليم المسيحية، ومن ثم فإن نقرأ قليلاً من الكلاسيكيين الذين استبقوا الأحداث باستشراق أفكار حقيقية هم الذين عرفوا الحكمة بمعناها الصحيح، ومن أبرز هؤلاء القلة كان أفلاطون، رغم أنه لم يتجاوز أعتاب الحقيقة الكاملة وبطبيعة الحال فإن اعتقاد هؤلاء الآباء بأن أفلاطون وبعض الفلاسفة الآخرين قد اقتبسوا بعض الأفكار من العهد القديم، إنما يعنى أن الفكر البشرى بدون إلهام سماوى لن يؤدى أبداً إلى الوصول إلى الحقيقة، وأن ما أصاب الفكر اليونانى من خلل كان من نتاج العقل الإنسانى، وينطبق هذا الحكم- عند هؤلاء الآباء- على أفلاطون نفسه. وهذا الموقف هو الذى كان سائداً فى الفكر على مدار العصور الوسطى الأوروبية، كما عبر عنه صراحة القديس بونايفنتورا فى القرن الثالث عشر، وإن كانت جماعة "المدرسين" قد نمت نمواً مخالفة اتضحت معالمة من كتابات القديس توما الإكوينى ودون سكوتوس على سبيل المثال.

٢ - القديس جريجورى من نيسا: وهو من أكثر الآباء اليونان علماً وإحاطة بالفلسفة، وهو شقيق القديس بازل، وقد ولد بقيصرية قبادوقيا (بخلاف قيصرية فلسطين) حوالى سنة ٣٢٥م. وقد اشتغل جريجورى معلماً للخطابة، حتى سيتم أسقفاً لبلدة نيسا، وتوفى سنة ٣٩٥م على وجه التقريب.

كان جريجورى مدرّكاً أن تعاليم الرسالة المسيحية تصل إلى القلوب بفعل الإيمان وليس على أساس العلل المنطقية، وأن أسرار الإيمان ليست بمسائل فلسفية أو قضايا علمية؛ لأنها لو كانت كذلك لأصبح الإيمان الغيبي الذى يسلم به المؤمنون شبيهها بالتفلسف اليونانى. ومع ذلك فإن الإيمان يرتكز أيضاً على قواعد عقلانية، فالتسليم بالأسرار مثلاً يبنى على عهدة الثقات الباكزين، كما أن التسليم بوجود الله يمكن البرهنة عليه فلسفياً. ومؤدى هذا- عند جريجورى- أن الإيمان هو أسمى مراتب المعرفة، ولكن هذا لا يحول دون إطلالة على الفلسفة من أجل تثبيت هذا الإيمان. وفى تقدير جريجورى أن الأخلاق والفلسفة الطبيعية والمنطق والرياضيات ليست مجرد تائم نزين بها معبد الحقيقة، وإنما هى بالأحرى أدوات معينة على دروب الحياة التى تتحلّى بالحكمة والفضيلة. وعليه فإنه لا ينبغي أن ننظر إلى هذه العلوم نظرة ازدراء^(١)، وفى نفس الوقت تبقى الرسالة السماوية هى المعيار للحقيقة والحكم على المنطق البشرى، وليس العكس^(٢). وهو يرى أيضاً أنه من الصواب أن نستخدم الفكر البشرى والعقل الإنسانى فيما يتصل بأمور العقيدة، شريطة أن تكون النتائج متسقة مع ما ورد فى الكتاب المقدس^(٣).

يستطرد جريجورى ليقول بأن النظام الذى يسير به الكون برهان على وجود الله، وبأن كمال الله برهان على وحدانيته، ثم ينتقل بعد هذا للحديث عن الأقانيم الثلاثة^(٤)، معلناً أن الله لا بد أن يكون "الكلمة" وهى العقل، وهى الكلمة الإلهية (لوغوس) التى تتجاوز الميقات والزمان بأزليتها وحياتها الأبدية، ولكن كلمة الإنسان وعقله أمور موقوتة. والكلمة الباطنة عند الإنسان هى أيضاً موقوتة عرضية، ولكن كلمة الله واحدة فى طبيعتها مع الأب؛ لأن إلهنا واحد. ثم يشرح جريجورى أنه ليس ثمة فارق بين الكلمة وبين الأب، فالعلاقة هنا علاقة تواصل وليست فارق انقسام.

(1) De Vita Moysis' P.G., 44, 336, 360 BC.

(2) Cg De anima et resurrectione, P.G., 16, 49, c.

(3) Cf. contra Euonom.: P.G., 46, 3418.

(4) Cf. aratis, Catechetica, P.G., 45.

على أن الدخول في شروح جريجورى لقضية الثالث ليست من اختصاصنا في هذا الكتاب، ولكن محاولته البرهنة عليها أمر هام؛ لأنه بهذا قد قدم سابقة لمحاولات لاحقة قام بها كل من القديس أنسلم، وريتشارد من سان فكتور.

لاشك أن القديس جريجورى، مثله في ذلك مثل القديس أنسلم، كان يهدف إلى شرح بعض الأسرار اللاهوتية بطريقة دياكتيكية وليس بطريقة منطقية قد شطح به بعيداً عن قوامه الإيمان الأرثوذكسى. وينطبق نفس الحكم على نظريته بأن كلمة "إنسان" إنما تنطبق بالدرجة الأولى على "الإنسانية" بمعناها الكلى، ثم على الإنسان الفرد في الدرجة الثانية. أما كلمة "الله" فهي تشير إلى الجوهر الإلهى الواحد، ثم هي كذلك تشير إلى الأقانيم الثلاثة. وواضح أن جريجورى بهذه التأويلات يحاول الرد على الاتهام بأن الأقانيم تعنى ثلاثة آلهة. ولكن هذا التأويل قد أتى بعكس ما قصد صاحبه إليه؛ لأنه ينطوى على ترجمة الكلى والخالص إلى المحسوس والمفرق في الواقعية.

هذا ويتضح "أفلاطونية" القديس جريجورى في قضية الكليات من أطروحته بعنوان: "خلق البشر"، حيث يميز بين الإنسان "السمائى" المثالى والكلى، وبين الإنسان الأرضى بخبرته الدنيوية. أما الأول فإنه يحيا وفق المثاليات الإلهية، ويعيش ما هو بالذكر ولا بالأنثى؛ أما الثانى فهو تعبير عن المثل الأعلى كما أنه محدد الجنس من ذكورة أو أنوثة. ويقصد جريجورى بالمثل الأعلى هذا صفة الأدمية التى تتوزع على أفراد كثيرين وعلى هذا، طبقاً لجريجورى، يخلق الأفراد لا عن طريق "الفيض" الإلهى، وإنما من خلال المثل الأعلى الكامن فى الكلمة الإلهية. وواضح أن هذه النظرية مستقاة من ينايع الأفلاطونية المحدثة وأفكار فيلون السكندرى، التى تبناها أول فلاسفة العصور الوسطى المبرزين جون سكون إريجيناء، الذى تأثر كثيراً بكتابات القديس جريجورى من نحصا وينبغى ملاحظة أن جريجورى لم يقصد بهذا وجود مخلوق مثالى غير محدد الجنس من الناحية الزمنية، وإنما هو يقصد أن كلمة الله سوف تتحقق فى الآخرة عندما تنتفى فكرة الذكورة والأنوثة؛ لأنه لا مكان للتزاوج فى ملكوت السماوات (وبعكس هذا القول تفسير جريجورى لكلمات القديس بولس الرسول حول هذه النقطة).

لقد خلق الله العالم بفضله وحبه لكي تكون هناك مخلوقات تطال هذا الخير والحب الإلهي، ولكن الله لم يخلق هذا العالم بالضرورة، وإنما بمشيئته الريبانية. وقد وهب الله البشرية نصيباً من هذه الإرادة الحرة، تاركاً للبشر حرية اختيار الخير أو الشر. وعلى هذا فإن الشر هو من اختيار البشر الحر، وليس من تقدير الإله لهم، حقيقة أن الله يعلم مسبقاً بهذه الشرور، ولكنه يمنح البشر ممارسة اختياراتهم بمحض إرادتهم الحرة، وهو عليم بأنهم في نهاية الأمر سوف يرجعون إليه. وهكذا فإن جريجورى يقر بنظرية أوريجين والقائلة بعودة جميع المخلوقات وحتى الشياطين أنفسهم والملائكة الساقطين إلى الخالق، وذلك بعد أن يعذبوا على أوزارهم فينظروهم في الدار الآخرة. وبمعنى آخر فإن كل مخلوق بشرى سوف يرجع في نهاية المطاف إلى المثل الأعلى الذي يحتوى الكل، وإن كان جريجورى في نفس الوقت يعتقد في أزلية المخلوقات. وهذه الأفكار، عن رجوع كل شيء إلى الله، أى إلى الأصل الأول (البدء الأول) الذي جاؤا أصلاً منه، وكذا القول بأن الله هو "الكل في الكل" قد اقتبسها جون سكوموس إريجينا عن القديس جريجورى، وهى التى أصابت لغة سكوتوس بشيء من الغموض، وإن كان قصد سكوتوس في النهاية ليس متماثلاً تماماً مع ما قصد إليه جريجورى أصلاً.

يلاحظ أيضاً أنه رغم اتفاق القديس جريجورى مع أوريجين في نظرية عودة كل الأشياء إلى خالقها، فإنه لم يشاركه الرأي في مسألة الوجود القبلى، فهو يقول في أطروحته "عن خلق البشر" أن كتاب "المبادئ"^(١) لأوريجين به انسياق واضح وراء النظريات اليونانية القديمة الخاطئة. أما عن الروح، فإن جريجورى يعتقد بأنها ليست في مكان محدد في جسم الإنسان، وإنما هى "جوهر مخلوق حى، عاقل، ذو كيان عضوى وحساس، ينبت الحياة والبصيرة، طالما أن الجسد والأعضاء التى تحتويها ينبض بالحياة"^(٢).

(1) P.G., 44, 229ff.

(2) De anima et res., 46,29.

والروح - عند جريجورى - بسيطة وغير مركبة؛ فهي تملك القوة على أن تظل حية حتى بعد موت الجسد^(١)، وإن كانت تتحد معه فى نهاية المطاف، فهي إذن روحانية وجسدية. ولكن أين يكمن الخلاف بين الروح والجسد؟ يعتقد جريجورى أن الجسد يتكون من خواص تشبه خواص الألوان، والكتلة والحجم والوزن، وأن اتحاد هذه الخواص هو الذى يؤلف الأجساد، وعندما تتحلل هذه الخواص يحدث الموت^(٢).

هذا وقد فجر جريجورى فى فصل سابق من نفس الكتاب "خلق البشر" مشكلة أخرى وهى: إما أن الأشياء المادية تنبثق من الله، وفى هذه الحالة يكون الله محتويا للمادة أيضا، وإما أن تكون المادة أزلية. ولكن جريجورى يرفض القول بالثنائية (الله والمادة)، ومن ثم فإن الخواص التى تملكها الأجساد ليست مادية. وفى حين يسلم جريجورى بأن الله خلق الأشياء "من العدم"، إلا أننا لا يمكننا كبشر أن ندرك كيف خلق الله تلك الخواص من العدم أيضا. ولكن من المعقول أن نفترض أن هذه الخواص التى تكون الجسد ليست فى حد ذاتها أجساداً مادية؛ لأنها لا تصبح ملموسة أو محسوسة إلا بعد اتحادها، ومن الواضح أن جريجورى متأثر فى هذا بأفكار أفلاطون عن الخواص كما وردت فى محاورة "طيماوس" والسؤال هو كيف إذن لا تكون هذه الخواص روحانية؟ ثم إذا كانت هذه الخواص روحانية، فكيف إذن تختلف الروح عن الجسد؟ وتكمن الإجابة عن هذه التساؤلات فى أنه على الرغم من أن اتحاد الخواص هو الذى يكون الجسد رغم أنها ليست أجساداً فى حد ذاتها، فإن هذه الخواص تملك صلة جوهرية بالمادة؛ لأن وظيفتها هى بنية المادة. ثم هناك مشكلة أخرى تتصل بأفكار أرسطو وتوما الإكوينى عن المادة والصورة. فالمادة الأولى ليست جسداً فى حد ذاتها، ولكنها هى العناصر الأولى المكونة للجسد. وإذا كان الأمر كذلك، فكيف إذن تختلف المادة عن اللامادى أو الروحانى؟ يرد أتباع توما الإكوينى بأن المادة الأولى ليس لها وجود بذاتها، وإنما هى تتواجد باتحادها بشئ محسوس. ولا شك أن

(1) Ibid., 44.

(2) De hominis Opificio, 10c. clt.

جريجورى كان يعتقد نفس الأفكار بالنسبة للخواص الأولى. ولعلنا نلاحظ عبثاً أن هناك مشكلات مشابهة تواجه بعض النظريات الحديثة حول تكوين "المادة". وبطبيعة الحال فإن أفلاطون- لو كان حيا- لكان سيرحب بهذه النظريات التى اجتهد فيها جريجورى من نيسا.

يتضح مما سبق أن جريجورى كان متأثراً كثيراً بالأفكار الأفلاطونية، والأفلاطونية المحدثه، وأيضا بكتابات فيلون السكندرى (كما يشتم من حديثه عن سعى الإنسان لكى يصبح على صورة الله، وعن هروب المتوحد إلى الواحد، وعن العدل فى حد ذاته، وعن الحب الخالص، وعن الصعود على الدرج قبالة الجمال المثالى). على أنه ينبغى ملاحظة أن جريجورى، رغم استخدامه لمصطلحات أفلاطونية وبدرجة أقل لأفكار من عد فيلون، فإنه لم يكن دائماً على إدراك لفحواها فى السياق الأفلاطونى أو الفيلونى، بل إنه على العكس قد استخدم هذه المصطلحات ليعرض أفكاراً مسيحية خالصة؛ فهو على سبيل المثال يرى فى السعى نحو الكمال أو "صورة الله" نعمة ربانية يهبها الله لمن يجاهدون من البشر بمحض إرادتهم على هذا الدرب، ويضيف قائلا بأن صورة الله تزرع فى الروح وقت "العماد" أما العدل - عند جريجورى- فليس فضيلة مجردة، ولا هو فكرة فى "العقل"، وإنما هو "الكلمة" التى تسكن الروح فى شركة طوبارية مع الفضيلة. كما أن هذه "الكلمة" (لوغوس) ليست صنوا للعقل الأفلاطونى، ولا هى الكلمة التى قال بها فيلون، وإنما هى "الأقنوم الثانى" فى الثالوث المقدس، وأنه ليس ثمة وسائط من أقانيم أدنى بين الله والخلائق.

وأخيراً ينبغى ملاحظة أن جريجورى من نيسا كان أول مؤسس حقيقى لللاهوت صوفى متسق. وهو هنا أيضا يستعين بأفكار أفلاطونية وفيلونية، ولكن فى معانٍ مسيحية، وضمن أطر تدور حول طبيعة المسيح. ويعتقد جريجورى أن العقل البشرى مهياً لأن يدرك الأشياء المحسوسة، وأن التأمل فى هذه الأشياء يؤدى إلى معرفة الله وصفاته (وهذا اللاهوت الرمزى شبيه باللاهوت الطبيعى بمعناه الحديث فى بعض النواحي). ومن جانب آخر، رغم مقدرة الإنسان على معرفة الأشياء المحسوسة، فإن

هذه المحسوسات ليست حقيقية تماماً، فهي مجرد سراب أو رموز تشير إلى حقائق لا مادية، تجاهد الروح للصعود قبالتها. على أن المجاهدة الروحية وما يعتورها من توتر يؤدي بها إلى حال من فقدان الأمل أو اليأس، وهي حال تشبه "المخاض"؛ لأن الروح التي تنجذب نحو خالقها تتخلى عن هدفها الأصلي نحو المعرفة، ولكنها رغم ذلك تجاهد علها تعاین الله الذي تنجذب إليه بالحب. ومن ثم فإن الروح تدخل في حال من الظلمة، التي أطلق عليها مفكرو العصور الوسطى "سحابة عدم المعرفة" (وهذا هو اللاهوت السلبي الذي تأثر به كثيراً ديونيسيوس المنحول). على أن الروح في مسعاها تجد نفسها أمام أحد خيارين: إما أن تسكن في الله، وإما أن تتجاوز نفسها لتصل إلى حالة من "الوجد". ولقد فسر أوريجين حالة الوجد الواردة عند فيلون بطريقة عقلانية، وفق الشطحات التي أتت بها جماعة المونتانيين. أما جريجورى فإنه يجعل "الوجد" قمة ما تصبو إليه الروح في مسعاها؛ فهو وجد المحبين، وهذه الظلمة التي تجد الروح نفسها فيها هي التي تحجبها عن الجوهر الإلهي المفارق. وقد فسر جريجورى جهاد الروح في السموات بدافع الحب والانجذاب قبالة النور الإلهي المتعالى. على أن توقف الروح عن المجاهدة الدؤوبة وهي تسعى قبالة العرش الإلهي المتعالى، الذي لا يمكن للعقل البشرى أن يدركه، وبمعنى آخر فإن "الظلمة" التي تسبح حول الروح قائمة أبداً، وهنا لا تجدى المعرفة العقلانية التي لا يمكنها إدراك المفارق الإلهية.

إن تصور جريجورى لمجاهدة الروح يحاكي تصور أفلوطين، وإن كان ينور حول طبيعة المسيح "كلمة الله". هذا والمثل الأعلى عند جريجورى ليس في المتوحد الانفرادى للإنسان الفرد، وإنما هو في الشركة الروحانية الطوباوية لمجموعة الأفراد، ذلك لأن تقدم روح معينة واحدة يؤدي بها إلى حال من الغبطة والبركة تكال الأرواح الأخرى من حولها، كما أن الحلول الإلهي في واحد من جماعة يؤثر على بقية الجماعة من حوله.

هذا وتشتمل صوفية جريجورى على أسرار كنسية؛ فالأيقونات تنعم بحلول البركة على الأفراد وقت العمداد، كما أن الشركة مع الله تتأتى من خلال تناول. ويمكننا القول بأن كتابات جريجورى من نحصا هي المنبع الذي استقى منه ديونيسيوس المنمول

والمصوفيون الآخرون، وصولاً إلى يوحنا صاحب الصليب، أفكارهم، سواء بطريق مباشر أو غير مباشر. كما أن هذه الأفكار هي التي أرست قواعد فلسفة الزهد المسيحية، التي تقود الروح على درج المعرفة والحب، وصولاً إلى حالة الوجد الصوفي والمعاينة الطوباوية. وعلى هذا الدرب سار كل من القديس يوحنا حامل الصليب، والفيلسوف المتصوف بونافنتورا.

٧ - ومن بين الآباء اللاتين جميعاً يهل القديس أغسطينوس من هبو (عذابة الجزائر اليوم) كأكثر هؤلاء الآباء فكراً وأبرزهم شموخاً. على أنه نظراً للأهمية البالغة لفكر أغسطينوس على مدار العصور الوسطى، فإننا سوف نعرض لفلسفته في توسع في فصل خاص. ويكفي هنا أن نشير في اختصار إلى القديس أمبروز (حوالي ٣٣٣-٣٩٧م)، أسقف مدينة ميلان. ويعكس تفكير أمبروز موقفه من الفاسقة، فهو كما هو متواتر عن الآباء الرومان ينصب على القضايا العلمية والمواقف الأخلاقية، مع جريمة من التأمل الميتافيزيقي. وقد اعتمد أمبروز في كتاباته على أركان العقيدة والكتاب المقدس، وأيضاً على أفكار الآباء اليونان، ولكنه في القضايا الأخلاقية يبدو متأثراً بالخطيب الروماني شيشرون؛ ففي كتابه عن "واجبات رجال الإكليروس" الذي ألفه سنة ٣٩١م، من أجل رجال الدين في ميلانو، يقدم شيئاً مناظراً لأفكار شيشرون في كتابه "عن الوظائف"، ولكن في ثوب مسيحي، مع إطلالة على الفضائل من وجهة النظر الرواقية وصولاً إلى المثل الأعلى للسعادة والغبطة الأزلية مع الله. وإن لم يكن القديس أمبروز قد أضاف الشيء الكثير إلى كادر الأخلاق المسيحي، إلا أن كتاباته كانت بعيدة الأثر على الكثير من الكتاب اللاحقين ممن تصدوا لمعالجة القضايا الأخلاقية.

٨ - مما سبق يتضح أن الآباء اليونان للكنيسة كانوا متأثرين بأفلاطون وميراثه الفكري إلى حد بعيد. على أن واحداً من هؤلاء الآباء المتأخرين هو الذي مهد الطريق لتقديم الفكر الأرسطي للغرب اللاتيني في ثوب مقبول، وذلك هو القديس يوحنا الدمشقي الذي توفي سنة ٧٤٩م. كان الدمشقي مناهضاً لسياسة الأباطرة الأيسوري في بيزنطة الذين أقدموا على تحطيم الأيقونات، فتصدى للدفاع عن الأيقونات وهاجم

الاباطرة المسئولين عن هذه الحملة ضد هذه الرموز الدينية. وكان الدمشقي أيضاً من المتضلعين فى علوم اللاهوت، ويمكن اعتباره رائد "المدرسين" فى الشرق البيزنطى، وهو لا يدعى أنه يقدم جديداً فى الفكر اللاهوتى، وإنما هو يكتفى بالحفاظ على أفكار أهل العلم القدامى ونقله للأجيال. على أن من يتخصص عرض الدمشقي لكتابات الأعلام السابقين لا يعدم أن يصادف أفكاراً أصيلة خاصة به؛ ففي كتابه الرئيسى بعنوان: "نبح الحكمة" نجد مسحاً لمنطق أنطولووجيا أرسطو، مع تعريج على أفكار فلاسفة آخرين من أمثال فورفوروريوس. وفى الجزء الأول عن الديالكتيك فى هذا الكتاب، يفصح الدمشقي عن رأيه بأن الفلسفة والعلوم الدنيوية الأخرى هى بمثابة الأدوات المعينة أو الوصيفات لخدمة اللاهوت، وهو بهذا يتبنى وجهة النظر التى نادى بها كل من كلمنت السكندرى، وجريجورى النازيانزى، وجريجورى من نيسا، وفيلون السكندرى، وهى وجهة النظر التى نراها تتردد كثيراً فى العصور الوسطى^(١). وفى الجزء الثانى من هذا العمل نفسه يستعرض الدمشقي تاريخ الهرطقات، معتمداً على كتابات السابقين لعصره؛ وفى الجزء الثالث عن "الإيمان الأرثوذكسى" يقدم مسحاً لللاهوت الأرثوذكسى القديم كما وضع أسسه الآباء القدامى فى أربعة أبواب، وقد قام برجنديوس من بيزا سنة ١١٥١م بترجمة هذا الجزء إلى اللاتينية، واستفاد من هذه التجربة كل من بطرس لومبارد وألبرت الكبير والقديس توما الإكوينى. هذا وجدير بالملاحظة أن يوحنا الدمشقي قد تمتع فى بلاد المشرق بنفس المكانة التى حظا بها توما الإكوينى فى الغرب اللاتينى.

٩- يتبين من العرض الموجز السابق أن البحث عن منظومة فلسفية نسقية فى أعمال آباء الكنيسة اليونان أو اللاتين- باستثناء القديس أغسطينوس- هو بحث لا طائل من وراءه؛ ذلك أن هؤلاء الآباء لم يضعوا خطأً فاصلاً بين مجالى الفلسفة واللاهوت، كما أنهم قد نظروا إلى المسيحية على أنها "الحكمة" أو الفلسفة الوحيدة دون

(1) P.G., 94, 532AB.

سواها! أما بالنسبة للفلسفة اليونانية، فإنها لا تعدو أن تكون عندهم أكثر من إرهاصة تمهيدية لبشارة المسيح، وإذا فإن تناولهم لهذه الفلسفة قد جاء من منطلق التمهيد لهذه البشارة، مع الكشف عما رأوه فيها من ضلالات عن دروب الحقيقة. فهم من ناحية ينسبون هذه الإهاسات إلى اقتباسات أخذها هؤلاء الفلاسفة من العهد القديم؛ ومن ناحية أخرى فإنهم يعززون الزيف والضللال في أفكارهم إلى قصور العقل البشرى وانحرافه عن الصواب تحت سراب الزعم بالأصالة وبفعل الغرور بالذات، وعندما اقتبس هؤلاء الآباء بعض الأفكار من الفلسفة اليونانية، فإنهم قاموا بذلك لاستخدام هذه الأفكار لخدمة الحكمة المسيحية، وليس بقصد إبرازها ضمن أطر فلسفية بالمعنى الدقيق.

ومع ذلك فإن كتابات هؤلاء الآباء لا تخلو من لسات فلسفية في بعض المواضع، فهم على سبيل المثال يستخدمون حججا عقلانية منطقية للتدليل على وجود الله، وهي مستقاة من مسلمات نظام الكون والحكمة الكامنة من وراءه، كما أنهم يتبحرون في الفرص وراء طبيعة الروح، كما أن بعض الأفكار التي وردت عند جريجورى من نيسا يمكن أن تدخل ضمن موضوعات فلسفة الطبيعة أو الكونيات، ولكن هذا جميعه لم يرد فى منظومة معدة بطريقة نسقية، ومن ثم فقد يرى البعض أنه لم يكن ثمة داع للتعرف إلى هؤلاء الآباء فى كتاب يعرض لتاريخ الفلسفة عبر العصور، ولكننا نعتقد العكس؛ لأن التعرّيج على أفكار هؤلاء الآباء أمر ضرورى للوقوف على الفكر المسيحى "المتفلسف"، الذى لا يعرف الكثيرون شيئا عنه.

ونود عند هذه النقطة أن نشير إلى أنه نظراً للمكانة الخاصة التى حظى بها مؤخراً القديس توما الإكوينى بين فلاسفة الكاثوليك، الذى كان قد تبنى النهج الأرسطى فى كتاباته، ونظراً للهجوم الذى شنه المفكرون الباكرون لعصرنا الحديث (من أمثال فرانسيس بيكون وديكارت) على "الأرسطية المدرسة"، فإن الكثيرين يعتقدون أن الفلسفة المسيحية أو الكاثوليكية تحديداً كانت أرسطية فى نزعتها، على أن النظرة المتأنية لفكر الآباء القدامى تكشف لنا عن أن هؤلاء الآباء كانوا متأثرين بأفلاطون،

وليس بأرسطو في جميع الأحوال. ولربما يرجع هذا إلى انتشار المبادئ الأفلاطونية الحديثة في زمانهم، التي من خلالها تعرف هؤلاء الآباء أفلاطون، ولكنهم لم يكونوا يعرفون إلا النذر اليسير عن أرسطو وفلسفته. وتبقى الحقيقة القائلة بأن هؤلاء الآباء قد نهلوا أفكارهم الفلسفية من نبع أفلاطون، الذي رأوا فيه مبشراً مبكراً للرسالة المسيحية. هذا ولقد أثر فكر الآباء، وخاصة فكر القديس أغسطينوس، ليس فقط في أهل العصور الوسطى المبكرة، وإنما أيضاً في أعلام متأخرين من أمثال القديس أنسلم والقديس يونا فتورا، ثم القديس توما الإكويني نفسه.

ومن هذا يتضح أن الوقوف على فكر آباء الكنيسة القدامى أمر مرغوب فيه، بل وضروري من وجهة النظر التاريخية على أقل تقدير.

الفصل الثالث

القديس أغسطينوس (١)

حياته ومؤلفاته - القديس أوغسطين والفلسفة

١- يحتل اسم أغسطينوس مكانة خاصة في الغرب اللاتيني المسيحي كأعظم الآباء الكنسيين سواء على المستوى الأدبي أو اللاهوتي. ولقد سيطر فكر أغسطينوس على الفكر الأوربي على مدار العصور الوسطى وحتى القرن الثالث عشر. ولقد ظل اسمه يتلألأ في كل الأروقة. فرغم تيار الأرسطية الجارف على يد القديس توما الإكويني ومريديه ، فإن هذا لم ينتقص من قدر العملاق أغسطينوس إفريقي المولد بحال. ولكي نتفهم التيارات المختلفة في فكر العصور الوسطى، لابد لنا من التوقف عند القديس أغسطينوس، وإن كنا سوف نكتفى بإيجاز عن حياته وأعماله في هذا العرض:

ولد أغسطينوس في بلدة تاجستا بولاية نوميديا (بشمال إفريقيا) في الثالث عشر من نوفمبر سنة ٢٥٤م، لأب وثنى اسمه ياتريكوس وأم مسيحية اسمها مونيكاً. ولقد تعهدت الأم ابنها بتربية على المبادئ المسيحية، وإن كان عماده قد تأخر بعض الشيء، تمشيًا مع التقاليد السائدة آنذاك^(١). ولقد تعلم الصبي ميادئ اللاتينية والحساب على يد أحد المدرسين في تاجستا، ولكنه كان متجذباً بشكل أكبر إلى اللهو واللعب، ثم أخذ

(1) Conf., 1, 11, 17.

فى تعلم اللغة اليونانية على كره منه، وإن كانت قصائد هوميروس قد أشعلت خياله المحب للقصص. وإذا فإن معسركة أغسطينوس باللسان اليونانى كانت ممدودة، فلم يتمكن أبدا من مطالقة النصوص اليونانية فى يسر.

وفى سنة ٣٦٥م قصد أغسطينوس إلى مدينة مادورا، حيث ذاعت شهرته فى الألب اللاتينى والأجرومية. وكانت مادورا آنذاك وثنية الطابع، وكان والده يأمل أن يساعد مناخ المدينة الوثنى إلى جانب دراسة الآداب اللاتينية القديمة فى المباعدة بين الفتى وبين عقيدة والده المسيحية. ولم تفلح التجربة، أو السنة التى أمضاها الفتى فى تاجستا (٣٦٩-٣٧٠م) فى تحقيق رغبة الأب. وفى سنة ٣٧٠م توفى والده، وفيها بدأ أغسطينوس فى دراسة الخطابة فى قرطاج، وهى أكبر المداين التى كان قد رآها حتى ذلك الوقت. ولقد أثرت قرطاج، وهى الميناء الكبير ومركز الحكم، بحياتها الصاخبة وإباحتها وبالبعد المستوردة من المشرق على خيال أغسطينوس وهو فى عنفوان شبابه، ولذا فإنه سرعان ما عصف بقواعد التعاليم المسيحية، واتخذ له محظية عاشرها لمدة تربو على العشر سنين، وأنجب منها ابنا فى السنة الثانية من إقامته فى هذه المدينة. ورغم هذا الانغماس فى حياة الدعة والصخب، فإن أغسطينوس كان طالبا متفوقا فى دراسته للخطابة، ولم تصرفه نزوات الطيش والشباب عن متابعة الدراسة.

ويعد أن قرأ أغسطينوس أطروحة شيشيرون بعنوان "فى مدح الفلسفة"، شعر بحاجة ملحة إلى البحث بطريقة عقلانية عن ماهية الحقيقة، وهنا اعتنق مبادئ المانوية، التى رأى فيها عرضا عقلانيا، بخلاف الأفكار "المتبربرة غير المنطقية" التى تقول بها المسيحية؛ ففى حين أن المسيحية تقول بأن الله خلق العالم وأن الله هو الخير، كان أغسطينوس يتساءل عمن إذن قد خلق الشر والشقاء؟ ولقد وجد أغسطينوس الإجابة فى أفكار المانوية، التى تؤمن بالتنائية؛ فهناك مبدأ أصلى للخير وهو النور الذى يمثله "أهورا مزدا"، وهناك مبدأ أصلى للشر وهو الظلام ويمثله "أهريمان". وهذان الأصلان - كما تقول المانوية- أزليان، والصراع بينهما لا يتوقف على سطح الأرض الذى شكله الاثنان فى حلقات صراعهما الأزلى. وبالنسبة للإنسان فإن الروح، وهى مؤلفة من النور فهى من صنع أصل الخير، فى حين أن الجسد المؤلف من مادة سميكة فهو من صنع

مبدأ الشر. ولقد أعجب أغسطينوس بهذه الأفكار الماثوية: لأنها قد شفت غلبه في البحث عن مشكلة الشر، ووجد أنها تقوم على أساس مادية ملموسة؛ لأنه حتى ذلك الحين من العمر لم يكن ليستوعب وجود حقائق مجردة لا مادية لا تقدر حواسنا العادية على إدراكها، ولما كان أغسطينوس على وعى بعواطفه ونزواته الحسية، فإنه راح يقنع نفسه بأن هذه النزوات من فعل قوى شريرة خارج إرادته، يلاحظ أيضاً أنه في حين كان الماثويون يدينون العلاقات الجنسية وأكل اللحم، ويتواصون بالزهد والصوم، إلا أنهم قصرُوا هذه الشعائر على "الخاصة" أو "المختارين" فقط، وليس على "المريدين" الذين كان أغسطينوس ينتمى إليهم.

وهكذا تباعد أغسطينوس عن التعاليم المسيحية، سواء على المستوى الأخلاقي أو الفكري ثم عاد إلى مدينة ناجستا سنة ٢٧٤م ليعلم الأجرومية والآداب اللاتينية لمدة عام، وبعدها أسس مدرسة للخطابة في قرطاج (ضربت سنة ٢٧٤م)، حيث عاش مع محظيته وابنتهما أديوداتوس (*) وخلال هذه الفترة فاز بجائزة الشعر (عن قصيدة درامية قد اندثرت)، ثم نشر أول كتاب بالنثر بعنوان: "عن الجميل والمتناغم". وقد ظل أغسطينوس في قرطاج حتى سنة ٢٨٣م. وقبل رحيله إلى روما مرّ بموقف بالغ الخطورة؛ إذ وقع في حال من الشك باتت تؤرقه وهو يتسائل عن اليقين في الفكر البشري، وعن الصراع بين المبدأين الأولين للخير والشر، وقد حدث أن حل بمدينة قرطاج أسقف مانوي الفكر اسمه فاوسيوس، فهرع أغسطينوس إليه لعلّه يقدم له إجابة شافية عن هذه التساؤلات المحيرة، ومع أن فاوستوس كان رجلاً مرحباً وودعاً، فإن إجاباته لم تشف غليل أغسطينوس. وعندها قرر أغسطينوس، وقد امتزت في ضميره الأفكار الماثوية، أن يرحل إلى مدينة روما، ومن النواقع الأخرى لرحيله إلى روما أن التلاميذ في قرطاج كانوا على خلق سييء وبهم شراسة جعلت السيطرة عليهم أمراً

(*) أديوداتوس Adeodatus أرعسطية الله (المراجع).

صعباً، فى حين أن ما وصله من أخبار عن الطلاب فى روما كان مطمئناً، هذا إلى جانب طموح أغسطينوس فى أن يحقق نجاحاً أكبر فى العاصمة الإمبراطورية.

وفى روما افتتح أغسطينوس مدرسة لتعليم الخطابة، ومع أن التلاميذ كانوا حسنى السلوك، فإنهم اعتادوا الهروب من المدرسة إلى مدرسة أخرى عندما يحين وقت دفع المصروفات المدرسية. وعليه فإن أغسطينوس راح يبحث عن وظيفة فى مدينة ميلان، حتى وفق فى الحصول على وظيفة معلم للخطابة فى واحدة من خواص ميلان سنة ٣٨٤م. على أنه لم يترك روما إلا بعد أن تخلص من الكثير من الأفكار الماثوية التى كانت تسيطر على عقله، وإن ظل فى حالة من الشك واختلاط الرؤى.

وفى مدينة ميلان أخذ أغسطينوس يقرب نفسه من الديانة المسيحية، خاصة بعد أن استمع إلى مواظ القديس أمبروز أسقف المدينة وهو يقدم تفسيراته لإصحاحات الكتاب المقدس. ولكنه رغم مواظته على دروس تعلم مبادئ الديانة المسيحية، فإنه لم يكن مقتنعاً تماماً بصحة ما يقوله له رجال الدين المسيحي. يضاف إلى ذلك أن عواطفه ونزواته النيبوية كانت لا تزال تلح عليه. ولقد ظلت والدته تحثه على الزواج من فتاة من معارفها، أملاً فى أن ينصلح حاله وتستقل نفسه، ولكن أغسطينوس لم يكن ليطبق الانتظار للاقتران بالفتاة الموعودة، فاتخذ له محظية جديدة بدلاً من والدة ابنه "أديوداتوس"، التى كان قد هجرها لكى يتهياً للزواج الموعود. وفى هذه المرحلة أقبل أغسطينوس على قراءة بعض الأطروحات الأفلاطونية من خلال الترجمة اللاتينية التى قام بوضعها فكتورينوس، وحتى فى أغلب الظن أفكار أفلاطونية محدثة مستقاة من "تساكية" أفلوطين السكندرى. ولقد ساهمت هذه الأفكار الأفلاطونية المحدثة فى تحرير عقل أغسطينوس من قيود الفكر المادى، ليتقبل فكرة الحقيقة اللامادية. كما أن المفهوم الأفلاطونى عن الشر كعنصر سلبي للخير، وليس كعنصر إيجابى قد بين له أنه فى قدرته مغالبة الشر بعيداً عن معادلة الثنائية الماثوية. ومن ناحية أخرى، جاء هذا الزاد الأفلاطونى المحدث فى هذه المرحلة ليسهل على أغسطينوس أن يستبصر شيئاً من المعقولية فى التعاليم المسيحية. وإذا فإنه انكب على قراءة العهد الجديد قراءة جديدة،

مع التركيز على رسائل القديس بولس. وإذا كانت الأفلاطونية المحدثّة قد أوصت أغسطينوس بالتأمل في الأمور الروحية وفي الحكمة بمعناها العقلاني، فإن العهد الجديد قد بين له ضرورة العيش وفق مفردات هذه الحكمة.

ولقد ترسخت هذه القناعات في ذهن أغسطينوس بعد لقائه بشخصين مرموقين هما: سبليكيانوس وبونتيتيانوس، وكان الأول كاهناً عجوزاً، وهو الذي روى عليه قصة تحول فكتورينوس عن الأفلاطونية المحدثّة إلى المسيحية؛ الأمر الذي جعل الشاب أغسطينوس يتحرّق شوقاً.. لأن يسير على نفس الدرب على حد تعبيره^(١)؛ في حين أن بونتيتيانوس راح يحدثه عن سيرة وحياة القديس أنطونيوس المصري المتوحد، الأمر الذي جعل أغسطينوس يشعر بالغثيان وهو ينظر إلى حالته الأخلاقية المتدهورة^(٢). وأثناء هذا الصراع الحاد بين إقدام وإحجام، حدث ذات يوم وهو في حديقة بيته أن سمع صوت صبي على سور المنزل يصيح مراراً وتكراراً وهو يردد عبارة تقول: "وإنها الساعة كي نستقيظ ونقرأ" (Tolle lege)، فهرع أغسطينوس يفتح الإنجيل بطريقة عشوائية ليجد كلمات القديس بولس في "رسالته إلى الرومان"^(٣)، وهي التي ختمت على تحوله النهائي إلى حال مغايرة من المعيشة الأخلاقية^(٤). ومن الواضح أن هذا التحول كان على المستويين الأخلاقي والإرادي، في أعقاب التحول الفكري. وما من شك في أن هذا كله قد جاء نتيجة للأفكار الأفلاطونية المحدثّة ولواعظ القديس أمبروز وكلمات سمبليكيانوس وبونتيتيانوس، وصولاً إلى ما طالعه في العهد الجديد. على أن الضنى الذي حل بصاحبنا في هذه المرحلة الثانية من التحول الأخلاقي قد ازدادت حدته على ضوء ما تكشف له من قواعد كان عليه أن يلتزم بها في أسلوب حياته، وهو بعد يشعر بالعجز عن تحقيق تلك القواعد، وإن كانت كلمات القديس بولس التي طالعها وهو في حديقة بيته قد زودته بنعمة "الرضا والقبول"، بل إنها هي التي غيرت حيات رأساً على عقب. وبهذا تحول أغسطينوس تحولاً تاماً، واعتنق المسيحية في صيف سنة ٣٨٦م.

(1) Conf., 8,5,10.

(2) Ibid., 8,7,16.

(3) Rom., 13,13-14.

(4) Conf., 8,8-12.

على أن المرض الذي كان قد ألم برثتيه جعل أغسطينوس يعتزل مهنة التدريس في بلد كاسيكيكوم، وبعدها أخذ مع بعض الأصدقاء في دراسة متأنية لتعليم الديانة المسيحية، مستعيناً في هذه الدراسة بأبوابه القديمة من أفكار الأفلاطونية المحدثة؛ لأن إيمانه كان لم يكتمل بعد. وفي هذه الخلوة وضع أغسطينوس عدة أطروحات انتقد فيها "أفكار الأكاديميين القدامى"، بينما تحدث في البعض الآخر عن "حياة القداسة" و"سلك الكهنوت". وبعد عودته إلى مدينة ميلان وضع أطروحة عن "خلود النفس"، وأخرى عن "المنجاة" وثالثة عن "الموسيقى"، وفي يوم سبت النور سنة ٣٨٧م تم عماد أغسطينوس على يد القديس أمبروز أسقف ميلان، وبعدها قرر أغسطينوس العودة إلى شمال إفريقيا. أما والدته فقد توفيت في بلدة أوستيا^(١) وهي تتأهب للإقلاع معه إلى الشمال الإفريقي. وعليه فقد أرجأ أغسطينوس رحلة العودة إلى الشمال الإفريقي، وفي أثناء إقامته في مدينة روما وضع عدة أطروحات عن "ماهية النفس" و"أخلاقيات الكنيسة الكاثوليكية وأخلاق المانويين"، وأخيراً في خريف سنة ٣٨٨م ألق أغسطينوس عائداً إلى شمال إفريقيا.

وفي أعقاب عودته إلى مدينة تاجستا، أسس أغسطينوس داراً رهبانية صغيرة، وفي هذه الفترة (٣٨٨-٣٩١م) انتهى من أطروحته: "ضد المانويين" و"العقيدة الحقّة؛ والموسيقى" و"الأخلاق". وكان أغسطينوس قد أخذ عهداً على نفسه أثناء إقامته في بلدة كاسيكيكوم بالآ يتزوج، وإن لم يفكر في الانخراط في سلك الكهنوت. ولكن أسقف مدينة عنابة سامه كاهناً رغم أنه سنة ٣٩١م. وعندما كان في زيارة إلى هذا الميناء الذي يقع على مسافة ١٥٠ ميلاً غربي قرطاج، والواقع أن الأسقف كان يشعر بالحاجة إلى أغسطينوس ليشهد من أزره في إدارة شئ من الأسقفية، وبهذا استقر أغسطينوس في عنابة وأسس بها بيتاً رهبانياً. وفي هذه المرحلة دخل في جدل مع المانوية، فوضع مؤلفاً بعنوان: "جدوى الإيمان"، وآخر عن "ثنائية النفس"، وثالث عن "الجدل ضد فورتيانوس"، ورابع عن "الإيمان والشواهد" وهو محاضرة عن العقيدة

(1) Ibid., 9,10,23-6.

كان قد ألقاها أمام مجمع من الأساقفة الأفارقة. كذلك وضع أطروحة أخرى موجهة ضد "الدوناتيين" بعنوان: "المزامير في مواجهة طائفة الدوناتيين" ثم بدأ في وضع شروح "لسفر التكوين" وإن كان هذا العمل لم يكتمل. وإلى هذه المرحلة أيضا ترجع عدة مؤلفات أخرى لأغسطينوس (٢٨٩-٣٩٦م) من قبيل: "مطارحة قضايا متنوعة"؛ و"ضد أديمانتوس المانوي"؛ و"عن القناعة"؛ وعن "موعظة المسيح على الجبل"؛ وعن "الرياء والكذب"؛ وعن "رسائل القديس بولس إلى الرومان والغلاطيين". وفي سنة ٣٩٥م سيم أغسطينوس أسقفًا مساعدًا لمدينة عناية، وعندها أقام داراً رهبانية أخرى في ناحية إقامته. وعندما توفي فاليريوس أسقف عناية سنة ٣٩٦م، خلفه أغسطينوس في كرسي الأسقفية، وظل في كرسيه هذا حتى وفاته. وقد كان عليه من هذا الموقع أن يتصدى لفرقة "الدوناتيين" المنشقة عن الكنيسة، التي كان نفوذ أتباعها أخذًا في الازدياد إلى درجة تبعث على القلق. ولقد دخل أغسطينوس في صراع حاد مع هؤلاء الدوناتيين سواء "بالوعظ أو المجادلة أو الكتابة. وفي خلال ذلك التقط بعض الوقت لكتابة عدة أطروحات من بينها: "عن قضايا متفرقة وهي موجهة إلى سمبلكيانوس (٣٩٧م)؛ وجزء من "الاعترافات" (وقد نشرت "الاعترافات" كاملة سنة ٤٠٠م)؛ ثم شروح "اسفر أيوب". كذلك تبادل أغسطينوس في هذه المرحلة عدة مكاتبات حول بعض الموضوعات في الكتاب المقدس مع العالم المرموق القديس جيروم.

وفي عام ٤٠٠م شرع أغسطينوس في كتابة واحد من أهم مؤلفاته في خمسة عشر جزءًا عن "الثالوث"؛ والذي اكتمل سنة ٤١٧م. وفي سنة ٤٠١م. وفي سنة ٤٠٠م أيضا ظهرت رسالته بعنوان: "تعليم قواعد الدين للبسطاء من الناس"؛ و"الإجماع حول الإنجيل"؛ و"واجبات الرهبان"؛ و"ضد فاوستوس المانوي" (في ٣٣ جزءًا)؛ و"الكتاب الأول ضد رسائل بتليانوس" الأسقف الدوناتى لبلدة سرت؛ ثم "الكتابين الثانى والثالث" تبعاً في نفس الموضوع (٤٠١-٤٠٢م) ولم ينته الأمر عند هذا الحد؛ إذ وضع أغسطينوس أطروحات أخرى (ضد الدوناتيين) في هذه المرحلة أيضا. وإلى جانب هذا

كتب أغسطينوس العديد من الرسائل، من بينها رسالة إلى ديوسقورس^(١)، يرد فيها على استفساراته عن شيشيرون، مع توضيح وجهة نظره في الفلسفة الوثنية بشكل عام، والتي تشي بميل إلى الأفكار الأفلاطونية المحدث (٤١٠م).

وفي أعقاب ذلك صدرت عدة مراسيم إمبراطورية تدين جماعة النوناتيين وأراهم (٤١١م). وبعدها اتجه أغسطينوس لمجابهة فرقة أخرى هي جماعة البيلاجيين من أتباع بيلاجيوس الذي بالغ في إعطاء الإنسان الفرد قدراً واسعاً من حرية الإرادة والطريق إلى الخلاص، كما أنه أنكر فكرة "الخطيئة الأولى" لسيدنا آدم. وقد قام بيلاجيوس بزيارة إلى قرطاج سنة ٤١٠ في صحبة كويلستيوس، وبعدها توجه إلى بلاد المشرق. وفي سنة ٤١١م صدر قرار بالحرمان ضد كويلستيوس في مجمع عقد في قرطاج. ولقد حاول بيلاجيوس الاستناد إلى نصوص وردت عند أغسطينوس في كتابه عن "حرية الإرادة" لتبرير آرائه، ولكن أغسطينوس بادر بالرد عليه في أطروحة بعنوان: عن "الخطايا والذنوب وغفرانها"، وأخرى بعنوان: "عماد الصغار" وهي موجهة إلى مرسلينوس، أتبعها في نفس العام (٤١٢م) بأطروحة عن "الروح والآداب"، وأخرى عن "الإيمان ومعجزاته" (٤١٣م)؛ ثم أطروحة ضد بيلاجيوس بعنوان: "الطبيعة والنعمة الإلهية" (٤١٥م)؛ وأخرى عن "كمال العدالة الإنسانية" (٤١٥م).

وكان أغسطينوس قد بدأ سنة ٤١٣م في وضع كتابه العملاق "مدينة الله" (الذي اكتمل سنة ٤٢٦م، وهو أعظم وأشهر كتاباته جميعاً. وبينما كان أغسطينوس يخط هذا العمل الهام، كانت روما محاطة بجحافل الجرمان المتبربرين من كل جانب. كذلك وضع أغسطينوس "شروحا مفصلة للمزامير"، ورسالة وموجهة إلى "أوروزيوس ضد أتباع برسكليانستاس وأوريجسين" سنة ٤١٥م، وكان برسكليانستان هذا أسقفاً مهبطاً في إسبانيا. وفي سنة ٤١٧م أخرج أغسطينوس هجوماً آخر ضد بيلاجيوس وأفكاره، وبعدها بعام أخرج أطروحة عن "نعمة المسيح والخطيئة الأولى". وأثناء ذلك أيضاً

(1) Epist., 118.

(٤١٦-١٤٧م) أنهى كتابه عن "الثالوث"؛ وآخر عن "إنجيل يوحنا"، وثالث عن "رسائل يوحنا إلى البارثيين"، إلى جانب العديد من الرسائل والمواظ.

وفى سنة ٤١٨م تمت إدانة الهرطقة البيلاجية، مرة فى مجمع للأساقفة الإفريقيين، وأخرى بواسطة الإمبراطور هونوريوس، ثم على يد البابا زوزيموس بعد ذلك؛ وإن كان أتباع البيلاجية قد ظلوا ناشطين لا يهدأون. وعندما وجه جوليان "الأسقف الهرطيق" فى إكلانوم اتهامه لأغسطينوس بأنه مبتدع فكرة "الخطيئة الأولى"، رد عليه أغسطينوس فى أطروحة بعنوان: "الزواج والمحظيات" (٤١٩-٤٢٠م) وفى سنة ٤٢٠م وجه أغسطينوس كتابين، واحداً إلى البابا بونيفاس حول أفكار بيلاجيوس الهرطقة؛ والآخر عن هرطقة جوليان فى سياق دفاعه عن بيلاجيوس (٤٢١م). كذلك أخرج أغسطينوس فى هذه الحقبة نفسها كتاباً "عن النفس وأصلها" (٤١٩م)، وآخر "ضد الرياء والكذب وبيان فضل القناعة" (٤٢٠م)، ثم كتاباً "عن خصوم الناموس والأنبياء" (٤٢٠م)، وآخر عن "الدعاء" موجهاً إلى لورنتيوس؛ وآخر "عن الإيمان والرجاء والمحبة" (٤٢١م)؛ ثم رسالة إلى باولينوس فولانوس "عن رعاية أجساد الموتى" (٤٢٠م/٤٢١م).

وفى سنة ٤٢٦م عندما شعر أغسطينوس بدنو أجله، قام بتعيين الكاهن هرقلوس خلفاً له بعد أن يوافيه الأجل، وقد رحب شعب الأبروشتيه بهذا الاختيار. هذا ولم يتوقف أغسطينوس حتى فى هذه المرحلة الحرجة من حياته عن الكتابة؛ فنشر سنة ٤٢٦/٤٢٧م كتاباً عن "النعمة الإلهية والإرادة الحرة" موجهاً إلى فالنتينوس، ثم كتاباً آخر عن "التوبة والنعمة الإلهية"، إلى جانب كتابين آخرين بعنوان "المراجعات"، ينظر فيه بعين ناقدة إلى كل ما ورد فى كتاباته السابقة حسب تتابعها الزمنى.

وبينما كان أغسطينوس منعكفاً على كل هذه الكتابات، كان موقف الإمبراطورية الرومانية يزداد سوءاً على سوء؛ ففي سنة ٤٢٩م قاد الزعيم الجرمانى جنزريك جحافلهم من جماع الوندال من إسبانيا إلى شمال إفريقيا. ورغم هذه السحب المتبريرة القائمة ظل أغسطينوس ممسكاً بقلمه، فأخرج سنة ٤٢٧م كتاباً بعنوان "مرآة النصوص

المقدسة" وهو مختارات من نصوص الكتاب المقدس، وفي سنة ٤٢٨م أخرج كتاباً عن "الهرطقة" موجهاً إلى كودفولتيديوس، وأتبعه بكتابين آخرين عن "العطايا للصابرين على المحن"، وعن "المقدر والمكتوب" من النعم الربانية، وهماً موجهان إلى بروسيريوس (٤٢٨/٤٢٩م). هذا إلى جانب عمل لم يكتمل "ضد جوليان" (٤٢٩م) يفند فيه هجوم جوليان عليه في دفاع الأول عن أفكار بيلاجيوس، وإن كان أغسطينوس قد توفي قبل أن ينهى هذا العمل. يذكر أيضاً أن أغسطينوس قد تصدى لهرطقة أريوس مرتين في عمليين بعنوان "مقارنة النصوص"، ثم "المجابهة ضد ماكسمين الأسقف الأريوسي".

وفي أوائل صيف سنة ٤٣٠م، قام الوندال بضرب حصار قاس حول مدينة عناية، وفي أثناء هذا الحصار الوندالي توفي أغسطينوس، وذلك في ٢٨ أغسطس سنة ٤٣٠م، وهو يردد مزامير التوبة. ويلاحظ يوسيديوس كاتب سيرة أغسطينوس أن الرجل لم يترك وصية؛ لأنه كواحد من فقراء الله لم يكن لديه ما يتركه. ولقد قام البرابرة الوندال بإحراق مدينة عناية، ولكن كاتدرائية المدينة ومكتبة أغسطينوس قد أفلتتا من هذا الدمار. وقد كتب يوسيديوس سيرة القديس أغسطينوس ضمن سير الآباء اللاتينية، ومن بين ما سطره في هذه السيرة قوله: "إن هؤلاء الذين يطالعون ما كتبه القديس أغسطينوس عن الأمور الإلهية سوف يجنون نفعاً عظيماً، وإن كنت أعتقد أن الذين قُدر لهم أن يستمعوا إليه أو يروه وهو يعظ الناس، أو يسعدهم الحظ بالحديث معه كانوا أوفر حظاً وأكثر نفعاً".

٢ - قد يبدو غريباً أننا قد تكلمنا عن القضايا اللاهوتية التي أسهب في الكتابة عنها القديس أغسطينوس، وأننا قد أوردنا أيضاً قائمة طويلة بمؤلفاته اللاهوتية. على أننا نقصد من وراء هذا الرصد أن ندلل على أن أغسطينوس لم يكتب أعمالاً فلسفية بالمعنى الدقيق للكلمة اللهم إلا فيما ندر. ولسنا ننوي في هذا العمل عن تاريخ الفلسفة أن نتعرض إلى آراء أغسطينوس اللاهوتية الصرفة، إلا في بعض النقاط التي تحمل بين ثناياها أفكاراً فلسفية؛ ففي جمال نظرية المعرفة علينا أن نتأمل فيما ورد عنده عن "الثالث؛ وفي مجال العقل علينا أن نفتش بها كتبه عن التفسير الحرفي لسفر "التكوين"؛ في حين أن ما سجله في "الاعترافات" يلقي لنا الضوء على موقفه من قضية

الزمن. وقد يبدو هذا الخلط بين المسائل اللاهوتية والفلسفة أمراً غريباً وغير منهجى بالنسبة لنا اليوم، وقد اعتدنا على وضع خط واضح بين مجال الدوغما اللاهوتية ومجال الفلسفة. ولكن لابد لنا أن نتذكر أن أغسطينوس، مثله في ذلك مثل الآباء الآخرين والكتاب المسيحيين الباكزين، لم يكن يفرق بين المجالين اللاهوتى والفلسفى. ولا يعنى هذا أن أغسطينوس لم يعترف بقيمة العقل فى الوصول إلى الحقيقة نون عون من الوحي السماوى، وإما هو يركز فى المقام الأول على الحكمة المسيحية فى نظرة شمولية لأركان الإيمان، حتى تتضح له رؤية العالم والحياة الإنسانية من خلال هذه الحكمة. وكان أغسطينوس يدرك جيداً أن الحجج العقلية لإثبات وجود الله كثيرة، ولكنه لم يكن ليولى هذه الحجج اهتماماً كبيراً بقدر اهتمامه بالجانب الإيجابى فى التسليم بالإرادة الإلهية، ويأتى لكى يحصل المرء على هذا التسليم الإيمانى بطريقة ملموسة، فإنه فى حاجة ماسة إلى نعمة ربانية تفتح بصيرته. ومجمل القول أن أغسطينوس لم يكن يقوم بدور مزيج، يجمع بين اللاهوتى من ناحية وبين الفيلسوف الذى يتأمل فى "الإنسان الطبيعى"، وإنما هو قد نظر إلى الإنسان بالمعنى المحسوس: الإنسان الذى سقط بفعل الخطيئة الأولى ثم افتدى من هذه الخطيئة بفضل الله، الإنسان الذى بمقدوره أن يصل إلى الحقيقة فقط عندما تحل عليه النعمة الربانية ليعاين الحقيقة وسبل الخلاص. أما إقامة الحجج العقلية فإنها مجرد مرحلة أو أداة على الطريق تعين الإنسان على التحول إلى طريق الخلاص. وهذه الأدوات العقلانية تحتاج إلى تأهب معنوى أو روحانى لكى تكتسب مصداقية وحيوية ولا يكفى - عند أغسطينوس - مجرد الاعتراف بوجود الله، وإنما على المرء أن يجاهد روحانيا حتى يعمر الإيمان فى قلبه، ويتوافق سلوكه مع الرسالة السماوية وتعاليم السيد المسيح. إن للعقل دوره فى إدخال الإيمان إلى قلوب البشر، وفى التعمق فى فهم مفردات الإيمان، ولكن الأهم من هذا وذاك عند أغسطينوس هو علاقة الروح بخالقها. وهكذا يتبين لنا أن للعقل دوراً هاماً فى المهلة الفكرية التى يصل بها هذا العقل إلى موقف الاقتناع، وبعد التأمل فى هذه القناعات يقترب المرء من الحكمة وأعتاب الإيمان: "إن دواء الروح، وهو هبة من العناية والرحمة الربانية، مكتمل وجميل فى درجته ونوعه؛ لأنه يتوزع بين القدرة الإلهية وبين العقل معا.

وفى حين أن القدرة الإلهية تتطلب الإيمان من البشر، وتعيد الإنسان إلى العقلانية، فإن العقلانية تمكن الإنسان من الإدراك والمعرفة، وإن كانت العناية الإلهية لا تتخلّى عن العقل عندما يفكر فيما يعتقد فيه" (١).

إن هذا الموقف يعبر عن التراث الأغسطيني بشكل واضح، وفى حين أن القديس أنسلم قد عبّر عن ذلك بقوله: "إننى أؤمن لكى أفهم"، فإن القديس بوناغنتورا (قرن ١٢م) قد رفض صراحة الفصل المتعسف بين مجال اللاهوت والفلسفة، وما يستتبع ذلك من الأساليب المستخدمة فى كل من المجالين؛ وهو موقف قد تولد بالضرورة عن اتجاهات مبكرة، ولكنه يتميز بالتجاوب مع الفروق الحقيقية بين المجالين: السماوى الموحى به، والعقلى الصرف أو بمعنى آخر الغيبى من ناحية والطبيعى من ناحية أخرى. وهذه المعادلة تمثل ضمانةً سليماً للعقيدة عن إيمان من ناحية، ولسلطان العقل الإنسانى أيضاً، على أن موقف أغسطينوس من ناحية أخرى يتميز بأنه ينظر إلى الإنسان من حيث هو، أى بالمعنى الحسى، الذى ليس أمامه سوى نهاية واحدة وهى النهاية الغيبية. وأما واقعه فهو حقيقة سقوطه ثم فدائه، ومن ثم "فلم يكن هناك، وليس هناك وإن يكون هناك إنسان طبيعى تماماً بدون غائبة غيبية". وإذا كان توما الإكويني يؤكد على الفصل بين ما هو غيبى وما هو طبيعى، أى بين الإيمان والعقل، فإن أغسطينوس يصور الإنسان من حيث موقعه الملموس، ويولى أهمية قصوى لعلاقة الإنسان مع الله.

أما والأمر كذلك، فإنه من الطبيعى أن نفتش عن آراء أغسطينوس "الفلسفة الخاصة" من داخل نسيجها الفكرى فى مجمله، وللوصول إلى ذلك يتوجب علينا أن نقمص فكر أغسطينوس من وجهة نظر توما الإكويني. على أن هذا لا يعنى الخروج عن مشروعية البحث؛ لأننا فى الواقع نفتش عن الأفكار الأغسطينية المتصلة بالفلسفة بالمعنى الأكاديمى لمصطلح الفلسفة. وينطوى هذا التوجه بالضرورة على انتزاع أفكار أغسطينوس من سياقها الأصيل الكامل فى معرض تأريخنا للفلسفة. ولا بد من

(1) De ver relig., 24, 45.

الاعتراف بأن مثل هذا الانتقاء لأفكار أغسطينوس الفلسفية من المنظور الذى ينتهجه أتباع توما الإكوينى إنما ينتهى بتقديم فكرة هزيلة عن عطاء القديس أغسطينوس الفكرى، بما يتضمنه من نزعات أكاديمية وموضوعية. والحق أن أغسطينوس لم يبلور منظومة فلسفية متكاملة من قبيل ما قام به توما الإكوينى ومريدوه. كذلك يبدو من الصعوبة بمكان فى بعض القضايا أن نفهم ما كان أغسطينوس يعنيه على وجه التحديد، لأن أفكاره محاطة دائماً بهالة من الغموض والتلميحات، كما يعوزها التحديد الدقيق أحياناً، الأمر الذى يترك القارئ فى حالة من الحيرة والفضول المشرب القلق.

هذا ويعتقد أتباع مدرسة توما الإكوينى من المتشددين أن فلسفة أغسطينوس لا تحتوى على شىء ذى بال؛ لأن ما ورد غامضاً ومنقوصاً عند أغسطينوس قد جاء واضحاً وجلياً ومحددأ عند أستاذهم توما الإكوينى. ومع ذلك تبقى حقيقة هامة وهى أن تراث أغسطينوس باقٍ وحى ولم يتدنس حتى إلى يومنا هذا، ولربما كان هذا القصور وغيبية المنظومة فى فكر أغسطينوس، مع مبادأة فكرية هنا وهناك من الأشياء التى حسبت لأغسطينوس، والتى ساعدت على تواتر هذا الفكر الذى لا يعرض قالباً معيناً مكتملاً إما أن يقبل كما هو أن يرفض أو يشوه. وفى جميع الأحوال فإن الفكر الأغسطينى يعد مطارحة وإلهاماً وأفكاراً قابلة للأخذ والعطاء، الأمر الذى يعزز من تشييد أشياء الأغسطينية بتراث معلمهم، رغم خروجهم فى أغلب الأحيان عما كان المعلم نفسه قد قصد إليه أصلاً.

الفصل الرابع

القديس أغسطينوس (٢)

قضية المعرفة الطوباوية - المعرفة فى مواجهة الشك - المعرفة
الخبرية - طبيعة الحس - الفكر الإلهى - التجلى والتجريد

١ - إن الحديث عن "المعرفة" (الإبستمولوجيا) عند القديس أغسطينوس قد يعطى الانطباع بأنه كان مهتماً ببلورة نظرية خاصة عن المعرفة أو تقديم تمهيد منهجى ينتقل به من "الطبيعى" إلى "ما وراء الطبيعى" (أو الميتافيزيقى). ولكن هذا الانطباع خاطئ تماماً؛ لأن أغسطينوس لم يفكر أبداً فى تقديم نظرية عن المعرفة من منطلق واقعى من أجل بناء منظومة ميتافيزيقية.

وإذا كان الفيلسوف سبينوزا^(١) - كما قال هو بنفسه - قد قصد إلى بناء فلسفة عن "الله والمادة" لكى يتأمل فى الأمور الأزلية التى تشبع العقل والقلب جميعاً، ومن ثم تتم الروح بالغبطة والسعادة، فبالأحرى أن يقال هذا أيضاً عن القديس أغسطينوس، الذى أكد على قيمة المعرفة فى السعى إلى الحقيقة، لا لأغراض أكاديمية، وإنما لتحقيق "الغبطة والسرور والحبور" أو السعادة الحقيقية.

إن الإنسان مدرك لعجزه، ولذا فهو يسعى دائماً إلى تحقيق هدف يتجاوز به هذا العجز أو القصور، أملاً فى تحقيق السعادة، كما أن معرفة هذا الهدف شرط أساسى

(1) De Intellectus Emendatione.

لتحقيق ما ينتغيه الإنسان، وهكذا تصبح المعرفة هي السعادة نفسها، كما أن الإنسان "العارف" (الحكيم) هو فقط الذى يمكنه أن يشعر بالسعادة، فالحكمة هي التي تبسط أمامه معرفة الحقيقة. على أن أغسطينوس لا يجعل البحث عن الحقيقة هدفاً في حد ذاته؛ ففي أطروحته بعنوان "ضد دعاة الأكاديمية" يفتد مقولة الشاب ليكنتيوس بأن السعادة تكمن في البحث عن الحقيقة أكثر من الوصول إلى الحقيقة وامتلاكها (كما قال فيما بعد الفيلسوف ليسنج (Lessing)، قائلاً في عنف بأنه من السخف أن نصف إنساناً ما بالحكمة، وليس لديه دراية أو معرفة عن الحقيقة. وفي كتابه "الحياة السعيدة"⁽¹⁾، يعلن أغسطينوس أن لا سعادة لإنسان لا يمتلك الأدوات التي تحقق له ما يسعى للوصول إليه؛ بمعنى أن الإنسان الذي يبحث عن الحقيقة ولم يعثر عليها بعد، لا يمكن أن يوصف بالسعادة. ولقد كان أغسطينوس نفسه يبحث عن الحقيقة؛ لأنه كان في مسيس الحاجة إليه، وعندما وصل إلى غايته ونظر إلى الوراء فسر ما كان يجاهد في سبيله على أنه كان "بحثاً عن شخص المسيح والحكمة المسيحية كأداة جذب نحو السعادة الإلهية"؛ ومن ثم راح يطلع العالم على هذه الخبرة الذاتية التي قد خبرها، ولكن هذا الإعلان الخبري لا يعنى أن أفكار أغسطينوس أفكاراً ذاتية خالصة، اللهم إلا من حيث خبرة التأمل والاستبطان السيكلوجي التي مكنته من الكشف عن دينامية الروح الإنسانية.

ومن المهم أن نلاحظ أننا عندما نقول بأن أغسطينوس لم يكن مفكراً عقلانياً بالمعنى الأكاديمي الدقيق، وبأن فلسفته كانت من ضروب السعى لالتماس السعادة على أساس من السلوك الأخلاقي، فإننا بهذا لا نعنى أن الرجل لم يكن واعياً لمشكلة اليقين. على أننا نخطئ إذ نظن أنه كان منشغلاً بالتساؤل عن مقدرة البشر في الوصول إلى اليقين؛ لأنه قد قدم جواباً لهذا التساؤل. إن ما كان يشغل أغسطينوس حقاً وهو في

(1) 10, AND 14:4, 24ff.

مرحلة نضجة الفكرى هو تساؤله عن "كيفية الوصول إلى هذا اليقين"، وكانت هى المشكلة الملحة؛ إذ... كيف يتأتى للعقل البشرى المحدود أن يصل إلى معرفة يقينية عن الحقائق الأزلية التى تحكم العقل البشرى نفسه ومن ثم فإنها تتجاوزها؟.

الواقع أنه بعد أن فتر إيمان أغسطينوس بفكر المانوية، شعر برغبة فى العودة إلى منهج الشك الأكاديمى، ولكنه سرعان ما تجاوز هذه المرحلة، كما عبر عن ذلك فى أطروحته "ضد دعاة الأكاديمية"، حيث قال بأنه فى إمكاننا كبشر أن نصل إلى حال من اليقين عن بعض الحقائق الأزلية والضرورية قد خلقت له مشكلة أخرى، وفى نهاية المطاف خلص أغسطينوس إلى القول بأن معرفة الحقائق الأزلية هى التى تؤهل الروح لتصبح عارفة بالله وبصنائه أيضاً.

٢ - كنا قد ذكرنا أن أغسطينوس فى أطروحته "ضد دعاة الأكاديمية" قد اهتم فى المقام الأول بتوضيح الصلة الحميمة بين الحكمة والسعادة، وبين معرفة الحقيقية والحكمة، وهو فى هذا المقام يوضح أيضاً أنه حتى الشاككين لديهم يقين عن بعض الحقائق؛ فهم على سبيل المثال يُسلمون بوجود فكرة عن الشيء ونقيضه، عن الصواب والخطأ؛ من قبيل القول: "أنا واثق بأن هناك عالماً واحداً أو أكثر من عالم واحد؛ قلن كان الاحتمال الثانى صحيحاً، فإذن هناك احتمال وجود عدد معين من العوالم أو عدد لا محدود من العوالم. وبالمثل يمكن القول إننى مدرك أن العالم ليست له بداية ولا نهاية، أو أن العالم له بداية ولكن ليست له نهاية، أو أنه ليس للعالم بداية وإنما له نهاية؛ أو أن للعالم بداية ونهاية. ويعنى هذا كله أننى مؤمن بمبدأ التناقضات^(١). ويتضح هذا الموقف أيضاً عندما اعتقد أن المظهر والواقع لشيء ما متطابقان، فهذا الاعتقاد إنما هو وليد انطباع ذاتى أحس به. وليس لدى ما يبرر الشكوى من حواسى؛ لأنه ليس من العدالة أن أطلب من هذه الحواس أكثر مما تطيق، فما تبصره العين إنما تبصره عن حق. خذ مثلاً مثالا للعين التى ترى المجذاف عندما يغمس فى الماء فإنها تراه منكسراً،

(1) C.Acad., 3,10,23.

فهل يحق لى إذن أن أتهم العين بأنها تضللنى فيما تراه على هذه الشاكلة من الانكسار؛ لأنه فى الظروف الطبيعية كانت سوف ترى المجداف نفسه مستقيماً كما ينبغى على العين أن تراه؟ ولربما قال قائل: لا ينبغى علينا أن نخادع أنفسنا، بل يجب أن نقر بالأشياء كما تظهر لحواسنا وليس من حق الشكاكين أن يتندروا على ما تراه العين من ألوان، أو تسمعه الأذن من أصوات، أو ما يشمه الأنف من رائحة، أو ما يحس به اللسان من مذاق، أو تستشعره اليد من برودة أو حرارة للمس.

إن القديس أغسطينوس فى هذه الفقرة يشير إلى جماعة الأبيقوريين، وهو فى نفس الوقت يريد أن يبين لنا أن الحواس لا تخادع أحداً أو تضلل، حتى عندما نحاول نحن مخادعة حواسنا وأنفسنا، إن ظهور المجداف منكسراً وهو فى جوف الماء ليس خداعاً، ولأن ظهور هذا المجداف منكسراً وهو فى جوف الماء ليس خداعاً، فلو أن هذا المجداف ظهر للعين مستقيماً فى جوف الماء لكان هناك خلل فى العين التى تبصره. "إن الصواب هو تقرير حالة المجداف كما يبدو فى صدق تام، وينطبق نفس الشيء عندما أقرر أن هذا الماء بارد بعد لمسسه بيدي، ولا مجال هنا للشك فى صدق ما أحس به!"^(١).

أما بالنسبة للشك، فإن من يشك فى أمر ما يكون متيقناً من حقيقة هامة؛ وهى أنه فى حالة شك. وهذا التسليم بالحقيقة فى حال الشك، حتى فى الحقيقة نفسها، يعنى أن هناك شيئاً يسمى "الحقيقة" راح العقل يشك فيه^(٢). كما أننا على يقين من بعض الحقائق الرياضية؛ ففى الحساب عندما نقول إن سبعة زائد ثلاثة تساوى عشرة، فإننا لا نقول بأن الحاصل ينبغى أن يكون عشرة، وإنما نقول بأن رقم عشرة هو الحصلة الحقيقية لهذا الجمع^(٣).

(1) Ibid, 3,11,26.

(2) De ver relig., 39,73.

(3) De lib. Arbit., 12,34.

٢ - ولكن ما الموقف بالنسبة للوجود الشخصي، وهل نحن على يقين من وجود شيء حقيقي بالفعل، أم أن هذا اليقين ينحصر فقط في بعض المبادئ المجردة والمسلّمات الحسابية.

يجيب أغسطينوس على هذه التساؤلات بقوله بأن الإنسان، على أقل تقدير، موقن بحقيقة وجوده، وحتى لو أننا افترضنا أنه يشك في وجود أشياء أخرى مخلوقة أو في الخالق نفسه، فإنه مع ذلك تبقى أمامه حقيقة أنه وهو يشك فهو بالضرورة موجود؛ لأنه لم يكن ليشتك لو لم يكن موجوداً، وبالمثل فإنه من العبث أن نفترض أن المرء يخادع نفسه وهو يتفكر في هذا الوجود؛ لأنه "لولا هذا الوجود لما كان هناك مجال للحديث في الشك في أي شيء"^(١) ولهذا الطريقة يكون أغسطينوس قد سبق الفيلسوف ديكارث صاحب مقولة: "أنا أشك فإنّ أنا موجود". هذا ويقرن أغسطينوس قضية الوجود بقضية الحياة والوعي، ففي أطروحته عن "الإرادة الحرة"^(٢) يبين أن الإنسان يعي وجوده من واقع حياته، وبذلك ينبني يقينه على ثلاثة أشياء: الوجود، والحياة، والوعي، ونجد نفس المعنى في أطروحته عن "الثالوث"^(٣) أيضاً، حيث يلاحظ أنه من العبث بمكان أن يحاج الشكاك بأن الإنسان في حالة غفوة وبأنه يرى الأشياء وكأنه في حلم؛ ذلك لأن وجود الإنسان بالفعل إنما يؤكد حقيقة حياته، سواءً أكان في حال من اليقظة أو النوم. وحتى لو أصيب الإنسان بالجنون، فإنه مع ذلك يبقى حياً. كذلك فإن الإنسان يظل في جميع الأحوال على وعى بما يريده، فلو أنه أراد أن يحيا سعيداً، فإنه من البلاء بمكان أن نوحى إليه بأنه إنسان موهوم. ولربما يشكك بعض فلاسفة الشك في مصداقية الحواس الجسدية، ولكنهم لا يمكنهم أن ينتقصوا من قيمة المعرفة التي يملكها العقل الإنساني من ذاته دون تدخل من الحواس الجسدية؛^(٤) "نحن نوجد، ونحن

(1) De lib. arbit., 2,3,7.

(2) 2,3,7.

(3) 15,12,21.

(4) Ibid.

نعلم أننا موجودون، ونحن نعتز بهذه الحقيقة ومعرفتنا إياها؛ وبهذه الضمانات الثلاثة (من وجود ومعرفة ووعي) ليس هناك ثمة خوف من المخادعة؛ لأن هذه الضمانات لم تأتتا من خلال الحواس الجسدية مثلما هي الحال مع الأشياء التي من حولنا في العالم الخارجى^(١).

إن اليقين عند أغسطينوس خبرة جوانبه عن طريق الوعي الذاتى، ولكن ترى ما رأيته في معرفتنا عن أمور هذا العالم خارج الذات التي ندركها بالحواس؛ وهل هناك يقين في هذه المعرفة الحسية؟ لقد كان أغسطينوس مدركاً أننا كبشر قد نخدع أنفسنا في أحكامنا عن الأشياء المدركة بالحس، كما أنه كان على وعى بنسبية الانطباعات الحسية من قبيل أحكامنا على الحار والبارد على سبيل المثال، فهذا يعتمد إلى حد ما على الحال العضو الجسدى الذى يستقبل الشيء ثم يحس به، ولكنه في نفس الوقت لا يعتقد أن الأشياء المدركة بالحس هي بالضرورة التي تكون مدركات العقل الإنسانى، وإن كانت قد تمثل نقطة بداية في تمرين العقل صُعداً نحو الله. ومن ثم فإنه يتحتم علينا كبشر أن نعود إلى داخل أنفسنا حيث تكمن الحقيقة، وأن نستخدم الروح في درج الصعود قبالة الخالق^(٢). وهل هناك من يقين في هذه المعرفة الحسية؟ لقد كان أغسطينوس مدركاً أننا كبشر قد نخدع أنفسنا في أحكامنا عن الأشياء المدركة بالحس، كما أنه كان على وعى بنسبية الانطباعات الحسية من قبيل أحكامنا على الحار والبارد على سبيل المثال، فهذا يعتمد إلى حد ما على حالة العضو الجسدى الذى يستقبل الشيء ثم يحس به، ولكنه في نفس الوقت لا يعتقد أن الأشياء المدركة بالحس هي بالضرورة التي تكون من مدركات العقل الإنسانى، وإن كانت قد تمثل نقطة بداية في تمرين العقل صُعداً نحو الله. ومن ثم فإنه يتحتم علينا كبشر أن نعود إلى داخل أنفسنا حيث تكمن الحقيقة، وأن نستخدم الروح في درج الصعود قبالة الخالق. وعلى الرغم من أن الأشياء الجسدية التي تدركها الحواس قابلة للتفسير بطبيعة

(1) De Civit Dei, 11,26.

(2) De vera relig., 39, 72; Serm., 330,3, Retra ct., O. 8,3; etc.

تكوينها، كما أنها أقل كفاءة في معاينة الله إن هي قورنت بالروح، ورغم أن التركيز على الماديات والحسيات هو الذى يجلب الأذى والضرر على الإنسان، فإننا مع هذا كله نعتمد على الحواس إلى حد بعيد للحصول على أنواع من المعرفة. ومن ثم فإن أغسطينوس لم يتخذ موقف الشك الكامل في الحواس الجسدية: "فالتسليم بوقوع الخطأ في معرفتنا من خلال الحواس أحيانا لا يعنى إطلاقاً إنكار الدور الذى تقوم به هذه الحواس أيضا- إنه من حق الفلاسفة أن ينتقصوا من قيمة الدور الذى تؤديه الحواس، ولكنهم لا يستطيعون أن ينكروا أن هذه الحواس هي التى نشعرنا بوجودنا الأدمى- ونحن لا يمكن لنا أن ننكر فضل الحواس فيما عرفناه بواسطتها، فهي التى عرفتنا بالسماء والأرض على سبيل المثال. كما أننا فى جميع الأحوال نعلم الشيء الكثير نقلاً عن شهادة الآخرين وإن كانت بعض آرائهم أحياناً خادعة، ولكن هذا لا يبرر رفضنا الكامل لكل ما يأتينا من الآخرين، وبالمثل فرغم أن بعض ما تنقله الحواس إلينا قد يكون خادعاً، فإننا نعتزف ليس فقط بفضل هذه الحواس. وعلى هذا فلا بد لنا من أن نعتزف ليس فقط بفضل حواسنا، وإنما أيضا بفضل حواس الآخرين فيما أضيف إلى مخزوننا من صنوف المعرفة⁽¹⁾. وغنى عن البيان أن الحياة العلمية تتطلب منا أن نعطي مصداقية لحواسنا⁽²⁾. كما أن الأخطاء التى قد تنجم عن هذا الموقف أقل فداحة من الأخطاء التى قد تنجم لو أننا استبعدنا الحواس كلية".

يستدل من هذا أن أغسطينوس يدعو إلى إعطاء قدر من المصداقية لحواسنا الجسدية وأيضاً لشهادة الآخرين، ولكن هذه المصداقية لا ترقى إلى مصاف المعرفة المباشرة الذاتية التى يخبرها الإنسان من داخله "ولكن إذا أخبرنى شخص ما عن أمر ما يتسق مع ما يقره العقل البشرى، فإننى أصدق وأقره على ما يقول؛ لأننى أعى وعياً ذاتياً استبطانياً أن ما يقول صحيح"⁽³⁾ وخلاصة القول أن أغسطينوس ربما يكون

(1) D e Trinit., 15, 12, 21.

(2) Conf., 6, 5, 71.

(3) De Trinit., 9, 6, 9.

قد سبق ديكارت فى مقولة "أنا أفكر فإنّ أن موجود". ولكن أغسطينوس، رغم تسليمه بحقيقة وجود العالم الخارجى، فإنّه يحتاج بأننا أحياناً ما نسوق أحكاماً خاطئة عنه، سواءً على مستوى الخبرة الذاتية الحسية أو عن طريق خبرة الآخرين. ولما كان أغسطينوس مهتماً بوجه خاص بمعرفة الحقائق الأزلية وصلتها بالله، فإنّه لم يضع وقتاً فى النظر فى معرفتنا عن الأشياء القابلة للتغير والخاصة بالحوار. وحقيقة الأمر أن نظرة أغسطينوس "الروحانية"، مشفوعة بالفكر الأفلاطونى، قد أدت به إلى النظر إلى الأمور الجسدية المادية بأنها عرضة للتقلب والتغير، نظراً لما يعتور هذه الأشياء، والحواس نفسها من تقلب وتبدل، وبهذا يكون موقف أغسطينوس من المعرفة الحسية أقرب إلى الفكر الأفلاطونى منه إلى فكر رينيه ديكارت^(١).

٤ - يعتقد أغسطينوس أن المعرفة الحسية هى أدنى مراتب المعرفة، وهو فى هذا يتسابق مع الفكر السيكلوجى الأفلاطونى، الذى يرى فى الحواس الجسدية مجرد أنوات تستخدمها الروح: "الإحساس ليس عملية جسدية، وإنما هو عملية سيكلوجية روحانية؛ فالروح هى التى تحرك الجسد كله، وهى عندما تكشف عن نشاطها على عضو بعينه، فهى إنما تحرك فيه طاقته الحسية"^(٢). وبناءً على هذه النظرية فإن أى قصور فى المعرفة الحسية لابد وأن يكون ناتجاً عن التغير الذى قد يصيب أداة الحس من ناحية، أو يعتور الشيء الذى ترصده هذه الأداة من ناحية أخرى. أما المعرفة الحقيقية للإنسان "فإنما تتأتى فقط عندما تصل الروح إلى اليقين من خلال تأملها فى الحقائق الأزلية" أما استخدام الروح لأعضاء الحس الجسدى وهى تعالين العالم المادى، فإنّه لن يصل بها إلى المعرفة الحقّة بحال. وهكذا فإنّ أغسطينوس، تمشياً مع النظرة الأفلاطونية، يعتقد أن مواضع المعرفة الحقيقية لا تتبدل، وعليه فإنّ الأشياء التى تتبدل لا تقدم معرفة حقيقية، ورغم أن هذا النمط من المعرفة أمر لا غنى عنه فى حياتنا

(١) رد الفيلسوف سكوتوس هذا الرأى لأغسطينوس، معللاً خطأ المعرفة الحسية بالخطيئة الأولى لأبينا آدم.

(2) CF De Musica, 6-5,9,10; De Trinit, 11,2,2-5.

العملية، فإن الإنسان الذى يركز على هذا العالم من المتغيرات قد يصبح فى غفلة عن عالم اللامتغيرات، وهو المعامل الأساسى للروح فى مسألة المعرفة بمعناها الكامل.

إن الإحساس بمعناه الدقيق أمر يشترك فيه البشر مع الحيوانات، ولكن الذى يميّز البشر عن الحيوان هو التفسير العقلانى لما يحس به. وفى أطروحته عن "الثالث"⁽¹⁾ يؤكد أغسطينوس على أن الحيوانات قادرة على الإحساس والتذكر والسعى وراء ما ينفع وتجنب ما يضر، ولكنها لا تملك القدرة على اختزان المعلومات أو القيام بعمليات عقلية، ومن هنا فإن المعرفة الحسية لدى بنى البشر أسمى من مثيلتها فى عالم الحيوان. يضاف إلى ذلك أنه فى مقبور الإنسان أن يضع أحكاماً عقلانية من هذه الأشياء المحسوسة لتصبح وسائل معينة فى الاقتراب من أعتاب الحقائق الأزلية. فعلى سبيل المثال، لو أن شخصاً ما رأى فى شيء ما صنعة جمالية أكثر من غيرها فى شيء آخر، فإن حكمه الجمالى هنا يشير إلى معيار جمالى أسمى وأعلى من مفردات الجمال الحسى هنا وهناك، كما أن الحكم على خط ما بأنه أكثر أو أقل استقامة، أو أن شكلاً معيناً دائرى الصورة، إنما ينطوى على إشارة إلى معيار مرجعى مثالى عن الاستقامة وعن الشكل الهندسى الدائرى (مرجعية المثاليات).

وفى هذا يقول أغسطينوس: "إن النور الذى يضطلع به العقل الأعلى هو الحكم على هذه الأشياء المادية طبقاً لمعايير لا مادية، والتي لولا أنها فوق مستوى الإدراك البشرى لكانت عرضة للتبدل والتغير. ومع ذلك فبدون أن نلحق بهذه المعايير اللامادية أسساً من لدنا نحن البشر، فإنه لن يكون فى مقدورنا استخدام هذه المعايير اللامادية فى الحكم على الأشياء المادية. ولكن هذه الملكة التى نملكها، والتى نحكم من خلالها على الأشياء المادية الزمنية هى أيضاً ملكة عقلية، وهى صفة يتفرد بها الإنسان دون الحيوان؛ لأنها من بنات العقل، وهى همزة الوصل بيننا وبين الحقيقة الثابتة، والتى بواسطتها نتناول الأشياء الأدنى وندير دفتها"⁽²⁾.

(1) 12,2,2.

(2) Ibid.

والذى يعنيه أغسطينوس هنا هو أن أدنى مراتب المعرفة- فى حدود ما يمكن تسميته بالمعرفى- هو الإحساس الذى يشترك فيه الإنسان مع الحيوان، أما أعلى مراتب المعرفة، والتى يتفرد بها الإنسان وحده، والتى لا دخل للإحساس فيها بشئ، فمن التأمل فى الحقائق الأزلية من خلال سلطان العقل وحده، دون تدخل من أدوات الحس. على أنه فيما بين هذين العدين الأعلى والأدنى هناك موضع وسط يقوم العقل فيه بالحكم على الأشياء المادية بالنسبة إلى المعايير اللامادية. وهذا المستوى المعرفى مستوى عقلانى، وهو من الصفات الخاصة بالجنس البشرى، ولا تشاركه فيه مملكة الحيوان، ولكنه يتضمن استخدام الحواس، ومن ثم فهو على مستوى أدنى من مستوى التأمل المباشر لما هو أزلى ولا مادى، نرد على هذا أن استخدام هذا المستوى يختص بما نؤديه من نشاط وأفعال، فى حين أن التأمل ليس نشاطاً عملياً: "إن النشاط الذى من خلاله نستخدم الأشياء المادية استخداماً حسناً يختلف عن التأمل فى الحقائق الأزلية، ففى حين أن الماديات قد توصف بالمعرفة، فإن اللاماديات (الأزليات) تعرف بالحكمة. ومن هذا الفارق يتضح أن الحكمة تنتمى إلى مجال التأمل، أما المعرفة فهى مجرد نشاط"⁽¹⁾. والمثالية هى أن نسعى لزيادة جرعة التأمل، مع توجيه العقل قبالة الاستخدام الأمثل للأشياء المادية "التي بنونها لا تأخذ الحياة مجراها" كما ينبغي أن نسخر الأشياء المادية كأدوات للوصول إلى الأشياء الأزلية "معرجين بخفة على الماديات، ولكن مستمسكين بعروة الأزليات، على حد تعبير أغسطينوس"⁽²⁾.

إن هذه النظرة الأغسطينية أفلاطونية الطابع؛ من حيث الانتقاص من قمية الأشياء المادية مقارنة بالحقائق الأزلية واللامادية، ومن حيث التسليم، ولو عن كره، بالمعرفة العمالية كواحدة من ضروريات الحياة، ومن حيث الإصرار على "التأمل" النظرى والتطهر النؤوب للروح والآن، والتحرر من عبودية المحسوسات، أملاً فى الصعود على الدرج العرفى الأعلى. على أنه ليس من الصواب أن نرى فى موقف

(1) De Trinit, 12, 14, 22.

(2) Ibid., 12, 13, 21.

أغسطينوس مجرد ترديد أو تبين للفكر الأفلاطوني: حقيقة أن الرجل قد نهل من منابع الأفلاطونية والأفلاطونية المحدثّة الشيء الكثير، ولكنه ظل طيلة الوقت متطلعاً إلى الغاية الميتافيزيقية للإنسان وهي السعادة لحظة معاينة الله، ورغم استخدام أغسطينوس الكثير من العبارات الأفلاطونية، فإن مجمل خطته في نهاية الأمر ينصب على غاية الحب والتأمل الروحاني^(١).

ومع أن هذا الإعلان الأغسطيني ينهل من النبع الأفلاطوني، فإن الهدف عنده ليس الوصول إلى الخير اللاشخصاني، وإنما معاينة حقيقية لله.

ويصح أن يقال أيضاً إن أغسطينوس قد وجد في بعض المبادئ الأفلاطونية ما يتفق مع خطته في بسط أسس لفلسفة حياتية تتوافق مع المبادئ المسيحية.

هـ - إن الرأي عند أغسطينوس أن الأشياء المادية أو الحسية تقع في درجة أدنى من العقل الإنساني، الذي يحكم على هذه الأشياء بالنسبة إلى مرجعية أسمى وأعلى من هذه الأشياء ذاتها. غير أن هناك أشياء معرفية تسمو على العقل الإنساني نفسه، ولا يملك العقل عند اكتشافها إلا أن يُسلم بها كما هي ومن حيث هي. فعلى سبيل المثال عندما أشاهد عملاً فنياً ما وأحكم عليه جمالياً بالزيادة أو النقصان، فإن هذا الحكم يعني ليس فقط وجود معيار لقياس الجمال، وهو معيار موضوعي، وإنما أيضاً معرفتي بهذا المعيار، وإلا كيف يتسنى لي أن أحكم على هذه الباكية المعمارية أو تلك اللوحة الفنية بعدم الكمال أو القصور من الناحية الجمالية، ما لم أكن على معرفة بمستويات الجمال وماهيته، وبالجمال الخالص؟ وكيف يتسنى لأحكامي الموضوعية فرضاً أن تتبرر ما لم يكن هناك معيار موضوعي ثابت ومكتمل وأزلي؟^(٢).

وبالمثل فإن المشتغل بالهندسة يضع الدوائر الكاملة والخطوط المستقيمة كمعايير ثابتة يقيس عليها أشباه الدوائر والخطوط. إن الأشياء دائرية الشكل أشياء موقوفة

(1) Conf. 13,9,10.

(2) CF De Trinit., 9,6,9-11.

تظهر ثم تولى، ولكن "الدائرية" نفسها، أى الفكرة عن شكل الدائرة الكاملة فى جوهرها، لا تتبدل ولا تتغير. كذلك فإننا عندما نجمع سبع تفاحات إلى ثلاث أخريات نحصل على مجموع عشر تفاحات، ويعد أن تولى التفاحات وتنتهى من الوجود، تبقى الأرقام سبعة وثلاثة كما هى وغير موصولة بأشياء متحركة ويظل مجموعها عشرة عند الحساب.

وهذه الحسية حقيقة ثابتة وأزلية، فى استقلالية تامة عن العالم المادى وأيضاً عن العقل البشرى، فهى من المسلمات⁽¹⁾. وهذه الحقائق الأزلية أمور مسلم بها لدى الجميع وفى حين أن الأحاسيس أمور خاصة بمعنى أن ما قد يبدو بارداً للممس عند شخص ما ليس بالضرورى كذلك عند شخص آخر، فإن الحقائق الرياضية أمور مسلم بها عند الجميع، وعلى العقل البشرى أن يسلم بها وأن يقر بحقيقتها المطلقة وثبات صدقها، وذلك فى استقلالية تامة عن ردود الأفعال الفردية عند كل ما يتناولها من هنا أو هناك.

إن موقف أغسطينوس فى هذه النقطة هو موقف أفلاطونى صرف؛ إذ إن معايير الجمال عنده تتوافق مع "البادئ الأولى" للمثالية عند أفلاطون، كما أن الأشكال الهندسية للمثالية تتوافق أيضاً مع فكرة أفلاطون عن "المثاليات الرياضية" والسؤال الذى يطرح نفسه هنا بالنسبة لنظرية أفلاطون ولرؤية أغسطينوس هو: أين تكمن تلك الحقائق المثالية؟

لابد لنا ونحن نبحث عن إجابة لهذا التساؤل أن نتذكر بأن "المثاليات" التى نحن بصدددها - بالنسبة لأفلاطون و أغسطينوس - ليست مثاليات ذاتية الصبغة، وإنما هى مثاليات موضوعية، ومن ثم فإن التساؤل عن "مكانها" أو موضعها تساؤل لا طائل من ورائه؛ لأن المثاليات من الناحية الغرضية ليست أشياء مادية، وإنما هى مثاليات غائبة (أنطولوجية) أما الأفلاطونيون المحدثون فلا يقبلون القول بوجود الجواهر اللامادية فى حيز بعينه، ومن ثم فإنهم راحوا يفسرون مثاليات أفلاطون على أنها أفكار منبثقة من

(1) CF Ibid., 12,14,22-23; 12,15,23; De lib arbit., 2,13,35. 2,8.20-4.

عند الله، ووضعوا هذه الأفكار داخل العقل الإلهي الذي يفيض من "الواحد"، مثلما هي الحال مع الأقتوم الأول المنبثق من الله (قارن هذا بنظرية فيلون عن المثاليات المتضمنة داخل "اللوغوس"). ولكن أغسطينوس لم يقبل فكرة "الفيض" هذه، واكتفى بالقول بأن الأفكار المثالية والحقائق الأزلية جميعاً من عند الله: "إن المثاليات هي الأنموذج الأول الثابت لجوهر الأشياء، وهي لم تتخلق إنما هي هناك منذ الأزل دون تحول في العقل الإلهي"^(١). ويمضى أغسطينوس ليقول بأنه لا بد لنا من التسليم بهذه النظرية لكي نتلافى القول بأن "الله قد خلق العالم دون تدبير"^(٢).

٦ - على أننا سرعان ما نجابه بصعوبة أخرى: فإذا كان العقل البشرى يعاين المثل العليا والحقائق الأزلية، وإذا كانت هذه المثل والحقائق في العقل الإلهي، ألا يستتبع هذا أن العقل البشرى يعاين الجوهر الإلهي؟ إن بعض الكتاب يميلون إلى الاعتقاد بأن أغسطينوس يجيب عن هذا السؤال بالإيجاب، ومن بين هؤلاء الفيلسوف مالبرانش، وأصحاب النظرية الغائية الذين يقولون بالحدس المباشر بين الروح والله.

وواقع الأمر أن بعض النصوص عند أغسطينوس، لو أنها فصلت عن سياقها العام، تؤيد هذه التفسيرات الغائية، وإن كنا - من جانبنا - على ضوء فكر أغسطينوس في كليته نستبعد الأفكار الغائية من منظومة. ولا يمكننا بحال أن ننكر أن هناك عدم اتساق في بعض أفكار أغسطينوس، ولكن التفسير الأنطولوجي لفكره قد يشوه مبادئه الروحانية. ذلك أن هناك نصوفاً في كتابات أغسطينوس تجافى التفسير الأنطولوجي، وعليه فإنه يحسن أن نضع ما يشي بالأنطولوجية في بعض عباراته في المرتبة الثانية وليس في موقع الصدارة.

لقد كان أغسطينوس على وعي تام بأنه في مقدور الإنسان أن يميز الحقائق الأزلية والموجبة (من قبيل المبادئ الرياضية مثلاً) دون أن يكون إنساناً خيراً بالمرّة، وأن

(1) De Ideis, 2.

(2) Cf. Retract., 1,3,2.

مثل هذا الإنسان قد لا يعاين هذه الحقائق فى مستقرها الغائى الأخير، ولكنه مع ذلك يميز هذه الحقائق، فالإنسان البعيد عن الله يستطيع رغم ذلك أن يقدر حقيقة الجمال المعمارية لكاتدرائية كانتربرى مقارنة بكوخ من أكواخ بلدان الضواحي، تماماً مثلما كان فى مقدور أغسطينوس نفسه بعد اعتناقه للمسيحية أن يميز درجات متفاوتة من الجمال الحسى فى هذا العالم، فهو فى فقرة شهيرة من "اعترافاته" يصرخ قائلاً:

"لقد وصلت متأخراً لأقع فى حبك- أيها الجمال المكتمل- أيها القديم الجديد فى أن واحد.. لقد أتيت إليك متأخراً لأقع فى شرك حبك.. وهأنذا ألقى بنفسى رغم المسخ الذى يشوهنى على صنائعك التى صورتها فى أجمل حال"⁽¹⁾.

وفى أطروحته عن "ماهية النفس"⁽²⁾ يؤكد أغسطينوس أنه قد اعتقد بأن الروح تتأمل الجمال فى نهاية صعودها. أما الفقرات التى قد توحى بغير ذلك، فإنها مجرد مربود لعبارات مقتبسة من الأفلاطونية الحديثة التى لا تتساق، لو اتخذت حرفياً، مع جملة أفكاره بشكل عام، ويبدو أنه من شبه المستحيل أن نقرر بالضبط مفهوم أغسطينوس لطبيعة الحقائق الأزلية كما يدركه العقل البشرى (مع ملاحظة أنه لم يشغل باله بالجانب الأنطولوجى للقضية)، وأغلب الظن أنه افترض أن الحقائق الأزلية والمثاليات- كما هى فى الجوهر الإلهى- لها خصائص توليدية ذاتية، بمعنى أن "النور" المنبثق من الذات الإلهية هو الذى يعين العقل البشرى على تبين خصال الثبات والضرورة والديمومة فى الحقائق الأزلية.

ومع ذلك ففى إمكاننا أن نضيف ملاحظة أخرى تباعد بين أغسطينوس والفكر الأنطولوجى؛ فلقد استخدم أغسطينوس إدراك الحقائق الأزلية الضرورية كبرهان على وجود الله، محاجاً بأن هذه الحقائق تتطلب قاعدة ثابتة وأزلية لتقوم عليها، وجدير بالملاحظة عند هذا المنعطف- دون استرسال فى هذا الجدل- أن هذا الفرضية من

(1) Conf., 10,27,38.

(2) 36,79.

جانب أغسطينوس تصبح ذات مغزى فسي تسليمها بأنه فى مقدور العقل الإنسانى أن يدرك هذه الحقائق دون إدراك للذات الإلهية، ولربما يتم ذلك فى لحظات الشك أو الانكسار للذات الإلهية. ولكأن أغسطينوس بهذا يخاطب أحد الشكاكين قائلاً: "إنك فى حال شك أو نكران لوجود الله، ولكن لابد لك أن تعلم أنك عارف بالحقائق المطلقة، وهذه المعرفة تتضمن اعترافك بوجود الله". وهذا التساؤل الأخير يبدو لنا كافياً لكى نستبعد التفسير الأنطولوجى عند أغسطينوس. هذا وقبل أن نمضى قدماً فى هذا الأمر نود أن نتوقف قليلاً عند نظرية أغسطينوس عن "التجلى النورانى"، فلربما يعيننا ذلك على فهم موقفه، وإن كان التصدى لتفسير هذه النظرية أمر غير مضمون العواقب.

٧ - يقول أغسطينوس بأنه ليس فى مقدورنا أن ندرك الحقيقة الثابتة للأشياء ما لم تتجل لنا ولكأنها قد سلط عليها ضياء من الشمس^(١). وهذا النور الربانى الذى ينير العقل ينبثق من عند الله (النور المدرك)، الذى به وبواسطته ومن خلاله تستضىء كل الأمور فى عقلنا البشرى^(٢) وفى هذه الفكرة عن "النور" وهى مسألة متواترة عن المدرسة الأغسطينية- يستخدم أغسطينوس فكرة أفلاطونية محدثة ترجع إلى مقارنة أفلاطون الخير المثالى بالشمس^(٣)، أو النور المفارق (المتعالى)، ولكن استخدام مجاز النور هناك يفصح تماماً عما كان يقصد إليه أغسطينوس. ولكن لحسن الحظ أن النصوص الواردة فى أطروحاته "الثالث"^(٤) تعيننا على تبين ما قصد إليه، حيث يقول بأن "العقل عندما يستغرق فى الأمور العقلانية فى فلها الطبيعى- طبقاً لنا موس الخالق- فإنه يدرك تلك الأمور بفضل قيس نورانى غير مادى، فريد فى نوعه، تماماً مثلما تتمكن العين من إبصار الأشياء القريبة منها بفضل النور الحسى".

(1) Solil., 1,8,15.

(2) Ibid., 1,1,3.

(3) Rep., 514-18.

(4) 12,15,24,15.

ويستخلص من هذه العبارة أن الاستنارة الروحانية تنير الأشياء للعقل مثلما يفعل ضوء الشمس للأشياء التي تقع عليها العين. وبمعنى آخر فمثلما تجعل الشمس الأشياء المادية مرئية للعين، فإن التجلي الرباني يجعل الحقائق الأزلية مرئية للعقل. ومؤدى ذلك عند أغسطينوس أن خواص الضرورة والأزلية فى الحقائق الثابتة إنما يعاينها العقل البشرى بفضل الله، وليس من الاستنارة المدركة. وهذا القول يباعد المسافة بين أغسطينوس وبين النظرية الفانية.

ويعتقد أغسطينوس أن العقل البشرى متقلب الأحوال وموقوت، ومن ثم فهو عاجز عن استيعاب ما هو مفارق وثابت وأزلى: "فعندما يتم تعرف العقل البشرى إلى ذاته ويقع فى حبها، فإنه بهذا لا يعرف أو يجب ما هو ثابت وأزلى"^(١). ولو أن الحقيقة كانت مساوية لعقولنا، فإنها هى أيضا تصبح عرضة للتقلب والتبدل؛ لأن عقولنا تعاين الحقيقة حيناً بدرجة أكبر وأخرى بدرجة أقل، الأمر الذى يؤكد على تقلب عقولنا بالمثل. والواقع أن الحقيقة لا هى أدنى ولا هى مساوية لعقولنا، ولكنها أعلى وأكثر سمواً"^(٢). ولذا فإن أغسطينوس يرى أن البشر فى حاجة إلى نعمة التجلي الرباني حتى يتمكن من استيعاب ما يفوق قدرات عقولنا البشرية: "لأنه ليس ثمة مخلوق، مهما بلغت درجة عقلانيته وذكائه بقادر من ذاته على الاستبصار، اللهم إلا إذا أنعم الله عليه بقبس نور الحقيقة الأزلية"^(٣).

وفى موضع آخر يقول أغسطينوس: "إن الله قد أمد العقل الإنسانى بالفهم والذكاء كى يستزيد من النور الإلهى.. وبهذا النور المنبثق من عند الله تستبين للعقل الإنسانى الأشياء الحقّة.. وهذا النور هو الذى يسطع على الحقائق فتستبين به عقول البشر القاصرة والمتبدلة والموقوتة خصال الحقائق الأزلية"^(٤).

(1) De lib. Arbit., 2,12,35.

(2) In. Ps. 119; serm., 23,1.

(3) Ibid.

(4) In. Ps. 118; serm., 18,14.

وإذا كان أغسطينوس يؤكد على أن النور الإلهي يتجلى للعقول البشرية، فإن هذا لا يعنى أن العقل البشرى فى شركة مع هذا النور الإلهي. وإذا كان أتباع القديس توما الإكوينى، الذين يرغبون فى تبجيل القديس أغسطينوس بنفس القدر الذى كانوا يبجلون به أستاذهم، يحاولون تضيق الفروق بين الاثنين، فإنه لا يمكن رغم هذا إنكار أن أغسطينوس لم يساو بين "النور" الإلهي وبين استنارة العقل الإنسانى أو نشاطه. ذلك أن أغسطينوس يقر بقصور العقل البشرى وبحاجته إلى النور الإلهي كى يبصر. وعلى هذا فإن القول بأن كلا من القديس أغسطينوس والقديس توما الإكوينى كانا يناديان بنفس الشيء، حتى مع التأكيد على أن القديس توما كان يعبر بوضوح عما يحتمل فى فكر أغسطينوس من غموض وفى صورة مجازية، فإنما يمثل تزييداً فى المصالحة بين المفكرين.

كنا قد ذكرنا من قبل أننا نقبل التفسير الأغسطيني عن التنوير الإلهي فى فتح بصره العقل على عنصر الوجود فى الحقائق الأزلية، ولكننا نرفض التفسير الأنطولوجي رفضاً باتاً. وهذا الرفض يتضمن أيضاً الرأى القائل بأن العقل عند أغسطينوس هو الذى يعاين فكرة الجمال معاينة مباشرة، مثلما هى الحال فى معاينة الله. كذلك فإننا نتردد فى قبول الرأى القائل بأن أغسطينوس قد نادى بأن ينفتح فكرة الجمال أو أى أفكار أخرى معيارية (من قبيل الأحكام المقارنة فى درجات الجمال والعدالة على سبيل المثال) معدة سلفاً إلى عقول البشر. إن هذه النظرة "التوليدية" تجعل مهمة التنوير الإلهي وكأنها نشاط عقلائى مستقل، وفى هذه الحالة تصبح النظرة إلى الله وكأنها عقلانية فاعلة مستقلة تنفتح الأفكار إلى العقل البشرى، فى حين تقف وظائف الحس والعقل البشرى فى موقف سلبي تماماً لا تقوم بأى دور من فاعليتها. إن فاعلية التنوير الإلهي بالنسبة لعقل البشر عند أغسطينوس تشبه فعل ضوء الشمس بالنسبة للإبصار، ومع أن ضوء الشمس يجعل الأشياء مرئية، فإن أغسطينوس لم يعتقد بأن هذه الأشعة هى التى تخلق صور الأشياء. ومع أن فكرة التنوير الإلهي عند أغسطينوس تحتل نفس القدر الذى يخصصه الأفلاطونيون للذاكرة، فإن ما كان يشغل

أغسطينوس في المقام الأول هو مسألة اليقين والأحكام المعيارية أكثر من الاهتمام بمضامينها. وفي أطروحته عن "الثلوث"^(١) يلاحظ أغسطينوس أن العقل يجمع المعرفة عن الأشياء المادية من خلال حواس الجسد، أما بالنسبة للمفاهيم فهي ملكة عقلية تميز بين المحسوس والمدرَك، فيما يمكن تسميته بالتجريد. وعندما يتعلق الأمر بالتمييز بين الأشياء المادية كدرجات الجمال مثلاً، أو في الحكم على الأشياء طبقاً لمعيار ثابت، فإن العقل يصدر أحكامه مسترشداً بالمثاليات الثابتة، التي ليست مرئية للعين ولا للعقل نفسه.

ومع أن أغسطينوس لا يشرح لنا كيف تتأتى لنا دلالات الأرقام ٧، ٢ وحاصل جمعهما ١٠، فإنه يذكر أن وظيفة التنوير ليست في إنفاذ دلالات هذه الأرقام وإنما في الحكم على حاصل جمعها كحاصل وجوبي ومسلّم به. ومن فقرات أخرى لأغسطينوس تعلم أنه بينما تتكون لدينا المفاهيم عن الأشياء المادية (كقولنا حصان مثلاً) اعتماداً على الحواس، وعن الأشياء غير المادية اعتماداً على الروح والتأويل الذاتي، فإن أحكامنا اليقينية بخصوص هذا وذاك تتأتى من خلال "التنوير" والأفكار الأزلية، ولما كانت للتنوير فاعلية توليدية، كما يقول أغسطينوس، فإن مرجعية هذه الفاعلية ليست بالنسبة لمضمون المفهوم، وإنما بالنسبة لأحكامنا على هذا المفهوم ونسبته للمعيار الثابت. وعلى هذا فإن الخلاف بين أغسطينوس وتوما الإكويني لا يكمن في موقف كل منهما من قضية التجريد، وإنما في إصرار أغسطينوس لضرورة صياغة فاعلة خاصة للتنوير الإلهي، تتجاوز سلطان الخلق وتعين العقل البشري على اليقين من الحقائق الأزلية والوجودية، وهذا بخلاف ما قال به توما الإكويني.

وبالتمعن في قضية "التنوير" ما طرحها أغسطينوس يمكننا أن نتفهم كيف أنه قد نظر إلى خصائص الوجوب والثبات في الخصائص الأزلية كقواعد يبنى عليها البرهان على وجود الله، في حين أن التأويل الأنطولوجي يبدو عاجزاً عن شرح هذا التنوير؛ لأنه

(1) 9,33.

إذ كان العقل يدرك الله أو الأفكار الإلهية بطريق مباشر، فإنه ليس فى حاجة إلى برهان على وجود الله. على أن أغسطينوس لم يخض فى شرح تفصيلى عن كيفية تكوين مضمون المفاهيم، وهذا أمر يؤسف له، والحق أن أغسطينوس كان منشغلا فى المقام الأول بالأبعاد الروحانية والدينية وصلة الروح بالله؛ أما قضية وجوب ثبات الحقائق الأزلية (كنقيض لما هو عارض متبدل فى العقل البشرى)، وكذا عقيدة التنوير فقد عرج عليها لتوضيح الصلة بين الأرواح والله، ولتحفيز الروح فى توجهها قبالة الله.

وخلاصة الأمر أن القديس أغسطينوس يسأل نفسه قائلا: كيف لنا أن نتوصل إلى معرفة الحقائق الضرورية والثابتة والأزلية؟

حقيقة أننا من خلال خبراتنا الحسية نصل إلى بعض المعرفة، ولكنها معرفة موقوتة ومتغيرة، كما أن عقولنا البشرية نفسها عرضة للتبدل والتغير. وعليه فلا مناص من اللجوء إلى "الكائن الأعلى" الذى وحده يمثل الأزلية والثبات والضرورة، وهو الله. والله مثل الشمس التى تنير عقولنا أو مثل المعلم الذى يعلمنا ما لا نعلمه.

بعد هذا تجابه بمشكلة التأويل لما تحصل عليه من معرفة. ويعتقد كاتب هذه السطور أنه لا بأس بقبول حل توفيقى؛ ففى حين أن مفاهيمنا عن الأشياء المادية تقوم على خبرة الحواس الجسدية، فإن فعل الأفكار الإلهية يعين الإنسان على استبصار الصلة بين المخلوقات وبين الحقائق العليا التى تتجاوز الحواس، والتى لا يمكن معاينتها بصورة مباشرة فى حياتنا، وأن النور الإلهى هو الذى يعين العقل كى يميز عناصر الضرورة والثبات والأزلية. ولما كان أغسطينوس قد نما إلى أسلوب مجازى فى هذا الأمر، إلى جانب عدم اهتمامه بتقديم منظومة "مدرسية" واضحة المعالم لمسألة المعرفة، فإن من الصعب علينا أن نحصل على تأويل سليم لفكرة أو شروح كافية لكل عباراته فى هذا الخصوص.

الفصل الخامس

القديس أغسطينوس (٣)

الله - البرهان على وجود الله من خلال الحقائق الأزلية -
أدلة من الخلائق والبداهيات الكونية - البراهين كحلقات
في عملية واحدة - الصفات الإلهية المثالنة .

١ - في إمكاننا القول بأن البرهان المحورى والمحجب الذى يطرحه أغسطينوس عن وجود الله يبنى على قاعدة الفكر: أى إنه برهان مستلهم من داخل النفس البشرية. والنقطة الاستهلالية فى هذا البرهان هى إدراك العقل للحقائق الضرورية والثابتة: "تلك الحقائق التى لا يمكن لك أن تعزوها لنفسك، أو أن أعزوها لنفسى، أو لأى مخلوق آخر، ولكنها حقائق قائمة عند الجميع وفى متناول الكل على حد سواء"^(١).

والحقيقة عند أغسطينوس أسمى من العقل، وعلى العقل أن ينحنى أمامها ويسلم بها، فهى ليست من صنعته، لا يعى لها تبديلاً. كما أن العقل يقر بأن الحقيقة تتجاوزُه وتحكم فكره، وليس العكس. ولو كانت الحقيقة فى مقام أدنى من العقل لكان من مقنور العقل أن يغير ويعد فيها، ولو كانت مساوية له أو من معدنه لصارت مثله عرضة للتبديل والتحويل. والعقل فى فهمه للحقيقة ليس على حال واحدة، فتارة يستوعبها بوضوح، وأخرى بدرجة أقل وضوحاً، فى حين تبقى الحقيقة هى هى لا تتغير ولا تتبدل: "وحيث إن الحقيقة لا هى بالأدنى من العقل ولا هى بالمساوية له، فهى بالضرورة أسمى وأعلى مقاماً من العقل"^(٢).

(1) De lib. arbit., 2,12,33.

(2) Ibid.

والحقائق الأزلية تستند إلى قاعدة ينبغي أن يتوافق معها كل ما هو حق. وإذا كان الخيال البشرى يعكس طابع النقصان والتبدل، وإذا كانت الحواس تعكس الأشياء المادية العارضة، فإن الحقائق الأزلية تستند إلى ركائز من الضرورة والثبات التي هي من صفات الله. وينطبق هذا على المعايير الجوهرية، فلو أننا حكمنا على فعل ما بأنه أكثر أو أقل عدالةً على سبيل المثال، فإننا إنما نحكم عليه وفق معيار جوهري ثابت أو "مثالي". ومع أن أعمال البشر المحسوسة قد تتباين، فإن المعيار في الحكم على هذه الأعمال يظل ثابتاً لا يتغير. وعلى ضوء هذا المعيار الثابت الأزلي الكامل نقوم بالحكم على الأفعال الملموسة. وفي جميع الأحوال يبقى هذا المعيار مرتكزاً على "الكائن" الأزلي الكلي الكمال، وعلى قاعدة الحق "الذي فيه وبه ومن خلاله تكتسب كل الأمور مصداقيتها وصحتها في كل مقام"^(١).

إن هذه الحاجة بأن الله هو أساس وجود الحق الأزلي الموجب هي ما كانت تفره المدرسة الأغسطينية، ثم لا تلبث أن تظهر من جديد عند بعض الفلاسفة اللاحقين ومنهم الفيلسوف ليبنتز.

٢ - يقدم القديس أغسطينوس براهين قوية على وجود الله من خلال ظواهر العالم المادي الخارجى، غير أنه ليس له مقال في هذا السياق اللهم إلا في إشارات متفرقة ومختصرة هنا وهناك، وهو بذلك لا يقدم براهين في منظومة مكتملة بالمعنى الأكاديمي. واقع الأمر أن أغسطينوس لم يكن مهتماً بأن يثبت للملاحدة والشكاكين أن الله موجود بقدر اهتمامه بإظهار أن الخليقة جمعاء تُعَلَى من اسم الله؛ لأن الروح البشرية من نفسها قادرة على تعرف الإله الحي، ولهذا فإن أغسطينوس يولى العامة خاصة لمسعى الروح قبالة الله، ولكنه لم يكن منشغلاً بإقامة دياكتيك لا يؤدي إلا إلى نتائج نظرية. إن الاعتراف بوجود "كائن أعلى" من خلال قناعة عقلية صرفة يمثل خطوة هامة، ولكن التسليم من الداخل (القناعة الإيمانية) يمثل خطوة أهم. إن الروح تبحث

(1) Solil., 1,1,3.

دوماً عن السعادة، وكثيرون من البشر يفتشون عن هذه السعادة من خارج نواتهم دون جدوى. إن المجاهدة من داخل الذات الإنسانية، كما يعتقد أغسطينوس، هي حجر الزاوية والسبيل الوحيد إلى درب السيادة.

ولابد لنا أن نأخذ هذه الحجج الدينة الروحانية في الاعتبار إذا نحن أردنا أن نتجنب النظر إلى براهين أغسطينوس كبراهين ديالكتيكية، أو ذاك حتى لا نقلل من قدر أفكاره عند مقارنتها بما عبر عنه فيما بعد وبطريقة أفضل توما الإكويني.

وعلى هذا فعندما يعلق أغسطينوس على مزموّر الثالث والسبعين، فإنه يقول: "أيها الإنسان! كيف يتسنى لي أن أعرف أنك حي، طالما أنني لا أعاين روحك؟ وكيف لي أن أعلم؟ ربما تجيبني بقولك: لأنني أتحدث، ولأنني أمشي، ولأنني أعمل. فيا أيها الأحق! إن كانت حركات جسدك تعلمني بأنك حي، أفلمست قادراً وأنت ترى الصنائع والمخلوقات من حولك أن تعرف خالق كل هذا وذاك؟".

إن أغسطينوس هنا يقرر البرهان على وجود الله من وقائع صنائع الله، ولكنه لا يسوق هذه البراهين إلا من خلال تفسيره لأسفار الكتاب المقدس. وبالمثل فإنه عندما يعلن في كتابه "مدينة الله"⁽¹⁾ أن "نظام الكون وشكله وجماله وتحوله وحركته مع كل شيء مرئي فيه— كل هذا يدل في صمت على قدرة الخالق في خلقه لكل ما هو عظيم وجميل ومكنون ومعجز" فإنه بهذا يذكر المؤمنين بحقيقة تجب أي برهان آخر على وجود الله⁽²⁾. إن سلطان الخالق وقدرته الكلية المحيطة— عند أغسطينوس— تمثل لكل مخلوق فرد علة وجوده وتوصله، ولئن توقفت هذه القدرة عن تدبير شؤون الخليقة، فإنها "هالكة لا محالة". وبهذا يقرر أغسطينوس حقيقة وضرورة العناية الإلهية، مذكراً القارئ بحقيقة لا تحتاج إلى التدليل عليها بمماحكات فلسفية. كذلك يقدم أغسطينوس، ولو في صيغة مختصرة، ما يعرف "بحجة التسليم الكوني" عندما يقول: "إن قدرة الإله الحق

(1) 11,4,2.

(2) Cf. De Gen., an litt., 4,22,22.

بيئة وواضحة إلى حد لا يمكن معه أن تخفى على المخلوق العاقل، إن هو اعتمل عقله... مع استثناء قلة من غير الأسوياء فإن الجنس البشرى برمته يعترف بالله خالق هذا العالم^(١) وحتى لو أن إنساناً ما اعتقد في وجود عدد من الآلهة، فإنه مع ذلك يسعى لإدراك رب الرب الأوحده، الذي يسمو على كل شيء، وليس له ند ولا نظير... إن الكل يجمعون على الإيمان فإن الله ليس كمثله شيء^(٢).

ولا شك في أن القديس أنسلم قد تأثر بهذه العبارات الأغسطينية عندما اتخذ هذه الفكرة الكونية عن الله في دليله الأنطولوجي بقوله: "ذاك الذي لا يمكن إدراك ما هو أعظم منه".

٢ - يلاحظ الأستاذ جاسون في كتابه "مقدمة في دراسة القديس أغسطينوس"^(٣) أن فكر أغسطينوس يتضمن برهاناً طويلاً وقوياً عن وجود الله، وهو برهان يتألف من عدة درجات^(٤) بداية من مرحلة الشك الأولى، ثم تنفيد هذا الشك من خلال مقولة "أنا أؤمن إذن أنا موجود"، وصولاً إلى مسعى العقل تجاه الحقيقة، ونهاية برحلة الروح. ورحلة الروح تتضمن استكشاف عوالم الحس وما يعقب ذلك من إحباط، إلى أن تلوى الروح إلى الداخل لتعاين الحقيقة في شغاف القلب. وبهذا المسار "الجواني" يمكن للروح أن تدرك الله، موضع الحقيقة في كليتها.

إن الصورة التي يقدمها الأستاذ جاسون عن البرهان الشامل لوجود الله تمثل بحق أفكار القديس أغسطينوس؛ فهي إلى جانب إبرازها لبرهان أغسطينوس عن الحقائق الأزلية، تربط هذا البرهان بمسعى الروح نحو الله كالمصدر الوحيد للسعادة والغبطة، بحيث يتجاوز هذا البرهان "الإيماني" كل حزقة أكاديمية وقياسات منطقية. وتتأكد هذه الصورة من فقررة وردت في العظة المائتين والحادية والأربعين^(٥).

(1) In Joann Evang., 106,4.

(2) De doct. Christ., 1,7,7.

(3) Ch. 2.

(4) Cf. also G. Grumwald: Geschichte der Gottesbeweise in mittelalter, in Beitrag, 6,3, P.6.

(5) Sermon., 241,2,2 and 3,3.

لأغسطينوس؛ حيث يصور الروح الإنسانية وهي تسأل الحواس وتستمتع إلى اعترافاتها بأن جمال "هذا العالم المرئي لما هو قلب ومتبدل من حال إلى حال، إنما هو بالضرورة من خلق وتدبير الجمال الأبدى. وهنا تتجه الروح إلى عمق النفس البشرية لتكشف ذاتها وتتحقق من سموها على الجسد: "لقد خبر البشر كلا من الروح والجسد، ووجدوا أنهما عرضة للتبدل والتحول، حتى وصلوا إلى معرفة الله الخالق نعمته التي من بها على البشر من أدوات".

يتضح من هذا أن القديس أغسطينوس لم يفصل بين المجالين الطبيعي واللاهوتي، لأن المعرفة عنده ضرب من الكشف الإلهي الذاتي للروح، وهو كشف "قد اكتمل برسالة المسيح وثبتت في حياة المؤمنين بفعل الصلوات". ولا يعني هذا أن أغسطينوس لم يكن بصيراً بالفروق بين العقل (النهج الطبيعي) والإيمان (النهج الروحاني)، وإنما الأخرى أنه ربط بين الدربين. ومن هنا فلقد أخطأ الأستاذ هارناك، عندما أخذ على أغسطينوس أنه لم يوضح الصلة بين الإيمان والعقل^(١)، في غير إدراك منه أن أغسطينوس كان مهتماً في المقام الأول بالخبرة الروحانية، وبأن كلاً من العقل والإيمان له دوره في هذه الخبرة التي هي بمثابة الوحدة العضوية.

٤ - يؤكد أغسطينوس على أن عالم المخلوقات يعكس ويدل على وجود الخالق، حتى ولو لم يبدو ذلك بشكل ملموس تماماً للبعض: "قلو أننا لاحظنا كل ما هو جدير بالتقدير في طبيعة الأشياء، سواء بقدر وافر أو أقل، فلا بد أن يُعزى هذا التقدير إلى قوة الخالق.. إن المخلوقات تنزع بطبيعتها نحو العدمية والتلاشي، ولكنها عندما تولد تتخذ لها صورة بعينها، وما تلك الصورة إلا انعكاساً "للصورة الأعلى" المثالية التي لا تضمحل ولا تبديد أبداً.."^(٢) وعلى هذا فإن نظام الطبيعة ووحدها يفصحان عن وحدانية الخالق^(٣)، مثلما يفصح خيرية البشر وواقع حياتهم الإيجابي عن فضل الله ونعمه^(٤)، ومثلما يبين نظام الكون ومستقره عن الحكمة الإلهية^(٥). ومن ناحية أخرى

(1) Lehrbuch de Dogmengeschichte, 3rd edit., t.3, P.119.

(2) De lib. arbit., 2, 17, 46.

(3) Ibid., 3, 23, 701.

(4) De Trinit., 11, 5, 8.

(5) De Citit. Dei, 11, 28.

فإن الله هو الكائن الموجود لذاته، الأزلي والقيوم واللامحدود، ومن ثم فهو غير المدرك إن الله هو اكتمال ذاته، وهو "بسيط" بمعنى أن حكمته الربانية تحيط بكل شيء، كما أن فضله وسلطانه في جوهره الإلهي، الذي ليس له من تبديل^(١)، والله بهذا - كله، كما يقول أغسطينوس، يتجاوز المكان بلا محدوديته، كما أنه يتجاوز الزمان من واقع أزليته: "إن الله هو ذاته لا يحده زمان ولا مكان، فهو الحى القيوم فى سلطانه، وهو محيط بكل شيء من داخله لأن كل شيء فيه، ومن خارجه لأنه فوق كل شيء. والله لا يحده زمان؛ لأنه فى أزليته الأول قبل كل شيء، وهو الآخر أيضاً لأنه هو من قبل وبعد"^(٢).

ه - يقول أغسطينوس إن الله كان عليمًا منذ الأزل بكل ما سوف يخلقه من شيء، وعلمه بصنائه ليس لأنه هو خالقها فحسب، وإنما لأنه منذ البدء كان عليمًا بأمور الخليقة التى تمت فى زمن بعينه. والله عليم بخلقه قبل الخلق، وهو المثل الأعلى لخليقته التى سواها كانتعكاس خارجى ومحدود ليتمجد جوهره الإلهي^(٣). إن الله لم يفعل شيئاً دون علم مسبق به، ولكن هذا العلم ليس شيئاً منفصلاً وإنما هو رؤية أزلية ثابتة لا تمحى^(٤). وعلى أساس هذا العلم الأزلي والرؤية الأزلية، التى لا شيء قبلها أو بعدها، كان الله بصيراً لما سوف يكون. وحتى الأفعال التى يأتيناها البشر بمحض إرادتهم، فإن الله عليم بها مسبقاً، وهو سميع لرجاء الكل ومستجيب فى كل الأمور^(٥).

إن هذه النقطة الأخيرة من فكر أغسطينوس عن "النعمة الإلهية" تستوجب مناقشة مستفيضة، ولكن ليس هذا محلها.

(1) De Trinit., 5,2,3; 5,11,12.; 6,4,6;6,10, 11; 15,43,22; In Joann. Evang., 99,4, etc.

(2) De Gen. an litt., 8,26,48.

(3) Cf. Ibid., 5,12,33; Ad Orosium, 8,91.

(4) De Trinit., 15,7,13.

(5) Ibid., 13,22.

ويسترسل القديس أغسطينوس ليعلم أن الله، وهو يتأمل جوهره منذ الأزل عليم بكل جوهر محدود ممكن، بمعنى نسبية هذا المحدود لكماله الرباني غير المحدود. وهكذا فإن جواهر الأشياء موجودة في العقل الإلهي منذ الأزل بمثابة إلهية، ولكن منفصلة غائبة عن جوهره الإلهي؛ ففي كتابه "الاعترافات"⁽¹⁾ يفصح أغسطينوس عن أن الأسباب الإلهية أو علّة خلق الأشياء تبقى كما هي عند الله، وفي أطروحته "عن الأفكار"⁽²⁾ يشرح أغسطينوس أن "الأفكار الإلهية هي صيغ أولية ثابتة لعل الأشياء، التي لم تتكون من ذاتها، وإنما هي من عند العقل الإلهي الأزلي، وهي لا تتبدل، فهي لا تطرأ ولا تبعد، ولكنها هي التي تتحكم فيما يطرأ وفيما يبيد"، ويتج عن ذلك أن الخلاق يصبح لديهم حقائق غائية، طالما أنهم يحزنون حزن الأنموذج الأزلي في العقل الإلهي، ففي كل الأحوال يبقى الله هو المعيار الأوحد للحق.

إن هذه النظرة الأغسطينية عن "المثل الأعلى" هي بطبيعة الحال من تأثير الأفلاطونية المحدثة في فكر أغسطينوس؛ حيث إن الأفلاطونيين وضعوا "المثل العليا" في العقل (Nous)، وإن كان أغسطينوس يضعها في "الكلمة" (Logos)، التي لا تمثل - عنده - أقنوما أدنى، كما يقول الأفلاطونيون المحدثون بالنسبة للعقل، وإنما هي الأقنوم الثاني في الثالث، المشارك في الجوهر مع الأقنوم الأول، وهو الأب⁽³⁾، ولقد تناقل كتاب العصور الوسطى هذه النظرية عن المثل الأعلى الإلهي عن أغسطينوس، والتي قد يرى فيها البعض العلاقة المميزة لفكر المدرسة الأغسطينية. هذا ولابد من التنويه بأن القديس توما الإكويني لم ينكر هذه النظرية، ولكنه في نفس الوقت كان حريصاً على بسطها بطريقة لا توحى بوجود أفكار إلهية غائية منفصلة عن الذات الإلهية، اللهم إلا في القول بوجود الأقانيم الثلاثة⁽⁴⁾. ومع أن توما الإكويني لم يكن

(1) 1,8,9.

(2) 2.

(3) De Trinit., 4, 1, 3.

(4) Cf. eog. Summa Theol., I a, 15, 2 and 3.

تابعاً من أتباع المدرسة الأغسطينية، خاصة في هذه النقطة الجدلية، فإن القديس بونا فنورا قد أصر في القرن الثالث عشر على مبدأ "المثالية الأعلى" وعلى وجود الأفكار الإلهية في كلمة "الله (الأقنوم الثاني أى المسيح)، ومن ثم كان عداؤه لـ"ميتافيزيقا أرسطو التي هاجم فيها مثالية أستاذه أفلاطون.

الفصل السادس

القديس أغسطينوس (٤)

العالم - الخلق الحر للعالم من العدم ... الهيبولى ..
العلل البذرية .. الأرقام .. الروح والجسد ..
الخلود - أصل الروح

على ضوء التوجه العام للقديس أغسطينوس وأفكاره المتداخلة، فإننا لا نتوقع منه أن يولى الأمور المادية لهذا العالم اهتماماً كبيراً؛ إذ تركز معظم تفكيره حول الروح وصلاتها بالله. ولكن فلسفته بشكل عام قد تضمنت رؤية عن العالم المادى، وهى رؤية مستقاة من مفكرين سابقين بعد أن ألبسها أغسطينوس عباءة مسيحية. ومن الخطأ مع ذلك أن نعتقد أن أغسطينوس قد نقل عن المفكرين السابقين نقلاً ألياً، ولكنه قد ركز على تلك الخطوط التى وجد فيها ما يخدم نظريته فى توضيح الصلة بين الطبيعة والله. واعتماد الطبيعة الكلى على الخالق.

١ - لقد اعتقد أغسطينوس، مثلما فعل كُتّاب مسيحيون آخرون فى نظرية لم ترد عند المفكرين الوثنيين، ومؤداها أن الله قد خلق العالم من العدم بإرادته العليا. ويلاحظ أن الأفلاطونيين المحدثين كانوا قد نأوا بنظرية "الفيض الإلهى" بمعنى أن العالم قد انبثق من عند الله بون انتقاص أو تحول فى الذات الإلهية. ولكن أفلوطين مع ذلك قد اعتقد بأن الله يجرى صنائعه أو الخليفة بحكم "الضرورة الطبيعية" (necessitate naturae) بمعنى أن الخير ينتشر ذاته بالضرورة. وعلى هذا فإن فكرة الخلق الحر للعالم من العدم ليست واردة عند الأفلاطونيين المحدثين، اللهم إلا إذا استثنينا واحداً أو اثنين من المفكرين الوثنيين الذين تأثروا بالتعاليم المسيحية. وربما اعتقد أغسطينوس أن

أفلاطون قد قال بالخلق من العدم عند زمن معين، ولكن من المستبعد، رغم ما أبداه أرسطو من تفسير لمحاورة "طيمائوس"، أن أفلاطون كان يقصد ذلك بالفعل - وفي جميع الأحوال، وبغض النظر عما قد يكون أغسطينوس قد اعتقده عن أفلاطون في هذا الخصوص، فإنه يقرر بوضوح فكرة الخلق الحر من العدم، وذلك ليؤكد علو الخالق واعتماد الكون كله على قدرته: "إن كل الأشياء مدينة بوجودها إلى الله"^(١).

٢ - ولكن هل يعنى هذا أن الأشياء قد جُبلت من مادة لا صورة لها، وألا يعنى هذا أيضاً أن هذه المادة تكون منفصلة عن الذات الإلهية العليا؟ حول هذه التساؤلات يجيب أغسطينوس بقوله: "هل أنتم تتكلمون عن المادة التى لا صورة لها البتة، أم عن المادة التى لا صورة لها إن هى قورنت بالمادة مكتملة الصورة؟ أما بالنسبة للحالة الأولى فأنتم تتحدثون عما هو مساو للعدم؛ ذاك الذى خلق الله منه كل الأشياء. أما إن كنتم تتحدثون عن الحالة الثانية أى عن المادة التى لم تكتمل صورتها إلا بعد تلبسها بصورة ما، فإنها أيضاً من عند الله. ومن ثم، حتى لو أن الكون قد خلق من مادة لا صورة لها، فإن هذه المادة قد خلقت من العدم"^(٢). وفى كتابه "الاعترافات"^(٣) يشبه أغسطينوس هذه المادة الأولية بالمتغيرات التى تعتمل داخل الجسد، وحيث أنها تملك القدرة على تقبل صورة ما، فإننا لا يمكن أن نصفها بالعدم المطلق. وفى أطروحته عن "صحيح الدين"^(٤) يلاحظ أغسطينوس أن امتلاك المادة لصورة ما، أو حتى قابليتها لاتخاذ صورة ما، يعد من الأمور الخيرة والمحمودة، وما هو خير بطبعه لا يمكن أن يكون عدماً مطلقاً فى الأصل، ولكن هذه المادة (الهيولى) التى ليست هى بالعدم المطلق، هى أيضاً من صنع الله، وليست صوراً قبلية ذات زمن محدد؛ إذ إن الله قد جبلها على صورة معينة^(٥) وهو يعرف "المادة التى جبلها الله من العدم" بالسموات والأرض كما هو وارد فى الآية الأولى من سفر التكوين^(٦).

(1) De lib. arbit., 3,15,42.

(2) Cf. De ver. Relig., 18,35-6.

(3) 12,6,8

(4) Loc. Cit.

(5) De Gen. an litt., 1,15,29.

(6) De Gen. contra Manich., 1,17,11.

وبمعنى آخر فإن أغسطينوس يعبر بطريقة مبسطة عما قال به فيما بعد المدرسيون بطريقة مفصلة. وعلينا أن نتذكر أن أغسطينوس لم يكن مهتماً بطرح نظرية فلسفية بقدر ما هو مهتم بالتأكيد على اعتماد الخليفة كلها على خالقها، وأن كل الخلائق فانية بالضرورة، حتى ولو كان لها وجود قبلى من الناحية الزمنية. إن كينونة الخلائق من عند الله، كما أن كيانها مرتبط بجلتها المتبدلة من حال إلى حال.

٣ - وللقديس أغسطينوس نظرية عزيزة على نفسه وأتباعه، مع أن القديس توما الإكويني قد رفضها؛ لأنها وهى تُعلى من قدرة الخالق، فإنها تقلل من حرية الإرادة لدى الخلائق. وهذه النظرية هى المعروفة باسم "العلل البذرية"^(١)، ويقصد بها تلك البذور التى من خلالها تصبح للأشياء صورة بعينها مع مرور الوقت. وعلى ذلك فإن الإنسان، وذلك فيما يتصل بجسده على أقل تقدير، ناهيك عن أصل روحه، قد جبل بفعل هذه "العلل البذرية" بصورة "غير مرئية"، بطريقة أشبه ما تكون بفتح البراعم من البذور^(٢).

وهذه الفكرة قد استقاهما أغسطينوس ونون شك من نبع الأفلاطونيين المحدثين، والتى ترجع إلى فكر الرواقيين، وهى فكرة مشوية بالغموض الشديد، ولقد اعتقد أغسطينوس أن هذه "البذور" ليست بالأشياء المحسوسة بالنظر أو اللمس، فهى غير مرئية وصورها غير مكتملة، اللهم إلا بعد أن تدبر أمرها العناية الربانية، فتتخذ لها صوراً بعينها. وهذه "البذور" ليست أشياء سلبية تماماً؛ لأنها تنزع إلى النماء، وإن كانت الظروف المحيطة بها والعوامل الخارجية الأخرى قد تحول دون هذا النماء والتطور^(٣). ومن ناحيته فإن القديس بوناغنتورا الذى سار على خطى أغسطينوس فى هذه النقطة، قد شبه هذه البذور ببرعم الزهرة، الذى ليس هو بزهرة حتى يتم اكتماله،

(*) فكرة رواقية أساساً تذهب إلى أن الأشياء كانت فى البداية على شكل بذور كامنة أخذت تنمو وتتطور وتظهر منها الأشياء. ولقد وجد القديس أوغسطين فى هذه الفكرة حلاً لمشكلة فعل الخلق الذى لا بد أن يكون واحداً على الرغم من أن الأشياء كثيرة وهى دائمة النمو والتطور، فالأشياء وجدت من البذرة التى خلقها الله مرة واحدة ثم تطورت (المراجع)

(1) De Gen ad litt., 8,5,8.

(2) De Trinit 3,8,13.

بشروط توافر البيئة والظروف الملائمة والإيجابية لهذا النمو، مع استبعاد العوامل السلبية المعرفة لهذا النمو.

إن نظرية أغسطينوس عن الأشياء التي لا تدرك بواسطة الخبرة المباشرة قد تبدو مشوشة بالغموض، ولكن هذا الغموض له ما يبرره عند صاحب النظرية؛ ذلك أن أغسطينوس كان منشغلاً في المقام الأول بتفسير الكتاب المقدس، ولم يكن بصدد قضية علمية، ولكن القضية العلمية فرضت نفسها في سياق هذه الشروح؛ ففي شرحه لسفر الجامعة "Ecclesiasticus"^(١) يقول أغسطينوس: إن الحي الذي يدوم هو الذي خلق كل الأشياء معاً، في حين أن من ناحية أخرى، طبقاً لسفر التكوين، خلقت الأسماك والطيور على سبيل المثال في "اليوم" الخامس من الخليقة، أما قطعان الماشية وحيوانات الأرض فقد ظهرت فقط في اليوم السادس. (والواقع أن أغسطينوس لم يفسر كلمة اليوم الرابع). كيف لنا إذن أن نوافق على هذه الآراء، من حيث إن الله قد خلق الأشياء جميعاً معاً في البدء، ولكنه لم يخلقها جميعاً بنفس النمط؛ فالنبات والأسماك والطيور والحيوانات والإنسان نفسه قد تم خلقهم جميعاً بعودة غير مرئية وكامنة في عليّة الإخصاب؛ والنماء والتناسل (Ratines Scriuils) وعلى هذا فإن الله قد خلق بداية نبات الأرض قبل أن ينمو ويتعرعر على وجه البسيطة^(٢)، وينطبق نفس الشيء على الإنسان نفسه، وبهذا ظن أغسطينوس أنه يمل التناقض بين ما ورد، وسفر الجامعة Ecclesiasticus ومما ورد في سفر "التكوين"، فلو أن الإشارة عن اكتمال صورة الخلق، فإن هذا وارد في سفر التكوين، ولو أن الإشارة إلى بذرة الإخصاب والنماء فهذا وارد في سفر "الجامعة".

ولكن لماذا لم يقتنع أغسطينوس بفكرة "البنور" بمعناها المؤلف، مثلما في بنور النباتات، ثم نموها إلى حبوب ناضجة مثلاً؟ الإجابة عن ذلك أن سفر "التكوين"، تيقن

(1) 18,1.

(2) De Gen. an litt., 15,1,417a.

من أن الأرض قد أنبتت العشب الأخضر قبل بنوره^(١)، وينسحب نفس الشيء على الخلائق الأخرى التي تتكاثر كما يتكاثر النبات.

وأمام هذا وجد أغسطينوس نفسه مضطراً للبحث عن معنى آخر للبذور، بقوله إن الله خلق في البدء "العلل البذرية" *Rationes Seminales* لنبات القمح مثلاً، فإنه طبقاً للتدبير الإلهي هذه العملية يخرج عنها حب القمح في زمن معين ومقدر، وهذا الحب يحمل في داخله بذرة القمح بالمعنى الذي نفهمه^(٢). كذلك فإن الله لم يخلق كل البذور أو البويضات في حالة نشطة عند البدء، ولكنها نشطت بفعل عملية الإخصاب والنماء "القبليّة" في خلقها. ومن ثم فإن جميع أنواع المخلوقات، بما تحمله بين جوانبها من نماء "أعضاء" في ردة الوقوع، قد خلقها الله في البدء من خلال عملية الإخصاب والنماء.

مما سبق يتضح أن القديس أغسطينوس لم يكن يعالج قضية علمية وإن كان بصدد مشكلة في تفسير الأسفار، وعليه فإنه لا يحال هنا القول بأن أغسطينوس كان مدافعاً عن نظرية التطور عند لامارى أو دروان أو مناهضاً لها بأية حال.

٤- استعان القديس أغسطينوس في كتاباته بفكرة الأرقام (الأعداد) كما وصفها أفلاطون، وإنها تعود إلى الرياضى القديم فيثاغورث. "إن معالجة أغسطينوس للأرقام تبدو أحياناً خيالية إلى أبعد الحدود: من قبيل مثلاً ما يقوله عن الأرقام الكاملة والأرقام المنقوصة، وكذلك إشارته إلى الأرقام الواردة في الكتب المقدسة. وبصفة عامة فإن أغسطينوس ينظر إلى الأرقام على أنها الرأس الأول للنظام والشكل والجمال والكمال، والتناسب والقانون. وعلى هذا فإن "المثاليات" إن هي إلا أرقام أزلية، في حين أن الأجساد أرقام موقوتة تفصح عن نفسها مع مرور الزمن. ويمكن النظر إلى الأجساد

(1) Gen. 1,11.

(2) De Gen. an litt., 2,4,9.

على أنها أرقام من عدة جوانب؛ فهي كليات تتألف من أجزاء منتظمة يتصل أحدها بالآخر فيفصح كل عضو منها عن نفسه، في مراحل زمنية متعاقبة (فالنبات على سبيل المثال ينبت ثم يورق ثم يزدهر ثم يثمر، ثم يعطى بنوراً)، ويمكن القول أيضاً إن الأجساد تتألف من عدد من الأجزاء المتناسقة مع خير مكانها، وبمعنى آخر فإنها تشبه الأرقام الضمنية والمكانية والزمانية.

وفي حين أن العلل البذرية أو "مسببات الإخصاب والنماء" أرقام خفية، فإن الأجساد أرقام علنية. كذلك فكما أن الأرقام الرياضية تبدأ بالواحد وتنتهى بعدد صحيح تام ومكتمل، كذلك فإن التسلسل الهرمي يبدأ بالله الواحد الأحد، خالق الأشياء في وحدات بعضها كامل والآخر أقل كمالاً. وهذه المقارنة أو الموازنة بين الأرقام الرياضية والأرقام الميتافيزيقية قد استقاها أغسطينوس من فكر أفلوطين، والحق أن معالجة أغسطينوس لموضوع الأعداد لا يضيف شيئاً يذكر لما قال به من قبل الأفلاطونيون والفيثاغوريون.

هـ - إن أعلى مراتب الخلق المادى هي خلق الإنسان، الذى يتألف من الجسد ومن الروح الخالدة. أغسطينوس واضح جداً في تسليمه بأن الإنسان يتكون من روح وجسد، فهو يقول: "إن الروح التى تتخلل جسداً ما، لا تخلف شخصين وإنما إنساناً واحداً"^(١). ولكن ما السبب فى تأكيد هذه النقطة رغم أنها شديدة الوضوح؟ يرجع السبب إلى أن أغسطينوس يتحدث عن الروح على أنها مادة هيولى فى حد ذاتها (هيولى مشاركة وتسكن أو تحل بالجسد)^(٢)، كما أنه يعرف الإنسان بأنه "روح عاقلة تستخدم جسداً ترابياً"^(٣). وهذه النظرة الأفلاطونية عن الروح كانت لها نتائجها على تفسير أغسطينوس للحواس، التى يرى فيها نشاطاً للروح وهى تستخدم الجسد كأداة

(1) In Joann. Evang, 19,5,12.

(2) De Quont anlmee., 13,21.

(3)De moribus eccl. 1,27, 52: In Joann Evang., 19,5,15.

لها، وليست كنشاط متداخل للمنظومة النفسية- الجسدية معاً. وعلى هذا فإن الروح- عند أغسطينوس هي التي تحرك عضواً ما من أعضاء الجسد عندما تتطلب الحاجة ذلك. ولما كانت الروح أسمى من الجسد فإن الجسد لا يتحكم فيها، ولكنها هي التي تدرك التغيرات التي تلم بالجسد نتيجة لمثيرات خارجية.

٦ - والروح الإنسانية أصل لا مادي، وإن كانت- كما هي الحال في عالم الحيوان- هي التي تحرك الجسد. وقد يقول قائل أو يظن أن روحه مكونة من الهواء مثلاً، ولكنه لا يمكنه مع ذلك أن يتعرف أنها بالفعل مكونة من الهواء. ومن ناحية يعلم الإنسان أنه على درجة وافرة من الذكاء، وأنه قادر على التفكير. ولكنه رغم ذلك لن يفترض أن الهواء قادر على التفكير مثلاً^(١). يضاف إلى ذلك- من وجهة نظر أغسطينوس- أن طبيعة الروح اللامادية مع جوهريتها الأساسية يؤكدان على خلوها. وفي هذه النقطة يستقى أغسطينوس آراءه من النبع الأفلاطوني^(٢)، فهو- على سبيل المثال- يستقدم ما ورد من حجج في محاوره "فيدون" ومؤداها أن الروح هي الأصل للحياة، وحيث إن الحدين المتناقضين متنافران، فإن الروح بذلك لا يمكن لها أن تموت. ولما كانت هذه الحجة حجة واحدة، فإن أغسطينوس قد تناولها بالتعديل: لأنها قد توحى بأن الروح قائمة في ذاتها أو أنها جزء من الذات الإلهية، ولذا فإنه قد طوع هذه الفكرة بقوله إن الروح مشاركة في الحياة، ولكنها مستمسكة بكيونيتها وجوهرها الممتد إلى أصل أولى لا يسمح بالتناقض. ولما كانت الروح تنتهي من هذا الأصل الأولى الذي هو الحياة، فإن الروح بذلك لا يمكن أن تموت. ويشي هذا التفسير بأن أرواح الحيوان خالدة أيضاً؛ لأنها تتدلى من أصل أول هو الحياة. على أن أغسطينوس في مقام آخر استناداً أيضاً إلى أفلاطون- بينما أن الروح تدرك الحقيقة الأزلية، ومن ثم فهي أيضاً تتمتع بهذه الصفة الأزلية. وفي أطروحته "عن القدر النفساني"^(٣) يميز أغسطينوس بين

(1) De Gen an litt., 7,21,28; De Trinit., 10,10,14.

(2) Cf. Sofil, 2,19,23; Ep., : De Jmmartal. An., Ch. 1,61.

(3)_ 28, 24ff.1.

الروح الحيوانية والروح الإنسانية؛ فالأولى تمتلك ملكة الحس، ولكنها لا تمتلك ملكة العقل والمعرفة، في حين أن الثانية تمتلك الاثنين.. "هذا فإن الحجة هنا منصبة على الروح الإنسانية وليست الروح الحيوانية. ولقد نادى أفلاطون من قبل أن الروح الإنسانية قادرة على فهم "المثل" الأزلية الثابتة، وهي بداية من نفس الجوهر الأزلي الثابت و"الإلهي"، وأما أغسطينوس فإنه على هذه الأزلية للروح الإنسانية منها دون أن يؤكد على مسألة الوجود القبلي (وجود الروح قبل إتحادها بالجسد) ((pre-existence على نفس المنوال الأفلاطوني وهو يبرهن على نظرية سعى الروح نحو الغبطة والسعادة التامة في توجهها نحو الله، وهذه الفكرة صارت من الأفكار المحببة لدى أتباع أغسطينوس، كما يتضح ذلك من أفكار القديس يونا فتورا على سبيل المثال.

٧ - يعتقد أوغسطين اعتقاداً جازماً أن الله هو الذي سوى الروح، ولكنه لم يفصح بشكل قاطع عن زمن وأصل الروح. وهو وإن كان قد عرج على نظرية أفلاطون عن الوجود القبلي (وجود الروح قبل اتحادها بالجسد)، إلا أنه لا يوافق على أن الروح قد ألبست بالجسد كعقاب لها على أوزار ارتكبتها خلق الأرض. ولكن القضية الكبرى بالنسبة له هي الوصول إلى جواب عما إذا كان الله قد خلق كل الأرواح جميعاً في شخص آدم، ومن ثم فإن هذه الأرواح تناقلت كابرا عن كابر من آدم إلى بني آدم جميعاً؟^(١)

إن الأمر الأخير ينطوي على نظرية مادية بالنسبة للروح، ولما كان أغسطينوس لا يقبل بهذه النظرية المادية، فإنه مصر على أن وجود الروح داخل الجسد ليست من قبيل الانتشار الموضوعي^(٢)، ومع ذلك فإنه لاعتبارات لاهوتية وليست فلسفية، وهو نفسه منحازاً إلى القول بتناقل (Traducianism) الأرواح؛ لأنه بهذا يمكن أن يقول بأن الخطية الأولى (لآدم) قد أصابت الروح بوصمتها وندستها.

(1) De anima et elux origine, 1,4,4.

(2) Ep., 1561.

ولو أننا افترضنا أن الخطيئة الأولى واقعة إيجابية وليست في حد ذاتها عدماً،
فإننا نواجه بعنصر سلبي؛ أي إننا نجابه مشكلة وعرة إن أردنا تأكيد خلق الله لكل
روح بمفردها، وإن كان هذا لا يغير من حقيقة أن فكرة التناقل (كأبراً عن كابر)
لا تتسق مع وصف الروح بالجوهر الروحاني واللامادي .

الفصل السابع
القديس أغسطينوس^(٥)
النظرية الأخلاقية
السعادة والله - الحرية والالتزام -
الحاجة إلى النعمة الربانية - الشر - المدينتان

تتفق وجهة نظر أغسطينوس عن الأخلاق مع وجهة النظر اليونانية التقليدية، من حيث إنها تجعل السعادة هي الغاية المثلى للمسعى الإنسانى، وإن كانت السعادة عند أغسطينوس هي في معرفة الله، إن الأبيقورى الذى يضع الخير الأقصى للإنسان في الجسد إنما يعلق آماله على ذاته^(١)، ولكن الكائن العاقل قد جبل بطبعه بحيث لا تجعله يعلق السعادة على الذات^(٢)؛ ذلك لأن المخلوق البشرى عرضة للتغيير وعدم الكفاية، أما الحال كذلك فإن السعادة لا تأتي إلا بامتلاك ما هو أكثر من الذات، فما هو أزلى وجوهري، وحتى الفضيلة نفسها لا يكفى لأن تكون هي الغاية القصوى؛ لأن السعادة الحقة في معرفة الله الذى وجه فضيلة الروح، والذى ألهم النفس بفضيلة التقوى وقوة إرادتها^(٣) إن المثل الأبيقورية العليا لا تجلب السعادة للإنسان، وكذلك الحال مع الرواقين، وإنما تكمن السعادة في السعى لمعرفة الله ومن ثم الاشتياق إليه، والوصول إلى الله، وهذه هي السعادة نفسها^(٤).

(1) Serm., Iso, 7.8.

(2) Ep. 140, 23,s6.

(3) Serm. Iso, 8.9

(4) DE MORIBUSECCL. 1.11.18.

كان أغسطينوس يدرك من واقع خبرته الذاتية أن الإنسان يجاهد سعيا وراء السعادة التي تكتمل عند حصول الإنسان على هدف يسعى وراءه، ولقد تأكد لديه هذا المعنى مما قرأه في محاورات أفلاطون وفلسفة أفلوطين السكندري أيضا والهدف الأسمى عند أغسطينوس هو الوصول إلى ما هو أزلى وجوهري؛ أى الله، وهو فى هذه لا ينطلق من منظور فلسفى أو تأملى تنظري الله، وإنما من فكرة المشاركة فى الحب الإلهى، وهى من أسس العقيدة المسيحية ومن النعم الربانية وهنا لا يمكن الفصل بين الجانب الطبيعى، والجانب الميتافيزيقى فى فكر أغسطينوس من الأخلاقيات حيث إنه ينظر إلى الإنسان من موقعه المحسوس الذى يتنازعه يوما نداء باطنى فوق الطبيعة، وكان أغسطينوس يجرى فى الأفكار الأفلاطونية المحدثه شيئا مما كشف عنه المسيح ورسالاته، وإن بقيت هذه الأفكار قاصرة فى مفهومها عن التحقيق الكامل لحقيقة السعادة.

إن الأخلاق عند أغسطينوس هى بالدرجة الأولى أخلاق الحب والمسعى الإنسانى نحو الاقتران من الله ومعاناة البهاء الربانى: عندما نتمسك بالإرادة الإنسانية- وهى الوسيط الخير- قبالة الخير المطلق، فإن الإنسان يجد نفسه فى حياة خبرة طوباوية⁽¹⁾ - وحيث إن الله هو الخير الأعلى، فإن ذلك يستوجب من الإنسان أن يحيا حياة خبرة فى محبة الله بكل قلبه، بكل روحه، وبكل عقله⁽²⁾. وبعد أن يسوق أغسطينوس كلمات المسيح كما وردت فى إنجيل متى⁽³⁾: "عليك أن تحب الرب إلهك بكل قلبك، وبكل روحك، وبكل عقلك، وأن تحب جارك مثلما تحب نفسك"، فإنه يقرر أن الفلسفة الطبيعية كلها موجودة فى هذه العبارة: لأن أصول كل الأشياء ودوافعها عند الله الخالق، وأن الأخلاق أيضا تكمن هنا، حيث إن الحياة الطيبة ودوافعها عند الله الخالق، وأن الأخلاق أيضا تكمن هنا، حيث إن الحياة الطيبة والأمنية لا تأتى عن طريق آخر سوى طريق المحبة، وحب الأشياء الجديرة بالحب... حب الله أولا ثم حب الجار⁽⁴⁾.

(1) De lib. arbit., 2,9,19,52.

(2) Demoribus eccl., 1,25,46.

(3) 22, 37-39.

(4) Ep., 137, S. 17.

من هذا يتضح أن الأخلاق عند أغسطينوس تتمركز حول دينامية الإرادة وفعاليتها، وهى فاعلية الحب 'العزم، عزمى، والمحبة محبتى pondus mtum, amor^(١) كما أن الوصول إلى السعادة والمشاركة فى الخير المطلق لا يتأتى للإنسان بدون هبة من النعمة الإلهية تجعله أهلاً لتقبل عطايا الرحمة من عند الخالق^(٢).

٢ - إن إرادة الإنسان إرادة حرة، ولكنها تخضع فى نفس الوقت للالتزام الأخلاقى. لقد بلور الفلاسفة اليونان تصور السعادة على أنه غاية السلوك ولا يستطيع المرء أن يقول إنهم لم يكونوا مدركين لفكرة الالتزام. ولكن أغسطينوس الذى كان يملك بصيرة نافذة فكرة عن الربوبية والخلق وناموس الأخلاق الإلهى كان فى موقع يمكنه من أن يعطى الالتزام الأخلاقى قاعدة ميتافيزيقية أكثر رسوخاً من الفلاسفة اليونان.

إن القاعدة الجوهرية للالتزام هى الحرية، فالإرادة تتمتع بالحرية فى اختياراتها، وفى مقدورها أن تتباعد عن الخير وثوابته وتبحر وراء الطيبات المتغيرة، منتهية بمنع النفس أو مباهاج الجسد، بعيداً عن الله، والإرادة تبحث بالضرورة عن السعادة والرضا، ولكن واقع الأمر أن لا سعادة هنالك عن الله الخير الثابت، وإذا كان الإنسان أثناء حياته لا يباين الله، فإنه سوف ينساق وراء المباهاج الموقوتة، وبذلك يبتعد عن الله.

وهذا الابتعاد عن الخير الكلى، والاقتراب من المباهاج الدنيوية ليس شيئاً مقدرًا على الإنسان بحال، وإنما هو من محض اختياره الحر^(٣).

إن الإرادة الإنسانية لها تلك الحرية الكاملة فى اختيارها، إما فى توجيهها نحو الله أو فى الابتعاد عنه. وفى نفس الوقت فإنه يستوجب على العقل البشرى أن يعترف بحقيقة أن تحقيق السعادة المنشودة لا يتأتى إلا بالامتلاء بالخير والفيض الإلهى، وبأن الرغبة فى هذا الخير هى من تدبير الله خالق كل شىء. إن الإرادة الإنسانية عندما

(1) Conf., 13, 9, 150.

(2) Ep, 140, 21, 140.

(3) De lib, arbit. 2, 19, 35.

تتباعد عن الله فإنها بذلك تخالف الناموس الإلهي الذي ألهم الله به البشر أجمعين، وليس بخاف أن جميع البشر يدركون، ولو بقدر، المعايير، الأخلاقية والنواميس التي رسمتها لهم العناية الإلهية، وحتى الذين لا يعرفون الله فإنهم يعبدون أحكاما صحيحة بالمديح أو الذم على الكثير من تصرفات البشر، فكيف يتأتى هذا لهم إلا من خلال رؤيتهم للأحكام والنواميس في حياتهم.

ولكن من أين جاءهم البصر بهذه الأحكام والقواعد، إن هذه القواعد ليست في عقولهم؛ لأن عقولهم متبدلة من حال إلى حال، في حين أن أحكام العدالة ثابتة لا تتبدل، ولا هي موجودة في شخصياتهم؛ لأنها بطبيعتها ليست بعادلة، أن البشر يبصرون القواعد الأخلاقية، كما يقول أغسطينوس في كتاب نور الحق من خلال النواميس الأزلية للأخلاق المطبوعة في قلب الإنسان مثل بصمات الخاتم عندما تتطبع على الشمع، ولكنها لا تترك الخاتم، ويمضى أغسطينوس ليقول بأن هناك بعض الناس من الغافلين عن الناموس بدرجات متفاوتة، ولكن حتى هؤلاء الغافلين فإنهم أحيانا ما يمسسهم جلال الحق كلى الحضور⁽¹⁾ وعلى هذا، فمثلا يستطيع الفعل الإنساني أن يدرك الحقائق الأزلية النظرية مستثيراً بالهدى الإلهي، فإنه يستطيع أيضا بنفس الاستنارة، أن يدرك الحقائق الأزلية النظرية مستثيراً بالهدى الإلهي، ويستطيع أيضا بنفس الاستنارة، أن يدرك الحقائق العلية أو المبادئ التي تهدي الإرادة الحرة إن الإنسان بحكم طبيعته الحسية، قد خلق ليتجه نحو الله، ولكنه لن يتمكن من تحقيق هذه الغاية إلا من خلال الانصياع للقواعد الأخلاقية التي تتساوى مع الناموس الإلهي، وهذه القواعد ليست تسرية، وإنما هي موهونة بصلة المخلوق بالخالق لكي يصبح المخلوق على الصورة الحسنة التي أراد الله أن يكون عليها بنو البشر. إن القديس أغسطينوس يؤكد على الإرادة الحرة للإنسان، مع خضوعها للالتزام الأخلاقي، وغنى عن البيان أن محبة البشر لله التزام وواجب أيضا.

(1) De Trinit. 14, 15,2.

٣ - إن العلاقة بين الإنسان والله هي علاقة بين المخلوق الممدود وبين الخالق اللا ممدود وهذه الفجوة الهائلة لا يمكن ملؤها بدون تدخل من العون الإلهي أو العناية الربانية، والعناية الربانية أمر ضروري حتى عندما يشرع المرء في توجيه إرادته نحو الله، عندما يحاول الإنسان أن يحيا حياته في عدالة معتمداً على قوته الذاتية بدون العون الإلهي فإن الخطايا سرعان ما تهزمه، ولكنه إن هو تسلمح بالإرادة والعزم يصبح قادراً على تلمس خط الإيمان والخلاص ومن ثم يتأهل لتبقى النعمة الإلهية^(١).

إن الناموس السماوي يتيح للمرء أن يسعى نحو النعمة الإلهية، كما أن النعمة الإلهية قد قضت بأن يتحقق الناموس^(٢) حقيقة أن إرادة البشرية للعيش وفق النواميس السماوية ضعيفة، ولكن النعمة الإلهية هي التي تقوم هذا العجز البشري^(٣). إن ناموس التعاليم والوصايا التي لا يمكن تحقيقها بدون نعمة ربانية إنما يتضح عن عجز البشر، وعليه فلا مناص للبشر من السعي إلى المخلص الذي يعالج الإرادة الإنسانية ويجعلها قادرة على ما كان مستحيلاً عليها وقت ضعفها^(٤).

لا مجال هنا للدخول في تفاصيل عقيدة أغسطينوس عن النعمة الإلهية وصلاتها بالإرادة الحرة، فهي قضية معقدة، ولكن من الضروري أن نؤكد على فكرة أغسطينوس بأن محبة البشر لله هي لب القانون الأخلاقي، وهو بهذا يشير إلى شركة الإرادة بالخالق والتي تتطلب التسامى المنفعي بالنعمة الربانية وهذا أمر طبيعي في فكرة أغسطينوس؛ لأنه يعالج قضية الإنسان في عالمنا المادي الحسي، وقد زوده الخالق بقوة غير عادية يجاهد بها نحو ما هو أسمى من قوانين الطبيعة، وبهذا يكون أغسطينوس قد أكد على حكمة الفلاسفة بحكمة الكتب المقدسة، وفي استطاعتنا - في هذا السياق - أن نصالح أغسطينوس الفيلسوف على أغسطينوس اللاهوتي، وإن كان أغسطينوس

(1) Exos. Quarumearm prop. Ex epist. Ad Rom., 44

(2) De spir, e illi., 19, 34.

(3) Ibid, 9, 15.

(4) Ep. 145., 3, 4.

يرى أن الفيلسوف الحقيقي هو الذى يتقمص الحقيقة فى العالم المادى الحسى كما هو قائم، أخذ فى الاعتبار أنه لن يجد ما يبحث عنه بدون تدبير من الغذاء والنعمة الربانية.

٤ - إذا كان الكمال الأخلاقى يكمن فى محبة الله، وفى التوجه بإرادتنا نحو الخالق، وفى وضع جميع طاقاتنا وحواسنا فى حال متناغم مع هذا التوجه، فإن الشر لا يتأتى إلا من جنوح إرادتنا بعيداً عن الله. ولكن ما الشر، فى ذاته أعنى الشر الأخلاقى على وجه التحديد، وهل هو عنصر إيجابى فى الطبع البشرى؟.

إن الشر- فى فكر أغسطينوس- ليس عنصراً إيجابياً- فهو ليس من صنع الله وإنما هو من فعل إرادة البشر، إن مسببات الأمور الخيرة هى من نعم الخير الربانى، فى حين أن مسببات الشر هى من صنع الإرادة الإنسانية وبمحض اختيارها، فهى التى تجنح بعيداً عن الخير الثابت^(١) إن الشر هو انحراف الإرادة المخلوقة بعيداً عن الخير المطلق الثابت^(٢).

ولا يصح أن نطلق على الشر مصطلح "الشيء"، لأن هذا المصطلح ينطوى على "حقيقة إيجابية"، فلو أن الشر حقيقة إيجابية فلا بد لنا من أن نرجعه حينئذ إلى الخالق، اللهم إلا إذا كنا نتوهم أن المخلوق لديه القدرة على الخلق الإيجابى من العدم، وعليه فإن الشر إن هو إلا أن ذاك الذى يجنح بعيداً عن الجوهر وينعطف نحو الفوضى، إن الشر هو المسعى لتحويل ما هو كائن بالفعل إلى العدم^(٣)، إن كان ما يتسم بالنظام والقسط فى الوجود يرجع إلى صنائع الله، ولكن الإرادة البشرية التى تجنح بعيداً عن الله هى الفوضى بعينها، إن الإرادة فى حد ذاتها خيرة، ولكن غيبة النظام المستقيم أو بالأحرى فقدان هذه الاستقامة، التى هى مسئولية الكائن البشرى، هى الشر بعينه،

(1) Enchirid., 23.

(2) De lib. arit., 1,16,35.

(3) De moribus eccl. 2.2.2.

وعلى هذا فإن الشر الأخلاقى هو فقدان الصواب والجيدة عن النظام من خلال الإرادة البشرية نفسها.

إن هذه الفكرة عن الشر كعوز وجنوح عن الصواب هى من بنات أفكار أفلوطين وفيها وجد أغسطينوس ما يرد به على المانويين. وعلى هذا فإن كان الشر دالاً على فقدان والعوز، وليس عنصراً إيجابياً، فإن هذا يعطينا من الاختيار بين أمرين، إما أن نعزو الشر الأخلاقى إلى سماح من الخالق الخير، وإما أن نتبدع قوة شريرة أولية عليها مسئولة عن الشر "كما يقول المانويون" إن هذا الطرح الذى يقدمه أغسطينوس سرعان ما تلقفه "المدرسيون" عنه كما أنه صادف قبولا عند بعض الفلاسفة المحدثين المرموقين ومن بينهم الفيلسوف ليبنتز على سبيل المثال^(١)

ه - لما كانت قوامة الأخلاق تقوم على محبة الله، ولما كان جوهر الشر يتأتى من الجنوح بعيداً عن الله، فإنه يمكن تقسيم البشر إلى معسكرين كبيرين: الذين يفضلون الذات على الله، وطبقاً لإرادة الإنسان الحرة وتزوجه إلى المحبة، فإنه بذلك يقرر مصيره وسمات شخصيته، وعلى هذا فإن أغسطينوس ينظر إلى تاريخ الجنس البشرى على أنه دياكتيك بين هاتين الرؤيتين: الواحد يجاهد لبناء مدينة أورشليم، والآخر يسعى لإقامة مدينة بابل، ولو سأل كل منا نفسه عما يحب، فسوف يجد إلى أى المدينتين ينتمى كمواطن، هناك نوعان من المحبة يتميزان بين المدينتين القائمتين لدى جنس البشر وفى هاتين المدينتين المتزاحمتين قد دارت الأزمنة والعصور^(٢).

لقد سمعتم أن هناك مدينتين، هما فى الآخر مختلطتان فى الجسد، ولكنهما منفصلتان فى القلب^(٣).

(1) In Ps., 64, 2.

(2) De Gen, ad litt., 11,15,20.

(3) In Ps., 136, 1.

وبالنسبة للمسيحية، فإن التاريخ يمثل أهمية قصوى فعلى درب التاريخ كانت منطقة الإنسان الأولى، وعلى نفس الدرب تم فداء الإنسان من سقطته . فى التاريخ أيضا مع مضى الأوقات حل جسد المسيح عن الأرضيين لينمو، ويزدهر حتى تظهر تدابير الله الخلاقة، للمسيحية، أيضا، فإن التاريخ بدون وقائع الرسالة السماوية يفقد حكمته، ولا عجب إذن فى أن أغسطينوس قد نظر إلى التاريخ من منظور مسيحي روحاني وأخلاقي فى الدرجة الأولى، وعليه فإننا عنده نتحدث عن فلسفة التاريخ عند أغسطينوس، فإن كلمة فلسفة هنا ينبغى أن تفهم بمعناها الأوسع لتقضى الحكمة فى رسالة المسيحية.

إن معرفة الوقائع والأحداث ربما تكون معرفة طبيعية، من قبيل معرفة قيام إمبراطورية بنى آشور وبابل على سبيل المثال، ولكن المبادئ التى يقوم عليها تفسير هذه الأحداث ومغزاها والحكم عليها لا تنشأ من الأحداث نفسها؛ ذلك لأن ما هو موقوت وعارض ينبغى أن يحكم عليه أو يقيّم على ضوء ما هو أزلى وثابت، ومع أن نزوع أغسطينوس فى التركيز على آشور كتجسيد لمدينة بابل.

بالمعنى الأخلاقى قد لا يروق للمؤرخين المحدثين، وهذا أمر مفهوم، إلا أنه يجب ملاحظة أن أغسطينوس لم يكن يقوم بدور المؤرخ.

بالمعنى الدقيق، لكنه كان يحاول تقديم فلسفة للتاريخ من وجهة نظره الخاصة التى تهدف إلى إبراز المغزى الروحي والأخلاقي للظاهرة التاريخية بكل أبعادها، ومن وجهة النظر المسيحية فإن رؤية أغسطينوس لفلسفة التاريخ تبدو رؤية صائبة؛ لأنها تتطوى على تفسير لاهوتى لأحداث التاريخ، أو قراءة التاريخ على ضوء العقيدة الدينية، وهذه النظرة التى لا تروق للمستقلين بعلم التاريخ له تشغل بال أغسطينوس؛ لأنه لم يدع أنه يرسم حدوداً راديكالية فاصلة بين اللاهوت والفلسفة.

الفصل الثامن

القديس أغسطينوس^(١)

الدولة ومدينة بابل ليستا صنوين -

الدولة الوثنية - لا تجد العدالة الحقّة

الكنيسة أسمى من الدولة

١ - كنا قد لاحظنا سلفاً أن أغسطينوس كان يرى في التاريخ - مثلما كان يرى في الإنسان الفرد - صراعاً بين نمطين من السلوك، أو بين نوعين من المحبة: محبة الله والخضوع لمشيئته من ناحية، ومحبة الذات والملذات والعالم من ناحية أخرى. وكان طبيعياً من هذا المنطق أن يجعل من الكنيسة الكاثوليكية تجسيداً للمدينة السماوية، مدينة أورشليم بينما جعل من الدولة ونجاحها الدولة الوثنية تجسيداً لمدينة بابل، ويستخلص من هذا الوقت أن أغسطينوس قد جعل الكنيسة كجماعة قائمة، صنفاً لمدينة الله، في حين تبقى مدينة بابل صنفاً للدولة الزمنية القائمة بين ظهرائنا، ثم يتساءل أغسطينوس في استنكار قائلاً: في غيبة العدالة، ألا تصبح عصابة من اللصوص مجرد مملكة صغيرة ويستطرد أغسطينوس في حجته مستيعناً بجواب أحد القراصنة على سؤال للإسكندر الأكبر قال فيه: "لأنني أقوم بقرصنتي بسفينة صغيرة فإنكم تسمونني لصاً، في حين أنك أنت الذي تفعل نفس ما أفعله ولكن بأسطول كبير فإنهم يطلقون عليك لقب "الإمبراطور"^(١) إن آشور وروما العظيمة - عند أغسطينوس - قد تأسستا على قواعد الظلم والعنف والسلب والقهر: ألا يدلّك هذا على أن الدولة ومدينة بابل صنوان؟

(1) De civit Dei, 4,4.

من الواضح أن أغسطينوس كان يعتقد بأن التجسيد التاريخي لمدينة بابل كان متمثلاً في كل من الإمبراطوريتين الوثنيتين آشور وروما، في حين أن مدينة أورشليم- أو مدينة الله تتجسد في الكنيسة الكاثوليكية ومع ذلك، فإن فكرة المدينة الأرضية فكرة روحانية لا ينطبق محتواها على أى مؤسسة قائمة بين ظهرانينا؛ فعلى سبيل المثال قد يكون شخص ما عضواً في الكنيسة، ولكنه مكتفٍ بحب ذاته وليس بمحبة الله، فهو بذلك رغم مسيحيته ينتمى- عند أغسطينوس- إلى مدينة بابل. وعلى العكس، قد يوجد شخص مسئول معين في الدولة، يضع محبة الله نصب عينيه، وذلك باتتباع قواعد الدول والعطف مع الرعية، فإنه بذلك يكون منتسباً روحياً وأخلاقياً، إلى مدينة أورشليم؛ إن مَنْ يسلك درب الروحانية والأخلاق يصبح مواطناً في مدينة أورشليم، أى من مواطن ملكوت السموات، وقد يكون هذا الشخص أميراً ممن يرتدون العباة الأرجوانية، أو قاضياً، أو من رجال الشرطة، أو من القناصلة السابقين من الأحكام الإداريين، أو إمبراطوراً، من يتلون أمور السياسة والحكم في المدينة الأرضية، ولكنه يضع قلبه في الأعلى عند الله، ويسلك مسلك المؤمنين الذين يخافون الله- كذلك علينا ألا نياس من مواطني ملكوت السموات، عندما نراهم منهمكين في أمور بابل الدنيوية وأعمال المدينة الأرضية، ولكن ينبغي علينا ألا نخترع بكل الذين يخرطون في سلك الخدمة الدينية؛ لأنه قد يحدث أحياناً أن يجلس واحد من أبناء الهلاك والضلال في مقعد "موسى" نفسه - ولكن الوقت سوف يحين عندما تتم غربة هؤلاء وأولاء، وعزل الواحد منهم عند الآخر كما ينبغي⁽¹⁾.

وهكذا فإن أغسطينوس يؤكد على أنه حتى لو سلمنا بتطابق مدينة بابل مع الدولة الوثنية بالمعنى المعنوي، ويتطابق مدينة أورشليم مع المؤسسة الدينية القائمة على الأرض، فإن هذا التطابق ليس تطابقاً كاملاً؛ لأنه ليس بمقدورنا أن نستخلص أن شخصاً ما مجرد أنه من رجال الدين على سبيل المثال يصبح بالضرورة من مواطني

(1) In Ps., S1,6.

مدينة أورشليم الروحية؛ لأنه ربما يكون من واقع ملكه البعيد عن الروحانية والأخلاقية منتميا، إلى مدينة بابل على أن أغسطينوس يقول في حالة تطابق الدولة الحاكمة مع مدينة بابل فإنه لا يجوز للمؤمن أن يحتل منصبا فيها، أو أن يكون ضمن زمرة مواطنيها، إن كان هذا في وسعه.

٢ - أما في حالة عدم تطابق مدينة بابل مع الدولة، فإن أغسطينوس على كل حال لم يكن يعتقد بأن الدولة تقوم على مبدأ العدل، أو أن العدل الحقيقي يمكن أن يقوم في أى من الدول الأرضية وخاصة الدول الوثنية. ولكن هذا لا ينفي وجود عدالة نسبية في بعض الدول الوثنية، أما العدالة الحقّة فإنها تتطلب أولاً الإيمان بالله، وهذا ما كان غائبا في الدولة الرومانية التي ناصبت المسيحية العداء.

ولكن لا يمكن لأحد أن ينكر أن روما الوثنية كانت دولة بكل المقاييس فكيف لنا إذن أن نُسقط عنها هذه الصفة بحجة غيبة العدالة فيها؛ يعود أغسطينوس فيعرف الدولة بأنها مجتمع من مخلوقات عاقلة تتفق معا على الأمور التي يرضى عنها الجميع^(١) فلئن كانت هذه الأمور خيرة، فإن هذه الدولة تكون خيرة، والعكس صحيح.

غير أن أغسطينوس لم يبين لنا طبيعة تلك الأمور التي ينبغي أن يجمع الكل عليها: هل هي خيرة أم شريرة، ومن ثم فإن تعريفه للدولة ينطبق حتى على الدولة الوثنية، وهذا لا يعنى بطبيعة الحال أن الدولة تعيش في فراغ أخلاقي كامل، ذلك أن الكادر الأخلاقي ينسحب على الدول مثلما ينسحب على الأفراد من البشر، وفي جميع الأحوال، فإن أغسطينوس يود أن يؤكد على أن الدولة الحقّة لن تجسد العدالة، ما لم تكون دولة مسيحية، وفي تقديره أيضا أن الدولة كأداة للسلطة قد نشأت كنتيجة لخطيئة الإنسان الأولى، ولكن لن يقدر لها أن تكون مؤسسة عادلة ما لم تكن مسيحية: ليس ثمة دولة الأسمى سبيلا إلى معرفة الله ومحبتة، ومن ثم حب المواطنين أحدهم

(1) De Civit, Dei. 19,24.

الأخرون رياء؛ لأن الله هو رباطهم في المحبة^(١)، وبمعنى آخر وفق رأى أغسطينوس فإن الدولة إن هي تركت لذاتها وقعت فريسة لحب هذا العالم الفانى، ولكنها، إن ازدانت بالمبادئ المسيحية العليا، فإنها تصبح سيدة مبادئ ومثل أكثر سموًا، وعلوًا.

٢ - مما سبق تتضح لنا فتيجتان هامتان. أولاً: أن الكنيسة المسيحية سوف تستوعب المجتمع المدنى بمبادئ سماوية للسلوك.

بمبادئها كما نعت عليها الحكمة الإلهية؛ لأن رسالتها أشبه بفعل الخميرة في عجين الأرض، على حد تعبير أغسطينوس، والكنسية رسالة هامة في الدولة من حيث بث مبادئها في كل مؤسسات المجتمع.

ثانياً: إن الكنيسة - عند أغسطينوس - هي المجتمع الوحيد الذى يتمتع بالكمال، ومن ثم فهي فى وضع أسمى من وضع الدولة نفسها، وحتى عندما تستقى الدولة مبادئها من الكنيسة، فإنها رغم ذلك لا تصبح فى وضع أعلى أو حتى مساو لوضع الكنيسة.

وبهذه الخلاصة يضع أغسطينوس نفسه على قائمة المفكرين الذين طالبوا فى العصور الوسطى بوضع الكنيسة فى مرتبة أسمى من وضع الدولة.. ومن هذا الموقع، فإنه قد طلب من الدولة الرومانية أن تتصدى لهرطقة "النوناتين" فى الشمال الإفريقى" مثلاً كأداة للكنيسة- الأسمى مكاناً- التى من حقها استخدام السلطة الدينية للحفاظ على العقيدة^(٢).

كانت هذه وجهة نظر أغسطينوس بالنسبة للعلاقة بين الكنيسة والدولة فى الغرب اللاتين، ولكن الأمر كان مختلفاً تماماً فى الدولة البيزنطية أو الإمبراطورية الرومانية الشرقية. وقد يتندر البعض لوجهة نظر أغسطينوس مثلاً فعل الأستاذ كويستوفر

(1) Ep. 137, S, 18.

(2) Ibid. 105, s, 6i, 35, 3.

دوسون⁽¹⁾، بأن هذه الرؤية الأغسطينية لا تتجه لهدم دلالات المجتمع وحياته المدنية، ذلك أن أغسطينوس وإن كان قد حرم الدولة من هالتها وهيبتها، إلا أنه فى نفس الوقت قد أكد على قيمة حرية الفرد الشخصية، وعلى مسئوليته الأخلاقية حتى ضد الدولة نفسها. وهو بهذا يكون قد مهد لفكر "الدولة المثالية" القائمة على نظام اجتماعى يركز على مبادئ الحرية الشخصية والجهد الجماعى بمقالة "غايات أخلاقية".

(1) A Monument of St. Augustine. Pp. 76-77.

الفصل التاسع

ديونسيوس المنحول :

الكاتب وكتابات - الطريق الموجبة - الطريق السالبة

تفسير للثالوث - تعاليم غامضة عن الخلق - مشكلة الشر

أرثوذكسية أو لا أرثوذكسية ؟

١ - خلال العصور الوسطى تمتعت الكتابات التي نُسبت إلى المفكر الأثيني ديونسيوس الإريوياغى، الذي اعتنق المسيحية وتلمذ على يد القديس بولس، بتقدير كبير ليس فقط بين الزهاد وكتاب سير الآباء، الباكرين، وإنما أيضا بين المفكرين من رجال اللاهوت والفلسفة من أمثال القديس البرت الكبير والقديس توما الإكويني. ويعود هذا التقدير الزائد لهذه الكتابات إلى لبس كان قد اكتنف حرية صاحب هذه الكتابات أصلا بسبب استخدامه اسماً منحولا، فهو فى واحد من مكاتباته يقول: من دنسيوس الكاهن إلى أخيه فى الخدمة الكهنوتية تيموثاوس^(١). وفى سنة ٥٢٣م استند ساويرس بطريرك أنطاكية إلى كتابات ديونسيوس هذا فى الدفاع عن آرائه المونوفيزية "مذهب الطبيعة الواحدة" - وفى هذا ما يشير إلى أن هذه الكتابات قد اكتسبت مصداقية لدى المعاصرين، وعلى الرغم من تمسك ساويرس بالكتابات المنسوبة إلى ديونسيوس هذا، إلا أن أحداً لم يجرح هذه الكتابات وجعلها خارجة عن قوامة الإيمان أو الأرثوذكسية،

(1) Exordium to the Divine Names.

فلقد كانت هذه الكتابات شائعة في بلاد المشرق، وقد قام القديس ماكسيموس المعترف في القرن السابع بالتعليق عليها، كما أن القديس يوحنا الدمشقي المفكر المرموق في القرن الثامن قد استخدمها في دفاعه عن العقيدة، على أنه من ناحية أخرى راح اللاهوتي هيباتيوس، من إفيسوس يشكك في مصداقية هذه الكتابات في مجملها.

أما في القرن فإن البابا مارتن الأول لجأ إلى هذه الكتابات في المجمع الاتيراني الأول سنة ٦٤٩ ما يشير إلى أنه كان مسلماً بصحة نسبتها إلى ديونسيوس وفي سنة ٨٥٨م على وجه التقريب قام الفيلسوف جون سكوتوس أريوجينا، استجابة لطلب الإمبراطور ميخائيل بالبوس، بترجمة هذه الكتابات عن اليونانية إلى اللاتينية، وكان الإمبراطور البيزنطي ميخائيل بالبوس قد أهدى النص اليوناني لهذه الكتابات إلى الإمبراطور لويس الجميل سنة ٨٢٧م، وإلى جانب الترجمة قام أريوجينا بالتعليق على هذه الكتابات مبتدئاً بها باكورة سلسلة الكتابات من الشروح والتفسيرات في أوروبا اللاتينية فلقد قام هيو من سان فكتور (ت ١١٤١م) بالتعليق على "الهراركية السماوية" مستعيناً بترجمة أريوجين، بينما قام كل من روبرت جبروستست (١٢٥٢م) وألبرت الكبير (ت ١٢٨٠م) بالتعليق على نفس الكتابات محل النقاش كذلك قام القديس توما الأكويتي بالتعليق على الأسماء السماوية قرابة سنة ١٢٦١م.

لقد سلّم كل هؤلاء، الكتاب، ومنهم المفكر دينيس الكارثوري، بصحة نسبة هذه الكتابات إلى ديونسيوس، ولكنه مع مرور الوقت اتضح للمفكرين أن هذه الكتابات تتضمن أفكاراً مستقاة من مناهل الأفلاطونية المحدثه بعد تطويعها، وأنها تمثل محاولة للمصالحة بين الأفلاطونية المحدثه والمسيحية، وعليه فإن نسبتها ينبغي أن ترجع إلى كاتب من عصر متأخر كثيراً عن عصر ديونسيوس الأريوياعي الذي تُسبت هذه الكتابات إليه، ومهما كانت الحال فإن صحة نسبة هذه الكتابات ليست على نفس القدر من الأهمية مع قضية مدى اتساقها مع المبادئ المسيحية القديمة، هذا وجدير بالملاحظة أن المفكرين في القرن السابع عشر راحوا يشككون في صحة نسبة هذه الكتابات، وأيضاً في أرثوذكسيتها.

ونحن من جانبنا نرى أن هذه الكتابات تتفق في بعض الجوانب مع التعاليم الأرثوذكسية من حيث رفضها لمبدأ الطبيعة الواحدة للمسيح "المونوفيزية"، ولكنها لا تتسق مع التعاليم الأرثوذكسية فيما يختص بالثالوث، ولقد اعترف القديس توما الإكويني أنه من الصعب مصالحة هذه الكتابات الفاضلة مع التعاليم الخاصة للتجسد، وهي قضية حيوية في المسيحية على أنه ينبغي علينا أن نقرر بأن الابتسار في قاعدة واحدة من قواعد الإيمان لا يستوى مع إنكار هذه القاعدة، وواقع الأمر أننا لو أخذنا الفقرات الأساسية في كتابات ديونيسيوس المنحول هذا، فإنه يصعب علينا وصمها بعدم الأرثوذكسية، اللهم إلا إذا كنا على استعداد مثلاً لأن نشكك، في أرثوذكسية الأفكار الصوفية عند القديس يوحنا حامل الصليب، الذي يعد واحداً من عمد الكنيسة.

ورغم أنه لا أحد اليوم يعتقد أن هذه الكتابات هي من وضع ديونيسيوس الأريوياني، إلا أن أحداً لم يكتشف بعد الكاتب الحقيقي، وأغلب الظن أنها قد وضعت مع نهاية القرن الخامس؛ لأنها تتضمن الكثير، من أفكار بيروكلوس "٤١٨-٤٨٥" الأفلاطوني المحدث. كما أن شخصية هايروثيوس التي يتربد ذكرها في هذه الكتابات، قد وجد فيها بعض الباحثين تطابقاً مع زاهد سوري معاصر يدعى ستيفن بار-ساديلي (sadaili) ولئن صحَّ هذا الغرض فلا بد من إرجاع تاريخ هذه الكتابات إلى العقود الأخيرة من القرن الخامس. ويذكر أيضاً أن مجمع سنة ٥٣٢م الكنسي قد استند في محاولاته إلى حجية كتابات ديونيسيوس هذه، ولهذا فإن تاريخ سنة ٥٠٠ قد يبدو الأقرب إلى الدقة، وأن كاتبها من أصول سورية.

لقد كان الكاتب واحداً من رجال اللاهوت الكنيسية، ولكنه ليس ساوريوس كما اقترح بعض الكتاب دون ترو، وفي جميع الأحوال، فمع أن التعرف عن يقين إلى شخص الكاتب يعد قضية هامة، فإننا نستبعد أن الدارسين إلى أكثر من مجرد تخمينات هنا وهناك مع ملاحظة أن أهمية هذه الكتابات لا ترجع إلى شخص كاتبها بقدر ما ترجع إلى محتواها وتأثيرها على المعاصرين، واللادين من أهل الفكر، وتشمل هذه الكتابات على الأطروحات التالية: الأسماء الإلهية، اللاهوت الروحي، الهيراركية

السماوية؛ الهيراركية الكنسية" إلى جانب عشر رسائل وهذه الأعمال جميعا منشورة ضمن أعمال الآباء اليونان "Patrologia Graeca للعالم "مين" (Migne فى الجزعين الثالث والرابع، وقد انكب الدارسون مؤخراً على إخراج طبعة منقحة لهذه النصوص.

٢ - طبقاً لهذه الكتابات موضع التناسق، هناك طريقان للتقرب إلى الله محور كل تأمل، طريق إيجابى وآخر سلبى، وبالعطريق الأول يبدأ العقل فى التفكير فى القضايا الكلية الكبرى، ثم ينتقل من خلال الوسائط من الكليات إلى الجزئيات^(١)، بمعنى أن يبدأ العقل بالمقولات الكبرى^(٢)، وفى أطروحة "الأسماء الإلهية" يتبع ديونسيوس المتحول المنهج الإيماني، مبيناً كيف أن أسماء الله من قبيل: الخير والحياة، والحكمة، والقوة هى من الأسماء التى نصف بها الله بأسلوب مفارق، وأننا أيضاً نصف بعض البشر الذين أنعم الله عليهم بقسط من هذه الصفات بدرجات متفاوتة على قدر نسبتها إلى هذه الصفات الإلهية وهذه الأسماء الإلهية ليست مجرد صفات متضمنة أو ملازمة، ولكنها جوهرية فى الذات الإلهية، ويبدأ الكاتب بصفة الخير، وأنها أكثر الأسماء شيوعاً، بين البشر مناقشا مدى انتساب أمور هذا العالم إلى هذه الصفة الإلهية قائلاً: لا أحد خير سوى الله وحده^(٣).. الله هو الخير المطلق، هو مصدر الخليفة، ومنتهاهها، ومن هذا الخير ينبثق النور الذى هو صورة للخير، كى توصف الأشياء الخيرة بالنور، الذى هو الأصل المتجلى فى الصورة^(٤).

وهذا تتضح لنا الأفكار الأفلاطونية المحدثة التى تأثر بها ديونسيوس خاصة فى لغته عندما يصف الخير بالجمال أو الجمال الجوهرى الأعلى كما أنه يستخدم عبارة أفلاطون الواردة فى "المأذبة" (Symposium التى تتردد فى "تساعية" أفلوطين. كذلك عندما يتكلم ديونسيوس فى الفصل الثالث عشر عن الأسماء الإلهية، عن الواحد على

(1) Myst. Theol, 20.

(2) Ibid. 3.

(3) Div. Names. 2,1. St. Matt. 19, 17.

(4) Div. Names.4,4.

أنه أعظم الأسماء جميعاً، فإنه في هذا يعتمد كلية على الفكر الأفلاطوني عن المبدأ الأول الواحد.

وياختصار فإن المنهج الإيماني عند "ديونسيوس" يعنى أن تنسب إلى الله كل صفات الكمال التي يمكن أن ينعم بها البشر، الكمال الذي يتساوى مع الطبيعة الروحية لله، كما أن أسماء الله جميعاً أسماء حقة دون جدال، ويبرر الكاتب⁽¹⁾ استهلاله الطريق الإيجابي بالمقولات الكبرى بحجة ضرورة البدء بما هو أقرب إلى الله، معترضاً أن الله هو الحياة الخيرة، بدلاً من القول بالأشياء المحسوسة من حولها مثل الهواء، وغيره من مظاهر الطبيعة؛ لأنه في حين تشير الحياة والخير إلى صفات جوهرية في الذات الإلهية، تبقى الأشياء المحسوسة مجرد علامات للبشر على صنائع الله، ويمضى ديونسيوس ليوضح أنه على الرغم من أن بعض الأسماء يفضل بعضها الآخر، فإنها جميعاً قاهرة تماماً عن صفات الله، الجوهر الأعلى المطلق الذي دونه كل الأوصاف.

إن ديونسيوس بهذا لا يردد بمبادرات الأفلاطونيين المحدثين، وإنما يؤكد على أن الإشارة الموضوعية لمحتوى هذه الأسماء لا توجد إلا في الذات الإلهية نفسها، تتجاوز كل الصفات والأسماء التي نستخدمها عن البشر، فعلى سبيل المثال عندما نعزى صفة العليم المحيط إلى الله، فإننا لا نقصد العلم أو الفطنة البشرية، وإنما ما هو فوق كل هذا وذاك من علم وإحاطة لا متناهية لا يدركها البشر فאלه بكل شيء عليم.

لقد استخدم ديونسيوس المنحول "منهج الإيجاب" كما يسميه—أساساً في أطروحاته، الأسماء الإلهية، وأيضاً في عمله الضائع بعنوان اللاهوت الرمزي ومعالـم الألوهمية.

أما "المنهج السلبي" ويقصد به إقصاء جميع النقااض البشرية عن الذات الإلهية فهو ما يميز أطروحة ديونسيوس، "اللاهوت الروحي" ويرجع الفضل في التمييز بين

(1) 31، 1.

هذين المنهجين الإيجابي والسلبي إلى الأفلاطوني المحدث بروكلان، وإن كان ديونيسيوس قد طوع أفكار بروكلان، التي نقلها عنه أهل الفلسفة واللاهوت اللاحقون، ومن بينهم توما الإكويني على "سبيل المثال".

٢ - هذا ويعطى ديونيسيوس للنهج السلبي في حاجته الأفضلية على النهج الإيجابي؛ لأن الأول- في تقديره- يعين العقل على تتجية كل ما هو ليس إلهيا عن الذات الإلهية من قبيل "الغضب مثلاً والصفات العديدة الأخرى التي يخبرها البشر"^(١). وبعد إسناد جميع الصفات البشرية يصل العقل إلى مشارف "المجهول الجوهري الأعلى"^(٢) وبما أن الله متعال كل التعالي فإن خير سبيل لتمجيد اسمه يكمن في استبعادنا لكل شيء بشري عن اسمه، تماماً كما يفعل النحات الذي ينحت تمثالاً في قلب الرخام، وهو يزيل الشوائب التي تحجب ظهور التمثال في جماله الخفي^(٣). إن البشر ميالون إلى تكوين مفاهيم على شاكلتهم البشرية عن الله، ولا بد من إقصاء كل هذه المفاهيم تنحيتها ولكن ديونيسيوس يمضى ليقول بأن هذه التنحية لن تؤدي إلى معاينة الله، وينبغي ألا نقودنا أمثلة النحات والتمثال إلى مثل هذا الاعتقاد، وبعد أن يتخلص العقل من هذه الأفكار البشرية عن طريق التنحية، فإنه يلج إلى مساحة الغيبي وغير المدرك^(٤) ليجد نفسه مقلقا بغير المحسوس وغير المرئي- في حال روحاني من الشركة الطوباوية مع الله غير المدرك كلية^(٥).

وتلك - عند ديونيسيوس- هي مساحة التصوف؛ إن ظلام عدم المعرفة لا يرجع إلى ذلك ما يصبو إليه العقل غير مدرك في حد ذاته، وإنما يرجع إلى محدودية العقل البشري أمام فيض النورانية الربانية.

(1) Myst. Theol, 3.

(2) Ibid., 2.

(3) Ibid.

(4) Mast. Theol., 1.

٤ - لاشك في أن هذه الأفكار من نبع الأفلاطونيين المحدثين، ومن أفكار بعض المتصوفة اللاهوتيين، وعلى رأسهم القديس جريجورى، والذين تأثروا كثيراً بأفكار الأفلاطونية المحدثه، فى تجاربهم الروحية الذاتية. ويتضح تأثير الأفكار الأفلاطونية المحدثه على ديونسيوس بشكل خاص فى آرائه عن الثالوث المقدس، حيث يحاج جاهداً للوصول إلى فكرة الإله الواحد من خلال الأقانيم الثلاثة، وهو إذ يقبل القول بأن الأقانيم الثلاثة متمايزة منذ الأزل، وبأن الأب ليس هو الابن، وليس الابن هو الأب، فإنه يقرر أن هذا التمايز أزلى، وينبغى التمييز بينه وبين تجلى الخالق فى صنعية خلقة: إن الله واحد كلى خالص، لا تمايز فى ذاته.

أما الأرثوذكسيون فإنهم يعتقدون أن الثالوث واحد غير منفصل، وبأن الأقانيم الثلاثة متساوية فى الجوهر، من الواضح أن ديونسيوس كان واقعاً تحت تأثير أفكار كل من أفلوطين وبروكلوس عن المبدأ الأول الذى يتجاوز كل تصور فى الوجدانية والجوهر، وأفكارهما أيضاً عن الفيض الإلهى.

عندما نتحدث عن الذات الإلهية المتجاوزة للكل، كوجدانية أو كثالوث، فإن هذه الوجدانية، والثالوث من الأمور التى لا تدركها عقول البشر- إننا نستخدم أسماء لما هو متجاوز لكل الأسماء، ونعبر بمفردات الكينونة عما هو متجاوز للكينونة- وحتى فى قولنا "الخير" كاسم لله ظننا منا أنها صفة مناسبة، فإن هذا أيضاً غير كاف^(١) - إن الربوبية تتجاوز الشركة، والخير والروح، والبنوة، والأبوة، وهى لا تنتمى إلى مقولات عن الوجود، أو الوجود جميعاً^(٢).

إن هذه الحاجة التى يسوقها ديونسيوس تفصح عن أكثر مما تشير إلى مفردات هذه الحاجة؛ فهو يريد أن يبين أن كلمة "الأب" تخص الأقوم الأول، وأنها ليست للابن، رغم أن الجوهر الإلهى موجود دون تناضل بين الأقانيم الثلاثة ولكن هذه الكلمات

(1) Div. Names. 13, 3.

(2) Myst. Theol.5

"الأب" و "الابن" هي أفضل ما تملكه لغة البشر، رغم أنها قاصرة عن حقيقة الذات الإلهية. ويستشف من كلمات ديونسيوس أيضاً أنه يعتقد في وجود تمايز في مبدأ الجوهر عند حديثه عن كل من الأقانيم الثلاثة^(١)، ولكنه يستدرك لينكر بشدة أى خلط في "التمايز الإلهي" للأقانيم الثلاثة^(٢)، رغم وجود تداخل في شركة مفارقة وكنية وغير متميزة، دون خلط أو امتزاج على حد تعبيره^(٣).

من الواضح أن ديونسيوس في حديثه عن الثالوث كان واقعا تحت تأثير الأفكار الأفلاطونية المحدثّة، وهو إذ يحاول المصالحة بين القواعد الأرثوذكسية والفكر الأفلاطوني المحدث قد وقع في حال من التوتر الشديد والغموض، هذا ما تكشف عنه كلماته، في أغلب الفقرات.

هـ - أما فيما يتصل بصلة الله بالعالم، فإن ديونسيوس يتحدث عن الفيض الإلهي عن الكون وما عليه من أشياء^(٤) وهنا أيضا يحاول ديونسيوس أن يزاوج بين الفكر الأفلاطوني المحدث عن الفيض وبين العقيدة المسيحية عن الخلق، لكنه لا يقول بوجدانية وجود حتمى لا يخلط بين الله والطبيعة، فلما كان الله يهب الوجود لكل الأشياء، فقد يفهم من ذلك أنه يتجلى من خلال مخلوقاته، ولكن ينبغي أن نؤكد على أن الله واحد حتى في حال الفيض نفسه. وديونسيوس - هنا - ينقل عن بروكلوس في تأكيديه على المبدأ الأولى الذي لا يتقص من خلال عملية الفيض^(٥).

ورغم هذه المؤثرات الأفلاطونية المحدثّة، فإن ديونسيوس لم يكن واعيا للصلة بين الخلق والمشيئة الإلهية، ولا إلى حرية هذه المشيئة في مسألة الخلق، ويتضح هذا من

(1) Div. Namas2,5.

(2) Ibid, 2.

(3) Ibid.,4.

(4) Ibid, s, 1.

(5) Ibid, 2, aa.

قوله: إن الله كان الوجود، بلا انقسام أو تكاثر فى ذاته، ورغم ما قد يقال عن أمور الكون التى تنبثق كامتداد عنه، فإن الله يبقى متعالياً على هذا التكاثر، إن العلم- باختصار إن هو إلا فيض للخير الإلهى، ولكنه ليس الله نفسه.

إن إصرار- ديونسيوس على تصوير العالم بأنه فيض من الفيض الإلهى الكبير، وكذا محاولة إقامة موازنة بين التدابير الإلهية الداخلية والتدابير الخارجية فى خلق العالم، قد أدى إلى تصور أن الخلق قد جاء كنتاج طبيعى لعمل الله كأن الله قد خلق العالم بحكم الضرورة الطبيعية.

وفى موضع، آخر يؤكد ديونسيوس على أن الله هو العلة المفارقة لخلق كل الأشياء، وأن الله قد خلق العالم من خلال المثل العليا الأولى، أو "المقدر والمحتوم، الذى هو من الذات الإلهية"^(١) ويمضى ليقول بأن الله هو العلة النهائية لكل الوجود، وإليه ترجع كل الأمور، فهو الخير كله^(٢)، وهو على ذلك البداية والنهاية^(٣)، فالبداية هى علة الوجود، والنهاية هى غايته الآخرة^(٤).

٦- لما كان ديونسيوس قد أفاض فى الحديث عن الخير الإلهى، فقد كان لابد له أيضاً أن يعرض لمشكلة الشر وما ترتب عليه من عواقب، وهذا ما عرض له فى أطروحته بعنوان "الأسماء الإلهية"^(٥) معتمداً- وبشكل نسبي- على أطروحة الفيلسوف برقلس بعنوان "جوهر الشر" ويؤكد ديونسيوس فى المقام الأول على أنه لو كان الشر عنصراً إيجابياً لكان علينا أن نحيله إلى الخالق على أنه من حقه، ولكن الشر ليس عنصراً إيجابياً بالمرة، فهو كشيء ليس له من وجود أصلاً، ولو اعترض أحد على هذا

(1) Div. Names. S,8.

(2) Ibid, 4,4.

(3) Ibid, 4,35.

(4) Ibid, 2,10.

(5) Div Names, 5,8.

القول، بحجة أنه قد تكون الشر عواقب تنطوي على ما هو سلبي وأيضاً على ما هو إيجابي، فإن ديونسيوس يدحض هذا الرأي بقوله إن كان ثمة خير في هذه العواقب فإنه ليس من فعل الشر، وإنما من تداخل عوامل الخير؛ لأن الشر لا ينطوي إلا على الخراب، والهوان، ويدلل يونسيوس على أن الشر ليس عنصراً إيجابياً في حد ذاته من حقيقة أن الخير والوجود صنوان، فكل ما له وجود ينبثق بالضرورة من الخير، وما هو كائن هو بالضرورة خير، ولكن هل هذا لأن الشر والفناء صنوان؟

يجيبنا ديونسيوس على هذا التساؤل بالإيجاب في العبارة التالية: إن كل المخلوقات من حيث وجودها خلقت على الخير بطبيعتها؛ لأنها من عند الله صانع الخيرات، أما الأشياء غير الخيرة فليس لها وجود أصلاً^(١)، وبمعنى آخر فإن الشر هو انتقاء أو سلب الخير الذي كان ينبغي أن يكون موجوداً - إن الضابط - على سبيل المثال - كان إنساناً صالحاً عند خلقه، ولكن غياب الخير عن حياته جعل حلول الشر ممكناً، فالشر هو غيبة الخير الذي ينبغي أن يكون موجوداً - إن الشر يكمن في العلاقة الضالة للإرادة الإنسانية بعيداً عن الأخلاق والفضائل.

النتيجة التي يخلص إليها ديونسيوس هي أن أي مخلوق لا يمكن أن يكون شريراً بطبيعة، وحتى الشياطين نفسها كانت خيرة في البدء حتى سقطت بفعل عوزهم إلى الفضائل الملائكية، التي كانوا قد جبلوا عليها أصلاً^(٢)، إن هؤلاء يدعون بالأشرار، من واقع حرمان نواتهم من أزرع الخير، ومن ثم فقد سقطوا في الهاوية بعد أن تعرفوا من فضائلهم الأولى. وينسحب نفس الشيء على البشر الذين يدعون بالأشرار نتيجة لنقصان صنعات الخير وفشلهم في المثابرة ومن ثم سقوطهم بسبب ضعف إرادتهم. وعليه فإن الشر ليس عنصراً ملازماً أصلاً للأبالة أو لبنى البشر، وإنما هو بالأحرى، نتيجة لغيبة الفضيلة والكمال^(٣).

(1) Div. Names. 4,20.

(2) Ibid, 23.

(3) Ibid, 26.

ويعالج ديونسيوس قضية الشر المادى بنفس المنطق، فهو يقول: إن القوة الطبيعية ليست شريرة فى الأصل، وإنما يتأتى الشر فى الطبيعة كنتيجة لفشل الشيء فى أداء وظيفته الطبيعية، وهو يقول أيضاً: إن القبح والمرض إن هما إلا نقص فى الصورة بالنسبة للقبح ويجوز فى النظام بالنسبة للمرض، وليس هذا بالشر المستطيع كلية، وإنما هو خير منقوص^(١)، ولا يمكن للمادة "أو الهيولى" أن تكون شريرة أصلاً؛ لأن المادة أيضاً لها نصيب من النظام والجمال والصورة^(٢)، المادة فى حد ذاتها ليست شريرة بحال؛ لأنها صادرة عن الخير، كما أنها من ضرورات الطبيعة، ويعتقد ديونسيوس أن ليس ثمة ضرورة القول بوجود مبدأ من أصلين، واحد للخير وآخر للشر، وخلاصة القول عند ديونسيوس أن الخير إنما يتأتى من أصل كونى واحد، أما الشر؛ فإنه ينجم عن كثير من نقائصنا^(٣).

ولئن قيل إن بعض الناس يشتهون الشر، بمعنى أن يصبح الشر هو غايتهم ومن ثم يصبح الشر شيئاً إيجابياً، فإن ديونسيوس يرد على ذلك بقوله إن جميع الأفعال السوية تهدف إلى الخير، ولكن الخطأ يقع عندما تضل أدواتنا ووسائلنا فى التمييز بين ما هو صحيح وخير وبين ما هو شرير فى رغباتنا. وبالنسبة للخطيئة، فإن الإنسان لديه من القوة ما يجعله يميز بين الصواب والخطأ، وعلى هذا فإن الخطأ يرجع بالضرورة إلى مرتكبه فقط^(٤) أما القول بأن العناية الإلهية يتبغى أن تقود البشر إلى مسالك الفضيلة، رغم نزوعهم نحو الشر، فهو قول ينم عن سخف؛ لأنه ليس من طبيعة العناية الإلهية أن "تعسف بنواميس الطبيعة- فلقد شاعت العناية الإلهية أن يكون للبشر إرادتهم الحرة"^(٥).

(1) Ibid, 27.

(2) Ibid, 29.

(3) Ibid, 30.

(4) Div, Names, 4,35.

(5) Ibid, 33.

٧ - وفى الختام يمكن لنا أن نسجل أنه على الرغم من شطط الأستاذ فردناند باور^(١) فى قوله بأن ديونيسيوس المنحول قد قلص العقيدة المسيحية عن الثالوث إلى مجرد مصطلحات صورية خالية من المحتوى المسيحى، وبأن أفكاره عند التجسد مغلوبة، فإنه لا بد من الاعتراف- رغم هذا الاعتراف- بأن فكر ديونيسيوس مشوب بشيء من التوتر فى محاولته مصالحة مبادئ الفلسفة الأفلاطونية المحدثة مع أركان العقيدة المسيحية، إن ما قصد إليه ديونيسيوس هو أن يناغم بين الراقدين الفلسفى اللاهوتى، وعندما يقع تضارب بين المساقين فإنه يبحر إلى جانب أفكار الأفلاطونية المحدثة، وجدير بالملاحظة فى هذا السياق أن مسألة التجسد كانت من النقاط الجوهرية التى اعترض عليها أتباع الأفلاطونية المحدثة، وكذلك فرفرىوس، ومع أننا لا نجد لدينا ما يبرر القول بأن ديونيسيوس، قد أنكر فكرة التجسيد إلا أن طرحه للفكرة وقبوله بها لا يتسق مع منظومته الفلسفية فى جملتها، كما أنها تتسم بالغموض الشديد.

وأخيراً فإنه من حقنا أن نزعّم بأن كتابات هذا الكاتب ما كان سيقدر لها أن تحتل المكانة الهامة التى احتلتها عند مفكرى العصور الوسطى، لولا أن كاتبها قد انتحل لنفسه اسم ديونيسيوس الأريوباغى ليتستر تحت قناعه .

(1) Chnstische lehre von for Dreieinigkeit und Nenschwerdung Gotte, P.42.

الفصل العاشر

بوثيوس - كاسيودوروس - يزیدور - نقل بوثيوس لأفكار
أرسطو - تأثير اللاهوت الطبيعي على مفكرى العصور
الوسطى - كاسيودوروس والفنون السبعة الحرة - الروح
والروحانية - جذور الكلمات وأصول الجمل عند يزیدور

١ - إذا كانت كتابات ديونسيوس المنحول تمثل قناة انتقلت من خلالها فلسفة العالم القديم إلى عالم العصور الوسطى، فإن كتابات بوثيوس (٤٨٠-٥٢٤/٥م) تمثل قناة أخرى مكملت للقناة الأولى، كان بوثيوس مفكراً مسيحياً تلقى تعليمه فى مدينة أثينا، ثم أصبح فى إيطاليا، ثم ثيودريك ملك القوط الشرقيين فى إيطاليا، وفى آخر المطاف تم إعدامه بتهمة الخيانة العظمى، نحن نستخدم لفظه مكمل بالنسبة لأعمال بوثيوس، لأنه فى حين كانت كتابات ديونسيوس بمثابة المهماز لتطعيم الفلسفة فى أوائل العصور الوسطى خاصة فلسفة جون سكوتوس أريوجينا، بأفكار أفلاطونية محدثة، فإن بوثيوس هو الذى عرف مفكرى العصور الوسطى المبكرين على منطق أرسطو على أقل تقدير، وكنا قد أوردنا قائمة بأعمال بوثيوس فى مجلدنا الأول الأصل بالفلسفة اليونانية الرومانية^(١)، ولا حاجة إلى تكرار ذلك مرة أخرى، ولكن يكفى هنا أن نشير إلى أن بوثيوس هو الذى قام بترجمة كتاب "المنهج العلمى" (Orgamon) لأرسطو وعلق عليه، إلى جانب تعليقه على كتاب "المدخل" (isagoge) للفيلسوف فورفوريوس، ووضعه لبعض الأطروحات فى المنطق، يضاف إلى ذلك أنه وضع عدة مقالات قصيرة فى اللاهوت كما أنه فى أثناء سجنه وضع كتابه الأشهر بعنوان "عزاء الفلسفة".

(1) P. 482,1.

وليس من المؤكد إن كان بونثيوس قد قام بترجمة أعمال أخرى لأرسطو إلى جانب ترجمته لكتاب المنهج العلمى، وإن كنا نجد فى كتاباته المتبقية إشارات إلى العديد من الأفكار الأرسطية الرئيسية، وكان مفكرو العصور الوسطى المبكرون منشغلين فى الدرجة الأولى بمناقشة قضية الكليات، منطلقين من بعض النصوص فى أعمال فورفوريوس وبونثيوس، ولكنهم لم ينتبهوا إلى الأفكار الميتافيزيقية الأرسطية المتضمنة فى كتابات بونثيوس، فمثلاً نجد أن أعظم المفكرين الأوائل فى العصور الوسطى وهو جون سكوتوس "إريجو جينا" كان واقعاً تحت تأثير ديونسيوس المنحول وغيره من الكتاب من أتباع المدرسة الأفلاطونية المحدثة، دون أثر واضح للفكر الأرسطى الذى لم يظهر تأثيره فى القرن اللاتينى إلا مع نهايات القرن الثانى عشر وبدايات الثالث عشر، بعد أن أصبحت أعمال أرسطو الكاملة، متاحة فى الغرب الأوروبى قرب نهاية القرن الثانى عشر وبداية القرن الثالث عشر، ولكن هذا لا يفسر حقيقة أن الأفكار الأرسطية قد جاءت متضمنة فى أعمال بونثيوس، فهو فى كتابه عن اللاهوت الذى يدحض فيه آراء أو طاغيا⁽¹⁾ يتكلم بوضوح عن أن المادة "الهيولى" هى قوام كل الأجسام، وأنها القاعدة التى تساعد إحداث تغييرات فى هذه الأجسام والأشياء الجسدية، فى حين أن غيابها عن الأشياء غير الحسية يجعل من المستحسن أن يتحول الشئ اللامادى إلى شئ آخر أو العكس، ثم يطرح بونثيوس نقاشاً فى مجال اللاهوتى للوصول إلى هدف معين، ألا وهو أن الطبيعة الإلهية والطبيعة البشرية فى المسيح متميزتان وحقيقتان، وذلك فى رده على قول "أو طاغيا" بأن اتحاد المسيح بالله يعنى اختفاء طبيعته الإنسانية⁽²⁾، ويلاحظ أن هذا النقاش اللاهوتى يتضمن جدلاً فلسفياً، كما أن المقولات المستخدمة أرسطية المذاق.

ومن ناحية أخرى فإن بونثيوس فى أطروحته عن الثالوث⁽³⁾ يتحدث عن المبدأ المتلازم مع المادة وهو الصورة؛ فهو على سبيل المثال يقول إن الأرض ليست أرضاً

(1) Contra Eutychen, 6.

(2) Ibid, 5.

(3) 2.

لأنها مكونة من مادة غير ممدودة، وإنما لأنها صورة بعينها مميزة "وقد استعار بونثيوس مصطلح المادة غير المحدودة من الفيلسوف ألكسندر الأفروديسي" (١) ومن ناحية أخرى، فإن الله هو "الصورة الكاملة النقية الخالية من المادة وقوامها، وبهذه الصورة فهو واحد أحد كما يطرح بونثيوس في كتابه عن الثالث" (٢) وعند طرحه "المقولات الشعرية أو عن الصفات" - *Pre dicamenta* يقول بونثيوس إننا عندما نتكلم عن الجوهر الإلهي، فإننا لا نقصد شيئاً مادياً فما نعرفه في الخلاق، وإنما عن جوهر مفارق لكل ما هو مادي وبالمثل، فإننا عندما نذكر الله بقولنا "العادل" أو "العظيم" فإننا لا نعني هذه الصفة أو تلك وفق مفهومنا البشري؛ لأن العدالة والعظمة تتساوكان عند الله في كليتهما، وفي أطروحاته ضد "أوطاغيا" (٣) ، تصادف تعريف بونثيوس الشهير للإنسان بأنه المخلوق القرد الذي يملك طبيعة عاقلة، وهذا ما ذكره فيما بعد الإكويني، وصار متواتراً عند اللاهوتيين المدرسين.

٢ - أما فيما يختص بالثالث المقدس فإن بونثيوس قد اعتمد إلى حد كبير على آراء القديس أغسطينوس، ولكنه في كتابه عن "عزاء الفلسفة" يقدم مختصراً للاهوت الطبيعي اعتماداً على أسس أرسطية، بحيث يميز ضمناً بين اللاهوت الطبيعي وهو أرقى مراتب الفلسفة وبين اللاهوت النوجماتيقي، الذي يقوم على مقدمات ومسلّمات من وضع الرسالة الدينية.

وفي الباب الثالث من عزاء الفلسفة (٤) يسوق بونثيوس البرهان العقلي على وجود الله بأنه المحرك الأول الذي لا يحركه شيء، وفي الباب الخامس (٥) يحاول المصالحة بين الحرية الإنسانية وبين الإحاطة القبلية لله عن أفعال البشر: "لما كان الله عليماً بكل

(1) De Anima 17, 17.

(2) 4.

(3) 3.

(4) 12

(5) 2ff.

شيء منذ الأزل، فإن كل ما قدرته العناية الإلهية سلفاً لأبد وأن يقع ويتم، وعليه فإننا نجابه بالتساؤل، لما كان الله عليماً منذ الأزل بما هو واقع من أعمال البشر وأفكارهم وإرادتهم، فأين إذن تقع الإرادة الحرة للإنسان؟^(١)

يجيب بوئتيوس على هذا التساؤل موضحاً أن القول بأن الله محيط بما سوف يؤتيه البشر؛ لأن هذا ما سوف يقوم به البشر، أو أن الأحداث إنما تقع؛ لأن الله عليم بها مسبقاً، يبدو تبسيطاً مخلًا للقضية؛ لأن هذا وذاك قد يوصى بأن الأحداث الزمنية للخلائق هي العلة في الإحاطة الأزلية الإلهية، ويفضل بوئتيوس القول بأن الله لا يستبق ما سوف يقع من أحداث بالمعنى الذى تفهمه عقولنا البشرية؛ لأن الله أزلى لا نهائى ومحيط بكل الأمور، ومن ثم فإن معرفة الله القبلية معرفة أبدية وفى ديمومة قائمة حاضرة، لا ماض ولا مستقبل يحدها، وهذه المعرفة الأزلية لما كان، ولما هو كائن، ولما سوف يكون، لا تفرض الحتمية على الحدث الآن، بمعنى أن معرفة الله الأبدية الدائمة بأفعال الإنسان - لمحض إرادته الحرة وهى المستقبل بالنسبة له- لا تجعل من هذه الأفعال أمراً محتوماً واجب الوقوع بحيث تلغى الإرادة البشرية الحرة، إن أزلية الروية الإلهية الدائمة الوجود تتساوى مع نوع العقل المستقبلى الذى يقدم عليه البشر^(٢).

والى جانب أرسطو، استقى بوئتيوس الكثير - آراء فوفريوس وكتابات أفلاطونيين محدثين آخرين، وأيضاً من الخطيب الرومانى شيشيرون وأغلب الظن أنه قد نقل تقاسيم الفلسفة أو العلوم العقلية إلى فيزياء، ورياضيات ولاهوت عن كتاب فوفريوس "المدخل"، ولكن علينا أن نتذكر أيضاً أن فوفريوس كان مديناً فى الكثير من أفكاره إلى أرسطو، وواضح أن الفلسفة الأرسطية تهيمن على فكر بوئتيوس، خلافاً لما كان سائداً بين المفكرين المسيحيين الآخرين فى عصره الذين انحازوا قبالة الفكر الأفلاطونى المحدث، حقيقة أنه يتكلم عن الخير الإلهى وفيضة على نفس الخط الأفلاطونى المحدث

(1) 5, 3.

(2) 5,5.

فى كتابه "عزاء الفلسفة"^(١) كما أنه يستخدم لفظة الانبثاق فى معرض حديثه عن خلق الله للإنسان^(٢)، ولكنه مع ذلك شديد الوضوح فى تمييزه بين الله والعالم من ناحية، وبين العقيدة المسيحية حول قصة الخلق من ناحية أخرى، وهو يؤكد فى هذا المنعطف على أن الله - دون تحول، وبفعل مشيئته التى لا يعلمها سواه، قدر بذاته أنه يخرج العالم من العدم، وليس من الجوهر الإلهى^(٣) وهو بهذا لا يقبل القول بأن الجوهر الإلهى قد تملأ^(٤) فيما يخلقه، أو أننا يمكننا معاينة الله فى صنائعه وخلقاه^(٥).

٣ - لاشك فى أن بونثيوس يمثل أهمية خاصة من حيث إنه قد نقل إلى جعل العصور الوسطى الكثير من أفكار أرسطو يضاف إلى ذلك أن أخذه بالمقولات الفلسفية فى معالجة القضايا اللاهوتية، قد ساعد فى ترقية دراسات علم اللاهوت، كما أن استخدامه وتحديد المصطلحات الفلسفية قد خدم كلا من اللاهوت والفلسفة، وأخيراً لا بد من التنوية بقيمة شروحه وتعليقاته، التى أثرت كثيراً عن كتابات مفكرى العصور الوسطى وحتى لو لم يحسب بونثيوس فيلسوفاً منفرداً وأصيلاً، إلا أننا لا يمكن لنا أن نفكر أنه صاحب فضل كبير فى نقل العديد من الأفكار الفلسفية، وبأنه كان لاهوتياً متفلسفاً حاول التعبير عن الأفكار المسيحية، لا باعتماد على الأفكار الأفلاطونية المحدثه، فحسب، وإنما أيضاً من نبع أرسطو الذى سوف يتضح أثره المتزايد على مفكرى العصور الوسطى فيما يلى من تاريخ.

(1) 3.

(2) Lib de hebdom. 173.

(3) De fide Catholica.

(4) De consol. Philii, 3 12.

(5) Quomodo substantiae.

ولا يفهم من هذا أن أرسطو قد خاض فى قضية الخلق

٤ - كاسيودوروس (٤٧٧-٥٦٥-٧٠م) كان كاسيودوروس تلميذا لبونثيوس، وقد عمل مثل أستاذه فى خدمة ثيودريك الملك القوطى الشرقى فى إيطاليا وقد عالج كاسيودوروس فى باب الفنون والمساقات الحرة للأدب، وهو الباب الثانى من كتابه "النظم" - موضوع الفنون السبعة الحرة وهى: ثلاثية النحو والديالكتيك والخطابة، ورباعية الحساب والهندسة والموسيقى والفلك، ولم يهدف الرجل إلى أن يكون مفكراً مبدعاً، وإنما هو يقدم مختصراً للعلوم نقلاً عن كتاب آخرين^(١) وإذا فإن كتاب عن الفنون السبعة، مثل كتاب مارتينوس كابلا، قد شاع ككتاب مدرسى فى العصور الوسطى المبكرة.

أما فى كتابه "عن النفس" فإنه يعتمد على كل من أغسطينوس وكلاوديانوس مامرتوس (ت٤٧٤م) فى التذليل على روحانية النفس البشرية، حيث يقول إن الروح الإنسانية، لا يمكن أن تكون جزءاً من الذات الإلهية؛ لأنها قابلة للتغير، وقد تقدم على فعل الشرور، إلا أنها فى نفس الوقت ليست مادية، ولا يمكن لها أن تكون كذلك؛ لأن معرفتها منصبية على ما هو روحانى أصلاً والروح - عنده - تتملك الحد الإنسانى كله وكل أعضائه، ولكنها لا تتجزأ ولا تطل، وهى تعمل فى أعضاء الجسد الحسية تارة بجرىمة واحدة وأخرى بكثافة أقل^(٢).

لقد كان كاسيودوروس ناقلاً للعلوم أكثر من كونه مبدعاً لها، وينطبق نفس الحكم على إيزيدور (ت٦٢٦م) الذى كان كبير أساقفة إشبيلية فى مملكة القوط الغربيين، وهو الذى وضع دائرة معارف حول أصول الكلمات وجنورها الذى اكتسب شهرة ذائعة فى العصور الوسطى، وتزودت به جميع مكتبات الأويرا الهامة.

ويعالج إيزيدور فى كتابه هنا موضوع الفنون السبعة الحرة، إلى جانب بعض القضايا العلمية المتصلة بما ورد فى الكتاب المقدس وكذلك بعض الموضوعات الخاصة

(1) De anima 12.

(2) De anime 4.

بالتشريع والطب والعمارة والزراعة والحرب والملاحة وغيرها من الموضوعات كذلك يعرّب "إيزيدور" عن قناعته بالحق الإلهي المقدس المخول للملوك، ويضرورة سعادة الأخلاق للمجتمع، تحت مظلة القانون والعدالة التي يخضع لها الملوك أنفسهم.

وإلى جانب ذلك وضع إيزيدور كتاباً تضمن بعض الأطروحات اللاهوتية والأخلاقية التي استقاها من كل من القديس أغسطينوس وألبابا جريجورى الكبير، كما أن له مقالات عن الأرقام الحسابية التي ورد ذكرها فى الكتاب المقدس، وهى ضاربة فى الخيال وفى تفسير دلالاتها الصوفية التى ألحقتها بالأعداد.

الباب الثانى

الفصل الحادى عشر

النهضة الكارولنجية

شرلمان - ألكوين (*) - ومدرسة القصر - مدارس أخرى -
والأفكار - المناهج التعليمية - المكتبات - رابانوس ماوروس

١ - فى سنة ٧٧١م توفى كارلومان تاركاً شقيقه "كارل شارل" الحاكم الأوحى للأراضى الفرنجية، وكارل "شرلمان" هو الذى قام بتحطيم مملكة اللومبارد فى شمال إيطاليا، كما ضم العديد من الأراضى المتاخمة لملكه حتى أصبح مع نهايات القرن الثامن أقوى الملوك فى غرب أوروبا المسيحية، وجاء تنويجه إمبراطوراً رومانياً على يد البابا "ليون الثالث" فى الخامس عشر من ديسمبر سنة ٨٠٠م ليؤكد على نجاح سياسته التوسعية وتعزيز سطوة الفرنجة، أصبح شرلمان (٧٦٨-٨١٤م) السيد غير المنازع على أوروبا الغربية، وقد تمكن من إعادة رسم خريطة أوروبا الغربية، كما أدخل أوروبا العربية، وقد تمكن من التدهور الذى كان قد أصابها تحت حكم الأسرة الميروفنجية السابقة. ولم يكن شرلمان مجرد جندى أمهر أو سياسى حاذق فحسب، وإنما كان يملك همة عالية حفزته على رفع المستوى الثقافى لارعاياه خاصة فى مجال التربية والتعليم ولتحقيق هذا الهدف، وجد شرلمان نفسه، فى حاجة إلى لفيف من العلماء والمربين، ولما لم يكن هؤلاء موفرين فى مملكة الفرنجة نفسها، فإنه أخذ فى استخدامهم من بلدان أوروبية مختلفة.

(*) ألكوين (٧٢٢ - ٨٠٤م) عالم ولاهوتى إنجليزى دعاه شارلمان عام ٧٨١م إلى أخذ Aadan فعمل على إحياء الحركة العلمية ووضع عدداً من المؤلفات فى النحو والبلاغة (المراجع).

هذا ويلاحظ أنه من القرن الخامس كانت الثقافة الرومانية فى بلاد غالة أخذة فى التدهور حتى وصلت إلى دركها الأسفل فى القرنين السادس والسابع، ولم تعد المدارس فيها تقدم للتلاميذ أكثر من مبادئ القراءة والكتابة، والقواعد الأولية للغة اللاتينية إلى جانب التربية الدينية بطبيعة الحال، وأمام هذه الأوضاع التعليمية والثقافية المتردية، وجد شرلمان لزاماً عليه أن يستعين بالأساتذة الأجانب من أمثال بطرس من بيزا، ويواس الشماس الإيطاليين، وكان الأول رجلاً طاعناً فى السن عندما قدم إلى مدرسة القصر، لتعليم اللغة اللاتينية بها، فى حين اضطلع الشماس، الذى قدم إلى فرنسا سنة ٧٢٨م فى محاولة لإطلاق سراح أخيه الذى كان قد وقع أسير حرب فى أميرى شرلمان، بتدريس اللغة اليونانية ما بين أعوام ٧٨٢-٧٨٦م وبعدها اعتزل الحياة الدنيا فى دير مونت كاسينو بإيطاليا، حيث عكف على تسجيل كتابه "تاريخ اللومبارد" كذلك قدم إيطالى آخر هو باولينوس من أقويلىا إلى مدرسة القصر ليدرس فيها ما بين سنوات ٧٧٧-٧٨٧م.

وإلى جانب هؤلاء الأساتذة الإيطاليين من النحويين، كان هناك أستاذان من إسبانيا كانا قد قدما إلى فرنسا كلاجئين وهما: أرجويارد الذى أصبح أسقفا لمدينة ليون سنة ٨٢١م وكان تيودولف محيطاً بالكلاسيكيات اللاتينية، كما أنه يقرض الشعر باللاتينية أيضاً، وينبغى التنويه إلى أنه قدم مخطوطة معروفة للشاعر الرومانى كونتيليان فى العصور الوسطى وقد تم العثور عليها فى المكتبة الخاصة لتيودولف هذا، وعند تقييم الجهد التربوى فى عهد شرلمان، فإننا نجد أن جهود العلماء الإيطاليين والإسبان تبدو متواضعة إنْ هى قيست بجهود العالم الإنجليزى المرموق ألكوين من أهالى مدينة يورك.

٢ - تلقى ألكوين (حوالى ٧٣٠-٨٠٤م) تعليمه الباكر فى مدينة يورك الإنجليزية، والمعروف أن الحركة الثقافية فى إنجلترا قد شهدت نشاطاً ملحوظاً منذ سنة ٦٦٩م، عندما حل الراهب اليونانى تيودور من طرسوس، كبيراً لأساقفة كانتربرى مع القس هاردريان فقد علم تطوير مدرسة كنتربرى وإثراء مكتبتها، ثم تولى من العلماء تطوير هذه الحركة الثقافية فى إنجلترا، وكان على رأس هؤلاء بندقوت بسكوت الذى أسس

أديرة ويرموت (٦٦٤م) وجارو (٦٨٢م) ثم الدهلم الذي كان قد تلقى تعليمه على أبوى كل من "تيولاروهايديان" وقام بعدها بتنظيم أحوال أديرة مالمسبرى فى مقاطعة ولتشاير بعد أن أصبح رئيساً له، ومن بين الشخصيات المرموقة جداً فى الحياة الثقافية الأنجو- سكوسونية كان بيده (674-735) (Bede) الذى كان راهباً فى دير جارو، ويرجع الفضل إلى جهود واحد من تلاميذ بيده اسمه "أجبرت" - فى جعل مدينة يورك المركز الثقافى والتعليمى الأكبر فى إنجلترا، وفى إثراء مكتبتها أيضاً.

وعندما انتقل الكوين فى مدينة يورك، وجد تعصيلاً كبيراً من عالم اسمه ألبرت الذى اصططحبه معه فى رحلة إلى روما، وفى أثناء هذه الرحلة التقيا بالزعيم الفرنجى شرلمان، وعندما خلف ألبرت أستاذة إجبرت ككبير لأساقفة يورك سنة ٧٦٧م، أوكل مهمة الإشراف على المدرسة إلى الكوين، وفى سنة ٧٨١م، أوفده كبير الأساقفة الجديد فى مهمة إلى روما، وفى طريقة التقى للمرة الثالثة عند مدينة بارما- بزعيم الفرنجة شرلمان، وأثناء هذا اللقاء راح شرلمان يحث الكوين على القدوم إلى بلاطه والعمل فى خدمته، ويعد أن حصل الكوين على الإذن من ملك إنجلترا ومن كبير الأساقفة، وقد إلى بلاط شرلمان "فى مدينة إكس- لاشايل" حيث عين مشرفاً على مدرسة القصر سنة ٧٨٢م وظل فى منصبه فيما عدا فترة قصيرة ٧٨٦ ثم من ٧٩٠ حتى ٧٩٣م حتى سنة ٧٩٦م ثم عُين رئيساً لدير القديس مارتن فى مدينة تور، حيث قضى السنة الأخيرة من حياته.

وفى سنة ٧٧٧م على وجه التقريب بعث شرلمان برسالة إلى بوجولف رئيس دير فولده^(١) Fulda يحثه هو وجماعة من الرهبان على محاولة النهوض بالتعليم والعلم، ويدل على حرص شرلمان الشديد على قضايا التعليم فى عصره.

(١) لو كان صحيحاً ما يقوله بعض المؤرخين أن بوجولف أصبح رئيساً لهذا الدير سنة ٨٧٧م فإن تاريخ هذه الرسالة يصبح مشكوكاً فى دقته.

على أن المدرسة التي ارتبط بها اسم شرلمان هي مدرسة "القصر" التي وإن كانت موجودة قبل تولية الحكم، إلا أنها تدين له في تطورها وازدهارها، وكانت مهمة هذه المدرسة قبل مجيء شرلمان لتعليم أمراء البيت المالكة وأبناء النبلاء على قواعد الفروسية، ولكن شرلمان أعطى الجوانب التعليمية والثقافية الأهلية الأولى فيها، وعلى هذا فإن التلاميذ الذين ألحقوا بهذه المدرسة جاؤا من دوائر مجتمعية مختلفة تجاوزت محيط البلاط الإمبراطوري ويلج الدارسون الفرنسيون بصفة عامة على أن مدرسة القصر تلك كانت الأساس الذي قامت عليه جامعة باريس، ولكنه ينبغي أن نتذكر أن بلاط شرلمان كان في مدينة آخين (Aachen أو إكس- لا - شابل- ليس في مدينة باريس، وإن كانت هذه المدرسة قد نقلت فيما بعد إلى باريس عن طريق الإمبراطور شارل الأصغر (ت ٨٧٧م) ومع ذلك فلما كانت جامعة باريس قد ضمت العديد من المدارس حولها فيمكن القول- تجاوزا- بأن مدرسة البلاط كانت السلف القديم لجامعة باريس وإن كانت الصلة بين المؤسستين ليست يقينية.

كان العالم الإنجليزي الكوين بمثابة الأداة الرئيسية في إدارة شئ من مدرسة القصر، ونستشف من كتاباته بعض المعلومات عن المناهج الدراسية في تلك المدرسة وعلى أن الكوين لم يكن مفكراً مبدعاً كما قد يظن، كما أن إنتاجه التربوي الذي ورد في صيغة حوار يعتمد في أغلبه على كتاب سابقين: فلقد اعتمد في كتاب، عن الخطابة على الخطيب الروماني شيشرون، مع بعض الإضافات من كتاب آخرين، بينما اعتمد في كتابات أخرى على أعمال بوناتوس، وپرسكيان، وكاسيودوروس، بوئثيوس، وإيزيدور، وببده، ومع أن الكوين لم يكن كاتباً قذا وإنما كان كاتباً عادياً، فإنه معلم ناجح ومرفوق، كما أن بعض الأسماء اللامعة في النهضة الكارولنجية ومن بينها على سبيل المثال اسم لابانوس ماوروس، كانوا من بين تلاميذه.

عندما اعتزل الكوين حياة بلاط شرلمان وصار رئيساً لدير القديس مارتن في مدينة تور، استمر في رسالته التعليمية كما نستشف من خلال رسالة قصيرة بعث بها إلى الإمبراطور شرلمان يشرح له فيها كيف أنه يقدم لبعض طلابه الشهد في شروحه للكتاب المقدس، وكيف يسكر البعض الآخر بخيت الآداب القديمة، ويتمتع فريقاً ثالثاً

بتفاح الدراسات الأجرومية، ويعرض لفريق رابع نظام الأفلاك التى تزدان بها السموات الزرقاء. ولقد كان شرلمان شديد الشغف بالفلك وكان يتراسل مع الكوين حول موضوعات فلكية متنوعة.

وقد عمل الكوين على إثراء مكتبة القديس مارتن، فزودها بنسخ من بعض المخطوطات التى كان قد حملها معه من موطنه الأصيل فى مدينة يورك، حتى أصبحت هذه المكتبة أعظم مكتبات الغرب الأوروبى قاطبة. كما أنه اهتم اهتماما خاصا بتحسين طرائق نسخ المخطوطات فى هذا الدير وفى رسالة له ترجع إلى سنة ٧٩٩^(١) يتكلم عن مشاداته اليومية من أجل السوق فى مدينة تور، ومن هذا نستنتج أن برنامج الإصلاح فى التعليم كان يهتم بالنسخ النقي للمخطوطات وترقيمتها، وخاصة تلك الخاصة بالكتب المقدسة، جهد يمتد يشمل بوضوح عد هذا الشاغل فى رسائله إلى شرلمان فى سنتى ٨٠٠ و ٨٠١^(٢) وإن كنا لا نعلم على وجه اليقين Vulgate إن كان قد قام بها القديس جيروم، وذلك تلبية لأوامر شرلمان، وهى الترجمة التى يشغله الكوين فى حركة الإصلاح الكارولنى، فإنه من المنطقى أن نفترض أنه قد قام بدور رئيس الإصلاح الكارولنجى، فإنه من المنطقى أن نفترض أنه قد قام بدور رئيسى فى مجال تعديل مسار النسخ للمخطوطات إلى الأفضل، بعد حقبة من التدهور^(٣).

٣ - أما بالنسبة للمدارس الأخرى التى أقيمت إلى جانب مدرسة البلاط ومدرسة تور، فهناك المدارس التى ألحقت بأديرة سان جان، وكوربى، وفولدة. وكانت مدارس الأديرة تقوم بتعليم الطلاب الذين يعقدون للانخراط فى سلك الرهبنة إلى جانب طلاب آخرين، مع الفصل بين الفريقين فى مدرسة لكل منها، وهكذا قامت فى دير سان جال، على سبيل المثال مدرسة لإعداد الرهبان داخل حرم الدير، بينما أقيمت المدرسة الأخرى فى مبان ملحقة بالدير، ويطالبنا مرسوم للإمبراطور لويس التقي (٨١٧م) بقرار يأمر

(1) Ep. 4, 172.

(2) Ibid, 195.

(3) Ibid, 205.

فيه الأديرة بالأمتلاك سوى مدارس إعداد الرهبان فقط، ولكن يبدو أن الأديرة لم تلتزم بهذا القرار الإمبراطوري المتميز، نجد أن المدارس الأخرى كانت من نوعين: المدارس الإكليريكية، ثم المدارس البيرية، أما المناهج فكانت تتضمن علوم، اللاهوت وشروح الكتاب المقدس، إلى جانب ثلاثية الأجرومية والخطابة والجدل، ورباعية الحساب، والهندسة والفلك والموسيقى التي تؤلف في جملتها الفنون السبعة الحرة، ولم يكن هناك جديد يذكر إلى جانب هذه الأفرع، وكانت الأجرومية، وملحقها من الآداب، تعتمد على كتابات برسيكان، ودوناتوس، وأثينا على الكتب المدرسية التي وضعها ألكوين، إلى جانب بعض الشروح للأجروميين القدامى، من قبيل شروح سمارا جنوس الأجرومية ودوناتوس، وأطروحة في الأجرومية لمعلم اسمه كلمني سكوتوس، الذي كان قد انضم إلى مدرسة البلاط في السنوات الأخيرة لحكم شارلمان، كذلك كان الطلاب يدرسون علم المنطق في كتب قام بتأليفها ألكوين أو من كتب اعتمد عليها في شروحه، مثل كتابات الفيلسوف برثيوس، أما بالنسبة للهندسة والفلك، فلم يشهد القرن التاسع تقدماً يذكر في هذين المجالين من ناحية أخرى، ازدهرت الموسيقى ونظرياتها بفضل عمل سفيرى إلى هوج رئيس دير فردن (ت ٩٠٢م) بعنوان "كتاب الموسيقى" كذلك انتعشت المكتبات، بعد أن تزودت بالعديد من الأعمال في اللاهوت، وعلوم الدين، والقانون والنمو والكلاسيكيات، كما نعرف عن مكتبة سان جال على سبيل المثال.

وبالنسبة للفلسفة يلاحظ أنه قد اقتضرت آنذاك على تدريس المنطق أو الجدل فقط وهو ما كان يعدّه أرسطو مقدمات للفلسفة وليست فروعها" وواقع الأمر لم تكن هناك فلسفة بالمعنى الدقيق للكلمة في القرن التاسع، اللهم إلا من كتابات جون سكوتوس أريوجينا.

لقد سعى شارلمان إلى النهوض بالتعليم في إمبراطوريته، وقد آلت جهوده كلها بالفعل، ولكنها لم تمثل إضافة فكرية جديدة بالذكر، اللهم إلا فيما كتبه الفيلسوف جون سكوتوس أريوجينا كما قلنا من قبل، ولو كان قد قدر للنهضة الكارولنجية أن تصمد، لكان من الممكن أن نرى أعمالاً إبداعية في حصادها على مر السنين، ولكن الذي حدث.

أن هذه النهضة قد أصيبت بالعطب الشديد في أعقاب موت شرلمان، وكان لابد من الانتظار لبضع سنين كي تظهر على الساحة أعمال جادة وأصيلة.

٤ - هناك اسم عالم في مجال التربية في ألمانيا ارتبط بالنهضة الكارولنجية وهو العالم رابانوس ماوروس، الذي ولد سنة ٧٧٦م وتلمذ على يد المعلم ألكومين، وقام بالتدريس في دير فولدة، ثم أصبح رئيساً له سنة ٨٢٢ م، وفي سنة ٨٤٧م عين كبيراً لأساقفة منز، وظل في هذا المنصب حتى وفاته سنة ٨٥٦، ولقد اهتم رابانوس بقضية تثقيف رجال الكهنوت، ولأجل هذا الهدف وضع كتاباً بعنوان: في مؤسسة الكهنوت، وهو يقع في ثلاثة أجزاء.

وفي هذا العمل يعرض رابانوس للرتبة الكهنوتية، وللصلوات والقداسات، ثم يعرج على تدريب الوعاظ وأمور أخرى، كذلك يؤكد الكاتب على الفنون السبعة الحرة، ولا يتسم هذا العمل بالأصالة الفكرية، وينسحب نفس الحكم على كتاب آخر له بعنوان "في أمور الطبيعة"؛ لأنه منقول من أفكار ايزينور الاشيلي وييده وأغسطينوس.

أما بالنسبة لكتابات رابانوس في شروح الكتاب المقدس، فهي أقرب إلى التلويحات الصوفية والرمزية وفي جميع الأحوال، فإن هذا العمل الذي لقبه البعض بلقب رائد الثقافة الألماني بمعنى النتائج المخلصة للنهضة الكارولنجية، فهو دارس مجتهد ومتحمس لقضايا العلم والثقافة، خاصة بالنسبة لرجال الدين، ولكنه في جميع الأحوال أبعد ما يكون عن الأصالة الفكرية بمعناها الصحيح.

الفصل الثانى عشر

جون سكوتوس إريوجينا

١ - حياته وأعماله

تعد المنظومة الفلسفية التى صاغها جون سكوتوس إريوجينا واحدة من أهم علامات القرن التاسع فى أوروبا الغربية، فهى تطل كصخرة شامخة وسط سهل عريض ساكن، وكنا قد لاحظنا فى موضع سابق أن القرن التاسع قد شهد نشاطاً تعليمياً متدوئياً، وأدوات وفرصاً تعليمية متواضعة، ولكن هذا النشاط لم يبرز إبداعاً فكرياً أصيلاً بمعنى الكلمة، ولا غرابة فى ذلك، فنحن أمام عصر اتسم بمجادلة الحفاظ على ما هو قائم وتطويره قدر الإمكان.

ولكن حالة إريوجينا تمثل استثناء صارخاً ومفاجئاً من فكر أصيل لم يصل إليه أحد من معاصريه، ولم يقدر لأحد من لاحقيه المباشرين أن يواصله، ولو أن إريوجينا كان قد التقى بقضية أو اثنين من قضايا الفكر، لما أصابنا بالدهشة على الإطلاق، ولكنه من العجب أنه قد أنتج أعظم منظومة فكرية فى العصور الوسطى كلها.

وقد يقال إنه قد اعتمد كثيراً على أفكار القديس جيريجورى من نيسا على سبيل المثال، وبشكل متزايد على كتابات ديونسيوس المنحول، وهذا قول حقيقى، ولكن هذا لا ينفى أننا عندما نطالع كتابه عن "أقسام الطبيعة" نجد أنفسنا أمام عقل عملاق وأصيل، يعالج مقولات وأنماط الفكر والرؤى التى طالعها عند الكتاب السابقين ثم يضعها فى منظومة من عنده محملة بمذاق ولون ونغمة خاصة به هو فقط، ومن حقنا أن نتأمل كيف كان سيقدر بمسافات فكر سكوتوس أنى يكون، لو أنه عاش فى وقت لاحق أكثر غنى وازدهار فى الفكر الفلسفى، وأقل ضراوة فى القيود والتزمّت عن العصر

الذى عاش فيه، ومن ثم فإنه من عدم الإنصاف أن نقيم منظومة إريوجينا الفلسفية قياساً على الفلسفات اللاحقة التى كانت من بنات زمانها ومعطياتها التاريخية، مثل الفلسفة الهيجلية على سبيل المثال.

وفى جميع الأحوال تبقى فلسفة إريوجينا ذات طبيعة منفردة خاصة، وقد ساهمت إلى حد بعيد فى تعديل الكثير من المفاهيم والمقولات الواردة فى كتابات المفكرين السابقين له فى العصور الوسطى.

لا نعرف الشيء الكثير عن حياة جون سكوتوس إريوجينا، فقد ولد فى أيرلندا حوالى سنة ٨١٠م، وتلقى تعليمه فى أحد الأديرة، هناك، وكلمة " إريوجينا" نسبة إلى شعب "إيرن" (Erin فى حين تشير كلمة "سكوتوس" إلى اسم إيرلندا فى القرن التاسع وهو "سكونيا الكبرى" عندما كان الأيرلنديون يعرفون باسم إن سكوتى، ولا صلة للكلمة من قريب أو بعيد بإسكتلندا، وقد تعلم إريوجينا اللغة اليونانية فى واحدة من الأديرة الأيرلندية التى كانت تون غيرها فى الغرب الأوروبى مهتمة باللسان اليونانى، حقيقة أن المفكر الإنجليزى "بيده" Bede.. قد حاول تعلم اليونانية، كذلك فعل كل من ألكوين ورابانوس ماوروس، ولكنهم جميعاً لم يتقنوا هذه اللغة مثلما فعل إريوجينا أن بيده- على سبيل المثال- يستخدم أحياناً بعض العبارات اليونانية فى كتاباته وشروحه، كما أنه كان على علم بالأبجدية اليونانية، ولكن ما ورد من عبارات يونانية عنده كان مجرد "اقتباسات من كُتاب سابقين، ولقد ثبت لدى الدارسين أن ما ورد من عبارات يونانية فى مخطوطات العصور الوسطى كان من وضع كُتاب أيرلنديين، أو تحت تأثير كتابات وضعها مفكرون أيرلنديون أيضاً، ويذكر أن الاهتمام الخاص باللسان اليونانى فى دير سان جال- على سبيل المثال- كان من فعل الرهبان الأيرلنديين الذين كانوا ضالعين فى اللغة اليونانية. ومع ذلك فلا ينبغى أن نعمم فى أحكامنا ونزعم بأن جميع الكتاب الأيرلنديين كانوا يستخدمون عبارات يونانية، أو أن جميع الرهبان الأيرلنديين كانوا يتقنون اللسان اليونانى؛ لأن مجرد استخدام بعض العبارات اليونانية هنا وهناك لا يقف دليلاً على إتقان هذه اللغة، فالكثيرون - مثلاً - يستخدمون بعض العبارات

الفرنسية فى كتاباتهم من قبيل عبارة *Fait accompli* دون أن يكونوا على معرفة باللغة الفرنسية ذاتها، وواقع الأمر أن عدد الرهبان الأيرلنديين الذين كانوا تقنون اللغة اليونانية كان قليلا، وإن إريوجينا كان واحداً من هؤلاء القلائل، كما يتضح من ترجماته لأعمال القديس جريجورى من نيسا، وديونيسيوس المنحول، إلى جانب محاولته نظم القصيدة باللسان اليونانى أيضاً، وذلك أثناء إقامته فى فرنسا، ومؤدى هذا أن إريوجينا كان من أبرز العارفين باللغة اليونانية فى الغرب اللاتينى فى القرن التاسع.

قام إريوجينا برحلته إلى فرنسا فى أربعينيات القرن التاسع، وحط رحاله فى بلاط شارل الأصلع سنة ٨٥٠م، حيث تقلد منصباً هاماً فى مدرسة البلاط، وليس لدينا دليل قاطع على أنه قد انخرط فى سلك الكهنوت، ولكننا نعلم أن هذكار أسقف ريمز قد طلب منه التدخل فى الجدل الدائر حول مسألة المقدر والمكتوب، مما حفزه على وضع كتاب بعنوان "المقدر" الذى لم يرض أياً من المعسكرين المتناحرين، بل إنه أثار حوله شبهة الهرطقة.

بعد هذا اتجه إريوجينا نحو الفلسفة، وفى سنة ٨٥٨م اضطلع بتكليف من شارل الأصلع- بترجمة أعمال ديونيسيوس المنحول عن اليونانية إلى اللاتينية وكان الإمبراطور البيزنطى ميخائيل باليوس" قد أهدى أعمال ديونيسيوس إلى الإمبراطور لويس الجميل سنة ٨٢٧م، ولكن أحداً لم يقم على ترجمتها حتى مجيء إريوجينا، ولم يكتف إريوجينا بترجمة هذه الأعمال، وإنما قام أيضاً بالتعليق عليها، فيما عدا الجزء الخاص "باللاهوت الصوفى".

ويذكر أن البابا نيقولا الأول قد شكك بأن هذه الترجمة قد تمت دون أخذ رأيه فى الأمر، كذلك قام إريوجينا بإصدار ترجمة لاتينية لأطروحة ماكسيموس المعترف بعنوان "الأسرار الغامضة"، وكتاب القديس جريجورى من نيسا بعنوان خلق البشر، إلى جانب تعليقات على إنجيل القديس يوحنا، وأخرى على كتاب "عزاء الفلسفة" ليوثيوس، وكتاب "المدخل" فى اللاهوت.

على أن أهم إضافة فكرية تُحسب لإريوجينا هي كتابه عن "أقسام الطبيعة" الذى وضعه ما بين أعوام ٨٦٢-٨٦٦م، ويتألف هذا الكتاب من خمسة أبواب، جاءت فى صيغة المحاورات التى كانت شائعة فى عصره، والتى كان "الكوين"، وآخرون يستخدمونها فى مجادلاتهم الفكرية، وهذا الكتاب ليس كتاباً سهلاً؛ لأن الكاتب أقدم فيه على توضيح التعاليم المسيحية والأفكار الفلسفية للقديس أغسطينوس على الأسس التى قام بها ديونسيوس المنحول والفلاسفة الأفلاطونيون المحدثون، ومن هنا يصبح إريوجينا لغزاً محيراً عند تصنيفه؛ فهل كان الرجل قوياً فى الإيمان الأرثوذكسى، أم أنه - وهذا هو الأكثر ترجيحاً - كان يؤمن بوحدة الوجود لأن الله والطبيعة وحدة، أما الذين يدافعون عن أرثوذكسيته فإنهم يدللون على ذلك من واقع بعض عباراته من قبيل، "إن الكتب المقدسة السلطة الوحيدة التى ينبغى إتباعها فى جميع الأمور"^(١)، فى حين أن الفريق الآخر الذى يرى أن إريوجينا قد وضع الفلسفة فى مرتبة أعلى من اللاهوت "مستبقاً فى هذا ما قال به هيجل من مبدأ العقلانية" فإنهم يشيرون إلى عبارته التى تقول: إن أى مصدر "من آباء الكنيسة" لا يمكن التسليم بما يقول به، ما لم يتقرر بمنطق العقل الذى لا يحتاج إلى مصور يعززه^(٢).

وفى جميع الأحوال، فإنه لا يمكننا أن نصدر أحكاماً على تأويلات إريوجينا حتى نتبين جلياً آراءه الواردة فى كتابه "أقسام الطبيعى" مع ملاحظة أن هناك جدلاً واسعاً حول مدى صحة هذه التأويلات.

ويبدو أن إريوجينا قد ظل على قيد الحياة لفترة وجيزة بعد وفاة الإمبراطور شارل الأصغر (توفى سنة ٨٧٧م) وهناك العديد من الروايات حول نهاية إريوجينا عند كتاب الحوليات، من ذلك أنه أصبح رئيساً لدير أثلنى - Athelney وأنه اغتيل على يد رهبانه، ولكن هناك شكوكاً كثيرة حول صحة هذه الرواية، وأغلب الظن أنها حكايات من نسج الخيال، أو أن هناك خلطاً بين صاحبنا جون سكوتوس إريوجينا وبين شخص آخر يحمل نفس الاسم.

(1) De Div Nat, 1, 64.

(2) Ibid, 1, 69.

الفصل الثالث عشر

حول سكوت إريخينا

الطبيعة - الله والخلق - المعرفة بالله من خلال مساقى الإيجاب

والسلب - المقولات عاجزة عن التعريف بالخالق -

كيف ينبغي أن نفهم خلق الله للعالم - الأفكار الإلهية

في هذا العالم - المخلوقات كصنائع وجل إلهي - المخلوقات

من يد الله - القصص الأزلي على ضوء العودة الكونية -

تفسير منظومة إيجوجينا الفلسفية

في بداية أول كتبه "أقسام الطبيعة" يشرح جون سكوتوس على لسان المعلم إلى واحد من تلاميذه ما يعنيه بكلمة "طبيعة" بأنها "جماع الأشياء، الكائنة والأشياء غير الكائنة" ويضرب له عدة أمثلة لتوضيح فكرته.

فالأشياء التي تدرك بواسطة الحواس أو بواسطة العقل هي الأشياء الكائنة، في حين أن الأشياء التي تتجاوز إدراك العقل هي الأشياء غير الكائنة كما أن الأشياء الخفية في بذورها - تصبح كائنة وكذلك فإن الأمور الخاصة بالعقل فقط يمكن وصفها أيضا بالكائنة في حين أن الأمور المادية التي تخضع لعوامل المكان والزمان والتحلل يمكن وصفها بغير الكائنة والطبيعة البشرية أيضا، وحيث ابتعادها عن الله بفعل الخطيئة يمكن وصفها بأنها "غير كائنة" في حين أن هذه الطبيعة عندما تتصالح مع الله بفعل النعمة يصبح لها كينونة.

إن مصطلح "الطبيعة" كما يبدو من كلام سكوتوس - يعنى بالنسبة له ليس فقط العالم الطبيعي، وإنما أيضا الله والمحيط الذي يتجاوز الطبيعة، إنها تعنى الحقيقة الكلية⁽¹⁾ وعندما يعلّق سكوتوس أن الطبيعة تنقسم إلى أربعة أنواع، الطبيعة التي تخلق

(1) 3,1.

ولكنها غير مخلوقة، والطبيعة التى تخلق وتخلق، والطبيعة التى تخلق ولكنها لا تخلق، والطبيعة التى لا تخلق ولا تخلق، فإنه يبدو وكأنه يجعل الله والخلق ضمن أطر الطبيعة، ومن ثم فكأنه يعتقد فى مبدأ أحادى لو أننا أخذنا كلماته بمعناها الصرفى. ومع ذلك فهو فى بداية الباب الثانى^(١) فى جزء معقد نسبياً، يوضح أنه لا يعتقد أن المخلوقات جزء من الله، وإن كان فى نفس الوقت يصر على تقسيمته الرباعية للطبيعة، فعلى أنه يمكن التأمل فى فكرة أن الله ومخلوقاته "جماع كون متكامل" يفهم من هذا أن جون سكوتوس لم يقصد إلى الإعلان عن وحدة الوجود، أو أن ينكر الفضل وعودتها وخلائقه، وإن كان فى شروحه الفلسفية وتقليبه للخروج من يد الله وعودتها إليه يشى مرة أخرى بهذه الوحدة للوجود، وبإنكار لهذا الفضل^(٢).

٢ - الطبيعة التى تخلق ولكنها غير مخلوقة هى بطبيعة الحال الله ذاته، علّة الوجود لكل الأشياء، وهو ذاته دون علّة أو مسبب، البداية أو المبدأ؛ الأول، لأن كل المخلوقات تكون من عنده، وهو الوسط لأنه من خلاله تحيا الخلائق وتتحرك، وهو النهاية أو العلّة النهائية؛ لأنه سر حركة المخلوقات ونمائها ثم اكتمالها. الله هو العلّة الأولى التى جعلت الخليقة فى الوجود من حال العدم^(٣) de nihilo وهذه الرؤية تتفق مع اللاهوت المسيحى، ويتضمن مبدأ المفارقة الربائية ووجود الخالق لذاته، ولكن سكوتوس يمتضى إلى أبعد من هذا ليعلن أنه فى الإمكان القول بأن الله يتجلى أيضاً من خلال خلائقه وصنع يديه، ولا يعنى هذا أن سكوتوس يقول بوحدة وجود فى حال من التطور؛ أى إن الطبيعة بمعناها المتفق عليه هى الله فى الآخرة الذى يخلقه؛ لأنه يمتضى ليوضح أن الله يتجلى أو يعلن عن ذاته فى مخلوقاته فالخليقة إذن هى تجل للخالق.

إن شروح سكوتوس فى هذه النقطة تبدو غير متساوية مع المبادئ الأرثوذكسية، فهو يقول بأن العقل البشرى عندما ينشط يتحول إلى أفكار، فكذلك يتجلى فيما يخلقه من خلائق؛ بمعنى أن الخليقة تصبح بمثابة تحقيق للذات الإلهية، والواضح هنا هو

(1) 1,1.

(2) 1,11.

(3) 1,12.

تأثر سكوتوس بالأفكار الأفلاطونية المحدثّة، ولكنه سيء أن يستدرك ليميز بين الخالق والخليقة، ويأن الله بالنسبة لخليقته هو الطبيعة التي تخلق ولكنها لا تخلق".

٣ - لتعرّف فكرة الطبيعة التي تخلق، ولكنها غير مخلوقة، يمكننا اتباع كل من المساق الإيجابي والآخر السلبي فبالطريق السلبي يمكننا القول بأن الجوهر الإلهي ليس من الأشياء الكائنة، أي التي يمكن لنا فهمها بعقولنا القاهرة، أما بالطريق الإيجابي فإنه يمكن القول بأنه من خلال الله يمكن لنا تفهم الأشياء الكائنة، بمعنى أن العلة تتكشف فيما تأتي عنها من نتائج^(١) وهذه المنهجية الثنائية في مطارحة اللاهوت قد استقاهها سكوتوس من ديونيسيوس النحول، كما يعترف هو بذلك^(٢) ومن ديونيسيوس أيضا اقتبس سكوتوس ضرورة ألا نشير إلى الله بمجرد كلمات الحق والحكمة والجوهر، وإنما تتميز هذه الكلمات جميعا بصفة الأعلى: الحق الأعلى والحكمة الأعلى والجوهر الأعلى، وذلك للمفارقة بين هذه الصفات وبين ما هو متداول على السنة البشر.

وفي فقرة لاحقة^(٣)، يطرح اسكوتوس ديكالكتيكا عبقريا يبيّن فيه أن النهج الإيجابي لا يتعارض مع العقيدة في الربوبية اللافتتاحية غير المدركة، وإن النهج السلبي هو أن النهج السلبي هو النهج الأساسي الصحيح؛ فعلى سبيل المثال نحن نقول أن الله هو الحكمة، بينما عن طريق النهج السلبي نقول إن الله، ليس مجرد الحكمة، وقد يبدو هذا الأول، أمراً متناقضاً، ولكن واقع الأمر أننا عندما نقول بأن الله هو الحكمة فإننا نستخدم هذه الصنعة بالمعنى المجازي، المعنى الموازي كما يقول المدرسيون في حين أننا عندما نقول إن الله ليس الحكمة، فإننا نستخدم الكلمة بمعناها الحرفي؛ لأن المعنى الذي يقصده البشر ويعرفون دلالته، فالتناقض إذن ليس حقيقياً، وإنما هو تناقض لفظي فقط، ويتم التصالح بين الاثنين عندما نقول بأن الله هو الحكمة العليا أو الأعلى،

(1) Ibid.

(2) 1, 13.

(3) 1, 14.

وعندما نتمعن في دلالات الكلمات، فإننا عند الإشارة إلى الله بالحكمة الأعلى، فإننا إنما نسعى بقولنا هذا وراء المنهج الإيجابي. على أننا عندما نتمعن الأمر بعمق فإننا نجد أنه على الرغم من انتحاء العبارة شكلا ولفظا للمنهج الإيجابي، فإن العقل البشري، لا يستوعب فكرة ما هو أعلى، وليس هناك لديه من عوامل ارتباط يدرك بها دلالة هذا، العلو اللامتناه، ومن ثم فإن هذه العبارة في واقع الأمر تنتمي أيضا إلى المنهج السلبي وليس إلى المنهج الإيجابي، كما أن إضافة كلمة الأعلى إلى الحكمة يجعل المعنى مساويا لصيغة النفي. حقيقة إن صياغة العبارة "الحكمة الأبدية" لا نفى فيها أصلا، ولكنها، قياسا بفهمنا العقلي البشري المملود، فإنها تنطوى على النفي بالفعل، ومن هنا كان قول سكوتوس بأن المنهج السلبي هو الأساس؛ لأننا لا يمكن لنا أن ندعى بأننا قادرون على تحديد ما هو أعلى في ذاته، وبذلك يبقى المنهج السلبي هو القادر على أن يصون فكرة الله اللامتناهى وغير المدرك وبطبيعة الحال، فإننا عندما نقول بأن استخدام كلمة "الأعلى" إنما يساوى هنا حال النفي فإننا نجابه باعتراض حقيقي "خاصة من جانب أهل المنطق الوضعيين" وهو أننا كبشر لا نملك في عقولنا معنى لهذه العبارة، من ثم فإنها تصبح غير ذات معنى. ولكن سكوتوس رغم أنه لم يتعرض لهذه المعضلة المنطقية، يقدم إجابة واحدة، يذهب فيها إلى أننا بأننا عندما نقول إن الله هو "الحكمة الأعلى" فإننا نقصد أنه يتجاوز حدود الحكمة، هكذا فإن إضافة كلمة "الأعلى" لا يمكن أن تساوى حالة النفي للعبارة، فنحن نقول عن الحجر على سبيل المثال - إنه ليس بالعاق بمعنى أنه لا يملك شيئا من الحكمة، ولكن بالنسبة للخالق فنحن نعنى أنه "يتجاوز" العقل والحكمة بمفهومنا البشري، إن الله جوهر.. هذه عبارة إيجابية المنطوق - إن الله ليس بجوهر.. هذه عبارة سلبية المنطوق.. إن الله يتعالى على الجوهر.. هذه عبارة تتضمن الجانبين الإيجابي والسلبي معا⁽¹⁾ ويخلص سكوتوس من هذا الديالكتيك إلى أن النظرية ونقيضها يتصالحان دياكتيكيا، في هذه التركيبة.

(1) 1, 14.

وإذا كانت صفة الحكمة لا تفي عند الإشارة إلى الخالق، فإن علينا من باب أولى أن نستبعد جميع المقولات الأرسطية العشر التي تُعزى إلى الأشياء المادية، فمسألة الحجم - على سبيل المثال - لا يمكن أن تنسب إلى الصفات الإلهية؛ لأنها تنطوي على أبعاد وحيز محدودين، وحاشا لله أن يكون كذلك^(١) والعق - عند سكوتوس - إن الله ليس مجرد جوهر - لأنه هو اللامحدود الذي يتجاوز الجوهر - اللهم إلا إذا كان استخدامنا للكلمة من باب المجاز؛ لأن الله هو خالق كل جوهر، إن المقولات الأرسطية تنظم عد الأشياء المخلوقة، ولكنها قاهرة عند الحديث عن الخالق وينسحب نفس الشيء إلى مصطلحات أخرى من قبيل جنس أو نوع أو "عرض" لأن الله يتجاوز جميع المعايير، والتصنيفات.

إن لاجابة سكوتوس تدلل على أنه ليس أحادي الرؤية، إنه ممن يقولون بوحدة الكون "الله والطبيعة" وإنما هو يؤكد على المفارقة الإلهية، بنفس الطريقة التي قال بها ديونيسيوس المنحول.

وعن الثالث المقدس يقول ديونيسيوس إن الرباط هنا هو الله نفسه بالمعنى المجازي أيضا، وليس وفق مقولة العلة الأرسطية وعند استخدام كلمة "الرباط" في هذا الأمر فإنها تخرج عن الاستخدام المألوف لدى عقول البشر، وخلاصة القول أنه في إمكاننا أن نتبين من وجود المخلوقات وجود الخالق، ولكننا عاجزون عن إدراك ماهية هذا الوجود؛ لأن الله يتجاوز الحكمة والجوهر وغيرهما من الصفات الأخرى التي تدركها العقول سواء كانت ملائكية أو إنسية.

٤ - رغم أن القول بعدم انطباق المقولات الأرسطية العشر على الله يضع المفارقة بين الخالق ومخلوقاته بعيدة عن أي شك، فإن سكوتوس وهو يتأمل مقولاتي "الصنع" (facere) و"الإذن" pati فإنه يصل إلى نتائج مخالفة فهو في فقرة ذكية^(٢) يبين بجلاء

(1) 1, 15.

(2) 1, 7-2.

أنا لا يمكن أن ننسب كلمتي "الصنع" و "الإذن" للصفات الإلهية؛ لأنهما تتضمنان الحركة والنشاط، فهل يجوز لنا أن ننسب للخالق مثل هذه الصفات؟ إن الإجابة على هذا التساؤل بالنفي، وعليه فإنه لا يجوز أن ننسب إلى الخالق هذه الصفة أو تلك ولكن هذا القول متعارض مع ماورد في الكتاب المقدس بأن الله خلق كل الأشياء، يقول سكوتوس في هذا الأمر بأنه ينبغي أولاً أن نتفهم بأن القول بالوجود العقلي أمر يصعب فهمه أو تصوره؛ لأنه في هذه الحالة يصبح الخالق ضمن أطر الزمن كما تصبح عملية الخلق نفسها عرضاً في الذات الإلهية، وهذا يعنى أن الفرضين مستبعدان تماماً، وعليه - يفتقد سكوتوس - فإنه ينبغي أن ينظر إلى صنائع الله على أنها أزلية هي أيضاً مثل خالقها.

ومن ناحية أخرى، فإنه حتى لو سلمنا بأزلية الخلق أو الصيغة الربانية بدلا، من القول بفرضيتها، فإننا رغم ذلك لا يمكن أن ننسب صفة "الحركة" للخالق؛ لأنها متضمنة في مقولة "الصنع" وعليه ماذا يعنى القول بأن الله جبل كل الأشياء؟ يستطرد بكتوس ليبين لنا أننا عندما نسمع هذه العبارة، فإنه يتوجب علينا أن نفهم منها معنى واحداً ومؤداه أن الله كائن في كل الأشياء، بمعنى أن الله هو جوهر كل الوجود فكل ما هو كائن فيما هو موجود هو من الله وحده⁽¹⁾.

إن هذه العبارة الأخيرة تضع جون سكوتوس قريباً جداً من فكرة وحدة الوجود، التي قال بها فيما بعد الفيلسوف سبينوزا، وليس من المستغرب والحال كذلك أن يستجلى بسكوتوس هذه المناقشة ببعض الملاحظات عن العلاقة بين "العقل" والنص⁽²⁾ فهو يقول بأن العقل أسبق على النص، وأن النص الصحيح هو "تكلم الحقيقة التي نصل إليها من خلال سلطان العقل ثم نسجلها، ويتناقلها الآباء الكنسيون لخدمة الأجيال اللاحقة".

(1) 1, 72.

(2) 1, 69.

ويستخلص من هذا القول لسكوتوس أن الكلمات والعبارات والجمل الواردة في الكتاب المقدس، مهما كانت ملائمتها لبسطاء الناس، لا بد وأن تؤول بطريقة عقلانية على يد القادرين من الشراح، وبمعنى آخر فإن سكوتوس ينفي عن نفسه شبهة الخروج عن قواعد الأرثوذكسية، مع التأكيد على أن مداخلاته الفلسفية في التأويل لنصوص الكتاب المقدس مساوية لإعمال العقل في محاولة فهمها الفهم الصحيح. ويؤدي هذا كلها إلى إن جون سكوتوس يرى أن العقل فوق النصوص وقواعد الإيمان أيضا.

وفي جميع الأحوال لا ينبغي علينا أن نبالغ في وجهة نظرنا هذه عن موقف سكوتوس من العقل والإيمان؛ فعلى الرغم مما ورد في كلام سكوتوس عن وحدة الوجود، إلا أنه يعاود ليؤكد على فكرة الخلق من العدم، ومن الواضح أنه عندما يرخص القول بفكرة "صنع العالم" فإنه بهذا لا ينفي مسألة العالم، وإنما يزيد الله عند مجد الصنع بالمعنى الذي يفهم العقل البشري، بأنه من مقولاته الحدث أو العرضية، إن وجود الله وجوهره ومشىيته في جعل الأشياء هي جميعا غائية واحدة ومتساوية^(١) كما أن جميع الصفات التي تنسبها إلى الله لا بد وأن تعنى "الجوهر الأعلى غير المدرك الواحد الأحد"^(٢)

إن لب القضية هو أن سكوتوس وهو يصر على التمييز بين الخالق والخلق، إنما يرغب في نفس الوقت في أن يبرز مفهوم الله على أنه الحقيقة الكلية المحيطة بكل شيء، وذلك عند حديثه عن الله من منظور متعال أو مفارق (*altiori theoria*) وعلى هذا فإنه يؤكد^(٣) على أن كلاما من القسمة الأولى والرابعة من أقسام الطبيعة تلك التي تخلق ولكنها غير مخلوقة، ولكن التي لا تخلق ولا هي مخلوقة، فتجتمعان في الذات الإلهية؛ لأن الله هو العلّة الأولى والعلّة الأخيرة معاً، في حين أن كلاماً من القسمة الثانية والثالث

(1) 1, 77.

(2) 1, 75.

(3) 2, 2.

"تلك المخلوقة والقادرة على الخلق، وتلك المخلوقة ولكنها عاجزة عن الخلق" تجتمعان في الخلائق فقط، ثم إنه يضيف^(١). بأنه على قدر ما إن كل مخلوق في شركة "طوباوية" مع الله الموجود لذاته، فإن الطبيعة بأكملها يمكن أن تلخص في القول بالمبدأ الأول، حيث الخالق والمخلوق في شركة واحدة.

ه - تشير القسمة الثانية من الطبيعة تلك التي خلقت وتستطيع الخلق، إلى العلل الأولى التي يطل عليها الفلاسفة اليونان على المثل الأولى^(٢) وهذه العلل الأولى أو في المقدر والمكتوب هي مسببات الخلق لكل البشر، وهي موجودة في كلمة الله فهي الأفكار الإلهية والأنموذج الأول كل جوهر مخلوق كيف يمكن إذن الحديث عنها بأنها مخلوقة.

إن ما يقصده جون سكوتوس هنا أن تولد الكلمة الأذلى "الابن في الثالوث" يتضمن إقرار الأفكار الأزلية أو العلل الأولى في الكلمة (Logos أو الابن، إن تولد الكلمة ليس مرهوناً بزمن وإنما هو تولد أزلي، وينسحب نفس الشيء على المقدر والمكتوب.

إن الأولوية التي تعطى للكلمة الابن من وجهة نظر تجريدية على الأفكار الأولى هي مجرد أولوية منطقية وليست زمنية وعلى هذا فإن انبثاق الأفكار الأولية جزء من العملية الأزلية والكلمة أيضاً من خلال، التولد، وبهذا المعنى فقط يمكن القول بأنها مخلوقة^(٣).

ومع ذلك فإن الأولوية المنطقية للكلمة بالنسبة للأفكار الأولية، واعتماد الأخيرة على الكلمة يعنى أنه رغم أنه لم يكن هنالك أبداً زمن كانت الحالة فيه بدون الأفكار الأزلية، فإن هذه الأفكار ليست أزلية تماماً مثل الكلمة^(٤).

(1) Ibid.

(2) Ibid.

(3) 2,20.

(4) 2, 21.

إذن بأى معنى يمكن القول بأن العلل الأولى قادرة على الخلق، إذ كان لنا أن نركز على بعض العبارات التى أوردها سكوتوس من قبيل أن الأفكار أزلية تنتشر، فى كل الأشياء التى صنعتها^(١)، فإن المرء بطبيعة الحال يرى فى هذا تأويلاً لوحدة الكون، ولكن سكوتوس، يستطرد ليقول^(٢) بأن الثالوث الإلهية هى علة، ثم إنه يضيف فى ذلك قوله لا شىء فىم خلقه إلا ما كان مقدراً سلفاً وأزلياً، وهذه المقدرات الأزلية أو المشيئة الإلهية هى الأفكار الأولية إن كل المخلوقات- كما يحتج سكوتوس - تشارك فى هذه الأفكار الأولية، فالحكمة- مثلاً- عند البشر شريكة فى "الحكمة الأولى ذاتها"^(٣).

إن جون سكوتوس فى هذه القضية يعتمد اعتماداً واضحاً على أفكار كل من ديونسيوس المنحول، وماكسيوس، ولكنه فى نفس الوقت يسعى لمصالحة رؤيته الفلسفية مع اللاهوت الأرثوذكسى، ومع ذلك فإن لغته تعطى الانطباع بأنه يحاول كبح جماحه وهو ينحو نحو صيغة عن "وحدة الكون" ومع كل ذلك فإن نوايا الرجل لا غبار عليها فيما يتصل بقوامة الإيمان، ويتضح هذا جلياً من "التخصيات" أو "التحفظات" التى يهدفها بين الحين والآخر.

ولعنا نتساءل هل هناك من الناحية الحقيقية والأنطولوجية متعددة فى "المقدرات" فى هذا العالم، يجيبنا سكوتوس عن هذا التساؤل بالنفى^(٤) ويضرب مثلاً بالأرقام، فلو أننا نظرنا إلى الأرقام نجد أنها تتأتى أصلاً من وحدة أزلية جوهرية (monad) ولكنها من خلال تتابعها تتكاثر وتتدخل فى منظومات وبالمثل فإن العلل الأولية واحدة فى الأصل، ولكنها تبو متعددة متميزة فى هذا العالم، ولكن هذه التعددية- مثل اشتقاق الأعداد من الأرقام- لا تغير من الجوهر الأصل للعلل الأولية.

(1) 2, 27.

(2) 2, 24, Lol, 580.

(3) 2, 36.

(4) 3, 10.

من الواضح أن سكوتوس فى هذه المسألة يسير على نهج ديونسيوس المنحول فى قوله بأن المبدأ الأول لا يتغير من خلال ما يصدر عنه من اشتقاقات، ولكن هذه النظرة تجابه مشكلة شبيهة بإشكالية الأفلاطونيين المحدثين؛ فهم من ناحية يقولون بالفيض، ولكنهم من ناحية أخرى يعتقدون بأن هذا الفيض لا ينتقض شيئاً من تكاملية المبدأ الأولى.

٦ - أما "الطبيعة المخلوقة ولكنها غير قادرة على الخلق"، فهى تتألف من مخلوقات خارجية تكون العالم الطبيعى بالمعنى الضيق، والذى جعله الله من العدم ويطلق سكوتوس على هذه الخلائق صنعة المشاركة بمعنى أنها فى شركة من العلة الأولية التى هى فى شركة مباشرة مع الله^(١).

وعلى هذا فإن العلة الأولية تتطلع إلى الأعالي قبالة المبدأ الأول، فى حين تنظر إلى أسفل لتنصر الإثارة المتعددة، وهذه النظرية تتساوى مع فكرة، الفيض الأفلاطونية المحدثّة وتعنى المشاركة فى هذا السياق شيئاً من الاشتقاق وتعنى ترجمة للكلمة اليونانية، "مقبوض" أو "ميتوزيا" وتعنى ما يتخثر عن الجوهر أو "الجوهر الثانى أو الثانوى" تمييزاً له عن "الجوهر الأعلى"^(٢).

ويسوق سكوتوس هنا مثلاً من المنبع الذى تتساب منه المياه فى ظل اتجاه وإلى الأنهار وغيرها، كما تتساب الأشياء من العلة الأولى^(٣).

وواضح أن سكوتوس يتحدث عن الفيض، ولكن فى لغة مجازية، وهو يلخص الأمر كله فى قوله إن الله هو كل شيء حقيقى الوجود، فهو يخلق كل شيء ويتجلى فى كل شيء، وهى نفس الحاجة التى قال بها من قبل ديونسيوس الأريوباغى^(٤) إن الخير

(1) 3,3.

(2) Ibid.

(3) 3,4.

(4) Ibid.

الإلهى ينتشر على الدوام فى أركان الكون والخليقة، التقييم كل الأشياء، ويتواجد فى كل الأشياء، وليؤلف جميع الأشياء^(١).

وتبدد هذه العبارات المتلاصقة وكأنها نظرية عن "وحدة الكون" على نسق أفكار الفيض، ولكن سكوتوس يستدرك بأن الخير الإلهى قد خلق كل شيء من العدم "والعدم - عنده- لا يعنى - الوجود القبلى سواء صورة أو بدونها، وإنما يعنى النفى وغياب أن جواهر أو مادة 'هيولى' إن الخالق لم يخلق العالم من شيء آخر دائما خلقه من عدم خالص"^(٢).

يلاحظ هنا أيضا أن سكوتوس يجاهد لكى يربط بين التعاليم المسيحية عن قصة الخلق، وبين فلسفة الفيض الأفلاطونية المحدث، وهذه المحاولة من جانبه هى التى أوقعته فى العديد من التؤيلات وافتعال بعض التفسيرات أيضا^(٣).

ويتضح التوتر فى جدلية سكوتوس بشكل أكثر حدة فى قضية أخرى: إذا كانت الخلائق فى شراكة مع الخير الإلهى، وفى "التجلى الربانى" من خلال صنائعه، أفلا يعنى هذا أن كل الأشياء التى يدركها العقل أو الحس هى المظهر لما هو غير ظاهر، والتجلى لما هو خفى، والإيمان لما هو سلبى، والإدراك كما هو غير المدرك، والإفصاح عن غير المنطوق به، والجسدى لما هو غير جسدى والجوهر، لما هو مفارق لكل جوهر، والعودة لما هو لا صورى، إلخ.

كذلك يمكن لنا القول، بأنه كما أن العقل البشرى، وهو غير مرئى، يصبح مرئيا فيما يصدر عنه من إشارات وكلمات وكفايات فبالمثل يمكن القول بأن الله غير المرئى وغير المدرك يكشف عن ذاته فى الطبيعة عندما تتجلى بصنائعه الإلهية، وإذا كان هذا التجلى ينطوى على كشف عن الخير الإلهى غير المدرك وغير المرئى، ألا يشى هذا بتؤيل يطرحه سكوتوس عن فكرة أن العدمية التى تقول بأن العدم هو الذى منه انبثقت الخليقة.

(1) Ibid.

(2) 3,5.

(3) 3, 41.

يتصدى سكوتوس فى فقرة لا حقة لشرح هذه القضايا المعقدة بقوله: إن العدمية هنا تعنى النور الإلهي والخير الأول غير المنطوق به، وغير المدرك، واللامتناهى... كما أن ما لا يمكن إدراكه يمكن أن يوصف باللاشيء أو العدم، وعندما يتجلى الله فى خلائقه فإنه يميل هذه العدمية إلى صنائع، فى حين تبقى الذات الإلهية جوهر الكون كله.

أو أننا فسرنا نظرية سكوتوس بأنها تقوم على مبدأ المطلق (Absolutism) أو "اللاشرطية" فإننا قد نقع فى مفارقة تؤدي بنا إلى القول بأنه يتحدل عن تجريد منطقي يعزل الخلائق عن الخالق. ومرد هذا التوتر أن سكوتوس كان فى طيرة ما بين مساقين حول قضية الخلق؛ مساق مسيحي يقول بأن الخلق قد تم فى "زمن ما، ومساق أفلاطونى محدث يقول بالانتشار الضرورى للخير الإلهي من خلال "الفيض"، ورغم حض سكوتوس على وجهة النظر المسيحية، فإنه اعتقد أنه بجدليته هذه إنما يقدم تفسيراً فلسفياً مشروعاً لقضية الخلق، الواضح أن هذا التوجه كان متناغماً مع المناخ الفكرى السائد فى عصر سكوتوس عندما لم يكن هناك خط واضح بين اللاهوت والفلسفة، وبمعنى آخر يمكن القول بأن مفكرى العصر الوسيط كانوا يقرون أركان العقيدة الدينية من قبيل مبدأ الثالوث المقدس، وفى نفس الوقت، وبينية حسنة، كانوا يعضون فى تأويلاتهم حتى يصلوا إلى شيء مختلف تماماً عن الثالوث، أما إذا أردنا أن نصنف جون سكوتوس بأنه كان "هيجلياً" فى دياكتيلية قبل ظهور هيجل بمسافة زمنية طويلة، فلا بد لنا أن نتذكر أن هذا خاطر - بطبيعته - لم يخطر على باله.

إن قضية العلاقة بين الخلائق والخالق كما يطرحها جون سكوتوس ليست واضحة المعالم؛ إن قوله بأن العالم أزلى أو بمعنى آخر أنه متلازم مع العلل الأولى "من منظور عقلانى" ومع المشيئة الربانية للخلق، فهذا أمر يمكن قبوله "مع أنه يقول بأن العالم أزلى ومخلوق فى آن واحد بمعنى أن أزلية العالم تتأتى من حقيقة أن الله قد قدر خلقه منذ الأزل" وهو فى نفس الوقت يقول بأن العالم، بسبب زمن الخلق، يظل خارج الذات الإلهية، وهذا أيضاً قد يكون مقبولاً، ولكن المشكلة هى أنه يصّر بعد ذلك على أن العالم لا يقع خارج الذات الإلهية، بمعنى أنه أزلى ومخلوق فى آن واحد⁽¹⁾.

(1) See above, paragraph, 3.

بالنسبة للنقطة الأولى التى يقول فيها سكوتوس بأن العالم ليس خارج الذات الإلهية، فهذا يجبره فى نظريته على "الاستيعاب"^(١) بمعنى أن الخليقة كلها من عند الله فهى صنيعته، ولا وجود لها، خارج الذات الإلهية، فلو أن الرعاية الإلهية انحسرت عن البشر، فلن يكون لهم وجود، وبمعنى سكوتوس لنجاح^(٢) بأن الله كان بصيراً بخلائقه ومقدراً لخلقهم منذ الأزل، كما أن الله قد جعل الخليقة منذ الأزل أيضاً؛ لأن المعالجة الإلهية والعمل الإلهى مرة واحدة، لقد عاين الله خليقته فى ذاته الإلهية، وجعلهم أيضاً فى ذاته، ومن هذا يخلص سكوتوس إلى أن الخالق وخليقته ليسا منفصلين وإنما هما وحدة واحدة، فالله يتجلى فى صنائعه بصيغة معجزة غير مدركة بمعنى أن الله يحتوى ويستوعب طبيعة كل الأشياء فى ذاته؛ فالجوهر الإلهى يحتوى جوهر كل الأشياء منذ الأزل^(٣)، إن الخلق من العدم ترجمة التجلى الخير الإلهى^(٤) والجوهر الأعلى الكامن فى العلة الأولية^(٥) وفى نهاية المطاف، عندما تصل الأمور إلى نهايتها المحتومة تقود كل الأشياء إلى الذات الإلهية التى انبعثت منها أصلاً، فالله هو العلة الأولى من الأخيرة.

ولكن كيف لنا أن نوفق بين قول سكوتوس بأن الله هو "الطبيعة التى لا تخلق ولكنها تخلق" وبين قوله إن الله هو الطبيعة التى لا تخلق ولا تخلق" يرد سكوتوس على هذا التساؤل بأن الطبيعة الإلهية من حيث ذاتها، "لا على" بمعنى أنها دون علة تسببها^(٦)، ولكنها فى نفس الوقت هى علة الخليقة كلها، هذا على الجانب الأول، وأما عن الجانب الثانى فهو يقول عند النظر إلى الله بوصفه العلة الأخيرة ونهاية أجل الكون، فإنه يمكننا القول "بالطبيعة التى لا تخلق ولا تخلق".

(1) 3,9.

(2) 3,17.

(3) 3,18, 1.

(4) 3, 19.

(5) 3,10.

(6) Ibid.

ومؤدى هذا الجدل كله عند سكوتوس أنه عندما انبثقت العلل الأولى وتجلى الله فيها، "بكلمته" تجلّت الإرادة الإلهية من خلال هذه العلل الأولى فى خلّاقه، وحيث إن هذه الخلّاق لها عمر وأجل يمكن القول إذن بأن الطبيعة هنا "لا تخلّق".

٧ - من خلال الشروح الرمزية والفلسفية لقصة الخلق فى الأيام الستة الواردة فى الكتاب المقدس، يصل سكوتوس فى الباب الرابع إلى رؤيته للإنسان؛ فالإنسان - عنده- يمكن أن يوصف بأنه "حيوان من ناحية، وليس بحيوان من ناحية أخرى" فهو يشترك مع الحيوان فى وظائف الحس والغذاء وغيرهما، ولكنه فى نفس الوقت يملك العقل الذى يرتفع به فوق مستوى الحيوان ومع ذلك فإن الإنسان لا يملك روحين، واحدة حيوانية وأخرى آدمية، بل هو يملك روحا واحدة كاملة تهيمن على كل أعضاء جسده ووظائفه المتعددة ومعنى هذا إن الإنسان، "حيوان عامل"، حيوان من حيث الجنس، وعامل من حيث الميزة العقلية النوعية عن الحيوان، كما أن روح الإنسان قد جبلت على صورة الله، وهذا هو الجوهر الحقيقى للإنسان، والروح الإنسانية هى بمثابة الأثر، أما الروح الإلهية فهى العلة الأولى، ولكن الإشارة فى الحالين إلى شىء واحد هو عالم الروح^(١).

ويمكن تعريف الإنسان أيضا- كما يقول سكوتوس- بأنه الطبيعة العاقلة التى جبلتها العناية الإلهية الأزلية^(٢) ولذا فإن العقل البشرى يهتدى إلى الجوهر الإنسانى، ويسلم بوجود الله- ومع ذلك، فإن هذا العقل البشرى غير قادر على تفهم ذاته، مثلما هو عاجز عن إدراك ما يسلم به عن الذات الإلهية، ويؤدى أنه يمكن لنا من بعض الجوانب تحديد ماهية الإنسان، ومن جوانب أخرى، لا يمكن لنا تحديد هذه الماهية.

(1) 4.7.

(2) Ibid.

من الواضح فى هذه الجدلية أن سكوتوس متأثر حيناً بالأفكار الأرسطية وحيناً أخرى، بأفكار الأفلاطونيين المحدثين، إلى جانب عناصر مسيحية بطبيعة الحال، الأمر الذى خلق لموضوعه إشكاليات كثيرة ووجهات نظر متباينة.

غير أنه يستدرك ليقول بأن الإنسان هو الكون المصغر للخليقة؛ لأنه يجمع بين جنباته العالم المادى والعالم الروحانى، فهو من ناحية يشترك مع عالم النبات فى صفات الغذاء والنماء، ومع عالم الحيوان فى صفات الحس وريود الأفعال الانفعالية ومع الملائكة فى ملكة الفهم، فهو كما قال بوسيدونيوس- الرابطة بين ما هو مادى وما هو روحانى، بين المرئى وغير المرئى- وبذلك يصح القول بأن كل جنس حيوانى موجود فى الإنسان بدلا من القول بأن كل ما هو إنسانى موجود فى جنس الإنسان^(١).

٨ - المرحلة الرابعة للطبيعة وفق نظرية سكوتوس هى تلك التى لا بد من تخلق ولا تخلق، وهى بذلك خاتمة كل الأشياء: أو الكل فى الكل، فهى الله ذاته. وتمثل هذه القسمة متصلة اللب أو العودة إلى الله، التى تقابل مرحلة الانبثاق الأولى من عند الله، أيضا، فمثلما انبثقت الخليقة من العلل الأولية، فإنها أيضا سوف تعود فى النهاية إلى هذه العلل نفسها، ذلك أن نهاية الحركة هى إيدان أيضا ببدايتها، فهى تتم أو تكتمل على يد علتها التى فيها انبثقت فى الأصل، وظلت تتوق يوما إلى الرجوع إليها كى تحصل على راحتها الأبدية، ينسحب هذا على مجمع الجوانب الحسية وعلى العالم فى كليته. إن نهاية العالم هى كبدايته أيضا، وعند الوصول إلى هذه النهاية أو المتبقى يكف العالم عن الوجود المادى ليتحول فى صيرورة إلى المشاعل العقلية التى انبثقت منها فى الأصل^(٢)، وهذه الضرورة عملية كونية تؤثر على كل الخليقة كما يقول جون سكوتوس، ويبدو هنا تأثير القديس جريجورى من فيضا على فكر سكوتوس، حيث يقول بأن المادة المتحولة وغير الروحية والمركبة من أحداث عرضية هى أقرب ما تكون إلى الشراب فهى هالكة لا محالة^(٣).

(1) 4,8.

(2) 5,3.

(3) 1,34.

ويحاول سكوتوس مراراً وتكراراً أن يلبس عملية الخلق الكونية فى العقيدة المسيحية بمبادئ عقلانية، فالإنسان بعد أن وقع فى الخطيئة الأولى أقيم من سقطته تلك بالخلاص الإلهى عن طريق الكلمة التى تجسدت لحماً ودماً لغذاء العالم، وهنا يؤكد سكوتوس على تضامن البشرية جمعاء فى خطيئة أبيينا آدم وسقطته، ثم فى خلاصه بقيامة المسيح من الموت، إن المسيح يعيد البشر إلى الله وأن كان البشر ليسوا جميعاً متساوين فى هذه العودة بنفس الدرجة؛ لأنه رغم فداء الطبيعة البشرية جمعاء، فإن البعض قد أعيد إلى الحالة الأولى قبل السقوط، فى حين أن البعض الآخر قد رفع إلى ما فوق الطبيعة البشرية، وبالنسبة للمسيح - يقول سكوتوس - فإنه لا أحد سواه له طبيعة بشرية متحدة جوهرياً بالله. (١)

وهكذا فإن جون سكوتوس يؤكد من الصفة الفريدة للتجسد، وعلى علاقة طبيعة المسيح البشرية بالله، وإن كان وهو يشرح مراحل رجوع الطبيعة البشرية إلى الله يجابها بوجهة نظر لا تتسق مع العقيدة الأرثوذكسية، وذلك عنده تقديره للمرحلة التالية^(٢).

١ - مرحلة تحليل الجسد البشرى إلى العناصر المادية الحسية الأربعة.

٢ - مرحلة قيام الجسد.

٣ - تحول الجسد إلى روح.

٤ - عودة الطبيعة البشرية فى كليتها إلى العلة الأولى الأزلية غير المتبدلة.

٥ - عودة الطبيعة والعلة الأولى إلى الله؛ لأن الله سوف يصبح الكل فى الكل ولا يكون موجوداً سوى الله وحده.

(1) S, 25.

(2) S, 8.

عندما نتأمل هذه المراحل قد يشتم فيها ما يخالف اللاهوت الأرثوذكسى ونجاحه فيما يتصل بشخص المسيح، وعند حديثه عن الجسد البشرى، فهو يقول إن هذا الجسد لا يهلك وإنما يرفع أو يصدق، وهو يشرح قصده بمثال الحديد وقت تحوله بفعل النار إلى لهيب أبيض، قائلاً بأنه رغم القول بأن الحديد قد تحول إلى لهب من النار، فإن هذا لا يعنى أن مادة الحديد قد أضيفت وعن مرحلة تحول الجسد إلى روح، يقول سكوتوس إنه بهذا يمجّد الجسد الإنسانى ويعلّو به "روحانياً" ويستشهد فى هذا الخصوص بأراء القديس جريجورى من نيسا وشارحه ماكسيموس، ويضيف على هذا قائلاً بأنه حتى لا يظن أحد أنه قد أغفل اللاهوتين اللاتين، واعتمد فقط على اللاهوتين اليونانيين، فإنه يستشهد أيضاً بأراء، القديس أمبروز ليعزز من حجته.

ويمضى سكوتوس بعد هذا ليقول بأن نهاية السماوات والأرض يعنى رجوعهما إلى العلل الأولية، أما بالنسبة للأرواح فلا يعنى عودتها إلى العلل الأولية أنها سوف تكف عن الوجود، ذلك أن عودة الأرواح إلى الذات الإلهية يشبه نفاذ الضوء فى الهواء، وعندها تتوهم أن الهواء قد تحول أو اختفى من الوجود.

إن سكوتوس وهو يعالج قضية الرجوع الكونى مثلما هو الحال مع قضايا أخرى كثيرة- يحاول الربط بين تعاليم الكتب المقدسة والآباء الكنسيين وبين أفكار الفلسفة الأفلاطونية المحدثّة، وبمعنى آخر فإنه يحاول أن يعبر عن نظرية، الغائية الكونية (wel-tanschauung) من خلال قوابة فلسفية، وفى نظرتة إلى المسيحية فى مجملها فإنه لا يضع خطوطاً واضحة بين اللاهوت والفلسفة، وهذا النهج عقلانى بالضرورة، بغض النظر عما يقوله "سكوتوس" عن أرثوذكسية أفكاره فهو فى حين أنه يصر على أنه الرجعة إلى الله لا تعنى ثلاثى الإنسان الفرد أو استيعابه بالكامل، إلا أنه فى مقام آخر يقول⁽¹⁾ بأن البشر قبل السقوط لم يكونوا مختلفين جنسياً بين ذكر وأنثى، وأنه بعد القيامة سوف يعون إلى هذه الحال السابقة للسقوط، ويدعم ما يذهب إليه بعبارات من القديس بولس، والقديس جيريروى، وماكسيموس.

(1) S. 20.

ومؤدى هذا- عنده- لولا السقوط- بفعل الخطيئة لظل البشر غير متميزين جنسياً، وعلى هذا فإن "الرجوع إلى العلة الأولية فى نهاية المطاف يعنى العودة إلى هذه الحال الأولى من عدم التمايز، عندما يتم التحرر من الأحوال المتردية التى ترتبت على السقوط وقيامه الجسد ثم بفعل الطبيعة كما قال بذلك كل من جويمور، من نيسا، وماكسيموس، والقديس إبيقانيوس^(١)

ومن جانب آخر، من وجهة النظر اللاهوتية نحن نعلم أن قيامة الأموات نعمة ربانية عن سائر البشر، ولكن سكوتوس يخص هذه النعمة لبعض البشر دون غيرهم. وهنا أيضا يتأرجح سكوتوس بين كتابات المفكرين المسيحيين المبكرين وبين الفلسفة.

وخلاصة القول أن سكوتوس، يميل إلى المسار الفلسفى، فى قوله برجعة الطبيعة البشرية إلى علّتها الأولى، حيث يقدر للعودة المصغرة للكون داخل الإنسان أن تحظى بالديمومة إلى أبد الأبد^(٢).

٩ - ولكن لو كانت هذه الصورة المصغرة للكون "الإنسان" ترجع فى نهاية المطاف إلى الله من خلال "رجعة" الطبيعة البشرية ذاتها، حتى يصبح الله الكل فى الكل كما يقول القديس بولس، فكيف يمكن مواجهة العقيدة الأرثوذكسية التى تقول بالعقاب الأزلّى للخطاة؟ إن الكتاب المقدس ينص على أن الملائكة الساقطين والبشر الخطاة سوف يلقون عقاباً أبدياً، فى حين أن بعض المفكرين يقولون بأن الشر لا بد وأن تكون له نهاية تتدحر عندها كل قوته، وذلك عندما يكون الله الكلى فى الكل، ولا يبقى إلا الخير كله الذى هو الله^(٣).

كيف يمكن إذن أن نصالح بين هاتين الرؤيتين دون أن ننحى إحداهما جانباً؟ يجب سكوتوس لهذه المشكلة^(٤) بتقديم الصورة التالية: إن كل ما يضعه الله هو

(1) 5, 23.

(2) S, 25.

(3) S, 26-27.

(4) S, 27-28.

بالضرورة خير، وعليه فإن الطبيعة الأولى للأشجار من البشر وحتى للشياطين أنفسهم كانت طبيعية في البداية وفي نهاية المطاف عندما تقود كل الخليقة إلى الخالق، وتستوعب كل طبيعة في الذات الإلهية سوف تنتهي كل الشرور وممالكها؛ لأنه ليس من المعقول أن نظن بأن الذات الإلهية سوف تستوعب هذه الشرور، ولكن كيف لنا أن نفسر ما ورد في الكتاب المقدس عن القصاص والعقاب الأبدى يوم الدينونة؟

يرد سكوتوس على هذا بقوله إن هذا العقاب ليس عقاباً بدنياً أو حسياً، كما أن هذا العقاب لا ينصب إلا على الأشياء التي ليست من صنع الله، أي الأشياء الخارجة عن الطبيعة، أن الله لم يصنع نزعة الشر عند الشياطين أو الأشجار من البشر، وعليه فإن العقاب سوف ينصب تحديداً على هذه النزعة، وليس على "الطبيعة" البشرية.

وهنا يبرز تساؤل آخر: إذا كانت كل الأمور ترجع إلى الله في النهاية، فهل يمكن تصور أن تحتوى الذات الإلهية هذا العقاب "ولو نزعة الشر"؟ كذلك لو أن الشر قد اختفى تماماً ومنه كل ضروب العقوق، فما الذي يتبقى لكي يحل به القصاص الوارد في الكتاب المقدس؟.

يجيبنا سكوتوس على هذا التساؤل أن القصاص معناه هنا أن تعمل الإرادة الإلهية على إيقاف نزوع الإرادة البشرية إلى الأبد نحو الصور القديمة العاقلة في الذاكرة للذات وشهوات الأرض والعالم، وعندما يصبح الله الكل في الكل، ينتهي سلطان الشر وتبيد النزعة إلى الشرور.

من الواضح أن جون سكوتوس يحاول بشرحه هذه أن يلبس التعاليم المسيحية ثوباً من الفلسفة العقلانية بحيث تتساوى مع منظومته الفكرية، ولكن أفكاره عن "الأشجار" و"القصاص" لا تتفق مع وجهة النظر الأرثوذكسية، إن الرأي عنده أن الطبيعة البشرية برمتها، وكل البشر بدون استثناء، بل والشياطين أيضاً سوف يبعثون يوم القيام في أجساد روحانية، وقد ازدانوا بالخير الذي جبلوا عليه في الأصل، وإن كان المختارون فقط هم الذين سوف ينعمون بمقارنة، التمجيد السماوي⁽¹⁾.

(1) 3, 36.

إن ما يريد جون سكوتوس أن يصل إليه هو أن الطبيعة الإلهية هي "المأب" لكل الأمور؛ إذ لا بد لكل العلل الأولية الأزلية أن تؤوب إليها وتسكن فيها، بعد أن تسقط عنها صفة المخلوقات وعندها يصبح الله "الكل في الكل" ويتوارى كل شيء آخر ليتجلى الله وحده، مثلما تتوارى النجوم عندما تشرق الشمس^(١).

١٠ - رغم أن كتاب "أقسام الطبيعة"، لجون سكوتوس بما يحويه من منظومة ميتافيزيقية، لم يلق ما يستحقه من تقدير، فإن الكثيرين من كتاب المصور الوسطى قد ألفوا منه، ومن بينهم على سبيل المثال لا الحصر، ريمجيوس من أوكزير، وأما لوك "غوري" من بيني Bene وبرنجاريوس، وأسلم من لاوون، ووليم من مالبيزيري، الذي امتدح هذا الكتاب، وإن كان قد أخذ على سكوتوس تفضيله للكتاب اليوناني على الكتاب اللاتيني، ثم هونوريوس من أوتون، وأفسينا المنحول الذي اقتبس من كتاب سكوتوس بعض الأفكار وذلك في أطروحته بعنوان "أهل المعرفة" De intelligentis الذي ظهر في أواخر القرن الثاني عشر.

هذا وعندما راحت جماعة "الأطهار" "الألبيجنزيين" في الجنوب الفرنسي تجادل رجالات الكنيسة الكاثوليكية بحجج استقوها من كتاب سكوتوس وبعد أن استخدم "أما لوك" من بيني "نهاية القرن الثاني عشر" أفكار سكوتوس أيضا في طرح نظريته عن "وحدة الوجود" قام الباب هونوريوس الثالث بإصدار قرار بالإدانة ضد كتاب سكوتوس هذا في سنة ١٢٥٥م، كما أمر بإحرقه، وإن كان هذا لم يدخل حيز التنفيذ.

إن هذه الإدانة البابوية لكتاب، "أقسام الطبيعة"، وكذا التأويلات التي أدت إلى هذه الإدانة تطرح علينا التساؤل عما إذا كان سكوتوس قد نادى بوحدة الوجود أم لا.

(1) 3, 23.

فى تقديرنا أن جون سكوتوس، رغم كل ما يقال، كان سليم القصد والنية، ولا غبار على أرثوذكسيته، ولكن هناك عدة ملاحظات لابد من الوقوف عندها بإيجاز فى هذا الأمر.

فى مقدمة هذه الملاحظات أن سكوتوس قد اعتمد كثيراً فى طريقه على كتابات وأفكار المفكرين كان هو مؤمناً من قوامة إيمانهم، كما أنه كان يعتقد أن آراءه متناغمة، مع ما قال به هؤلاء المفكرين، فهو -على سبيل المثال- ينهل الشيء الكثير من أفكار القديس جريجورى من نيسا، ومن ديونيسيوس المنحول "الذى ظنه القديس ديونيسيوس الاريوباغى" ومن القديس أغسطينوس، ومن القديس امبروز "أسقف ميلان الشهير" كى لا يقال عنه إنه قد أغفل كتابات المفكرين اللاتين.

يضاف إلى ذلك أنه قد اعتقد بأن أفكاره مبنية أساساً على ما ورد فى أسفار الكتاب المقدس؛ فهو -على سبيل المثال- فى نظريته عن المرحلة الرابعة للطبيعة "الله هو الكل فى الكل" إنما يردد كلماته القديس بولس نفسه⁽¹⁾ فى قوله: ومتى أخضع له الكل، فحينئذ الابن نفسه أيضاً سيخضع للذى أخضع له الكل كى يكون الله الكل فى الكل، فى حين أن قوله بأن الجسد سوف يصبح روحانيا يوم القيامة، يعتمد على ما قاله القديس بولس أيضاً بأن الجسد قد زرع بالفساد وأقيم فى فساد أشياء، وأن الجسد المقام من الأموات جسد روحانى، كذلك اعتمد سكوتوس على الإصحاح الأول من إنجيل يوحنا عن الكلمة - Logos - التى بها صنع كل شيء وذلك عند شرحه لقصة الخلق، كما اعتمد سكوتوس كذلك على الآباء الباكريين فى فكرة الصفوة، من المؤمنين المختارين فى أحضان القديسين فى ملكوت السموات.

ومع تسليمنا بأن سكوتوس كان يكتب انطلاقاً من شعار الكتاب المقدس وتراث الآباء، فإنه يمكن القول أيضاً إنه كان يحاول عن وعى للاجتهاد العقلانى فى شروحه

(1) Cor. IS, 28.

انص الكتاب المقدس؟ أليس هو الذى يقول^(١) إن المصادر تكتسب المصادقية من خلال أعمال العقل وليس العكس، وإن كل مصور يصدق عليه العقل الواعى يبقى مصدراً ضعيفاً، وإن العقل الحقيقى لا يحتاج إلى تثنية عليه من واقع نصوص المصادر، وإن المصدر ما هو إلا ما توصل إليه العقل من حقائق نقل عنها الآباء لخدمة الأجيال اللاحقة؟ ألا يشير هذا كله إلى أن سكوتوس لم يقم وزناً كبيراً للمصدر "النص" إن سكوتوس عندما يشير إلى المصدر هنا، فإنه لا يقصد أسفار الكتاب المقدس، وإنما إلى تعاليم الآباء وتأويلاتهم لهذا الأسفار، ومع أن سكوتوس محق فى ضرورة تحكم العقل عند تناول المصدر "النص" بمعنى أن يتوافر للمصدر مسوغات لمصادقته، فإن عبارته القائلة بأن المصدر لا يصبح ذا مصادقية إلا إذا كان يعبر عن الحقيقة التى يقبلها العقل، ثم ينقلها الآباء إلى الأجيال اللاحقة، قد قولت بالاستهجان من جانب النوائر الكنسية.

إن سكوتوس عندما يتحدث- على سبيل المثال- عن الثالث المقدس، فإنه يشرح لنا أن محاولات تفسير هذه العقيدة وتطور التفسيرات على يد الآباء المتعاقبين إنْ هى إلا محاولات لتحكيم عقولهم للتفهم، ولكن ما يقولون به من اجتهادات لا يمثل بحال نهاية الأقوال وينسحب هذا الحكم على القديس أغسطينوس نفسه، رغم تقدير سكوتوس الشديد له، بمعنى أنه لا ينبغى أن تؤخذ آراء أغسطينوس على أنها فى نفس المصاف مع ما ورد فى الكتاب المقدس، ولكن ينبغى أن نحترم اجتهاده العقلى، وعليه فإن سكوتوس يحد موقفه فى الآتى: إذا كان القديس بولس يقول إن الله يصبح "الكل فى الكل" فهذه إذن حقيقة واردة فى الرسالة السماوية، ولكن عندما نحاول أن نفهم ما يقصده القديس بولس بهذه العبارة، فإننا لابد وأن نحكم عقولنا فى الأمر.

وسواء أكانت وجهة نظر سكوتوس مقبولة عند اللاهوتيين أم لا، فإنه فى جميع الأحوال لا يشك فى العقيدة أو ينتكر لها، وإنما هو يطالب بحق الفكر فى أن يعمل

(١) 69.

عقله ويجتهد فى تلويحاته، إن ما يتطلع إليه وهو يشير إلى أسفار الكتاب المقدس ألا يخرس لسانه، بل إنه يجتهد فى تفسير مضمون هذه الأسفار تفسيراً عقلانياً، أو -كما نقول- فلسفياً. والواقع أن سكوتوس لا يضع حداً فاصلاً واضحاً بين اللاهوت والفلسفة، كما أن منظومته الفكرية تقوم أساساً على أركان الحكمة المسيحية بمعنى الحقائق التى لا يستطيع العقل وحده اكتشافها مثل الأمانيم الثلاثة، وهو فى هذا كله يطرق أبواب الفلسفة فى محاولة للكشف عن هذه الحكمة ككل عضوى متلاحم، نون وضع حدود بين ما هو فلسفى وما هو وحى الرسالة الدينية، وإن كان كلامه يشى بأعمال تشط بملكته العقلية.

ونحن من جانبنا لسنا نحاول هنا الدفاع عن محاولة جون سكوتوس فى الاجتهاد العقلى، وإنما نود أن نبين معالم هذا الاجتهاد العقلى، ومن ثم فإنه من الخطأ أن نفسر هذه المحاولة العقلانية بأنها قد جاءت فى أعقاب الفصل بين مجالى الفلسفة واللاهوت؛ ذلك لأن موقف سكوتوس لم يختلف فى جوهره عن مواقف اللاهوتيين اللاحقين، الذين حاولوا تثبيت فكرة الثالوث على أسس الضرورة العلية *rationibus necessariis* ولو أن سكوتوس كان فيلسوفاً عن وعى منه وبالمعنى الضيق للكلمة، لكننا أطلقنا عليه صفة "العقلانى" بملوها الحديث، ولكن الرجل كان يجمع بين اللاهوت والفلسفة فى ماعون واحد "وقد يكون هذا الجمع نوعاً من الخلط أيضاً" وعليه فإن عقلانية سكوتوس كانت من الناحية السيكلوجية متسقة مع إيمانه العقائدى، وهو يعلن صراحة⁽¹⁾ أنه لا يود أن يترك انطباعاً بأنه مناهض لأقوال الرسول بولس أو الشهادة الثقات من الآباء القديسين، وهو يقصد ما يقوله بحق: ليس من حقنا أن نحكم على آراء الآباء المقدسين، وإنما ينبغى علينا أن نتقبل هذه الآراء بكل تقدير وتبجيل، وإلا كان هذا لا يمنعا من أن نختار من هذه الآباء ما يجده العقل متوافقاً مع كلام الله⁽²⁾.

(1) 1,7.

(2) 1,16.

إن سكوتوس-على سبيل المثال- يقبل عقيدة القصاص الأبدي؛ لأنها قد وردت في الرسالة السماوية، ولكنه في نفس الوقت لا يجد غضاضة في محاولة شرح هذه العقيدة بطريقة تنسجم مع منظومته الفكرية، التي يقول بأنها تقوم أيضا على ما ورد في نفس الرسالة السماوية، فالتعاليم المسيحية تقول إن الله قد خلق العالم من العدم، فبينما يقول سكوتوس إن الخلاق لابد وأن ترجع إلى خالقها ليصبح الله "الكل في الكل" ويحاول سكوتوس جاهداً المصالحة بين هاتين العقيدتين بطريقة عقلانية تنفى عنه شبهة الإيمان، بوحدة الوجود من ناحية، ومن ناحية أخرى لا تناقص بمادة القديس بولس موضع النقاش، وهذا المسعى للمصالحة يتضمن ما أطلق عليه أتباع القديس توما الإكويني فيما بعد عقلنة النصوص المقدسة؟ فهو- على سبيل المثال- يرى في عودة الخلاق إلى الله عودة إلى "الحال الأفضل" بدلا من العودة إلى القديمة، وهذه العبارات لم تأت على لسان سكوتوس من باب الرخاء أحد، وإنما هي تعبير مخلص عما يراه - سواء من صواب أو خطأ- متساوفاً مع التعاليم البيئية المسيحية.

مما لا شك فيه أن هناك شعوراً بالتوتر والقلق في مفردات منظومة سكوتوس التي يستيقها جنباً من المبادئ المسيحية وحيناً أخرى من الأفلاطونية المحدثة. وعندما نعود لنؤكد على هذه النتيجة، فإنما لكي نبين أثر هذا التوتر على محاولته العقلانية في تأويل النصوص والمصادر اللاهوتية فطبقاً للتقليد الأفلاطوني المحدث الذي ورثه عن ديونيسيوس المنحول نجده ينادي بأن الله في ذاته هو الطبيعة التي تخلق، ولكنها غير مخلوقة بمعنى والله الكامل في ذاته، والسر في ذاته؛ لأنه الجوهر الأعلى المتعالى اللامحدود، والذي تتمجد ذاته في صنائعه التي تتجلى في خلقه، وهذه الفكرة من نبع الأفلاطونيين المحدثين في حديثهم عن الربوبية الواحدة التي لا يدركها العقل البشري، والتي تنتزه أيضاً عن الوعي الذاتي؛ لأن الوعي ينطوي على ثنائية من ذات وموضوع. إن القول بأن الله لا تدركه عقول البشر يمثل قاعدة من قواعد التعاليم المسيحية، ولكن فكرة عدم الوعي بالذات ليست من المسيحية في شيء.

كان سكوتوس حريصاً على مصالحة هذين الطرفين المتناقضين "المسيحية والأفلاطونية المحدثّة" في قوله: إن التجلي الإلهي الأول، وهو انبثاق الكلمة من عند الله محملة بالعلل الأولية، ومن خلال هذه الكلمة يظهر الله ذاته لذاته من الأزل، والكلمة هنا ترادف "العقل" عند الأفلاطونيين المحدثين، ومن ثم جاءت محاولة سكوتوس للمصالحة بين المسيحية والأفلاطونية المحدثّة، إن رغبة سكوتوس في الحفاظ على التعاليم المسيحية رغبة صادقة، ولكن التوتر بين العنصرين المسيحي والأفلاطوني المحدث واضح وجلي في أكثر من موقع.

كذلك لو أننا أخذنا بضع عبارات بعينها من كتابات سكوتوس، في عزلة عن سياقها العام، فإنها تقودنا إلى القول بأنه كان ينادي بوحدة الوجود، بينما تشي بعض العبارات الأخرى بأنه كان يؤمن بوجدانية الله، فهو يقول بأن التمييز من المرحلتين الثانية والثالثة، في أقسام الطبيعة يرجع إلى معرفته بطبيعة العقل البشري⁽¹⁾.

والحق أن الكثيرين يعتقدون أن سكوتوس كان يؤمن بوحدة الوجود، وأنه كان يغلّف أراءه ببعض العبارات ذات المذاق الأرثوذكسي لاسترضاء أهل اللاهوت، وفي جميع الأحوال فما من شك أن سكوتوس كان يحاول المصالحة بين التعاليم المسيحية، والأفلاطونية المحدثّة السائدة في عصره، ورغم التوتر الذي يشوب هذه المحاولة الوعرة، فإن محاولة المصالحة قد أفلحت إلى حد بعيد في تقديرنا.

وخلاصة القول أن بعض عبارات سكوتوس - لو أخذت في عزلة عن سياقها العام- تفصح عن تعاليم بوحدة الوجود، كما أن البعض الآخر لا يتسق مع التعاليم الأرثوذكسية، خاصة فيما يتصل بقضايا من قبيل "القصاص" وغيرها مما سبق لنا الوقوف عنده.

لقد أقدمت السلطات الكنسية على إدانة كتاب "أقسام الطبيعة" وسواء أكان المفكر سكوتوس صاحب هذا الكتاب أرثوذكسيا أم لم يمكن، فإن كتابه يتم عن عقل تومي حاد لفكر وفيلسوف يقف شامخاً بهامته فوق جميع المفكرين في عصره.

(1) 2,2.

الباب الثالث

القرون العاشر والحادي عشر
والثاني عشر

الفصل الرابع عشر

الموقف بعد وفاة شرلمان - أصول الجدل حول نصوص
فررفوريوس وبوئثيوس - أهمية القضية - الغلو في الواقعة
الاسمية عند روسلين - موقف القديس بطرس داميان
الديالكتيك - وليم من شامبو - أبيلارد - جلبرت دي لابورتيه
وجون من سالزبوري - هيو من سان فكتور
القديس توما الإكويني

١ - كان من المأمول أن حركة إحياء الآداب والتعليم التي استنها شرلمان سوف
تؤتى أكلها وتؤدي إلى ازدهار تدريجي في مجال الفلسفة "بعد أن تم الحفاظ على
ما كان قائما من فروع المعرفة آنذاك" وإلى تمكين المفكرين من توسيع مدارك المعرفة
والاستمرار في متابعة درب من التفكير الأصيل، خاصة وأن الغرب الأوروبي كان قد
نعم بنموذج فريد من الفكر الفلسفي ومنظومته في شخص جون سكوتوس إيوجينا
ولكن الشيء المؤسف أن الأمور لم تسر كما كان متوقعا؛ ذلك لأن عوامل تاريخية بعيدة
عن أطر العلم والفلسفة قد أغرقت إمبراطورية شرلمان في حقبة من الظلام في القرن
العاشر، مبددة بذلك الحلم الكارولنجي الواعد بنهضة ثقافية.

لقد كان التطور الثقافي المأمول يعتمد إلى حد كبير على نظام حكم مركزي
مصون، اتضحت معالمة في عصر شرلمان، ولكن بعد وفاته تمزقت الإمبراطورية إلى
أشلاء على يد خلفائه، وأخذ نظام الإقطاع يضرب بجذوره في كل الأركان، مما أدى
في النهاية إلى تفكك الحكم المركزي إلى لا مركزية إقطاعية، ولما كانت شريحة النبلاء
في الإمبراطورية تتلقى الهبات الملكية في صورة إقطاعات من الأرض، فلقد أدى هذا
إلى انسلاخ هؤلاء النبلاء عن سلطان التاج الملكي بمرور الوقت؛ لأن مصالح الطرفين

باتت محل شد وجذب كما أن كبار رجال الدين قد أصبحوا بنورهم سادة إقطاعيين أما حياة الأديرة فقد أصيبت بتدهور شديدة؛ إذ صار فى الإمكان تعيين رؤساء للأديرة من بين العلمانيين، كما أصبح منح شرف الأسقفية هبة ملكية لمن يعلمون فى خدمة الأمير. وإما البابوية، التى كان يؤمل أن تتدخل لتقويم الأحوال المتدهورة فى فرنسا، فقد قدمت إلى أحط درجاتها روحيا وأخلاقيا، وينسحب نفس الحال على المؤسسات التربوية والتعليمية التى كانت تحت إشراف الرهبان ورجال الكهنوت الآخرين، لقد كان تحطم بنیان شرلمان الإمبراطورى كارثة، عظمى بالنسبة للعلم والتعليم.

ولم تبدأ محاولات الإصلاح حتى قيام ديركلونى سنة ٩١٠م، وإن كانت نتائج هذه الحركة الديرية الثقافية لم تظهر إلا بعد مرور بعض الوقت ويذكر أن القديس دنستان، وهو من أبناء ديرغنت Ghent الكلونى هو الذى أدخل المثل الثقافية الكلونى إلى إنجلترا.

وبالإضافة إلى العوامل الداخلية التى حالت دون استمرار النهضة الكارولنجية فى التقدم والاطراد "والمتمثلة فى تفكك الإمبراطورية مما أدى إلى انتقال التاج الإمبراطورى من فرنسا إلى ألمانيا فى القرن العاشر، وتدهور أحوال الحياة الديرانية والكنسية، ثم تدنى البابوية إلى الضياع" وكانت هناك عوامل خارجية تمثلت فى الغزوات النورماندية فى القرنين التاسع والعاشر، التى دمرت مركز الثورة والثقافة وعاقبت نمو الحضارة، إلى جانب هجمات شرقية أبرزها الزحف المغولى، إن هذه العوامل الداخلية والخارجية جعلت من المستحيل ازدهار الجوانب الثقافية فى الغرب الأوروبى وعليه فلقد كان معظم ما يمكن عمله إزاء هذه الأحوال المتدهورة هو محاولة الحفاظ على ما هو قائم بالفعل وحفظه من الاندثار، أما التقوى الفكرى والفلسفى فقد صار مرهونا بالمستقبل وظروفه المجهولة، وبالنسبة للفلسفة فإن ما كان قائما آنذاك فى الغرب الأوروبى قد انحصر فى مشكلة "الكليات" التى اتخذت من نصوص كتابات فرغوريوس ويونثيوس نقطة الانطلاق.

٢ -يسوق بوثيوس فى تعليقه على كتاب "إيزاجوجى" لفورفيوريوس^(١) عبارة للكاتب يرفض فيها أن يقر إن كان الجنس والنوع كيانين قائمين ولهما وجود، أم أنهما مجرد مفاهيم عقلية فقط، وهل هما فى صورة مادية أم غير مادية، ثم هل هما منفصلان عن الأشياء، المحسوسة أم غير منفصلين ويبرر فرفيوس رفضه الإجابة متعللاً، بأن مثل هذه الأمور الدقيقة لا يمكن معالجتها فى مقدمة لأحد أعماله.

أما بوثيوس فإنه يتصدى لمعالجة هذه القضية رغم اعترافه بصعوبتها وبضرورة الحذر عند معالجتها، مبيناً، أن هناك طريقتين لشرح كيف أن فكرة قد تقوم دون أن يكون لمحتواها وجود خارج العقل فى أشياء محسوسة متطابقة تماماً مع هذه الفكرة؛ فعلى سبيل المثال فى إمكاننا أن نجمع بطريقة قريبة بين الإنسان والحصان لتكوين فكرة عن كائن نصفه رجل والنصف الآخر حصان، وهو آخر لا وجود له فى الطبيعة.

إن مثل هذه الأفكار التعسفية أفكار زائفة وخالية من الصدق، ولكنها أفكار على أية حال، ومن ناحية أخرى، لو أننا بلورنا فكرة عن خط بيانى، مجرد خط كما يصوره عالم الهندسة، فإنه رغم أنه لا يوجد فى الواقع خط قائم بذاته، فإن الفكرة ذاتها ليست زيفاً على الإطلاق؛ لأن كل الأجسام تتضمن خطوطاً فى تكوينها، وكل ما فعلناه هو أننا قمنا بفصل الخط ونظرنا إليه فى حال من التجريد إن التركيب "مثلاً هى الحال فى تركيب حصان من رجل لتكوين كائن خرافى" ينتج أفكاراً خاطئة، فى حين أن التجريد يولد أفكاراً صائبة، ورغم أن الشيء المدرك عقلياً ليس له وجود خارج العقل فى حال من التجريد أو الفصل.

إن الصورة عن الجنس والنوع من الأفكار التجريدية، فنحن على سبيل المثال نستخلص صورة الإنسانية من واقع الإنسان الفرد، وهذه الفكرة عن النوع الإنسانى هى من أعمال العقل، فى حين أن الفكرة عن الجنس تتكون بالنظر إلى الشبه بين أنواع

(1) Ph. 64, Lol, 82-6.

متعددة من نفس الجنس، وعليه فإن الجنس والنوع متضمانان في الأفراد، ولكنهما كفكرة موجودتان في "الكليات" وهذه متواجدات في الأشياء المحسوسة، ولكنهما يدركان بدون أجساد، وخارج نطاق العقل، هناك موضوع واحد فقط لكل من الجنس والنوع، ألا وهو الفرد، ولكن هذا لا يمنع اعتبارهما منفصلين مثلما نفعل مع الخط الهندسى، الذى يمكن أن يكون محدباً أو مقعراً، فى حين أن كلا من هذا وذاك له دلالة مختلفة.

بهذا الطرح يكون "بوئتيوس" قد قدم المادة لحل المشكلة بطريقة أرسطية، مع أنه يستطرد ليقول بأنه شخص لا يعقد مقارنة بين أفلاطون وأرسطو، وإنما يتبنى فى هذا المقام آراء أرسطو فى معالجة قضية "المقولات" ومع أن بوئتيوس بهذا قد قدم مادة تصلح لحل قضية الكليات على أسس من الواقعية المعتدلة، ورغم أن العبارات التى اقتبسها عن فريريوسس وتعليقاته عليها قد حفزت الجدل حول هذه المشكلة فى العصور الوسطى إلا أن الطول التى أدلى بها هؤلاء المفكرون لم تكن متساوية مع الخطوط التى بوئتيوس، وإنما جاءت فى تبسيط مغل من الواقعية المتطرفة.

٣ - قد يقول قائل إن انشغال مفكرى العصور الوسطى المبكرين بقضية الكليات والجزئيات كان مضيقاً للوقت، أو أنهم قد شغلوا أنفسهم بديالكتيك عقيم لا جدوى منه، ولكن النظرة المتأنية للأمر كفيلة بأن تبين أهمية هذه القضية، على الأقل فى انعكاساتها وأثارها على المناخ الفكرى السائد فى أوروبا وقت ذاك.

إن ما نشاهده أو نلمسه فى حياتنا اليومية من أشياء له مربود فكرى وعقلى نعتبر عنه بالكلمات، كقولنا مثلاً: هذه الشجرة التى أراها هى شجرة، وعلى وجه التحديد شجرة النردار، أن هذا الحكم على هذا الشيء ينطوى على شقين هامين هما الجنس والنوع، وغنى عن البيان أن هناك أشياء أخرى كثيرة بخلاف هذا الشيء المرئى "الشجرة" تنطبق عليها نفس الأحكام، وبمعنى آخر فإن الأشياء الكائنة خارج نطاق العقل هى من الجزئيات، فى حين أن المفاهيم التى نبلورها من هذه الأشياء فى عموميتها من الكليات؛ أى إنها تتسحب دون تفرقة على عدد وافر من هذه الجزئيات، وهكذا تتضح أهمية البحث فى العلاقة بين الكليات والجزئيات.

ولو صُح أن الأشياء التى بها كيان أو وجود هى من الجزئيات، وأن المفاهيم ليس لها أساس حقيقى خارج نطاق العقل؛ لأنها مجرد أخطار فإن شقاقاً خطيراً يقع بين الفكرة من جانب وبين الأشياء من جانب آخر، ومن ثم تصبح معرفتنا، وأفكارنا العقلية موضع الشك من حيث ثباتها ومصداقيتها فى أقل تقدير وهنا ينبغى ملاحظة أن العالم عندما يعبر عن معلومة ما فإنه يعبر عنها بطريقة، مجردة وكلية "من قبيل الحديث عن الإلكترونات فى كليتها وليس عن كل إلكترون على هذه ولو أن هذه المعلومات المجردة ليس لها ما يقابلها فى عالم الواقع، فإن مثل هذا العلم يصبح مفارقاً لواقع الأمور، وعليه إذا كانت أحكامنا كلية الطابع، فإنها تتسحب على المعرفة الإنسانية كلها "مثل حديثنا عن الورد الأحمر فى مختلف بقاع الأرض، أما إذا لم يكن لهذه المفاهيم الكلية ما يقابلها على أرض الواقع من أشياء ملموسة، فإن هذا سوف يؤدى إلى حال من البلبلة والشك.

إن هذه المشكلة قابلة للطرح بعدة طرق، وقد تم طرحها بالفعل فى صيغ مختلفة فى حقب تاريخية متعاقبة، ويمكن طرح القضية أيضاً على المنوال التالى ما الذى يجرى لو أن الواقع خارج نطاق العقل تطابق فعلاً مع المفاهيم العقلية عن الكليات؟ ويمكن أن نطلق على هذه الفرضية مصطلح المفارقة الأنطولوجية، وهى الصيغة التى كان مفكرو العصور المبكرة يتنافسون من خلالها كذلك يمكن للمرء أن يتساءل عن الكيفية التى تتكون بها مفاهيم الكليات وهذا هو الطرح السيكلوجى للقضية، ورغم الخلاف بين الطرحين الأنطولوجى والسيكلوجى للقضية ورغم الخلاف بين الطرحين الأنطولوجى والسيكلوجى فى التأكيد على نقطة بعينها، فإن الطرحين متوازنان، لأنه لا يمكن الإجابة عن الجانب الأنطولوجى قضية ما دون معالجة الجانب السيكلوجى فى نفس الوقت. وأيضاً لو أننا افترضنا أن مفاهيم الكليات هى مجرد تراكيب فكرية فمن حقنا أن نتساءل كيف أصبح حال المعرفة العلمية ذات الطبيعة العملية الخفية.

وفى جميع الأحوال فبصرف النظر عن الصيغة التى تثار بها قضية الكليات والجزئيات، فإنها تظل قضية أساسية أما اتهام مفكرى العصور الوسطى بأنهم قد شغلوا أنفسهم فى مناقشات تافهة، فإن ذلك يرجع إلى أنهم قد حصروا مجادلاتهم فى قضية واحدة حول الجنس والنوع من خلال مقولة واحدة، ولو أن قضية الكليات الجزئيات قد طرحت على نطاق أوسع من المقولات الأخرى، لتمكن المفكرون من إبراز أبعاد أرحب من المعرفة الإنسانية.

وواقع الأمر أن هذه المشكلة فى النهاية هى مشكلة معرفية "إبستمولوجية" من حيث صلة الفكر بالواقع.

٤ - إن الحلول الأولى التى قدمها مفكرو العصور الوسطى لقضية الجنس والنوع هى المعرفة بالواقعية المسرفة وتُعد هذه الحلول مبكرة من الناحية الزمنية حتى إنمعارضيهما يعرفون باسم "المحدثين" (*moderni*) فى حين أن فيلسوفاً مثل بطرس أبلارد يشير إليها على أنها المبادئ العتيقة *antique doctina* وطبقاً لهذه الطول فإن المفاهيم عن الجنس والنوع تتطابق مع واقع قائم خارج العقل فى شكل أشياء حقيقية واقعية فى شراكة تجمع كل أفراد هذا الجنس أو ذاك النوع وعليه مفهوم الإنسان، أو "الإنسانية" يعكس دلالة واقعية هى جوهر الطبيعة الإنسانية الملموسة خارج نطاق العقل بنفس الطريقة التى يصورها العقل عنها، بمعنى الجوهر الواحد الذى يشترك فيه البشر جميعاً.

وإذا كان مفهوم "الإنسان" عند أفلاطون هو المثل الأعلى للطبيعة الإنسانية فى معزل عن الإنسان الفرد "أو الجزء" ذاك المثل الذى يحاول بنو البشر الاقتداء به بدرجات متفاوتة، فإن مفكرى العصور الوسطى الواقعيين، قد ظنوا بأن مفهوم أفلاطون إنما يعكس جوهرًا واحدًا قائمًا خارج العقل، يشترك فيه البشر جميعاً ويعبرون عنه بطرائق مختلفة فى مسلكتهم، ولكن هذا الاعتقاد يشى بسوء فهم مضلل لما قاله بوئتيوس حول هذه المسألة؛ لأنه يفترض أنه ما لم يوجد للمفهوم العقلى ما يقابله من أشياء خارج نطاق العقل فى تماثل أو تطابق، فإن مثل هذا المفهوم يصبح مفهومًا

ذاتياً، وبمعنى آخر، فإن هؤلاء، المفكرين، الواقعيين، لا يرون سبيلاً للحفاظ على الموضوعية في معلوماتنا إلا بالتسليم بوجود تماثل بين الفكر والأشياء المحسوسة الناجمة عن هذا الفكر في حياتنا اليومية في هذا العالم.

ونجد هذه الأفكار الواقعية المذهب في كتابات فريدريش هيجل الذي خلف العالم الكوين كرئيس لدير القديس مارتن في مدينة تور، والذي نادى بأن كل اسم أو مصطلح نصل إليه وجود يطابقه في واقع قائم وإيجابى مثلما هي الحال عند كلامنا نقلاً عن "الظلام" أو "الفراغ" ونجد نفس الأفكار عند جون سكوتوس إريوجينا، وفي بعض العبارات للمفكر ريميجيوس من أوكزير (٨٤١-٩٠٨م تقريباً) الذي اعتقد بأن النوع جزء من جوهر الجنس، وإن النوع الإنساني على سبيل المثال هو وحدة من الجوهر الكلي الذي يشترك فيه كل الأفراد من جنس بنى الإنسان. لو أننا أخذنا هذه العبارات على عواقبها، فإن التنمية تكون أن الاختلاف بين أفراد البشر إنما هو اختلاف عرضي؛ لأن المهم في النهاية— أن هذه التعددية المختلفة يجمعها تصور واحد في نهاية الأمر.

أما المفكر أودو بي تورناي ت ١١١٣م، وهو من مدرسة تورناي الكاتدرائية ويعرف أيضاً باسم أودو دي كمبراي نوبة أصبح أسقفاً لمدينة كمبراي في وقت لاحق، فإنه لم يتردد في القول بأن الطفل عندما يولد يدبر له الله سمة خاصة من جوهر موجود سلفاً، وليس من جوهر جديد، وواضح أن مثل هذا الشطط لابد وأن يقودنا إلى القول بالأجدية، أي بوجود مبدأ نمائى واحد للجوهر والوجود جميعاً، وتعنى هذه الواقعية المتطرفة أيضاً أن كل الأشياء، إن هي إلا تحورات لجوهر واحد، أو أنها صور معدلة لكائن واحد، وكان جون سكوتوس إريوجينا قد أفاض في هذه الفكرة التي تسمى بالواحدية.

وكما لاحظ الأستاذ جليسون وبعض الدارسين الآخرين، فإن المفكرين الذين نادوا بهذه الواقعية المسرفة في أوائل العصور الوسطى كانوا من المناطق المتفلسفين، الذين اعتقدوا أن المنطق وواقع الأمور متطابقان تماماً، فعلى سبيل المثال— عند هؤلاء— عندما نقول "أفلاطون إنسان" و "أرسطو إنسان" فإن هذا يعنى وجود جوهر مشترك ما بين أفلاطون وأرسطو يجمعهما معاً.

ومن الواضح أن هؤلاء المفكرين الواقعيين الغلاة لم يكونوا واقعين تحت تأثير المنطق فقط، وإنما وبدرجة كبيرة تحت تأثير اللاهوت.

ويتضح هذا جلياً - في كتابات أودو دي تورناي الذي استخدم هذه الواقعية المسرفة كي يشرح انتقال الخطيئة الأولى "لآدم وحواء" إلى بنى آدم أجمعين وإذا كان لنا أن نفهم من هذا الطرح أن الروح الإنسانية قد تلوّثت بهذه الخطيئة فإننا نجد أنفسنا أمام مشكلة خطيرة، فإما أن نقول بأن الله يخلق من العدم جوهرًا إنسانياً جديداً لكل مولود ولكنه محمل بإثم الخطيئة الأولى، وإما أن نقول بأن خلق الروح يتم على المستوى الفردي وليس الجماعي للبشر كافة وذلك ما ينادى به أودو دي تورناي وهو انتقال روح أبينا آدم الملوثة بالخطيئة الأولى إلى الأجيال اللاحقة وبأن الله يسمح بسمات جديدة لجوهر قائم سلفاً.

وواقع الأمر أنه ليس من السهل أبداً أن نستخلص دلالات محددة المعالم من العبارات التي كان يستخدمها مفكرو العصور الوسطى المبكرة، ومن ثم فإنه يصعب أن نقرر إذا ما كان هؤلاء الكتاب مدرّكين لدلالات كلماتهم، أم أنهم كانوا يوبون تأكيداً نقطة بعينها في موضوع حولى، ومن ثم لا يمكن الأخذ بكلماتهم بمعناها الحرفي فحينما يعلق كاتب مثل روسلين مثلاً، إن أقانيم الثالوث ثلاثة آلهة ليؤكد على تفرد كل من الأقانيم الثلاثة "الأب والابن والروح والقدس" يرد عليه القديس أنسلم (١٠٣٣-١١٠٩م) قائلاً: إن الذى لا يتفهم أن الجوهر الإنسانى واحد رغم تنوع بنى البشر، فإنه يستحيل عليه أن يتفهم أن الأقانيم الثلاثة، وكل منها آله كامل، يكونون إلهاً واحداً^(١)، وبسبب هذه العبارة وصف القديس أنسلم بأنه "واقعى" مبالغ ولكي التفسير المعقول لهذه العبارة إنما يتأتى من مساحة اللاهوت التى يقول بموحد واحد للربوبية، وجوهر واحد أيضاً لبنى البشر، ولربما أن القديس أنسلم كان يشير فى رده إلى جوهر بنى البشر رغم تنويعهم كأفراد ليصل إلى الجوهر الواحد للأقانيم الثلاثة، وذلك لإتمام روسلين الذى لم يدرك الوحدة النوعية للبشر كافة.

(1) De Fide Trini, 2.

ورغم ما يقال عن القديس أنسلم في واقعيته المسرفة، فإن القراءة المتأنية لتساؤله تبين أنه قد فهم من عبارة روسلين أن "الكليات" ليس لها واقع ملموس، وإنما هي على حد تعبير العصر - مجرد "لغو فارغ" (Flatus Vocis) خاصة وأن روسلين في كتابه "ديالوج عن التحويين" يميز بين الجواهر الأولية والجواهر الثانوية، مستشهداً بحجج أرسطية^(١).

ه - إذا كان المبدأ عند غلاة الواقعية ينص على التتطابق بين الفكرة والواقع القائم خارج العقل، فإن المبدأ عند مناهضي هذه الواقعية هو أن الأفراد "الجزئيات" فقط هي التي لها وجود حقيقي. وقد لاحظ إيريك من أوكزير (٨٤١-٨٧٦) أن من يعتقد بأن اللون الأبيض والأسود يوجد وجوداً مطلقاً بدون جوهر ينتمي إليه، فإنه بذلك لن يقدر على إيجاد ما يطابق به الأبيض أو الأسود من الألوان في عالم الواقع، وسوف يتوجب عليه أن يقنع بأن إنساناً ما بالبياض وحصاناً ما بالسواد على سبيل المثال دون أن يكون لذلك دلالة معنية.

كيف إذن تنشأ المفاهيم الكلية، وما وظيفتها وعلاقتها بالواقع؟ إن الفهم وحده أو الذاكرة غير قادرين على استيعاب الجزئيات، ولكن العقل هو الملكة الوحيدة القادرة على تجميع كل الجزئيات وبلورة صورة عامة عنها من حيث النوع "إنسان- حصان- أسد- الخ" وحيث إن الأنواع في ممالك الحيوان، النبات متعددة، ولا يمكن للعقل أن يستوعبها جميعاً دفعة واحدة، فإنه يجمعها معاً تحت فكرة واحدة عن الجنس genus وهناك أجناس عديدة، ولذا فإن العقل يتخذ خطوة أبعد في بلورة مفهوم أوسع عن "طبيعة الجنس والنوع معاً" "أوديا" Oubi وقد يبدو هذا لأول وهلة توجهها نحو الاسمية nominalism .

كما يذكرنا أيضاً بنظرية جون ستيورات مل عن "الاختزال العقلي" ولكن علينا أن نحترس ونحن لا نملك من القرائن ما يكفي، فإن هذا التوجه هو ما كان يقصد إليه

(1)10.

إيريك من أوكزير عن وعى منه، وأغلب الظن أنه كان يقصد التأكيد على أن الجزئيات أو المفردات فقط هي التى لها وجود حقيقى، ولكنه فى نفس الوقت يرفض شطحات الواقعية المتطرفة، مع ضرورة الانتباه إلى الجوانب السيكلوجية لمفاهيمنا الكلية، ومع ذلك فليس لدينا من الدلائل ما يؤكد على أن إيريك من أوكزير قد أنكر تماماً وجود أسس واقعية لمفاهيم الكليات.

هذا وتواجهنا صعوبة أخرى فى تفسير تعاليم روسليني (حولى ١٠٥٠-١١٢٠م) الذى بعد أن أنهى دراسته فى كل من سوسوان وريمينز، قام بالتدريس فى بلدة كوميين، وهى مسقط رأسه وأيضاً فى مثنى Loche وبينرانسون وتور، وقد ضاعت مؤلفات روسلنى اللهم إلا رسالة موجهة إلى الفيلسوف أبيلارد^١ ومن ثم فإنه يتوجب علينا أن نعتد على ما كتبه مفكرون آخرون من أمثال القديس أنسلم، وأبيلارد، وجون من سالزبورى، ويتفق هؤلاء الكتاب على أن روسلين كان مناهضاً لفكرة الواقعية المسرفة، وأنه كان يعتقد أن الجزئيات فقط هي التى لها وجود، وإن كانت البراهين التى ساقها للتدليل على وجهة نظره غامضة إلى حد كبير، وطبقاً لشهادة القديس أنسلم، فإن روسلين كان يعتقد بأن الكليات مجرد "لغولفظى" FLATUS VOCIS ومن ثم فإن أنسلم يصفه ضمن قائمة من أسماهم، الهراطقة الديالكتيكيون يظنون أن اللون ليس إلا جسداً وأن البشر ليسوا إلا أرواحاً، وذلك- طبقاً لحكم أنسلم- لأن عقولهم مغلوطة بميولهم لدرجة أنهم لا يستطيعون أن يتبينوا الأشياء بصورة تجريدية ومفهومة^(١).

أما أن روسلين قد قال بأن الكليات هي مجرد لغو من كليات عامة، فهذا أمر لاشك فيه، وذلك على ضوء شهادة القديس أنسلم الواضحة، ولكن من الصعوبة بمكان أن نقيم بطريقة دقيقة ما كان روسلين يقصده تماماً بهذه الكلمات.. ولو أننا اعتبرنا القديس أنسلم من أنصار المدرسة الأرسطية، وليس من الواقعيين الغلاة، فإنه يتوجب علينا ملاحظة أنه ربما قد فهم أفكار روسلين بأنها تنكر أية موضوعية ومصداقية للكليات، ومن جانب آخر، لو أننا نظرنا إلى القديس أنسلم نفسه على أنه من أتباع الواقعية المسرفة، فإنه يمكننا، إنن أن نفترض التطرف، ولكن فى نبرة حادة.

(1) De Fide Trin, 22, PL., 158, 265A.

إن العبارة القائلة بأن الكليات هي مجرد لغو لفظي لو أنها أخذت بحرفيتها، فإنها تنطوى ليس فقط على نكران الواقعية بشقيها المسرف والمعتدل، وإنما أيضا على نكران للمفاهيم الكلية في العقل، غير أننا لا نملك دليلا كافيا يجعلنا نفهم ما قصده روسلين بالضبط عن المفاهيم الكلية لو أنه حقيقة كان قد اهتم بمصالحة هذه القضية أصلا ولربما وهو يحاول إنكار الواقعية المتطرفة؛ أى الوجود الفعلي للكليات، قد وضع الكليات كمصطلح لفظي في قوائم الكليات القائمة فعلاً في العالم، بمعنى أن الوجود الحقيقي هو للمفردات فقط، وليس للكليات التي لا وجود لها خارج نطاق العقل، ولكنه لم يتطرق إلى قضية الكليات العقلية، التي ربما كان يسلم بوجودها، أو أنه لم يفكر في مناقشتها، ويتضح من ملاحظات الفيلسوف بطرس أبيلارد في رسالة إلى أسقف باريس⁽¹⁾، عن روسلين وكذا من أطروحته عن الأقسام والتعاريف أن روسلين كان يعتقد بأن المفردات هي مجرد كلمات، وإننا عندما نتكلم عن الجوهر الكلي، فإننا نقصد أن الفكرة عن الظل هي أيضا مجرد كلمة؛ لأن الحقيقة الموضوعية تتألف من مفردات الأشياء أو جواهرها.

ومع كل ذلك فإن من الصعوبة بمكان أن نجزم بأن روسلين لم يكن يعتقد في وجود فكرة عن كل يتألف من مفردات، وأغلب الظن أنه كان يقصد أن أفكارنا عن الكل المؤلف من مفردات هي مجرد أفكار ذاتية؛ لأن الحقيقة الواقعية الوحيدة هي في تعدد جواهر المفردات على أن هذا الاحتمال لو صح، فإن روسلين بذلك يكون قد أنكر الوحدة المنطقية وطرق القياس المنطقي، فإنه قد قضى هذا القياس إلى فرضيات منعزلة وبناء على شهادة أبيلارد فإن زعم روسلين بأن الفكرة عن الكل والمفرد هي مجرد كلمات، يتوازى مع القول بأن النوع هو أيضا مجرد كلمات، ولو أن هذا التفسير كان صحيحا، فإن هذا سوف ينسحب أيضا على الجنس والنوع، وهنا يكون روسلين من دعاة الذاتية أكثر من الحكم عليه بأنه أنكر وجود الأفكار العامة عن إطلاقها.

(1) P.L. 178,35, 8B.

وأما هذا اللبس في أمر روسلين وأفكاره، فربما أنه كان من أتباع المدرسة الاسمية بالمعنى البسيط للكلمة، وهذا ما نعتقده معا يستفاد أيضا من رأى جون من سالزبورى عن روسلين فى قوله: "إن البعض يعتقدون أن الكلمات نفسها هى الجنس والنوع، مع أن هذا الرأى قد لفظ منذ زمن بعيد واختفى مع موت صاحبه (١)؛ وهذه الملاحظة لابد وأنها تشير إلى روسلين بالذات، لأن جون من سالزبورى يستطرد فى أطروحته، ما وراء المنطق (٢) metalogicus قائلا بأن مطابقة النوع والجنس بالكلمات أمر قد انتهى مع انتهاء، أمر روسلين نفسه.

وحتى لو كان روسلين من أتباع المدرسة "الاسمية" مع أن القرائن القليلة المتفرقة لو أنها أخذت حرفيا تقصد هذا التفسير، فإننا لا يمكن أن نقرر يقينا أنه قد تعرض لتقضية الكليات عن الجنس والنوع كما أننا، من جانب آخر، لا يمكن لنا أن نقول بأنه قد أنكر وجود هذه الكليات، حتى ولو كانت بعض عبارات تشبى بهذا المعنى، وكل ما يمكن استخلاصه هو أن روسلين سواء كان من جماعة الأسميين أو من أتباع الكليات كان مناهضا مجاهدا لمدرسة الواقعية المتطرفة

٦ - كنا قد ذكرنا فى موضع سابق أن روسلين قد قال بوجود صيغة إلهية ثلاثية Trithelism الأمر الذى أثار حفيظة القديس أنسلم ثم إدانة روسلين وإجباره على التراجع عما قاله فى هذا الشأن فى مجمع كنسى عقد فى بلده سواسون سنة ١٠٩٢م. والواقع أن تحرش مجموعة الديالكتيكيين، بالقضايا اللاهوتية قد جلب عليهم عداوة أباء الكنيسة من أمثال بطرس داميان، ويلاحظ أن ثلثة من أهل الديالكتيك، المشائين أو السوفسطائيين الوافدين من إيطاليا والذين كانوا يترددون على معاهد علمية متعددة فى القرن الأوروبى، من أمثال أنسلم المشائى من بارما قد عرضوا حججهم ومجادلاتهم بطريقة هزيلة، فى تلاعب سفسطائى بالكلمات، وراحوا يطبقون

(1) Polycratius, 7, 12, P.L. 199, 665 A.

(2) 2, 17, P.L. 199, 874e.

منهجهم الديالكتيكي على اللاهوت وبذلك وقعوا فى محاذير الهرطقة، فراج عليهم اللاهوتيون من كل ركن، فعندما نادى برنجارىوس عن بلدة تور "حوالى ١٠٠٠م- ١٠٨٨م" بأن الخبز المقدس "فى شركة التناول" لا يحث له تحول "إلا جسد المسيح" كان بذلك يشكك فى كلام ثقات اللاهوت، ولذلك فإن بطرس داميان أعلن بصوت عال أن الديالكتيك هو مجرد تزويد كاذب من السفسطة كما قال أو تلو (ottoh من سان اميران (حوالى ١٠١٠-١٠٧٠م) إن أهل الديالكتيك باتوا يؤمنون بآراء بوئثيوس أكثر من إيمانهم بآيات الكتاب المقدس.

القديس بطرس داميان (١٠٠٧-١٠٧٢م).

لم يبد بطرس داميان تقاطعاً يذكر نحو الفنون والآداب ، فهى عديمة النفع كما يقول ولا الديالكتيك أيضاً؛ لأن هذه المعارف لا تضع همها فى الله أو فى خلاص النفوس. ولكن داميان بحكم موقعه كلاهوتى ومفكر، كان لابد له أن يعرج على قضية الديالكتيك، وإن كان قد نظر إليه "إلى الديالكتيك" نظرة اختيار معتقدا أن الاستعانة به فى مجال اللاهوت أمر ثانوى ليس فقط لأن العقيدة حقائق موحى بها من السماء، وإنما أيضاً؛ لأن مدارك العقل فى أرقى مراحلها تبدو قاصرة أمام المسائل اللاهوتية، وهو يضرب مثالا ليوضح وجهة نظره بقوله إن الله هو الحكم الأعلى للقيم الخلقية والقانون الأخلاقى فى جماعة "نجد صدقاً لهذا الرأى عند الفيلسوف كيركجيرد" كما أن الله هو الكفيل وحده على تحويل الأحداث التاريخية واضحة إن داميان هنا يضع المنطق العقلى فى موقع متدنٍ بالنسبة للاهوت، أو بعبارة أخرى فإنه يضع الديالكتيك كله فى موضع الخادعة، بالنسبة للاهوت^(١).

(1) De divie omnip. P.L., 145, 63.

ولقد استقدم جيرارد من زاناد zanad وهو من مدينة البندقية، ثم أصبح أسقفا
لمدينة زاناد في المجرات ١٠٤٦م فكرة الخادمة هذه وهو يؤكد على حكمة الرسل
وسموها على حكمة كل من أفلاطون وأرسطو؛ ومن ثم يصبح الديالكتيك- عنده- بمثابة
الخادم لللاهوت ويعتقد الكثيرون أن القديس توما الإكويني أيضا كان يعتقد نفس
الشيء مع أنه في حقيقة الأمر لم يستخدم هذه الشعبية "الخادمة" في كتاباته وهو
يرسم الحدود بين اللاهوت والفلسفة ويعتقد الأستاذ م.م. دي وف أن فكرة
الخادمة أو "الوصيفة" هذه كانت وقفا على مجموعة ضيقة من رجال اللاهوت ممن لم
يكونوا على معرفة كافية بمسألة الديالكتيك الجديد.

ومع ذلك فإن فريق المناهضين للديالكتيك قد وجدوا أنفسهم في حاجة إليه، وتجد
صدي لهذا الموقف في ملاحظة أبقراط كبير أساقفة كنتربري لانفراثك (١٠١٠-
١٠٨٩م) وموادها أن العداء ليس موجها ضد الديالكتيك في حد ذاته، وإنما إلى إساءة
استخدامه، وهو أمر ينبغي إدانته.

٧ - يتضح موقف المناهضة لمنهج الديالكتيك من جانب رجال اللاهوت المتشردين
من واقع منا نطالعه من مجادلات بين بطرس أبيلارد ووليم من شامبو حول
قضية الكليات، وإن كانت نتيجة هذا الجدل قد أتت بعواقب وخيمة على أبيلارد، رغم
انتصاره في النهاية ضد أنصار الواقعية المتطرفة.

وليم من شامبو (١٠٧٠-١١٢٠م) .

بعد أن درس وليم في باريس ولاومون تتلمذ على يد روسلين في بلدة كوميين،
ولكنه سرعان ما انقلب على أستاذه وراح يدرس في المدرسة الكاتدرائية في باريس
نظرية الواقعية.

وطبقا لرواية بطرس أبيلارد، الذي كان مواظبا على محاضرات وليم من شامبو
في باريس، فإن شامبو كان ينادي بأن جوهر الكليات هو نفسه جوهر الجزئيات في

النوع.. ويترتب على هذه الفرضية من الناحية المنطقية، أن جزئيات النوع أو مفرداته تختلف واحدها عن الأخرى لا في جوهرها، وإنما فيما ينفع لها من عرض^(١).

ويرى أبيقور^(٢) أنه لو كان الأمر كذلك، فإن هذا يعني أن نفس الجوهر قد ظهر في شخص أفلاطون في مكان ما، وفي شخص سقراط في مكان آخر، وأن الفارق بين الاثنين مجرد عرض فقط، إن هذه الواقعية المسرفة هي التي كانت سائدة في أوائل العصور الوسطى، ولكن بطرس أبيقور لم يجد صعوبة في تنفيذها وكشف ما يترتب عنها من نتائج لا يقبلها العقل، ويقول- على سبيل المثال- لو أن الجوهر البشري من الماهية الكلية موجود في كل من سقراط وأفلاطون في نفس الوقت، فإن هذا يعني أن سقراط لا بد وأن يكون هو أفلاطون، وأن يتواجد سقراط أيضا في موقعين مختلفين في آن واحد^(٣).

يضاف إلى هذا أن مثل هذا الاعتقاد لا بد وأن يؤدي في النهاية إلى القول بوحدة الوجود، بمعنى أن فتوهم أن جميع الجواهر تتطابق مع الجوهر الإلهي نفسه!

وأمام هذا الهجوم الذي شنّه أبيقور على نظرية وايم من شامبو، اضطر الأخير إلى التراجع من نظرية "الهوية" لينادي بدلا منها بنظرية "الحياد" مفادها أن أي عضوين عن نفس النوع هما نفس الشيء، لا من ناحية الجوهر، وإنما من الناحية الحيدانية، ويشرح أبيقور^(٤) هذه النظرية الجديدة لشامبو، بعد إنتاجه، بأنها مجرد حالة ولكأن صاحبها يقول بأن سقراط وأفلاطون ليسا نفس الشخص الواحد، ولكنهما غير مختلفين، على أن شذرات باقية من أطروحة لوليم شامبو بعنوان "المقولات - Senteb- tae تكشف لنا عن وجهة نظر، فهو سيقول، إن اللفظين "الهوية والحياد" واحد ونفس الشيء، ويمكن فهمهما من خلال المثال التالي إن كلا من بطرس وبولس رجل من

(1) Hist. Calam, 2, P.L., 178, 119 AB.

(2) Dialectica, (edit. Geyer) P.10.

(3) De generibus et speibus Cousin, Onvrages ineditis, Abelard, p.153.

(4) Hist. Calam, 2, P.L., 175, 119B.

الناحية الحياتية؛ لأن كلا منهما إنسان عاقل وفان أيضاً... إلخ، في حين أن طبيعة كل منهما ليست مثل طبيعة الآخر؛ لأن لكل منهما شخصيته المستقلة، ثم يستطرد شامبو محذراً بأن هذا لا ينطبق على الطبيعة الإلهية، حيث تتطابق الأقانيم الثلاثة في كل شيء.

إن هذه العبارة الغامضة لشامبو تبين أنه قد اتخذ موقفاً معارضاً لفكرة الواقعية المتطرفة، ويبدو من خلال مثاله عن بطرس وبواس أنه يقول إن الاثنين متشابهان في الإنسانية وفق مفهومه "الحيادي" بمعنى أن جوهرهما الإنساني واحد؛ لأن الجوهر الإنساني صفة مشتركة عامة "دون تفريق بين كل بنى البشر، وبغض النظر عن رأى أبيلارد في هذه الرؤية المعدلة لشامبو، فإنها تكشف عن مناهضة شامبو لأفكار غلاة الواقعية، وفي هذا لا يختلف أبيلارد كثيراً عن وجهة نظر استعادة شامبو.

ولابد من ملاحظة أننا هنا نحاول تبسيط الأمر وتضييق الفجوة بين أبيلارد وأستاذه شامبو؛ لأن الخلاف بين الاثنين ليس واضحاً تماماً كما ينبغي، ولكننا نعلم أنه بعد أن أقحم شامبو على يد تلميذه، قرر الاعتزال إلى دير سان فكتور للتدريس فيه حتى أصبح أسقفاً لبلدة شالوى- سير - مارن، ويظن أنه قد عدل عن نظريته وهو يقوم بالتدريس في باريس، ولكنه بعد أن تعرض للهجوم مرة أخرى من جانب أبيلارد- سواء عن حق أو عن باطل- قرر الرجل الانسحاب من ميدان المعركة إلى دير سان فكتور، حيث قام بالتدريس، ووضع عدة قواعد لترسيخ فضيلة الزهد التي صارت سمة هامة من سمات هذا الدير، وطبقاً لحجة الأستاذ م، دى ولف، فإن شامبو عندما اعتزل إلى دير سان فكتور راح يدرس لتلاميذه نظريته بعد تعديلها تحت مسمى "الحيادية" ويلاحظ أن شامبو قد طرح ثلاث نظريات متعاقبة هي:

١ - نظرية الهوية عن الواقعية المسرفة.

٢ - نظرية الحيادية التي هاجمها أبيلارد.

٣ - نظرية مضادة للواقعية التي يفترض أنه كان يدرس لتلاميذه بعد اعتزاله إلى دير سان فكتور، وهجرانه للنظريتين الأولى والثانية.

ونحن من جانبنا نميل إلى الأخذ برأى الأستاذ دى ولف بأن نظرية "الحيادية" قد تضمنت أنظاراً عن جانب شامبو لنظرية الأسبق عن "الهوية" بمعنى أن المسألة لم تكن مجرد تحايل لفظى من جانب الرجل، وفى جميع الأحيان فإن الجميع متفقون على أن شامبو فى نهاية المطاف قد تخلص من نظرية الواقعية المسرفة التى كان قد بدأ بها مساجلاته الفكرية.

بطرس أبيلارد (١٠٧٩-١١٤٢م)

٨ - ولد أبيلارد فى بلدة لى باليه Le Pallet على مقربة من مدينة نانت الفرنسية، وتلقى تعليمه على كل من روسلين، ووليم من شامبو، وبعدها فتح مدرسة خاصة به أولاً فى بلدة فيلون ثم فى كوربيل، وأخيراً فى باريس نفسها، حيث اشتبك مع أستاذه السابق شامبو فى جدل عنيف حول قضايا الكليات والديالكتيك، وفى مرحلة لاحقة اهتم أبيلارد باللاهوتيات، فدرس على يد القديس أنسلم فى مدينة لادون ثم راح يدرس اللاهوت لتلاميذه فى باريس سنة ١١١٣م.

وفى أعقاب مأساته المفجعة مع تلميذته ألويز Heloise اعتزل أبيلارد الحياة الدنيا إلى دير سان دينيس، وفى سنة ١١٢١م، تمت إدانة كتابه عن "الوحدة والثالوث" فى مجمع سواسون الكنسى، فوجئت سير - سين- ثم هجرها سنة ١١٢٥م، ليصبح رئيساً لدير سانت جلواس فى ولاية بريتا فى التى تركها سنة ١١٢٩، وما بين أعوام ١١٣٦-١١٤٩م، كان أبيلارد يقوم بالتدريس فى مدرسة سانت جنيف فى باريس، وكان جون من سالزبورى من بين تلاميذه.

وفى هذه المرحلة شن عليه القديس برنارى دى كليرفوه هجوماً أدانه فى مجمع سنز Sens عندما التمس من البابا أو سنت الثانى أن يرفع عنه الإدانة، قام البابا بإدانته مرة أخرى، مع قرار بمنعه من القيام بالتدريس وعليه فقد إرتحل إلى دير كلونى ليبقى فيه حتى وفاته.

كان أبيلارد شخصا مشاككا بطبيعته، كما أنه كان حاد الطبع فى خصوصاته الجدلية، فلقد سخر من أستاذه فى الفلسفة واللاهوت وهما وليم من شامبو، وأنسلم من لاوون، كذلك يؤخذ عليه أنه كان شديد الاعتزاز بنفسه، وعيندا فى مناقشاته، ليس غريبا أن نعلم أنه قد اضطر إلى هجران دير سان دينيس ثم دير سانت جلداس تابعا؛ لأنه لم يكن على وفاق مع رهبان هذين الديرين، ومع ذلك فإن أبيلارد كان مفكرا متمكنا خاصة فى مجال الديالكتيك إلى حد فاق معه أستاذه، وليم من شامبو نفسه. وهذا التفوق فى ساحة الجدل، وكذا جرأته فى الهجوم على أساتذته وزملائه جعلت الطلاب والمريدين يلتفون حوله لسماع محاضراته، على أنه عندما أخذ أبيلارد يتحرش بالقضايا اللاهوتية، انزعج اللاهوتيون، خاصة أولئك الذين لم تكن لديهم معرفة كافية بمنهج الديالكتيك، وكان من أبرز من تصدوا لأبيلارد القديس برنارد دى كليرفوه الذى كان يعتقد أن الفيلسوف، أداة من أدوات الشيطان وراح يعمل على إدانة أبيلارد بكل طريقة ممكنة، وقد اتهم أبيلارد بأنه "يتناول" على الثالوث المقدس، وإن كان قد أنكر هذا الاتهام بشدة، وحقيقة الأمر أن أبيلارد المفكر لم يكن "عقلانيا" بالمعنى الدقيق للكلمة، فهو وإن كان لم يقصد أن ينكر تعاليم الرسالة السماوية أو أن يسئ إلى أسرار العقيدة، فإنه وهو يطبق منهجه فى الديالكتيك على اللاهوتيات قد جرح بعض التعاليم الأرثوذكسية، ولربما كان ذلك بدون قصد منه، على أنه من ناحية أخرى يجب الاعتراف بأن تطبيق الديالكتيك على قضايا اللاهوت هو الذى دفع بعلم اللاهوت إلى الأمام، وسهل على الدارسين فى القرن الثالث عشر وضع منظومة لاهوتية متكاملة.

لم يجد أبيلارد - كما أوضحنا سلفا صعوبة فى كشف عدم معقولية منطق ونتائج أستاذه وليم من شامبو حول أفكاره الواقعية المسرفة، ولكن كان يتحتم على أبيلارد أن يخرج نظرية بديلة مقنعة من عنده، ولذا فإنه أقر تعريف أرسطو للكليات كما جادت عند بوشىوس بأنها تتواجد فى الكثرة ككل، ولكنها لا تتوافر فى الجزء وهو يقرر كذلك أن الكليات ليست بالشئ القابل للتوصيف؛ لأنها مجرد أسماء أو كلمات ذات صلة بالكليات الكونية⁽¹⁾.

(1) Ingredientibus, Cedil, Geyer). 15.

وقد يبدو هذا نزوعاً نحو وجهة النظر الاسمية التي كان ينادى بها أستاذة روسلين، ولكن حقيقة الأمر أن أبييلارد وهو يميّز بين الكلمات الخاصة بالكليات وتلك الخاصة بالجزئيات لا يقصد أنه ينكر وجود صلة في الواقع تقابل الكلمة الكلية، كما أنه لم ينكر أبداً أن الكلمات التي تشير إلى الجزئيات لها أيضاً ما يقابلها في الواقع، ولكنه يميّز في أطروحته عن المنطق بين مصطلحين: الصوت Vox والمضمون Ser-mo فالكليات عنده ليست مجرد الصوت أو المنظومة من الكلمات، وإنما هي المضمون، لأن الصوت- في رأيه- مجرد "لفظ" flatus Vo cis في حين أن المضمون يعنى الصلة القائمة بين الكلمة ومحتواها المنطقي، ومن ثم يمكن توصيفها بخلاف الحال مع الصوت.

ولنا أن نتساءل: ما المقصود بالمضمون المنطقي، وما الفكرة التي يعبر عنها ما يسميه أبييلارد "الاسم الكلي" يجيبنا أبييلارد عن هذا التساؤل بقوله إن العقل يدرك الأفكار الكلية بصورة عامة ومختلطة لأشياء كثيرة ومتشابهة، فعندما نسمع- على سبيل المثال- كلمة "إنسان" يتصور العقل صورة بعينها ذات صلة بأفراد من البشر، تجمعهم صفة واحدة وليست هذه الصفة لواحد بعينه منهم.

إن هذا المثال الذي يضربه أبييلارد يوحي بأنه لم يعتقد في وجود مفاهيم كلية على الإطلاق، وإنما صور مختلطة جنساً أو نوعاً وفقاً لدرجات متفاوتة من الخلط أو التمايز كما أنه يقول بأن المفاهيم الكلية تتكون عن طريق التجريد، وأنه من خلال هذه المفاهيم يمكننا أن نتبين طبيعة هذا الشيء أو ذاك: عندما أنظر إلى إنسان ما من حيث طبيعة جوهره أو كيانه الجسدي، وليس من حيث كونه إنساناً وليس حيواناً، فإنني بذلك لا أدرك شيئاً سوى ما قصدت إليه خصوصاً، ويحيى أبييلارد ليعلن أن فكرتنا عن الإنسان مختلطة، ولكن عن طريق التجريد، تتحرر هذه الفكرة من اللبس والرؤية الذاتية: لأنها عندئذ سوف تنسحب على كل بنى البشر وخلاصة القول- عند أبييلارد- أن ما يدرك عن النوع والجنس كفكرة إنما هو عن أشياء بعينها، ولكن هذه المدركات العقلية ليست قائمة بداخل كل فرد من أفراد هذا الجنس أو النوع.

وبهذا يخلص أبيلارد إلى القول بأن "الواقعية" المسرفة زيف ووهم، وبأن الكليات ليست أشياء ذاتية، كما أنها ليست مجرد كلمات جوفاء: "إن الكلى هو اسم أو مضمون nonmen-sermo أما الوحدة المنطقية للمفهوم الكلى، فإنها تؤثر فقط في الخوص؛ لأنها ليست شيئاً مفرداً أو محدداً.

إذا أردنا أن نصف أبيلارد- مثلاً حاول المفكر جون من سالزبورى - فإنه يدخل ضمن جماعة "الاسمين" مع ملاحظة أن اسميته تنحصر فى إنكاره للواقعية المتطرفة، مع إقرار للتمايز بين المنظومة المنطقية والنظرية الواقعية، دون أن ينطوى هذا على أى فكر للأسس الموضوعية لمفهوم "الكليات" إن أفكار أبيلارد تمثل أرهاصة- رغم أسلوبه الناقص- لنظرية "الواقعية المعتدلة" بعد تطويرها.

وفى كتابيه "اللاهوت المسيحى" و "اللاهوتيات" يسير أبيلارد على خطى الآباء الأوائل- أمثال أغسطينوس وماكروبيوس وبرسكيان، ومؤدى هذه الأفكار أن العقل الإلهى أو الأفكار الربانية من جنس ونوع هى من طبيعة متطابقة مع الذات الإلهية، وفى هذه النقطة فإن أبيلارد يمتدح أفلاطون وكذا أفكار الأفلاطونيين المحدثين عن "المثل العليا Ideas فى العقل الإلهى" وهى التى أطلق عليها فلاسفة اليونان مصطلح "نويون" Noyo.

٩ - لقد جاءت معالجة أبيلارد لقضية الكليات حاسمة بحق، بمعنى أنه قد وجه ضربة قاضية للواقعية المتطرفة بإثباته أنه فى الإمكان أسقاطها دون أن نضطر إلى إنكار، موضوعية الجنس والتنوع برمتها.

وفى القرن الثانى عشر انعطفت مدرسة شارترز نحو أفكار الواقعية المتطرفة، فى حين اتخذت مدرسة سان فكتور مساراً مخالفاً غير أن اثنين من مفكرى مدرسة شارترز قد خرجا على تقاليد مدرستهما، وهما جليبرت دى لا يوريه، وجون من سالزبورى.

(أ) جليبرت دى لا بوريه بورتينانوس.

ولد جليبرت فى مدينة بواتييه سنة ١٠٧٦م، وتلمذ على يد برنارد دى سارترز، ثم اضطلع بالتدريس فى مدرسة شارترز لأكثر من اثنتى عشر عاما، وبعدها انتقل للتدريس فى مدينة بارى حتى اختير أسقفا لمدينة بواتييه سنة ١١٤٢م حتى وفاته سنة ١١٥٤.

كان جليبرت شديد الوضوح فى تقريره بأن كل إنسان يملك طابعه الإنسانى الخاص به وحده^(١) ومع ذلك فإن له وجهة نظر خاصة عن تركيبة الإنسان الفرد، فهو يميز بين "الأعراض" accidents الفردية وبين الجوهر الذى يجمع جنس ونوع بنى الإنسان على اختلاف مشارهم^(٢)، ذلك الموجز الذى له مثله الأعلى فى الجوهر الإلهى نفسه، وعندما يتأمل العقل صور الأشياء، فإنه يقوم بتجريدها من محتواها المادى الملموس، وبذلك يتمكن العقل من إدراك جوهر الجنس النوع المفارق لما هو ملموس ومحسوس^(٣)، ويقصد جليبرت بهذا أن الفكرة عن النوع تتبلور من خلال مقارنة صور المفردات أو الأجزاء المتشابهة وتجميعها فى مفهوم واحد، فى حين أن الفكرة عن الجنس تنأتى بمقارنة الأشياء التى تختلف وأحديتها عن الأخرى، ولكنها تحتفظ رغم ذلك بصورة مشتركة بينها، مثلما نقول على سبيل المثال أن كلا من الحصان والكلب يجتمعان معا فى صفة الحيوانية.

إن الصورة- كما لاحظ جون من سالزبورى بصدد حديثه عن أفكار جليبرت- تكون ملموسة فى الأشياء الحسية، ولكنها تبقى فى نفس الوقت مدركة فى العقل بعيدا عن مجال الحس بطبقة تجريدية، ومع أن هذه الصورة تظل فردية لكل فرد من حيث هو، إلا أنها تتسم تجريديا بالشمولية والتشابه فى جميع أفراد النوع والجنس.

(1) In Borth de dual. Nat. P. L., 64, 1378.

(2) In Borth de Trinit. P.L., 64, 1393. Cf John of salisbury, Metalog, 2, 17, P.L., 64, 1875-76.

(3) P.L., 64, 1267.

إن هذه الآراء التجريدية المفارقة تكشف عن أن جلبرت كان "واقعيًا" معتدلاً وليس من غلاة الواقعية وإن كانت فكرته عن التمايز بين الجوهر الفردي والجوهر العام قد عرضته للحرج، عندما أراد تطبيقها على الثالث وراح يميز بين الأب والابن والروح القدس، بنفس الطريقة التي قد تميز بها سقراط الفرد - مثلاً - عن إنسانية سقراط.

وهنا راحت النواثر الكنسية تتهمه بالهرطقة وكان القديس برنارد دي كليوفوه من أشد مهاجميه، وعليه فقد تمت إدانة جلبرت في مجمع رميز الدنى سنة ١١٤٨م، ويعدها اضطر الرجل إلى التراجع عن أفكاره لكى يبرأ ساحتها!

(ب) جون من سالزيورى (حوالى ١١١٥ - ١١٨٠م) .

وقد جون إلى باريس سنة ١١٣٦م وانتظم في محاضرات أبييلارد، وجلبرتدي لابوريه، وإدم بارفييونتانوس "أى: النظرة القظرة الصغيرة" وهى كتبه أعطيت له" وروبرت بوليان، ثم اختاره شوبالد كبير أساقفة كنتيريرى سكرتيراً له، وظل فى منصبه هذا من خلفه توماس بيكيت حتى ثم تعيينه أسقفاً لمدينة شارترز سنة ١١٧٦م.

يقول جون فى طرحه لقضية "الكليات" أن العالم قد انشغل بهذه القضية لردح طويل من الزمن، أكثر من الزمن الذى أمضاه القياصرة فى غزوهم وحكمهم للعالم^(١)، ويعتقد جون أن من يفتش عن الجنس والنوع خارج الأشياء المحسوس فإنه بذلك يضعف وقته سدى. وهو يؤمن بأن الغلو فى "الواقعية"^(٢) يمثل شططا فى الفكر، لأنه يتناقض مع تعاليم الحكيم أرسطو^(٣) الذى كان جون شديد الولع به خاصة فى قضايا الديالكتيك، ملاحظاً أن أطروحة أرسطو عن القضايا "Topics أعظم فائدة عن معظم ما كتب عن الديالكتيك العديد من المحدثين فى مدارسهم^(٤)."

(1) Polycrat., 7,12.

(2) Metal., 2, 20.

(3)Ibid.

(4)Ibid., 3,10.

ويعتقد جون أن الجنس والنوع ليسا بالأشياء، وإنما هما صور لأشياء يخرج العقل عند مقارنته وجوه الشبه بين هذه الأشياء، فى عملية تجريد وتوجد فى المفاهيم الكلية^(١) إن المفاهيم الكلية عن الجنس والنوع عند تجريدها تصبح تراكيب عقلية *figurae rationis* ؛ لأنها لا توجد ككليات واقعية خارج العقل، إن التركيبية هنا- يقول جون- فيما هى نتاج للمقارنة بين الأشياء المتشابهة بعد أن يتم تجريدها، مع ملاحظة أن المفاهيم الكلية ليست خالية من الأسس الموضوعية والمرجعية^(٢)

١٠ - كما قد ذكر- من قبل أن مدرسة سان فكتور كانت قنزع نحو أفكار "الواقعية" المعتدلة وعلى هذا فإن المفكر هيو من سان فكتور (١٠٩٦-١١٤١م) قد تبنى موقف ابيلارد ونادى بنظرية واضحة أن التجريد الذى راح يطبقه على الرياضيات والفيزياء،

وهو يقول بأن مجال الرياضيات هو المجال الملائم لاستيعاب الأشياء المختلطة وغير المختلطة أيضا^(٣). والتجريد هنا يعنى النظر إلى الأشياء فى معزل عن الشكل أو الصورة، مثلما ننظر على سبيل المثال إلى النمط أو إلى المسطح المستوى بعيداً عن شكل بعينه، أى بطريقة تجريدية للخط أو المسطح، ويتحسب هذا أيضاً على عالم الفيزياء، إذ ينظر الفيزيائى إلى خواص العناصر الأربعة "من ماء وتراب وهواء ونار" بطريقة مجردة بعيدة عن واقعها الحسى الملموس فى تراكيب مختلفة.

واضح من هذا أن أتباع منهج "الديالكتيك" ينظرون إلى صور الأشياء بطريقة تجريدية فى مفهوم متوحد، رغم أن هذه الأشياء فى واقع الأمر لا توجد فى عزلة عن المادة المحسوسة ولا عن الكليات.

١١ - إن الأسس التى قامت عليها فيما بعد تعاليم القديس توما الإكوينى عن "الواقعية المعتدلة" قد أرسيت قواعدها قبل القرن الثالث عشر، ويمكننا القول بأن

(1) Ibid , 2, 20.

(2) Ibid., 3, 3.

(3) Didasc., 2, 18, P.L , 175, 785.

بطرس أبيلارد هو الذى قضى على تيار الغلو فى الواقعية، وعندما يعلق توما الإكوينى أن الكليات ليست "كيانات" وإنما سمات مشتركة تلمسها فى الجزئيات⁽¹⁾ فإنه بذلك يردد ما سبق أن قال به كل من بطرس أبيلارد وجون من سالزبورى، فالإنسانية أو الطبيعة الإنسانية - على سبيل المثال - لها وجود فقط عندما نتأمل هذا الإنسان أو ذاك، أما المفهوم الكلى المرتبط بالإنسانية فهو عملية عقلية تجريدية⁽²⁾ ورغم أن المفهوم الكلى عن الأشياء يأتى مختلفاً عن الشيء فى ذاته وحاله الفردى المحسوس، فإن هذا المفهوم الكلى لا يكون خاطئاً بحال، المسألة ببساطة أن الصورة للشيء فى حالته الفردية تصبح عند تجريدها موضوعاً عقلياً خالصاً بعيداً عن الصورة المادية، وعلى هذا فإن الأساس الموضوعى للمفهوم الكلى للنوع هو جوهر موضوعى وفردى معاً للشيء وهذا الجوهر يتحرر من خلال النشاط العقلى من قيود وعوامل التجزئة المادية، وصولاً إلى النظرة التجريدية؛ فالعقل - على سبيل المثال - يخرج بفكرة تجريدية عن جوهر الإنسانية من خلال الإنسان الفرد الشريك فى هذا الجوهر الكلى بدرجات متفاوتة فى النوع الإنسانى، أما الأسس التى تقوم عليها المفاهيم الكلية الجنس فهى أسس متعددة تتمتع بها أنواع عديدة مشتركة، من قبيل النوع الذى يشترك فيه الإنسان، والحصان، والكلب - إلخ، فهم جميعاً شركاء فى "الحيوانية".

بهذا يكون القديس توما الإكوينى قد أنكر الصيغتين المتواترتين عن الواقعية المتطرفة، سواء الواقعية التى قال بها أفلاطون أو تلك التى نادى بها مفكرو الوسطى المبكرين، على أن الإكوينى، مثله فى هذا مثل بطرس أبيلارد من قبل، لم يكن راغباً فى الماضى أبعد من هذا فى الخصومة مع أفلاطون فيرفضه كلية، وإنما أبقى على الباب مفتوحاً أمام الأفلاطونية على الطريقة التى طرحها القديس أغسطينوس؛ فالأفكار أو المثل العليا كامنة فى العقل الإلهى، وإن كانت - غائبة - ليست منفصلة عن الله،

(1) Contra Gent., 1, 65.

(2) S.T. Ia, 85, 1, adI, Ia, 85, 2 ad, 2.

كما أنها ليست فى حال تعددية، وعلى هذا الأساس فإن النظرة الأفلاطونية تصبح مبررة من وجهة نظر توما الإكوينى، ومن هذا المنطلق يطرح الإكوينى^(١) النقاط التالية كخلاصة لأفكاره عن الكليات والجزئيات:

١ - الكلى كمفهوم قبلى بالنسبة للجزئى، ولكنه ليس ذات كيان قائم - سواء فى عزلة عن الأشياء "أفلاطون" أو فى قلب الأشياء "مفكرو العصور الوسطى الأوائل"، فאלله المدرك فى جوهره يخلق البشر على صورته.

٢ - الكلى كمفهوم متضمن فى الجزئى المحسوس والواضح فى كل أعضاء النوع.

٣ - الكلى كمفهوم لاحق للجزئى فى حال من التجريد^(٢).

وغنى عن البيان أن مصطلح "الكلى المتضمن فى الفردى" الذى يستخدمه توما الإكوينى فى التعليق على "المقولات" ينبغى تفسيره على ضوء ما نادى به هذا المفكر فى جملة، بمعنى أن أساس المفهوم الكلى هو الجوهر المحسوس للشيء فى ذاته^(٣).

هذا وفى أواخر العصور الوسطى وأتباعه تجددت مشكلة الكليات، وتصدى كل من وليم من أوكام وأتباعه لإيجاد حلول جديدة لها، ولكن المبدأ القائل بأن الأفراد "الجزئيات" فقط هى التى لها وجود، جاء ليبقى، أما التيار الجديد فى القرن الرابع عشر فلم يكن منصباً على الواقعية، وهذا ما سوف نعالجه فى المجلد التالى.

(1) Contra Gent., 3, 24.

(2) In Sent., 2, Dist., 4, adl.

(٣) هذه الشروح لتوما الإكوينى من مطاء الفيلسوف ابن سينا.

الفصل الخامس عشر

القديس أنسلم فيلسوفا - البراهين على وجود الله

من كتاب "المناجاة" (Monologium)

البراهين على وجود الله في كتاب المقال أو العظة Prose Logium
فكرة الحق وعناصر أغسطينية أخرى في كتابات القديس أنسلم

١ - ولد القديس أنسلم في بلدة أوستا Aosta في بيدمونت سنة ١٠٣٣م ويعد
دراسته الأولية في ولاية برغنديا في بلدة أفرانش ثم في بلدة بك Bec التحق بدير
بنديكت، وصار مقدما لدير بك سنة ١٠٦٣، فرئيسا له سنة ١٠٧٨م، وفي سنة ١٠٩٣م
أصبح أنسلم كبيرا لأساقفة كنتريديز خلفا لأستاذه وصديقه لانفرانك، وظل في
المنصب حتى وفاته سنة ١١٠٩م.

وبشكل عام يمكن القول بأن فكر القديس أنسلم ينتمي إلى التاث الأغسطيني،
كما أنه يحذو حذو أغسطينوس في تكريس جهوده العقلية لتفهم أسرار العقيدة
المسيحية، كما أن شهادته في أطروحته "المقال أو العظة" Prosologium^(١) تحمل نفس
الطابع الذي يميز فكر القديس أغسطينوس: أيها الرب الإله! لست أحاول أن أتعمق في
فهم أسرارك؛ لأنني أعلم أن مداركي العقلية عاجزة عن ذلك، ولكني أرغب فقط في أن
أتفهم حقيقة الوجود الإلهي التي يؤمن به قلبي ويحبها بنفس القدر، ولست أسعى
للإدراك لكي أؤمن، وإنما أنا أؤمن لكي أفهم، وإنني على يقين أنه ما لم أؤمن فلن يقدر
لي أن أفهم.

(1) P.L., 158, 227.

إن هذا الشعار "أؤمن لكى أفهم" هو نفس الموقف الذى يميز فكر كل من أغسطينوس وأنسلم، كما أن أنسلم متفق أيضاً مع أغسطينوس فى قضية "التجسيد"^(١) حيث يقول إنه من الواجب علينا أن نحاول أن نفهم ما نؤمن به، ويعنى ذلك من الناحية العلمية أن أنسلم يطبق الديالكتيك والعقل على قضايا الإيمان، لا لكى يزيع عنها الغموض، وإنما لكى يسبر أغوارها ويستكشف دلالاتها على قدر ما يستطيع العقل البشرى، وعلى هذا جاء كتاب أنسلم عن "التجسيد والفداء" ليمثل دفعة قوية وهامة للتطور فى مجال الفكر اللاهوتى.

إن تطبيق منهج الديالكتيك على القضايا اللاهوتية لا يخرج عن إطار اللاهوتيات، وإذا فإن القديس أنسلم- فى هذه الجزئية- لا يمثل مكاناً فى تاريخ الفلسفة، اللهم إلا من حيث تطبيقه للمقولات الفلسفية على قواعد العقيدة، وفى حقيقة الأمر أن شعار "أؤمن لكى أفهم، الذى التزم به كل من أغسطينوس وأنسلم لم يكن قاصراً على مجرد تفهم الحقائق العقائدية وفق ما وردت فى الرسالة السماوية، وإنما تجاوز ذلك إلى حقائق الوجود الإلهى، التى يمكن للعقل البشرى أيضاً أن يتوصل إليها. وإلى جانب كتاب عن "اللاهوت" فإن أنسلم له كتاب آخر عن "ميتافيزيقا اللاهوت" وهو هذا يستحق مكاناً فى تاريخ الفلسفة؛ لأنه بهذا العمل قد ساهم فى تطوير فرع من فروع الفلسفة عرف باسم "اللاهوت الطبيعى" وسواء كانت آرائه فى هذا الصدد عن وجود الله قوية أو ضعيفة، فإن المنهج الذى اتبعه فى عرض آرائه يحتم على من يتصدى لتاريخ الفلسفة أن يأخذه فى الاعتبار.

لم يفرق القديس أنسلم- مثله فى ذلك مثل القديس أغسطينوس- بين مجالى اللاهوت والفلسفة، ويمكن شرح وجهة نظره كالآتى: فهو يعتقد أنه يتحتم على المسيحى أن يحاول فهم وإدراك كل ما يؤمن به بطريقة عقلانية، بقدر ما تسمح به هذه الطاقة العقلية، وحيث إننا نؤمن بوجود الله، والثالوث المقدس- فيما يقول أنسلم- فلا بد بهما-

(1) Ibid., 158, 362.

أن القديس أنسلم- مثله في ذلك مثل القديس توما الإكويني فيما بعد- يضع خطأ فاصلاً يميز بين الفلسفة واللاهوت، ولكنه يتبع المنهج العقلي لإثبات حقيقة وجود الله وبذلك يكون قد ولج مجال الفلسفة، غير أنه وهو يطبق نفس النهج على مسألة الثالث، فإنه يظل متمسكاً بأطر اللاهوت.

أما أتباع توما الإكويني فيقولون بأن وجود الله أمر، يمكن إدراكه بالعقل الإنساني، كما أنه في الإمكان الخروج ببعض الرؤى عن الثالث المقدس، وذلك للتصدي لما قد يوجه إلى الثالث من اعتراضات، وفي هذه النقطة الأخيرة يرى القديس أنسلم أن مسألة الثالث ثابتة بالأسباب الضرورية^(١)؛ لأنه لا خلاص لجنس البشر بدون تجسد المسيح^(٢).

وإذا كان لنا أن نصف كلام القديس أنسلم بأنه تفكير "عقلاني"، فلابد لنا إذن أن نوضح ما نعني بالعقلانية في هذا الصدد، فإذا كنا نقصد بالعقلانية موقفاً يتخذه العقل في ذكران أركان الإيمان، فإن هذا بكل تأكيد لا ينطبق على القديس أنسلم؛ لأنه قد سلم بأولوية الإيمان والنص، ثم راح بعد ذلك يفكر في هذا الإيمان ومحتواه، أما إذا قمنا بتوسيع دائرة "العقلانية" لنفي موقف العقل في محاولة البرهنة على الأسرار الغامضة في العقيدة، لا لأن هذه الأسرار غير مقبولة إيماناً أو لأنها مرفوضة ما لم تتم البرهنة على صحتها، عندئذ يمكن لنا أن نصف فكر القديس أنسلم "بالعقلانية" أو مقاربة العقلانية، ولكن من الخطأ أن نظن إن القديس أنسلم كان على استعداد لرفض عقيدة الثالث مثلاً، لو أنه لم يتمكن من الوصول إلى الحجج العقلية الضرورية للبرهنة على هذه العقيدة، ذلك لأنه كان مؤمناً بهذه العقيدة أولاً، وقبل كل شيء ثم راح بعدها يبحث عن قنوات عقلية لتفهمها، إن الجدل حول عقلانية أنسلم أو عدم عقلانيته مسألة غير مطروحة للنقاش في هذه القضية "الثالث" بالذات؛ لأن الرجل لم يكن ينتوى

(1) De Fide Trim., 4 P.L., 158, 272.

(2) Cur Deus Homo, P.L. 158, 361.

إصلاح تريخ العقيدة المسيحية فى شىء، كذلك لا ينبغى أن نفسر كتاباته على ضوء ما حدث لاحقاً من فصل بين اللاهوت والفلسفة ، فى حقبة لاحقة للقديس توما الإكوينى، لأننا بذلك نضع أنفسنا فى خطأ تاريخى مفتعل، مع خطأ آخر فى فهم المقاصد الحقيقة لأفكار القديس أنسلم نفسه.

٢ - فى كتابه "المناجاة"^(١) Monologium يبلور القديس أنسلم البراهين على وجود الله من واقع مراتب الكمال التى نجدها فى الخلائق: فهو فى الفصل الأول يعرج على مرتبة الخير، وفى الفصل الثانى يتوقف عند مرتبة "العظمة" موضحاً أنه لا يقصد البعد الكمى بهذه المراتب، وإنما بعدها الشيوعى، فالحكمة- على سبيل المثال- رغم أنها كلما أرادت تصبح أكثر عظمة، فإن الأفضلية تبقى دائماً لنوعية هذه الحكمة لا لكمها، وهذا الصفات النوعية تلمسها بدرجات متفاوتة فى خبراتنا اليومية فى مسألة "الخير" على سبيل المثال، ومن ثم فإن أحكامنا على الخير تأتى "بعديّة" a posteriori وليست قبلية a priori أى بعد خبرتنا بها.

ولكن الحكم على مراتب أو درجات الكمال التى يفترض أنسلم أنها أحكام موضوعية ؛ لأنها تتضمن مرجعية لهذا الكمال، فى حين أن شراكة أمور حياتنا فى هذا الكمال تأتى بدرجات متفاوتة، مما يدال على وجود كمال "أو خير" مطلق ذات مرجعية موضوعية تشارك فيه كل الأمور الخيرة أو المتسمة بالكمال بدرجات متفاوتة وفقاً لمقتضى الحال.

إن هذه الحاجة تشى بالنزعة الأفلاطونية "مع ملاحظة أن أرسطو أيضاً كان قد قال وقت انضوائه تحت مظلة أستاذه أفلاطون بأنه طالما يوجد ما هو أحسن فى الدرجة، فإن هذا يستتبع وجود الأحسن بالضرورة، كما أنها تظهر مرة أخرى عند توما الإكوينى فى كتابه "الطريق الرابع" Via quarta. وكما أوضحنا سلفاً فإن هذه حاجة "بعديّة" A posteriori بمعنى أنها لا تنطلق من مثالية الخير المطلق وصولاً إلى

(1) P.L. 158.

وجود هذا الخير، وإنما هي تنطلق من التسليم بدرجات متفاوتة من الخير القائم بيننا وصولاً إلى الخير المطلق، ومن الدرجات المتفاوتة للحكمة وصولاً إلى الحكمة المطلقة، بحيث يصبح الخير المطلق والحكمة المطلقة في النهاية من الصفات الإلهية، وهذه الحجة تتطلب التدليل على كل من موضوعية الحكم بالنسبة لدرجات الخير أو الحكمة المتفاوتة، وعلى المبدأ الذي يستند إليه القديس أنسلم في حجته، وهو المبدأ القائل بأنه إذا كانت الأشياء تلك درجات متفاوتة من الخير أو الحكمة فلا بد وأن يكون لهذه أو مرجعية من واقع الخير المطلق أو الحكمة المطلقة في ذاتها *Per se* وليس من مصدر آخر *Per aliud*.

وينبغي ملاحظة أن هذه الحجة تنطبق على مراتب الكمال غير المحدودة، واللانهائية، بمعنى أنها لا تنطبق على الأشياء "الكمية" على سبيل المثال "وسواء أكان هذا الجدل صحيحاً أم لا، فإن البحث فيه ليس من مجال مؤرخ الفلسفة على أية حال".

وفي الفصل الثالث من نفس الكتاب "المناجاة" يطبق القديس أنسلم نفس الحجج على قضية الوجود؛ فكل ما هو موجود إما أنه موجود من خلال شيء آخر أو من العدم، أما الوجود من العدم فهو فرض مرفوض عند أنسلم، وعليه فإن كل ما هو موجود لابد وأنه قد تأتى من خلال شيء آخر، وعنى ذلك أن كل ما هو موجود إما أنه موجود من خلال شيء آخر، أو من خلال ذاته، أو خلال علّة واحدة الوجود كله، ولكن افتراض وجود شيء ما "ونرمز له بالحرف س" من خلال شيء آخر "ونرمز له بالحرف ص" وكذا افتراض العكس أمر غير مقبول منطقياً، وعليه يبقى الخيار بين تعددية من العلل الأولية أو علّة واحدة، أولية للوجود، وبعد هذه الحاجة عن العلية يستطرد القديس أنسلم ليدخل عنصراً أفلاطونياً للوجود إلى فكرة الوجود لذاته الذي تشارك فيه كل الأشياء، ومن ثم فإن الأشياء المتشابهة في صورة بعينها تشترك في جود كيان واحد خارج هذه الأشياء في صورة كلية "تجمعها جميعاً".

وليس ثمة من وجود خارج كل الأشياء سوى الكائن الأعلى، فهو المثل الأعلى والاسمى والأعظم لكل ما هو موجود.

وفى الفصل السابع والثامن من نفس الكتاب يعرض القديس أنسلم علاقة بين المخلول والعلّة صيغاً، أن كل الأشياء المحدودة مخلوقة من العدم ex nihilo وليس من مادة قبلية الوجود والعدم أو اللاشيء هنا يعنى أنه لم تكن هناك مادة أولية خارج العقل الإلهى.

ثم ينتقل القديس أنسلم بعد ذلك للحديث عن خواص الأشياء - فى ذاتها - موضحاً أن الشيء، الذى له خاصية ما أفضل من الشيء الذى لا خاصية له^(١)، فكون الشيء - على سبيل المثال - من الذهب أفضل من كونه من معدن الرصاص، ولكن ليس من الأفضل للإنسان أن يكون مصنوعاً من هذا الذهب، وبالمثل أن يكون للإنسان جسد أفضل من كونه بلا جسد، ولكن ليس من الأفضل للإنسان أن تصبح روحه جسدية، وهذه المفاضلة فى تقديره مسألة غيبية، على أن الأفضل بشكل مطلق لنا كبشر أن نكون حكماء بدلاً من العيش بدون حكمة، وأن نحيا بدلاً من العكس، وأن نكون عادلين بدلاً من السلوك بغير عدل، ويخلص أنسلم من هذا كله إلى أن الذات الأهلوية العليا تنتزه عن هذه الأحكام والخواص فهى الحكمة بعينها والعدل والحياة التى يحاول البشر أن يتمثلوا بها فى واقع حياتهم^(٢).

وحيث إن الذات الأعلى لا يمكن أن تكون من عناصر "قبلية" فإن جميع ما تتركه من خواص كلية موجودة فى "الجوهر الإلهى نفسه"^(٣) مع ملاحظة أن روحانية وأزلية الله تتجاوز بالضرورة حيز المكان والزمان جميعاً^(٤).

فأله موجود فى كل شيء هى عبارة يتبغى ألا تفهم بمعيارنا الزمنى، وإنما بعدم المحدودية التى تتجاوز كل ما فى الوجود^(٥).

(Interminabilis vita simul perfecte tota existens)

(1) Ch. 15.

(2) Ch. 16.

(3) Ch. 17.

(4) Ch. 20-24.

(5) Ch. 24-28.

ويمكن أن نصف الجوهر الإلهي بأنه الديمومة الثابتة التي تسمو على كل ما هو يمرض أو حث وباختصار فإنه لا يجب إطلاقاً أن نصف الخالق بثية صفة تخص جنس البشر أو المخلوقات.

ويمضى القديس أنسلم في "مناجاته" للحديث عن الأقانيم الثلاثة للثالوث في طبيعة واحدة، دون أن يشير أنه بذلك يلج مجالا لاهوتيا بعيدا عن السياق الفلسفي، ولكن يكفي أن نقول أنه بذلك قد قدم الشيء الكثير لمنظومة اللاهوت الطبيعي.

هذا وتفصح كتابات القديس أنسلم عن تأثره بالأفكار الأفلاطونية، فهو يطرح محاجات "بعدية" *aposteriori* عن وجود الله في أفكار منظومة بشكل يفوق ما قدمه القديس أغسطينوس في هذا الصدد، ويشحبه نفس الشيء على البراهين التي ساقها عن الصفات الإلهية وديمومتها وأزليتها، على أن محاولة ربط اسم القديس أنسلم بالمدرسة "الغائبة" إنما يقلل من شأنه في مجال الفلسفة؛ إذ ليس هناك من أسانيد تبرر هذا الزعم، وقد يقال إن أعماله لم تؤثر بدرجة ملحوظة على معاصريه ومن تبعوه من المفكرين "نظرا لانشغالهم بقضايا الديالكتيك ومصالحة آراء الآباء الباكرين" ولكننا إذا نظرنا إلى تطور الفكر الفلسفي، العصور الوسطى، فلا بد لنا أن نعترف بقول القديس أنسلم كواحد من أبرز المساهمين في الحركة "المدرسية" *Scholastic* في الفلسفة واللاهوت، وذلك لأنه قد عالج عدة قضايا تتصل باللاهوت الطبيعي من ناحية، كما أنه طبق منهج الديالكتيك، في مجال العقيدة من ناحية أخرى.

٢ - في أطروحة بعنوان "المقال أو الموعظة" *Proslogium* يتوقف القديس أنسلم عندما يسمى "الدليل الأنطولوجي" "الغائي" الذي يتطلق من فكرة الله كبداية ونهاية "غاية" لكل الوجود، وهو يخبرنا أن ما يعرج على هذا الموضوع تحت إلحاح رفاقة، وأيضا لأن ما ورد في أطروحته الموجزة "المناجاة" قد جاء معقدا وملينا بالجدل، وعليه فإنه في هذا العمل الجديد ينوي أن يقدم ما يكفي للبرهنة على كل ما تؤمن به عن الجوهر الإلهي من خلال مطارحة تغنى عما سبقها من أطروحات متشابهة وهو يعلن

أنه قد اكتشف منظومة من القياس المنطقي المجمل لأفكاره، وإن كان يسوقها في شكل ابتهالات إلى الله على النحو التالي:

"إن الله أعظم من كل شيء في الوجود، وليس كمثله شيء".

"إن الله موجود ليس فقط في أفكارنا العقلية، وإنما أيضا خارج هذه الأفكار".

إن البديهيات الأساسية تسلم بفكرة وجود الله، بمعنى أن فكرة الإنسان عن الله هي في حد ذاتها برهان على وجود الله، حتى لو حاول البعض إنكار هذه الحقيقة البديهية. إن بديهية القول بأن الله ليس كمثله شيء قد تكون مجرد تصور عقلي، ولكن هذا لا يمنع محاولتنا التفكير في هذه البديهية في واقعنا خارج العقل، إلى جانب كونها فكرة مثالية.

إن هذا البرهان الذي يقدمه القديس أنسلم بأن الله ليس كمثله شيء معدل فهو حقيقة مثالية في عقولنا لا يعنى أننا نحاول تفهم هذا الوجود العظيم أيضا واقعنا الموضوعي المعيش، وتتضمن فكرة أن الله هو الكمال المطلق فكرة وجود الله التي يسلم لها البشر، وقد ينكرها البعض بسبب، قصور في المعرفة *Insipiens* ووقوع في دوامة الشك والتناقض، إن الله هو الوجود المطلق الكمال، ومن ينكر هذا فإنه يقع في تناقض خطير؛ لأنه بهذا ينكر حقيقة الوجود.

وهكذا يطرح القديس أنسلم الصفات الإلهية ليبين "أن الله هو القادر على كل شيء العارف بكل شيء والعاقل في كل شيء الخ، ولا يقوت القديس أنسلم أن يسوق عدة أمثلة لتثبيت حججه في كتاب "الموعظة" فهو يقول إن الله لا يخلف الميعاد؛ لأن خلف الميعاد علامة على القصور وعدم الكمال، ولا يمكن لأعمال الله إلا أن تتطابق مع جوهره الإلهي.

ولعل معترض على هذا يقول إن افتراضنا لفرضية مسبقة يوحى بأننا نعرف الجوهر الإلهي سلفاً، في حين أن الجوهر الإلهي أمر لا تدركه عقول البشر، ويرد القديس أنسلم بقوله إنه يسوق هذه الأمثلة بقصد توضيح دلالات الوجود الإلهي وكماله على قدر ما تستطيع مداركنا البشرية، مع تفنيد للأفكار الخاطئة حول الجوهر الإلهي.

ولقد تصدى راهب يدعى جاونيلو لمهاجمة كتاب "المقال أو الموعظة" للقديس أنسلم في كتاب بعنوان "كتاب للغافلين في تفنيد حجج أنسلم في كتاب "المقال أو الموعظة" ويقول هذا الراهب إن الفكرة عن شيء ما ليست ضمناً على وجودها خارج نطاق العقل، وبهذا يكون أنسلم قد انزلق من دائرة المنطق العقلي إلى واقع التجربة الواقعية.

إن من حقنا- يقول جاونيلو- أن نتفكر في أجمل جزر العالم التي يمكن تواجدها في مكان ما على سطح الأرض بطريقة عقلية فقط، وقد لا يكون لهذه الجزر وجود حقيقي على الأرض.

ويرد أنسلم على ذلك في أطروحة بعنوان "دفاع ضد جاونيلو من أجل الغافلين" بقوله إن مجرد عقد التناظر بين هاتيك الجزر الجميلة وبين وجود الله أمر مثير للسخرية؛ لأنه إذا كانت الفكرة عن الله هي الكمال الكلي، الضروري الوجود، فإن الفكرة عن الجزر الجميلة ليست موجودة بالضرورة، وعلى هذا فإن منطق الأمور لا يقبل بهذا التناظر، إن الفكرة عن وجود الله المطلق الكمال- فيما يقول أنسلم- تتضمن وجود الله بالضرورة وفضلاً عن ذلك فإن المفارقة هنا غير منطقية بالمرة، إن فكرة وجود الله لا تتطوى على تناقض؛ لأن الله موجود بالضرورة، أما فكرة وجود جزر جميلة في مكان ما فقد تصدق وقد لا تصدق".

على أن الاعتراض على برهان القديس أنسلم، وهو اعتراض وجه فيما بعد إلى الفيلسوف ديكارت وحاول الفيلسوف ليبنتز أن يتصدى للإجابة عليه، هو أننا لا نعلم "قبلياً" *a priori* عن كينونة ممكنة متضمنة في فكرة الله اللا محدود المطلق الكمال، وقد لا تلاحظ شيئاً من التناقض، في هذا الرأي ولكن المعارضين يقولون: إن الفرضية السلبية ليست مثل الفرضية الإيجابية، ولكن يرد على هذا بأن القديس أنسلم قد أوضح في أكثر من موقع أن فكرة وجود الله قائمة من خلال التفكير البعدي *posteriori* وليس القبلي.

لم يصادف كتاب "المقال أو الموعظة" للقديس أنسلم تأثيراً ملموساً بعد صدوره، ولكن القديس بوناونتورا، في القرن الثالث عشر استخدم الأفكار الواردة في هذا

الكتاب مع التخفيف من نفمته المنطقية الحادة، مع التأكيد على الجوانب السيكلوجية، في حين أن القديس توما، الإكويني فقد رفض هذا الكتاب تماماً، أما الفيلسوف دوما سكوتوس فقد استخدم هذا الكتاب بطريق المصادفة، ولكن المفكرين في العصر الحديث قد اهتموا بهذا العمل اهتماماً بالغاً، فلقد تبني ديكارت أفكار أنسلم بعد أن عدلها، في حين ليبنز قد دافع عنها بطريقة فذة، أما عما نويل كانط فقد هاجمها.

وفي المدارس الفلسفية الأخرى لا يجد كتاب أنسلم موضوع النقاش قبولا، وإن كان البعض ينظرون إليه بشيء من التقدير.

٤ - ينبغي أن نوضح أن من بين السمات التي تتفق فيها فلسفة القديس أنسلم مع أفكار القديس أغسطينوس نظريتهما عن الحق: فعندما يعالج القديس أنسلم قضية الحق من خلال الأحكام^(١) فإنه يتبع وجهة النظر الأرسطية القائمة بأن الحكم إما إنه يقرر ما هو قائم بالفعل، أو ينكر ما ليس بقائم، وأن الشيء الذي نحدده يصبح العلة الحقيقية، أما الحقيقة نفسها فتوجد في الحكم، وبعد أن يعالج أنسلم قضية الحقيقة من خلال الإرادة^(٢) فإنه يمضي للحديث عن حقيقة الوجود أو الجوهر^(٣) بحيث تصبح الحقيقة بالنسبة للأشياء في كونها ما "ينبغي أن تكون هذه الأشياء عليه أي في تجسيدها ومطابقتها لثلثها الأعلى عند الله، فهو الحق المطلق ومعيار كل ما هو حقيقي، وعندما يخلق أنسلم من القول بالحقيقة الأزلية وصولاً إلى أزلية عليه الحقيقة، فإنه بذلك^(٤) يسير على نفسه الخطى التي انتهجها القديس أغسطينوس من قبل. وعلى هذا فإن الله هو الحقيقة الأزلية الثابتة التي هي العلة للحقيقة الغائية لدى جميع المخلوقات، إن الحقيقة الأزلية هي العلة، وأما حقيقة الأحكام فهي مجرد فعل هذه العلية، أما الحقيقة الغائية للأشياء فإنها تجمع بين العقل "الأثر" للحقيقة الأزلية وبين العلة "في الأحكام الحقيقية".

(1) Dialogus de Veritate, 2, P.L., 128.

(2) Ibid., 4.

(3) Ibid., 711.

(4) Ibid., 10.

إن هذه المفاهيم أغسطينية بالنسبة لموضوع الحقيقة الغائبة، وهي أيضا مفاهيم القديس أنسلم كما أن القديس توما الإكويني قد حفظ على نفس المفاهيم، القرن الثالث عشر، وإن كان قد أكد بشكل خاص على حقيقة الأحكام، وعليه ففي حين أن تعريف توما الإكويني للحقيقة هو تطابق الأشياء لأفكارنا عنها، يقول أنسلم بأن الحقيقة هي: فكرة العقل عما يستقبله من أشياء^(١).

Rectitude Sola mente perceptibilis

هذا وفي حديثه عن العلاقة بين الجسد والروح، وذلك في غياب نظرية عن "التكوين المادي" للآثنين فإن القديس أنسلم يتبع التراث الأفلاطوني- الأغسطيني، مع إدراكه- كما أدرك أغسطينوس من قبل- أن الروح والجسد يكونان صورة إنسان واحد- وتذكرنا لغة القديس أنسلم في أطروحته كلمة حق عن النور الإلهي برؤية أغسطينوس عن "التنوير الرباني" وذلك في قوله: ما أبهى هذا النور، الذي تتبثق منه كل الحقيقة، والتي تنير ملكة العقول بحق:

وبشكل عام يمكننا أن نقول بأنه على الرغم من وقوع فلسفة القديس أنسلم على نفس الخط الأغسطيني، فإنها جاءت في شكل منظومة أكثر تفصيلا في أطر من "اللاهوت الطبيعي" وفي تطبيق منهج الديالكتيك على قضايا اللاهوت، مما يجعله علاقة مميزة لعصره.

(15) Ibid., 11.

الفصل السادس عشر

جامعة باريس وسمعتها العالمية - منظومة العلوم

فى القرن الثانى عشر - الإقليمية الثقافية

الحركة الإنسانية - أفلاطونية مدرسة شارتر

نظرية البنية المادية للكون فى مدرسة شارتر

نظرية وحدة الكون كعامل أولى -

جون سالكزورى - نظريته السياسية

١ - لعل أهم وأعظم الإضافات العلمية فى العصور الوسطى، والتي ساهمت فى تطور الحضارة الأوروبية هو ما قدمته الجامعة من أفكار ونشاط علمى، وكان على رأس هذه الجامعات نون منازع جامعة باريس. ولم يثقل مركز باريس للدراسات اللاهوتية والفلسفية مثاقفا رسميا يذشنه كجامعة حتى أوائل القرن الثالث عشر، ولكن فى مقدور المرء أن يتحدث عن مدارس باريس- تجاوزاً- بأنها كانت تكون "جامعة" فى القرن الثانى عشر. والواقع أن فرنسا كانت رائدة فى الحركة الثقافية والتعليم فى القرن الثانى عشر أكثر مما صارت إليه الحال فى القرن الثالث عشر، الذى ظهرت فيه جامعات أخرى مثل أكسفورد، وأرجعت كل جامعة من المؤسسات الجدية تلعب دوراً هاماً يعكس طبيعة كل منها الخاصة بها.

هذا عن الشمال الأوروبى، أما فى الجنوب فقد تلقت جامعة بولونا بمثاقها الأول سنة ١١٥٨م الإمبراطور الألماني فردريك الأول، ونظراً لأن فرنسا كانت تمثل أعظم مراكز النشاط الثقافى فى القرن الثانى عشر، فإن هذا قد أدى إلى ظهور مقولة نقول: إن إيطاليا تملك البابوية، وألمانيا تملك الإمبراطورية، وفرنسا تملك المعرفة غير أن هذا لا يعنى أن الثقافة الأوروبية كانت حكراً على المفكرين الفرنسيين وحدهم، ذلك أن

الثقافة الأوروبية آنذاك اتسمت بصفة أقرب إلى العالمية، كما أن الهيمنة الفرنسية هنا تعنى أن أعداداً وفيرة من الطلاب والأساتذة والعلماء قد وفدوا إلى المؤسسات الفرنسية الثقافية لممارسة نشاطهم؛ فمن إنجلترا وفد عدد كبير من المفكرين من أمثال: آدم سمول بريديج، والكنسدر نكهام وهما من أساطين الديالكتيك في القرن الثاني عشر، وكذا أديلارد من باث، وروبرت بولوين، وريتشارد من سان عكتورست ١١٧٢م ثم جون من سالز بوري، ومن ألمانيا وقد هيو من سان فكتور اللاهوتي والفيلسوف الزاهد (ت ١١٤١م)، ومن إيطاليا وقد بطرس لومبارد (حوالي ١١٠٠ - ١١٦٠م) كان كتاب الأحكام Sentences ذائع الصيت وهو الذي صار موضوعاً لتعليقات كثيرة في العصور الوسطى على يد كل من القديس توما الإكويني، ودانز سكوتوس على سبيل المثال.

وعلى ذلك فإن جامعة باريس باتت تمثل الطابع العالمي للثقافة في أوروبا، بنفس القدر الذي كانت فيه البابوية تمثل الطابع الديني للقارة الأوروبية، ويلاحظ أن هاتين المؤسستين الجامعية والبابوية كانتا على روابط وثيقة فيما بينهما، ذلك أن العقيدة الكاثوليكية الواحدة قدمت للغرب الأوروبي منظوراً عقائدياً موحداً، كما أن لغة العلم كانت اللاتينية وهي لسان الكنيسة الرومانية، مما انعكس بشكل واضح على المناخ الثقافي لأوروبا العصور الوسطى وكانت الصلة بين هاتين المؤسستين وثيقة العرى بطريقة واقعية وفعالة، في حين أن الوحدة السياسية للإمبراطورية الرومانية المقدسة كانت نظرية أكثر منها واقعية أو ملموسة.

ومع أن الملكيات مطلقة الحكم قد جاءت تحت عباءة هذه الإمبراطورية في فترة لاحقة، فإن الشعور بالقومية كان أخذ في الوضوح، رغم المعوقات التي كان يمثلها النظام الإقطاعي والمؤسسات المحلية السياسية، والاقتصادية، إلى جانب اللغة الواحدة السائدة آنذاك "اللاتينية" وكذا النظرية الثقافية السائدة في مختلف الأروقة العلمية الأوروبية. لقد أدى النشاط المتنامي للحياة الجامعية إلى تطور في الحياة الأكاديمية، مما أدى في النهاية إلى وضع تصنيف منظومي للعلوم وفروع الفكر والمعرفة، وهذا

ما نجده واضحا جليا فى القرن الثانى عشر فى أوروبا وتبرز هنا منظومتان هامتان لكل من هيومن سان فكتور، وبطرس المباردى: هيو وفى أطروحته مساق التعليم -Didos callon^(١) التصنيف الأرسطى؛ فهو يجعل المنطق المدخل الصحيح للعلوم كما ينبغى أن تكون؛ لأن المنطق يهتم بالمفاهيم الكلية وليس بالأشياء المفردة وينقسم المنطق إلى الأجرومية والاستدلال، وهذا الأخير ينقسم بدوره إلى الديالكتيك والخطابة والسفسطة "القياس الفاسد" أما العلم الذى يستند إليه المنطق كمدخل جوهري فإنه يقسم إلى : العلم النظرى، والعلم العملى، والميكانيكا، ويشمل العلم النظرى: اللاهوت، والرياضيات "الحساب لمعالجة الجوانب الفردية للأشياء، والموسيقى التى تهتم بالتناسق والتناغم، والهندسة التى تختص بمساحة الأشياء، والفلك الذى يختص بحركة الأشياء" والفيزياء "ومادتها هى الخواص الداخلية للأشياء، وهى بهذا نفاذاً من الرياضيات".

أما العلوم العملية فتتنقسم إلى الأخلاق، والاقتصاد، والسياسة، فى حين أن الميكانيكا تشتمل على "الفنون السبعة غير الحرة" أو "علوم المحاكاة"؛ لأن الحرفيين يحاكون الطبيعة فى حرفهم وهى تشمل صناعة الصوف وما شاكلها من صناعات، وصناعة الأسلحة، والنجارة، والملاحة، والتجارة، وهذه الأخيرة- فى رأى هيو تقرب المسافة بين الناس، وتهدد من صخب الحروب، وتعزز أواصر السلم، وتتيح الفرصة للجميع للاستفادة من السلع الخاصة، ثم تأتى الزراعة والصيد "متضمنة الطهى" والطب، والمسرح، ومن الواضح أن فهرست هيومن سان فكتور لم يعتمد فقط على أرسطو "من خلال كتابات بوثيوس" وإنما أيضا على الأعمال الموسوعية لكتاب آخرين من أمثال إيزيدور الإشبيلي^(٢).

أما بطرس المباردى فقد تلقى تعليمه فى مدرسة سان فكتور، ثم قام بالتدريس فى مدرسة باريس الكاتدرائية حتى أصبح أسقفا لباريس من عام ١١٥٠ حتى ١١٥٢م

(1) P.L., 175.

(2) Cf The prologue.

ولقد وضع لومبارد عملاً بعنوان: كتاب المقولات الأربع، وهو وإن كان عملاً لا يتسم بالأصالة في محتواها إلا أنه كان بالغ الأثر على الكثيرين من الكتاب الذين اهتموا بالقضايا العقائدية واللاهوتية، كما أن مختصرات وشروحات كثيرة قد ظهرت حول هذا الكتاب بالذات حتى القرن السادس عشر، وكانت مقولات لومبارد بمثابة المرجع الذي يحتوى آراء الآباء الباكرين في القضايا اللاهوتية، متضمنة الذات الإلهية، والخلق، والتجسد، والفداء، والفضائل، "المقالة الرابعة حتى السابعة" والأسرار المقدسة، والأمور الضرورية، وقد استقى المباردي جل أفكاره من نبع القديس أغسطينوس وبعض الآباء اللاتين الآخرين، وأيضاً من كتابات القديس يوحنا الدمشقي، وأن كان لومبارد لم يطلع إلا على جزء صغير من الترجمة اللاتينية التي قام بها برجنديوس من بيضة لأطروحة الدمشقي بعنوان "منبع العلوم"^(١).

وواضح أن "مقولات" المباردي تدور حول القضايا اللاهوتية في المقام الأول، إلى جانب الأمور التي تحتاج إلى تفكير عقلاني لتثبيت الإيمان من قبيل وجود الله، وخلق العالم، وخلود الروح.

٢ - كنا قد ذكرنا أن ازدهار الحياة الفكرية في القرن الثاني عشر ظهر جلياً في نشاط جامعة باريس في محاولات فهرسة وتقسيم العلوم المعرفية على أن هذا لا يعني أن الفكر كان حكرًا على جامعة باريس، فلقد ساهمت المدارس الإقليمية بدور هام في هذه الحركة الثقافية.

والواقع أن النشاط الفكري للمدارس الإقليمية كان مكملًا لنشاط جامعة باريس، مما أعطى القرن الثاني عشر طابعاً عالمياً على الصعيدين الفكري والديني.

فلقد وفد العديد من الطلاب من بقاع أوروبية مختلفة على باريس للدراسة، وبقي بعضهم بعد التخرج للتدريس في باريس، في حين أن البعض الآخر عادوا إلى بلدانهم وأقاليمهم ليضطلعوا بمهمة التدريس في مؤسساتها التعليمية.

(1) 3, 24, 3.

وقد ساعد هذا المناخ على ظهور بعض التخصصات التي اقترنت ببعض الجامعات، فلقد اشتهرت جامعة بولونا بدراسة القانون، في حين اشتهرت جامعة مونيليه بدراسة الطب، واشتهرت مدرسة سان فكتور بدراسات التصوف اللاهوتي، أما مدرسة شارتر فقد اشتهرت في القرن الثاني عشر بدراسة فلسفة أرسطو وفلسفة أفلاطون أيضاً، إلى جانب اهتمامها بالدراسات الإنسانية، ومن أعلام هذه المدرسة كان ثيودريك من شارتر "ثيرى" الذي كان مشرفاً على المدرسة سنة ١١٢١م، ثم انتقل بعدها للتدريس في باريس، ليعود ثانية إلى مدرسة شارتر سنة ١١٤١م، حيث صار مديراً لها خلقاً لجلبرت دي لابيوريه، وقد وصف جون من سالزبورى هذا العالم بأنه ضليع في مجال الإنسانيات، وموثق جيد للفنون والآداب.

ولقد أولى ثيرى اهتماماً خاصاً بالفنون السبعة الحرة، ودخل في جدل عنيف مع جماعة كانت تتهاض الدراسات الإنسانية عرفت باسم - or nificion نظراً لاحتقارها الدراسات الإنسانية ومن أعلام هذه المدرسة أيضاً وليم من كوشن (حوالى ١٠٨٠-١١٥٤م) الذي كان يدرس على يد برنارد من شارتر، ثم انتقل للتدريس في باريس، وصار معلماً خاصاً للأمير هنرى بالانتاجنت وقد شن وليم هجوماً على أعداء العلوم الإنسانية، وانتكب على دراسة الأجرومية، ولذا فإن جون من سالزبورى يصفه بأنه من أكثر الموهوبين في حقل الأجرومية بعد برنارد من شارتر^(١).

أما جون من سالزبورى (١١١٥ / ٢٠ - ١١٨٠م) فكان من أبرز فلاسفة هذه الحقبة في العلوم الإنسانية في مدرسة شارتر، مع أنه لم يتلق تعليمه في مدرسة شارتر، فإنه أصبح أسقفاً للمدينة سنة ١١٧٦، وكان جون شديد الحماس للفنون السبعة الحرة، كما كان ملماً بالكلاسيكيات اللاتينية وبالخطيب شيشيرون بصفة خاصة، كما أنه كان ينعى على التدهور المتبرير الذي أصاب أسلوبيه اللسان اللاتينى في العصر الوسطى، ومن ثم فإنه شن هجوماً على الجماعة المناهضة لفن الخطابة

(1) Metal., 1.5.

والأسلوبية المنمقة، وقد أولى جون اهتماماً خاصاً بأسلوب كتابته، وإذا فإنه يمثل خير ما أنتجه القرن الثاني عشر من فلاسفة فى مجال الإنسانيات، مثلما كان القديس برنارد دى كليرفوه فى فكره الإنسانى وترانيمية الدينية وكتاباتة الروحية.

وإذا وصلنا إلى القرن الثالث عشر، فإننا لا نبحث فى أعمال فلاسفة هذا القرن عن الأسلوبية اللاتينية؛ لأنهم قد اهتموا فى المقام الأول بالمحتوى الفكرى أكثر من اهتمامهم بالشكل أو الأسلوب.

٢- كان لمدرسة شارتر، قبل أن يصيبها التدهور فى القرن الثانى عشر، تاريخ طويل من العطاء الفكرى، فلقد تأسست سنة ٩٩٠م على يد فولبير وهو من تلاميذ جريرت من أوريك الذى يعد واحداً من أبرز مفكرى القرن العاشر فى مجال الفكر والإنسانيات، والذى اضطلع بالتدريس فى كل من ريمز وباريس، كما قام بعدة زيارات إلى بلاط الإمبراطور الألماني، ثم أصبح أسقفاً لمدينة بويو، فكبيراً لأساقفة ريمز ورافنا تبعاً، ثم جلس على عرش البابوية نفسه تحت اسم سلفستر الثانى وتوى سنة ١٠٠٣م، ومنذ تأسيسها تميزت مدرسة شارتر، حتى القرن الثانى عشر، بروح محافظة ومذاق خاص، ظهر واضحاً فى تمسكها بالتقاليد الأفلاطونية، وبخاصة محاوره "طيمائوس" كما أبدت حنواً نحو أفكار الفيلسوف بوئثيوس وعلى هذا نجد برنارد من شارتر، الذى كان مشرفاً ثم مديراً للمدرسة ما بين أعوام ١١١٤-١١٢٤م، يتمسك بالنظرية القائلة بأن المادة كانت موجودة فى حال من الفوضى قبل اتخاذها صورة بعينها، أى قبل أن يخلق النظام من قلب الفوضى. وقد وصفه جون من سالزبورى بأنه "أعلم الأفلاطونيين فى عصره"^(١)، كما أن برنارد هذا كان يعتقد بأن الطبيعة كائن حى، إلى جانب قبوله للنظرية الأفلاطونية عن "عالم الروح"، وقد تبعه فى هذا الخط المفكر برنارد من تور "سلفستريوس" الذى كان مديراً لمدرسة شارتر سنة ١١٥٦م، الذى نظم قصيدة بعنوان "العالم الكونى" De mundi uin versitate مستعينا بتعليقات كالديوس

(1) Metal., 4,35.

على محاورة "طيمائوس" لأفلاطون، مصوراً عالم الروح بأنه المحرك للطبيعة، والمكون للكائنات الطبيعية من الفوضى التي كانت عليها المادة الأولى، طبقاً للمثل الخاصة بالذات الإلهية.

أما المفكر وليم من كونش فقد مضى إلى أبعد من هذا بأن طابق بين "عالم الروح" وبين الروح القدس الأمر الذي دعا وليم من سان ثيودريك إلى مهاجمته، ونتيجة لهذا الهجوم اضطر كونش إلى التراجع عن آرائه، وأعلن أنه مسيحي مخلص، وليس عضواً في "الأكاديمية الأفلاطونية".

وإلى جانب هذه الموجه الفكرية التي حفظت على روح محاورة "طيمائوس" نزعت مدرسة شارتر أيضاً نحو "الواقعية المسرفة" من أن شخصين بارزين من أبناء عقيدة المدرسة وهما جليبرت دي لا بوريه، وجون من سالزيوري، لم يكونا من أتباع هذه الواقعية المسرفة.

ومن أعلام مدرسة شارتر أيضاً كالارمبالد من أراس، وهو تلميذ لثيودريك من شارتر الذي أصبح مشرفاً على مدرسة أراس سنة ١١٥٢م ثم كبير لشمامستها سنة ١١٦٠م، والذي قام بالتعليق على أطروحة بونثيوس عن "الثالوث" ليرد بذلك على واقعية، جليبرت دي لا بوريه، قائلاً بأنه توجد إنسانية واحدة فقط في جميع أبناء البشر، وأن الأفراد يختلفون فقط طبقاً لأسباب عرضية تختلف من واحد لآخر^(١).

٤ - وعلى الرغم من شغف أبناء مدرسة شارتر بمحاورة طيمائوس لأفلاطون، فإنهم كانوا يقدرّون أيضاً فكر أرسطو ويتمسكون بالمنطق الأرسطي في أفكارهم، كما أنهم جاهرُوا بنظرية البنية المادية للكون Hylomorphism لأول مرة في القرن الثاني عشر ومن هذا المنطلق نادى برنارد من شارتر بأن الأشياء الطبيعية تتألف من صورة ومادة "هيولي" وقد أطلق على الصورة الأولية أنها نسخ من المثل العليا الإلهية، وهذه

(1) Ed. W. Janssen, P. 42.

المعلومات قد أتت إلينا عن طريق جون من سالزيوري الذي يحدثنا بأن برنارد وتلاميذه قد حاولوا المصالحة بين الحكيم أفلاطون وأرسطو^(١)، كذلك يلاحظ أن برنارد من تور قد نادى هو أيضا بأن صور الأشياء إن هي إلا "نسخ" من المثل العليا الإلهية، في حين أن كلامبالد من أراس قد وصف المادة بأنها، في حالة من الفيض الدائم، وبأنها تمثل "صيرورة" الأشياء^(٢)، أما الصورة فإنها تتأتى من اكتمال وتعام هذه الأشياء، وبهذا يكون برنارد من تور قد فسر المادة عند أرسطو على ضوء تعاليم أفلاطون عن صيرورة وتشكل الأشياء.

أما وليم من كونش فقد اتخذ لنفسه خطأ مستقلا عندما تبنى نظرية ديموقريطس عن الذرة^(٣).

وبصفة عامة يمكن القول بأن أساتذة مدرسة شارتر قد تبنا نظرية أرسطو عن البنية المادية للكون، إن كانوا قد قسروها على ضوء محاوره "طيمائوس" لأفلاطون^(٤).

هـ - إن النظرية القائلة بأن الأشياء الطبيعية تتكون من مادة "ميولي" وصورة، حيث تكون الصورة نسخة من المثل الأعلى الإلهي، تميز في وضوح بين الله ومخلوقاته، وهي بهذا لا تقول "بواحدة" الوجود Pantheism غير أن بعض أفراد مدرسة شارتر قد استخدموا بعض المصطلحات التي إن أخذت بحرفيتها، فإنها قد تشي بأفكار عن واحدة الوجود؛ فمثلا نجد تيودريك من شارتر، وهو الشقيق الأصغر لبرنارد، يحاج بأن كل الصورة ترجع إلى صورة أزلية واحدة، هي الصورة الإلهية لكل الصور فإن الإلهية هي الصورة الجوهرية. لكل الأشياء، أما الخلق فهو نتاج "الكثرة عن الواحد"^(٥).

(1) Melal., 2, 17.

(2) Ed, W. Janssen, PP44and 63.

(3) P.L., 90, 1132.

(4) Gilbert de la poree, in P.L. , 64, 1367.

(5) De Sex dierum Openbus, ed. W. Hanssen, PP. 15, 21, 108, 109.

ومع أن هذه النصوص، لو أخذت بحرفيتها وفي معزل عن السياق العام، توحى بإشارات إلى الأفكار واحدة الوجود "أو التفسير الأحادي، فإن القرائن مجتمعة لا تبرر القول بأن تيودريك من شارتر أو كلارمبالد من أداس كانا يقصدان المناداة بمبدأ "أحادي"؛ ذلك لأن تيودريك نفسه بعد أن يقول بأن العودة الإلهية موجودة في كل الصور، فإنه ليحفظ مباشرة يوصي بأن الصورة الإلهية هي كما وتكامل جميع الأشياء مما يوحدى بأن صورة الخلائق ليست من الجوهر الإلهي، وعلى هذا ينبغي أن تفهم أفكار تيودريك على ضوء نظريته، فإن المثال الأعلى حيث يقول بوضوح بأن العودة الإلهية لا يمكن لها أن تتجسد في الملموس أو المحسوس من بشر أو حيوان أو جماد، وبالمثل فإن كلارمبالد من آراس عندما يتحدث عن المثل الأعلى فإنه يصر على أن صور الماديات لا تزيد من كونها، مماثلة "أو محاكاة" للمثل الأعلى أما العبارات الواردة عن هذين المفكرين عن الفيزياء الإلهي، فهي مقتبسة من عند الفيلسوف "بوثيوس" وهي لا تعنى الفيزياء بمعناه الحرفي، لا عند هذين المفكرين ولا عند بوثيوس نفسه، فهي لا تزيد عن كونها عبارات مختزنة ومتواترة تناقلها المفكرون كما هي، ولا ينبغي أن تؤخذ على عواهنها بمعناها الحرفي.

٦ - مع أن جون سالزيوري لم يثقل تعليمه في مدرسة شارتر، فإن هذا لا يمنع مبدأ التعرّيج في هذا السياق على فلسفته عن النولة، كما وردت في كتابه عن "الحكم الجماعي" Polycracticus لقد أدى النزاع حول "التراث العلماني" Loy Investiture بين البابوية والإمبراطورية الألمانية إلى تصدى بعض الكتاب لهذه المشكلة للتعبير عن وجهات نظرهم في هذه القضية، خاصة فيما يتعلق بواجب الدولة والحاكم، على أن واحداً أو اثنين من هؤلاء الكتاب قد مضيا إلى شوط أبعد، وقدموا صورة مبسطة لنظرية سياسية فالكاتب مانيجولد من لا وتنباخ "القرن السادس عشر" مثلاً يعرف سلطة الحاكم بأنها عقد بينه وبين الشعب الذي يحكمه.

كما أنه يعلن سلطة الحاكم بأنها عقد بينه وبين الشعب الذي يحكمه^(١). كما أنه يعلن^(٢) بأن الملك إن هو تخلى عن القانون فى حكمه وأصبح طاغية، فإنه بهذا يعصف بالعقد مع شعبه الذى فوضه أساسا بالحكم، ويأن للشعب فى هذه الحالة الحق فى خلعهم عن العرش وهذه الأفكار عن سيادة القانون والعدالة كأساس للحكم والدولة كقاعدة للقانون الطبيعى أو المدنى قد استقيت من نصوص عن شييتسرون والفلاسفة الرواقيين والمخلفين الرومان، والتى تتكرر كثيراً فى كتابات جون من سالزبورى، الذى استعان فى بلورة أفكاره أيضاً بأفكار القديس أغسطينوس، فى "مدينة الله" وكذا بأفكار القديس إمبروز عن "الوظائف".

ومع أن جون من سالزبورى لم يقدم نظرية متكاملة تماثل نظرية ماينجولك من لاوتنباخ، فإنه قد أكد على أن الأمر ليس فوق طائلة القانون، وأنه رغم ما قد يزعمه حملة المباخر عن الناس، عن "سيدهم" الأمير، فإنه لا يوافق على أن تكون لهذا الأمر حرية مطلقة تتجاوز حدود القانون.

ولكن ماذا كانجون ولا وتنباح يقصدان على وجه التحديد؟

إن جون من سالزبورى كان يضع فى اعتباره "وهذا هو شغله الشاغل" فكرة القانون الطبيعى كما نادى بها الرواقيون، التى يجب أن تكون النموذج الذى تحتذى به القوانين الوضعية جميعاً وعلى هذا فإن الأمير ليس حراً فى وضع القوانين التى تتعارض مع القانون الطبيعى أو العدالة أو الإجماع الشعبى، ويقدر ما تتفق القوانين الوضعية مع القانون الطبيعى والعدالة عادة ما تحدد هوية الحاكم، إن كان أميراً صالحاً أم طاغية فإن انصرف الحاكم إلى إنقاذ أسس القانون الطبيعى والعدالة الطبيعية فهو أمير بحق، أما إن هو يصف بهذه التواجد الطبيعية، فإنه يتحول إلى طاغية يحكم وفق أهوائه ونزواته، وبذلك يخرج عن أمانة أداء وظيفته كما ينبغى.

(1) Liber ad Gebehardum, 30, and 47.

(2) Ibid., 47.

ولعلنا نتساءل أيضاً: هل كان جون من سالزبوري يقصد شيئاً محدداً في قوله بضرورة خضوع الأمير لأحكام القانون؟ إن جون هنا يردد ما كان متداولاً بين المعاصرين من أن الأمير يخضع للقانون، بمعنى ضرورة أن يتوافق أسلوب حكمه مع العرف السائد وتقاليد الأسلاف والنظم المحلية القائمة التي أخذت تتبلور مع مرور الوقت، ومع أنه لم يهتم كثيراً في كتاباته السياسية بالتقاليد الإقطاعية السائدة في زمانه، بل اعتمد على كتابات الروماني القدامى، إلا أنه يعكس النظرة العامة الشائعة بين الناس في وقته حول هذا الأمر، وذلك من نظريته للقانون الروماني، وهو في نفس الوقت لا يقبل رأي المحلفين الرومان ومؤداه أن ما يرغب فيه الأمير من رأي يصبح له فعالية القانون، ولا ينطبق هذا الرأي على الملوك الإقطاعيين في عصره.

ولكن حيث إن جون قد امتدح القانون الروماني واعتبره من أهم الركائز الحضارية لأوروبا، فقد كان لزاماً عليه أن يقدم تفسيراً لرأي المحلفين الرومان، دون أن يتخلى عن أفكاره بضرورة تقييد سلطة الأمير.

لو أننا نظرنا إلى أصحاب مقولة المحلفين الرومان التي تخول للأمير صلاحيات مطلقة، فإننا نجد على رأسهم مفكراً اسمه أوليبان، وهو محام كان يحاول تبرير صلاحيات الإمبراطورية وإضفاء الشرعية على سياساته، والواقع أن رجال القانون في العصر الجمهوري لروما كانوا ينادون بسيادة القانون ضرورة خضوع القضاء لأحكامه، ولكن عندما حل حضر الإمبراطورية الرومانية المقدسة، صار الإمبراطور نفسه واحداً من مصادر القانون الوضعي، وكان على رجال القانون أن يسارعوا بتقديم مشروعية لهذا التفسير.

ويرى أوليبان أنه على الرغم من أن السلطة التشريعية للإمبراطور مستمدة من الشعب الروماني، فإن هذا الشعب وفق قانون الحكم (Lex regia) ينقل هذه الصلاحيات إلى شخص الإمبراطور، وبهذا تكتسب إرادة الإمبراطور وقراراته قوة القانون نفسه، وبهذا فإن أوليبان إنما يفسر شرعية القرارات التي تصدر عن

الإمبراطور، ولكنه لم يكن في هذا بصدد طرح نظرية سياسية يبررها تجاوز الإمبراطور لحدود العدالة الطبيعية والمبادئ الأخلاقية.

وفى تعليقه على رأى أولبيان، يقول جون من سالزيوري إن أولبيان لا يقصد بمقولته أن يبرز أية مظالم تقع من جانب الأمير، وإنما يقصد أن يلتزم الأمير بقواعد العدالة الطبيعية النابعة من حب حقيقى لروح العدالة، وليس خوفاً من العقاب الذى لا ينطبق على شخصه كأمر: يفهم من هذا أن جون من سالزيوري كان بدوره يعبر عن الشعور السائد فى عصر الإقطاع بين رجال القانون، ومن ثم فهو لا يناقض مقولة أولبيان^(١).

على أنه فى أواخر العصور الوسطى، عندما قام بعض المنظرين السياسيين بتطبيق مقولة أولبيان عن صلاحيات الإمبراطور على الملوك من قوميات أوروبية مختلفة، فقد فسروا هذه الصلاحيات فى إطار من مفهوم الحكم المطلق، وبذلك تباعدوا عن وجهة النظر السائدة فى العصور الوسطى، وحاولوا مقولة أولبيان القانونية إلى عبارة مجردة من ثوب نظرية سياسية عن الحكم المطلق^(٢).

وخلاصة القول أن جون سالزيوري كان يقر سمو السلطة الكنسية على السلطة الزمنية "لأن الأمير بين الأمر وبين الطاغية، موضحاً أنه من المشروع أيضاً قتل الطغاة؛ لأن الطغيان مناهض للصالح العام، ومن ثم ينبغى القضاء عليه، وإن كان لا يحبذ استخدام السم فى التخلص من هذا الطاغية أو ذاك!.

(1) Polycrat., 4, 3.

(2) Ibid., 8, 10.

الفصل السابع عشر

مدرسة سان فيكتور

هيو من سان فيكتور :

البراهين على وجود الله. الإيمان. التصوف -

ريتشارد من سان فيكتور: البراهين على وجود الله

جودفري من سان فيكتور - والتر من سان فيكتور

كان دير سان فيكتور خارج أسوار باريس منصوباً تحت لواء التقاليد الرهبانية الأغسطينية، وكنا قد ذكرنا أن وليم شامبو قد اعتزل الدنيا إلى هذا الدير بعد أن أفحمه خصمه الفيلسوف بطرس آييلارد ولكن المدرسة اشتهرت وترجع شهرة هذا الدير بوجه خاص إلى مفكرين مرموقين، أحدهما ألماني وهو هيو من سان فيكتور، والثاني إسكتلندي وهو ريتشارد من سان فيكتور:

١ - هيو من سان فيكتور:

ولد هيو في ولاية سكوفيا سنة ١٠٩٦ لأسرة نبيلة، وتلقى تعليمه المبكر في دير هامر أليبة على مقربة من مدينة هالبرشان، ويعد أن ارتدى مسوح الرهبان قصد إلى باريس سنة ١١١٥ ليواصل دراساته في دير سان فيكتور، وفي سنة ١١٢٥م بدأ يحاضر في هذا الدير، وبدءاً من سنة ١١٣٣م حتى وفاته سنة ١١٤١م صار مشرفاً على هذه المدرسة، وكان واحداً من أبرز اللاهوتيين في عصره؛ إذ كان متضلعا في العقيدة والتصوف، كما أنه لم يكن معادياً لدراسة الآداب، شريطة ألا تحيد عن جادة الصواب، بقصد الارتقاء بعلوم اللاهوت والمعرفة بشكل عام، من أقوال هيو الماثورة،

اطلبوا العلم بكل فروعه وسوف تجدون أن العلم ينفع ولا يضر^(١)، وأهم أعمال هيو من وجهة النظر الفلسفية كتاب "ديداسكاليون" "ميثاق العلم والتعليم" الذي يقع فى سبعة أبواب يعالج فيها الفنون السبعة الحرة "فى ثلاث أبواب" واللاهوت "فى ثلاث أبواب" والتأمل الدينى فى "باب واحد" ويلاحظ أن كتابات هيو اللاهوتية عن الأسرار الكنسية تمثل أهمية بالغة لللاهوتيين، وكذلك قام هيو بعقد مقارنة بين بعض الشروح الدينية والأفكار الصوفية، إلى جانب تعليقات عن كتاب "الهايرياركية السماوية" لديونسيوس المنحول، مستعينا بترجمة جون سكوتوس إيرجينا اللاتينية لهذا الكتاب.

وكنا ذكرنا فى موضع سابق جهود هيو فى تصنيف العلوم، ضمن حديثنا عن الحركة الفكرية فى القرن الثانى عشر، فى إطار استخدام الديالكتيك فى علوم اللاهوت، كذلك عرجنا على نظريته فى التجريد، عند معالجتنا لقضية الكليات^(٢). وهاتان النقطتان الأخيرتان تدلان على تأثر هيو بالفكر الأرسطى، فى حين أن معالجاته السيكلوجية تتسم بالذوق الأغسطينى، ومن أقوال هيو الشهيرة لا يوجد إنسان عاقل لا يدرك أنه موجود، ومع ذلك فإن الإنسان عندما يبدأ فى التفكير فى هويته أو كينونته، فإنه يذهب إلى أن كل ما يلخصه الناس عنه أو يمكنهم ملاحظته عنه أبعد ما يكون عن كيانه الفعلى، والسبب هو أن الملكة العقلية التى تكمن فى دواخلنا، رغم اتحادها مع الجسد، تظل متميزة بعقلانيتها عن الجسد المادى، ومن ثم فهى شىء مختلف تماماً^(٣)، وبمعنى آخر فإن الوعى والاستبطان السيكلوجى يشهد أن ليس فقط على وجه الروح وإنما أيضاً على عدم "ماديتها" ويقرر هيو أن الروح كيان خاص بالذات، كما أنها، تملك عقلانيتها، "الروحانية" وشخصيتها من خلال ذاتها، فى حين أن الجسد لا يزيد عن كونه عنصراً مشاركاً فى الشخصية الأدمية، أو فى شراكة مع الروح العقلانية^(٤)، ويقول هيو

(1) P.L., 167, 800E.

(2) See P. 153 (in the original English text).

(3) P.L., 176, 825A.

(4) Ibid., 176, 409.

إن الاتحاد بين الروح والجسد هو من قبيل "الإضافية" أكثر من كونه من باب التركيب^(١).

لقد قدم هيو إسهامات هامة في تطوير اللاهوت الطبيعي من خلال جدلية "بعدية aposteriori" تقوم على الخبرة الذاتية والخارجية أيضا. وهو منطلق في برهانه من وعى خبري ذاتي من منظور عقلاني لا مادي، وهو يقول في ذلك بأن الوعي بالذات أمر ضروري لوجود الكائن العاقل، وبالنسبة للروح فإنه يعتقد أنها لم تكن دوما على وعى بوجودها في زمن معين، وإنما اكتسبت هذا الوجود من الله^(٢).

وهذا البرهان الذي يقدمه هيو مبسّر إلى حد ما، وهو يتضمن بعض المسلمّات المنطقية عن عقلانية المبادئ الأولى، وأنه من المستحيل أن نتتبع التسلسل الروحي إلى ما لا نهاية. وهذا البرهان الذاتي يذكرنا بأقوال القديس أغسطينوس إن كان أغسطينوس قد ركز على معرفة الروح للحقائق الأزلية من خلال الخبرة الطبيعية لوعي الروح بذاتها.

أما البرهان الثاني الذي يقدمه هيو، فهو قائم على الخبرة الخارجية من واقع الحياة المعيشة، وحقيقة تبدل الأحوال وتغيرها، فالأمر جميعها تقوم لها قائمة ثم تنتهي بالزوال، ومحصلّة هذا كله وجود بداية يتركز على المولد والحياة ثم الزوال، وهذه البداية الأولى تتطلب بالضرورة وجود علّة أولية لأشياء ليس لها ديمومة؛ لأنه مقضى عليها بالانتهاء، ومعنى كل ذلك أن كل الأشياء قد تأتت عن "على" خارجة عن ذاتها^(٣). إن هذا البرهان "الخارجي" نجده عند القديس يوحنا الدمشقي^(٤) في كتابه "العقيدة الأرثوذكسية". وإن كان هيو يحاول أن يبيّن في طرحه بعض نقاط الضعف في رؤية الدمشقي.

(1) Ibid., 176, 219.

(2) De Sacramentis, 3,7, P.L., 176, 219.

(3) Ibid., 3, 10, P.L. 176., 219 and Sent., I, 3, P.L. 18, 46.

(4) I. 3, P.G., 94, 796 A.

وبالإضافة إلى برهان التبدل والتغير، فإن هيو يطرح برهانا "غائبا" أيضا في أفكاره^(١) فهو يقول إننا لو نظرنا إلى عالم الحيوان، فإننا نلاحظ أن الحواس والرغبات الحيوانية تجد ما يشبعها في أشياء هذا العالم بحركة التنوع، الذي غالبا ما يتم في شيء من الانسجام والتناغم، ويلاحظ أيضا أن التطور أو اكتساب الشيء لخواص جديدة لا تتأتى من ذات الشيء بدون محرك خارجي محفز. ومن هذا يخلص هيو إلى أن العوامل الثلاثة "من تغير وتناغم وتطور" تفقد فكرة "الصدفة" وتشير إلى وجود عناية كبرى وراء هذه التطورات في مسيرة الأشياء "طبقا للناموس"^(٢).

قد لا يبدو هذا البرهان الأخير مقنعاً تماماً بالصيغة التي يطرحها هيو، ولكنه يقول إنه يستند في رأيه إلى قرائن خبرية، يذكر أيضا أن هيو قد تبنى نظرية وليم من كونش عن البنية الذرية للمادة، وبأن هذه الذرات أجسام بسيطة، قادرة على النماء والتطور^(٣).

من هذا العرض يتضح أن هيو من سان فكتور كان مقتنعا بكتابه المعرفة الطبيعية في التوصل إلى حقيقة وجود الله، بشرط أن يكون هذا مقرونا بالإيمان؛ لأن الإيمان هو "عين التفهم Ocutus Contemplationis التي من خلالها تتمكن الروح من معاينة الله، بعد أن أثقلتها الخطايا بغشاوة الظلمة والجهالة، كما أن الأسرار التي تتجاوز طاقة العقل البشرى لا يمكن تفهمها إلا من خلال إيمان القلب، وحيث أن هذه الأسرار تفوق طاقة العقل البشرى، فإن الوحي السماوى والإيمان يصبحان ضرورة للتفهم والإدراك وهذه الأسرار، رغم أنها متساوقة مع العقل السليم، ويمكن أن تصبح موضوعا للمعرفة، فإنها في النفس البشرية مهما بلغت قدرته يظل عاجزاً وقاصراً بعد أن أصابته ظلماء الخطيئة.

(1) P.L., 176, 826.

(2) Cf. De Fide Orthodoxa, I, 31, P.G., 94, 795B.

(3) De Sacramentis, I, 6, 37, P.L., 176, 795B.

وإذا نظرنا إلى المعرفة في حد ذاتها- فيما يقول هيو- سوف نلاحظ أنها تحتل موقعا مرموقا بالنسبة لموقع الإيمان، لأنه في حين أن الإيمان ينطوى على التسليم بأشياء غيبية، فإن أهل المعرفة يتجاوزن مجرد الإيمان المتواتر بأعمال العقل وملكانه. ولا يعنى هنا أن هيو من سان فكتور ينتقص من قدر الإيمان؛ لأنه يعود ليصرح بأنه مهما بلغ مقدار المعرفة، إلا أنها لا تكفى لتكون بديلا عن الإيمان "وهذا بخلاف ما قال به الفيلسوف هيجل فى عصرنا الحديث".

ومع أن "عين التفهم" قد شابهها الظلام بفعل الخطيئة، إلا أن العقل يمكنه أن يتعالى على درج التأمل بمعانية الله، وذلك بفضل النعمة الإلهية، ويعنى هذا أن التصوف الروحاني يمثل عند هيو قمة المعرفة، وليس هنا المقام للخوض تفصيلا فى أفكار هيو عن التصوف والزهد، ولكن يجب ملاحظة أن تصوفه لم يكن من باب الترف الروحي، وإنما هو جانب أساسى لتركيبته اللاهوتية الفلسفية، فهو فى مجال الفلسفة يسوق البراهين على وجود الله من خلال مملكة العقل الطبيعية، أما فى مجال اللاهوت فإن العقل ينطق عن طبيعة الله من خلال الديالكتيك كأداة لفهم الأسرار الإلهية على قاعدة راسخة من الإيمان.

ومع ذلك فإن المعرفة الفلسفية واللاهوتية عن الله لا ترقى إلى الخبرة الذاتية الصوفية، التى بفعل المحبة يمكنها أن تصل إلى المدارك الأعلى للفهم، ومن ناحية أخرى، يعتقد هيو- بأن هذه المعرفة الصوفية لا تمثل الرؤية الكاملة؛ لأن الحضرة الإلهية عندما تغمر الروح المتطلعة إلى فوق بتورانياتها تجعل الروح عاجزة عن المعاينة. وعليه فإن معرفة الله سواء عن طريق الإيمان أو من خلال الروح الصوفى تظل فى مقام أدنى من مقام المعاينة الطوباوية للسماوات.

٢ - ريتشارد من سان فكتور:

ولد ريتشارد في إسكتلندا ثم قدم إلى باريس في صدر شبابه لينضم إلى دير سان فكتور حتى اختير وكيلا لمقدم الدير سنة ١١٥٧م، ثم مقدما لنفس الدير سنة ١١٦٢، وقد تفوى ١١٧٢م.

وقد ابتلى دير سان فكتور بوقت عصيب خلال هذه الفترة؛ لأن رئيسه إرفيزيوس، وهو إنجليزي الأصل، كان متلافا لموارد الدير وقواعده جميعاً، حتى إن البابا السكندر الثالث قد وصفه بأنه "قيصر آخر" وأجبره على الاستقالة من منصبه سنة ١١٧٢م، أي قبل عام واحد من وفاة ريتشارد، ورغم قسوته وتسلبت رئيس الدير، فإن ريتشارد قد قدم للرهبانية قنوة حسنة، وحياة نظيفة وأفكاراً ممتعة.

ويعد ريتشارد من الشخصيات الهامة في الفكر اللاهوتي للعصور الوسطى، وأهم أعماله كتاب "من الثالث" في ستة أبواب، كما أنه كان فيلسوفاً ومتصوفاً، وقد وضع كتابين عن حياة التأمل بعنوان: "بنيامين الصغير" و"بنيامين الكبير" الأول للإعداد الروحي لحياة التأمل، الثاني عن نعمة حياة التأمل، وبهذا يكون ريتشارد خلفاً جديراً لسلفه هيو من سان فكتور.

لقد أكد ريتشارد- كما فعل سلفه هيو- على ضرورة استخدام العقل في تقصى الحقيقة فهو يقول: كثيراً ما قرأتُ عن وحدانية الله وأزليته وعظمته وقدرته وسلطانه على كل شيء- لقد قرأتُ عن إلهي أنه واحد في جوهره، من ثلاث أقانيم.. هذا كله قد أطلعت عليه، ولكنني لا أتذكر أنني قرأت كيف يتأتى للمرء أن يقيم البرهان على كل هذه الأمور..^(١) ويضيف على ذلك قوله: إن الثقات في هذه الأمور كثيرون، ولكن أقوالهم خالية من جدلية التمهيص والخبرة، أن أضطلع بهمة جديدة عليها تفيد العقول المجتهدة من الباحثين ولو بقدر قليل، إن لم أتمكن من إقناعهم إقناعاً تاماً.

(1) De Trinit., I, 2, P.L., 195, 893 BC

إن هذه العبارات تحمل بين ثناياها روح القديس أنسلم وشعاره القائل "إننى أؤمن لكى أتفهم" ويعنى ذلك أن ريتشارد يسلم مقدما بقواعد العقيدة، ولكنه يمضى بعد هذا الإيمان محاولاً تفهم هذه العقيدة والبرهنة على حقيقتها، ومثلما فعل القديس أنسلم فى محاولته للتدليل على "الثالوث" من خلال ما أسماه "العلل الضرورية" فكذلك فعل ريتشارد بدوره فى بداية كتاب "عن الثالوث"^(١) إننى أسعى بعون من الله إلى التوصل إلى البراهين الممكنة، بل والضرورية لتثبيت هذا الإيمان.

وهو يقول أيضاً إنه انطلاقاً من وجود "علل ضرورية" لما هو قائم بالضرورة، فإن مسألة الثالوث فى واحد تبنى هى أيضاً على ضرورة وعلية، ويعترف ريتشارد فى نفس الوقت أن تفهم أسرار عقيدة الثالوث مسألة عويصة على العقل البشرى، ولكن هذا لا يمنع محاولة تفهم الأقانيم الثلاثة من خلال فهمنا للمحبة الإلهية التى تجمع بين هذه الأقانيم^(٢).

لقد كان لأفكار ريتشارد عن الثالوث تأثير واضح على أتباع مدرسة اللاهوت الطبيعى، كما أن البراهين التى قدمها على وجود الله تعد براهين هامة من وجهة النظر الفلسفية، ففى تقديره أن مثل هذه البراهين ينبغى أن تقوم على الخبرة؛ ينبغى أن نبدأ من الأشياء التى لا نشك فيها، من خلال هذه الأشياء اليقينية من واقع خبراتنا يمكننا أن نعمل عقولنا فى الأشياء التى تتجاوز هذه الخبرات نفسها^(٣) وهذه الأشياء التى نخبرها هى أمور عرضية، لها بداية ونهاية، ومن ثم فهى ليست من الضرورة فى شىء، لأننا لا نستطيع الحكم عليها - أى قبل وجودها - بصورة قبلية - apriori وإنما نحن نعرفها فقط من خلال خبراتنا الواقعية بها^(٤).

(1) P.L., 196, 892C.

(2) Ibid., 196, 72A.

(3) Ibid., 196, 884.

(4) P.L., 196, 892.

إن نقطة البداية فى هذا الرأى تعتمد على خبرتنا مع الأشياء العارة، ولكن لكى تصبح أحكامنا سليمة لابد لنا من الانطلاق من قواعد تستند إلى حقائق^(١)، بمعنى ضرورة الاعتماد على مبدأ يقينى، وهذا المبدأ يقر بأن كل شىء له وجود أو سوف يكون له وجود لابد وأن له كيانا من ذاته أو من خارج ذاته، ويعنى هذا أن كل ما هو موجود أو سوف يكون له وجود يستمد كينونته إما منذ الأزل أو عند لحظة زمنية معينة، ووفقا لهذا المبدأ بحديه المتناقضين "الأزل لا الميقات" يقسم الوجود إلى الأقسام التالية:

١ - وجود منذ الأزل ومن ذاته.

٢ - وجود ليس من الأزل وليس من ذاته.

٣ - وجود من الأزل ولكن ليس من ذاته.

٤ - وجود ليس من الأزل ولكن من ذاته.

وهذا التقسيم الرباعى قابل للاختصار إلى ثلاث أقسام فقط؛ لأن الشىء الذى ليس من الأزل ولكن من ذاته أمر مستحيل، نظرا لانتفاء الضرورة فى هذا الشىء^(٢)

وبالنسبة للأشياء التى ندركها عن طريق الخبرة فى حياتنا العادية، سواء فى مملكة البشر أو ممالك الحيوان والنبات وفى الطبيعة بشكل عام، فهى أشياء عرضية وهالكة؛ لأن لها بدايات فى وقت ما من الزمن، ومن ثم فهى ليست أزلية، وهذه الأشياء لا يمكن أن تكون قد وجدت من ذاتها، وإنما هى قد تلت بفعل محرك خارج هذه الأشياء، ومؤدى هذا كله أنه لابد من التسليم بوجود موجود من ذاته، أى موجود بالضرورة، لأنه بدون الموجود الضرورى ينتفى وجود أى شىء آخر، فعالم على سبيل المثال، هو أيضا عرضى لا يمثل وجوداً من ذاته؛ لأنه يتألف من أشياء عرضية وإلى زوال.

(1) Ibid . 196, 893.

(2) Cf., ibid . 196, 893.

يلاحظ أن ريتشارد يخالف القديس أنسلم في بعض البراهين، ثم يتبنى أفكاره في براهين أخرى^(١)، فهو يقول بأن واقع الخبرة هو الذي يبين للإنسان درجات ومراتب الخير أو الكمال، كما أن الشيء المعقول يأتي في مقام أعلى من الشيء غير المعقول، ومن هذا المنطلق الخبرى يحاج ريتشارد بأن هذا التسلسل إلى أعلى في المقامات لا بد وأن يصل بنا إلى القمة التي لا يعطوها شيء آخر. ولما كان الشيء المعقول أسمى من الشيء اللامعقول، فلا بد من التسليم بأن هذا الجوهر الأعلى لا بد وأن يكون العقلانية المطلقة، التي لا تستمد خواصها مما هو أدنى منها درجة، مما يعني أيضا أن هذا الكيان وجوهه منبثق من ذاته، فالجوهرة الأعلى إذن أزلى بالضرورة ومن ذاته أيضا، وهو الكائن الضروري الوجود.

وفي الخطوة التالية يحاول ريتشارد البرهنة على وجود الله من فكرة "القدرة" الريانية^(٢)، بمعنى أن لا شيء في الكون يمكنه الوجود ما لم يملك "القدرة" على الوجود من ذاته أو من خلاله قدرة أخرى.

كما أن الشيء الذي ليس له القدرة على الوجود ليس له وجود ألبته، ولكي بوجود شيء ما فلا بد له أن يستمد هذه الصفة من نبع القدرة الأعلى، وهذه القدرة العليا هي مصدر وجود كل الأشياء، ولا بد وأن تكون موجودة من ذاتها، وعلى هذه القدرة يعتمد كل جوهر وسلطة وحكمة، وبهذا لا بد من التسليم بأن هذه القدرة هي الجوهر الأعلى ومنبع كل جوهر آخر وكل حكمة أخرى، وخلاصة هذا أن أصل كل قدرة بأشكالها المتعددة والمتنوعة هو الجوهر العلوى.

هذا الطرح الذي يقدمه ريتشارد من وجهة النظر العقلانية، كما يقول يسمو على وجهة النظر الخيالية التي نلاحظ بها أحوال هذا العالم. والمنهج العقلاني "التأملي" هو الذي يمكننا من التأمل في الخالق ذاته، ذلك أن المستوى الأدنى لمعاينة الأشياء يتم من

(1) De Trinit., I, 11, P.L., 196, 895-6.

(2) De Trinit., I, 12, P.L., 196, 898.

خلال الحواس بطريقة مباشرة، أما المستوى الأوسط الذى يعتمد على منطقة العلية وتتأجها فإنه يدرك الأشياء غير المحسوسة، ولكن المستوى الأعلى يتمثل فى التأمل فى الأشياء غير المرئية وصولاً إلى معاينة الحضرة الإلهية^(١).

إن مستوى التأمل هو المقابل الروحى للإدراك الحسى، من حيث المعاينة المباشرة، ويكمن الخلاف بين التأمل والحس فى أن التأمل مساق روحانى قبالة الروحانية الكاملة. لقد كان الأفكار ريتشارد من سان فكتور وتقسيمه المعرفة إلى ست درجات، بدءاً من إدراك جمال الله فى صنائعه الجميلة ووصولاً إلى تحقيق الروح بفعل النعمة الربانية تأثير بالغ على القديس بوناڤتورا فى كتابه "رحلة العقل قبالة الله".

٣ - جودفرى من سان فكتور (ت ١١٩٤م) :

كتب جودفرى كتاباً بعنوان "ينبوع الفلسفة" صُنّف فيه العلوم المختلفة معرجاً على كل من أفلاطون، وأرسطو، وبوثيوس، وماكروبيوس، مع تخصيص فصل كامل لقضية الكليات والجدل الذى دار حولها.

أما والتر من سان فكتور (ت بعد ١١٨٠م) فهو الذى وضع كتاباً مشهوراً بعنوان "ضد أهل التيه الفرنسيين الأربعة" وهم بطرس أبيلارد، ويطرس لومبارد، ويطرس من بواتييه، وجلبرت دى لابورييه، الزمن كانوا ممثلين للديالكتيك اللاهوتى ولقد نعت والتر هؤلاء الأربعة بالتزديد فى فهم أرسطو، وبالتطاول على الثالوث المقدس والتجسد قائلاً: إن هؤلاء الأربعة قد تقيأوا الكثير من الهرطقات فى روح من الاستخفاف المدرسى والأصائل.

(1) De gratia Contemplationis, 1, 3, 7, P.L., 196, 66 CD, 72C.

ويعنى هذا أن ولتر كان من مدرسة "المحافظين" المتزمتة، التى لا تمثل الروح الحرة التى اشتهرت بها مدرسة سان فكتور، والتى أخرجت مفكرين مرموقين من أمثال هيو الألمانى، وريتشارد الإسكتلندى، اللذان مزجا بين الفلسفة واللاهوت والديالكتيك والتصوف.

وفى جميع الأحوال فإن عقارب الساعة لا يمكن أن تنور إلى الوراء؛ لأن اللاهوت الديالكتيكى كان قد فرض نفسه على الساحة ليزدهر فى القرن التالى فى توليفة فكرية جديدة .

الفصل الثامن عشر

أتباع مذهب الثنائية وأصحاب نظرية وحدة الوجود
الألبجنزيوم والأطهار - أما لريك "عمودي"
من بينى Bene - داود من دينانت
من كتاب "المناجاة" (Monilogium)

١ - فى القرن الثالث عشر شن القديس دومينيك هجوما عنيفا ضد الطائفة المعروفة باسم "الألبجنزيين" "نسبة إلى بلدة ألبى Albi فى الجنوب الفرنسى". وهذه الطائفة، مثلها فى ذلك مثل بقية جماعات الأطهار Katharoi قد انتشرت أتباعها فى جنوب فرنسا وفى إيطاليا فى القرن الثانى عشر، ويعتقد هؤلاء فى مبدأ الثنائية على طراز ما قال به المانوييون "أتباع مانى الفارسى" وقد وصلت هذه الأفكار إلى الغرب الأوروبى عن طريق النحلة البيزنطية، وهذه الثنائية التى نادى بها هؤلاء وأولاء تقوم على فكرة وجود مبدئين أساسيين: مبدأ الخير ومبدأ الشر، أما المبدأ الأول فهو مصدر الروح، فى حين أن الثانى مصدر الجسد والمادة بشكل عام، وقد خلاص هؤلاء إلى أن الجسد فاسد، ولا بد من قهره عن طريق الزهد، كما أنهم حقروا الزواج والإنجاب.

وقد يبدو غريبا أن مثل هذه الآراء تجد رواجاً فى المجتمع الغربى اللاتينى، ولكن لابد وأن تذكر أيضا دعاة هذه الثنائية قد قصروا هذه القواعد الصارمة على القلة من أهل "الكمال" فى حين أنهم قد غضوا الطرف عن بقية أفراد الجماعة من عامة الناس، شريطة أن يحصلوا على "جل" "مغفران" من أحد "الكاملين" قبل لحظة وفاتهم، واقتدرت الدوائر الكنسية والمدنية فى إدانة بشدة؛ لأنها كانت تنظر إلى الزواج كمرادف لجريمة الزنا، كذلك استنكر هؤلاء الأطهار أداء البشر للقسم أو الحلفان، كما أنهم أدانوا الحروب بكافة أشكالها.

كان طبيعياً أمام هذه الآراء المغريبة أن ينظر المجتمع اللاتيني إلى هذه الجماعات على أنها تمثل خطراً كبيراً على الحضارة المسيحية، وهناك طائفة أخرى عرفت باسم "الولدانيين" أتباع والدو الذين لازالت لهم بقايا في أوروبا، وهي ترجع في أصولها إلى حركة الأطهار وتمثل طائفة من أتباع المذهب الثنائي، وإن كانت قد ذابت فيما بعد في حركة الإصلاح الديني ووقفت مع البروتستانت في مناهضة الكنيسة الرومانية والكهانة^(١).

٢ - أما لريك من بنى Bene:

ولد أما لريك "عمودي" على مقربة من بلدة شارتر، وكان أستاذاً للاهوت في باريس حوالي ١٢٠٦/١٢٠٧م، وقد نقل عن القديس توما الإكويني قوله^(٢):

"قال البعض إن الله هو المبدأ الصوري لكل الأشياء، وهذا ما كان ينادى به أتباع عمودي، أما مارتن البولاندي فيقول بأن عمودي كان يعتقد أن الله هو جوهر كل الخلاق ووجودها.

ويبدو أن عمودي قد تبنى أفكار كل من جون سكوتوس إريوجينا، وثيودريك من شارتر، وكلامبالد من أراس في هذه القضية، بل إنه مضى إلى حد القول بأن أقانيم الثالوث مخلوقات متجسدة، مثلما صارت كلمة الله جسداً في شخص المسيح، وانطلاقاً من هذا الاعتقاد، راح بعض أتباع عمودي يقولون بأن الخطيئة ليست مفهوماً حقيقياً؛ لأنه طالما أن الإنسان من صنع الله، فلا يمكن للخطيئة إذن أن تفسده.

والحق أننا لا نملك من الأدلة ما يكفي للحكم على نظرية عمودي من حيث اعتقاده في وحدة الوجود، ومع ذلك فقد تمت إدانة عمودي بالهرطقة، وكان عليه أن يعلن

(١) هناك ندرة في معلوماتنا عن الألبنزيين، كما أن تاريخ هذه الطائفة يتسم في أغلبه بالغموض (المؤلف).

(2) S.T., Ia, 3, 8, In Corpore.

تراجعته عن كل آرائه^(١)، التي تمت إدانتها بشكل رسمي مع آراء جون سكوتوس إريوجينا، سنة ١٢١٠م أى بعد وفاة عمودى ببضع سنين.

٢ - وإذا كان عمودى من بنى Bene قد نادى بأن الله هو أصل كل الأشياء وصورتها، فإن مفكراً آخر اسمه داود من دينانت Dinant قد قال بأن الله هو المادة "الهيولى" الأولى التى هى الأصل لكل الأشياء، وواقع الأمر أننا لا نعرف المشىء الكثير عن حياة داود هذا، أو عن المصادر التى استمد منها أفكاره، التى أدينت جميعها فى سنة ١٢١٠م، وتم تحريم تداولها فى باريس سنة ١٢١٥م، ويعزى إليه القديس ألبرت الكبير كتاباً بعنوان "التقسيمات De Tois, hoc est divisionibus فى حين أن مجمع باريس المنعقد سنة ١٢١٥م، قد عزا إليه كتاباً آخر بعنوان "الرباعيات" Quaternior Quaternuli وعلى هذا فإننا نعتد فى تعرف آراء داود هذا من خلال مقتبسات عنه وردت عند ألبرت الكبير، والقديس توما الإكوينى، ونقولاً من كوزا Cusa .

يقول توما الإكوينى^(٢) أن داود من دينانت قد نادى بطريقة غيبية بأن الله هو المادة الأولى، وبأنه قد قسم الأشياء إلى ثلاث مراتب^(٣): الأجساد، والأرواح والجواهر الأزلية، أما الأجساد فهى من صلب المادة "الهيولى"، وأما الأرواح فهى من العقل، وأما الجواهر الأزلية فهى من الله، وهذه المكونات الثلاثة الأصلية غير قابلة للقسمة أو الافتراق ، فهى فى واحد كلى. وعليه فإن كل الأجساد هى أشكال الكائن أصلى غير منقسم "هو الهيولى" كما أن كل الأرواح هى أشكال الكائن واحد كل هو العقل، وهذا أن الأصلين "الهيولى والعقل" هما الله الواحد الذى هو الجوهر الواحد.. إن كل الأجساد لها جوهر واحد، وكذلك الأمر بالنسبة للأرواح، وهذا الجوهر الأصلى هو الله نفسه، فالله هو جوهر كل الأجساد والأرواح.. إن الله هو الهيولى والعقل جميعاً فى جوهر واحد^(٤).

(1) S.T., Ia, 4, 20, Quaeest incidentis.

(2) Ia, 3, 8, In Corpore.

(3) 2, Sent., 17, 1, 1.

(4) S. Aib. M. S.T., IIa, t. 12, q. 72, membr. 4, a. 2, n. 4.

لقد حاول داود من دينانت التدليل على وجهة نظره بالمحاجة الديالكتيكية، فهو يعتقد أن اختلاف جوهرين أحدهما عن الآخر، لا بد وأن تكون له مرجعية تحسم هذا الاختلاف، وهذه المرجعية تحتم وجود عنصر عام مشترك يحتكم إليه عند الاختلاف، فإذا كانت الهيولى تختلف عن العقل، فلا بد وأن تكون المرجعية كامنة في الهيولى الأولى "التي تجمع بين الهيولى والصورة معا" وهذا يقودنا إلى سلسلة تراجعية لا نهائية^(١).

وتبدو القضية- كما يسوقها توما الإكويني عن داود من دينانت^(٢) - أنه عندما لا تختلف الأشياء واحدها عن الأخرى، فهي إذن نفس الشيء الواحد، أما في حال الاختلاف بين شيء وشيء آخر فلا بد من وجود مرجعية تحكم هذا الخلاف، وهذه المرجعية هي الله، الهيولى الأولى، والواحد الكلّي الذي لا يتفصل.

ويعقب توما الإكويني على ذلك بقوله إن الأشياء التي لها كيائها الخاص كما هي الحال في الإنسان أو الحصان على سبيل المثال، يختلف كل منهما عن الآخر، ولكن الأشياء الأولية البسيطة ليس فيها هذا الاختلاف، وإنما يمكن القول إن بها "تنوعا" *diversa esse* وليس خلافاً، ويمضى توما الإكويني ليتهم داود بالتلاعب بالألفاظ والمصطلحات عن الله والمادة بطريقة تؤدي إلى فهم وجود خلاف بين الله والمادة "الهيولى".

ويمكن هنا أن نتساءل: لماذا أولى كل من ألبرت الكبير وتوما الإكويني كل هذا الاهتمام بأفكار داود حول وحدة الوجود بطريقته الديالكتيكية؟ .

أغلب الظن أنه جانب مصادفة آراء داود من دينانت رواجاً في الأوساط الفكرية، فإن الديالكتيك الذي اتبعه في هرطقته "حسب موقف اللواتر الكنسية" كان يمثل اتجاهاً نحو الفكر الأرسطي، ورغم الخلاف حول المتابع التي استقى منها داود أفكاره تلك، فإن الاتجاه العام أنه قد اعتمد على النظرية المادية التي قال بها أرسطو في

(1) Ibid., Ia, t. 4, q. 20, member. 2, In Metaph., t. 4, C7.

(2) S.T., Ia, 3,8,ob,3.

كتابيه "الفيزيكا" و "الميتافيزيكا". وواقع الأمر أنه يسوق الكثير من أفكار أرسطو في حديثه عن الهيولى الأولية والصورة، ويلاحظ أن المجمع الدينى الذى انعقد سنة ١٢١٠م فى باريس، والذى أدان كتابات داود، قد قرر أيضا تحريم تدريس الفلسفة الطبيعية لأرسطو فى جامعة باريس، ولقد حاول توما الإكوينى استبعاد أن يكون داود قد تأثر بفكر أرسطو، محاجا بفقرات من كتاب "الميتافيزيكا" لأرسطو لتدعيم وجهة نظره تلك.

الباب الرابع

الفلسفة الإسلامية -

الفلسفة اليهودية - الترجمات

الفصل التاسع عشر

الفلسفة الإسلامية : موقع الفلسفة الإسلامية -

أصول الفلسفة الإسلامية - الفارابى - ابن سينا - ابن رشد
دانتي والفلاسفة المسلمون

١ - إن معالجة موضوع الفلسفة الإسلامية فى كتاب عن تاريخ الفكر الأوروبى المسيحى الوسطى قد تبدو غريبة عند بعض القراء الذين لا يعرفون شيئاً عن فلسفة العصور الوسطى فى مجملها، وهنا ينبغى التنبيه إلى أن التأثير الذى أحدثته الفلسفة الإسلامية على العقلية الأوروبية فى العصور الوسطى أمر يعترف به جميع الدارسين المتخصصين، فلقد كانت الفلسفة العربية الإسلامية هى القناة الهامة والأساسية التى تعرف الغرب الأوروبى من خلالها أعمال أرسطو كاملة. ويلاحظ أيضاً أن عمالقة الفلسفة المسلمين فى العصور الوسطى من أمثال ابن سينا وابن رشد لم يكونوا مجرد نقلة أو مفسرين للتراث الفلسفى القديم، وإنما هم الذين أضافوا وطوروا الكثير من فلسفة أرسطو، على ضوء معطيات فكر الأفلاطونية المحدثة - كما أن العديدين من هؤلاء العلماء قد قدموا شروحاً لأرسطو فى نقاط جوهرية تختلف عما كان يتوهمه أهل اللاهوت من مفكرى الغرب المسيحى آنذاك^(١).

عندما ظهرت أفكار أرسطو من جديد فى الغرب الأوروبى المسيحى عن طريق الفيلسوف المسلم ابن رشد، أخذ المفكرون الأوربيون ينظرون إلى أرسطو فى شئ من

(١) يلاحظ أن شروح ابن سينا هى التى سهلت على مفكرى الغرب الأوروبى تفهم روح الفلسفة الأرسطية، وهى التى أقادوا منها فى كتاباتهم اللاهوتية نفسها.

الريبة، ظنا منهم أن أفكاره، لا تتسجم مع العقيدة المسيحية، ومن ثم مع الفلسفة المسيحية بمعناها الأعم، ولعل في هذا ما يفسر العداء الذي قوبلت به أفكار أرسطو في أوروبا في القرن الثالث عشر، على أنه مفكر وثني تقف آراؤه على النقيض من أفكار القديس أغسطينوس أو القديس أنسلم وسائر الفلاسفة المسيحيين الآخرين.

على هذه المعارضة للفكر الأرسطي كانت تختلف في الدرجة ما بين كراهية فجة وتوجس من أي فكر مخالف، وبين معارضة تقوم على أسس عقلانية مثلما هي الحال عند القديس بونافنتورا على سبيل المثال، ولابد من أن نؤكد في هذا السياق أن المفكر الذي قدم شروحا صحيحة للفكر الأرسطي وهو الفيلسوف المسلم ابن رشد، الذي استفاد منه كثيراً القديس توما الإكويني بوجه خاص في طرح قضايا اللاهوت بمنهج من الديالكتيك الأرسطي، في حين أن بعض المفكرين الآخرين راحوا ينهلون من أفكار أرسطو دون اللجوء إلى الشروح التي قدمها ابن رشد.

ومن هنا لابد لنا من الوقوف عند الفلسفة الإسلامية في العصور الوسطى، لكي نتفهم المناخ الفكري الذي ساد في مدرسة باريس، حيث تحلقت جماعة من أنصار الأرسطية المتكاملة، وكان المفكر سيجر من بربانت على رأس هذه القائمة، وهو الذي أخذ على عاتقه مناهضة أفكار توما الإكويني، وكانت هذه المدرسة ترى في نفسها الممثل الحقيقي للفكر الأرسطي كما قدمه للغرب اللاتيني الفيلسوف المسلم ابن رشد، ومن هنا فإن ابن رشد يستحق مكاناً لا يتقاً بقدره في نادي الفلسفة، وإن كان هذا لا يعني أننا سوف نخوض في القضايا الهامة الأخرى الخاصة بالفلسفة الإسلامية من تصوف وغيره في هذا القضايا، اللهم إلا فيما يتصل بتأثير الفلسفة الإسلامية على الفكر الأوروبي في العصور الوسطى

٢ - إن الصلة بين الفلسفة الإسلامية، والفلسفة الأوروبية في العصور الوسطى صلة وثيقة بحق، ويذكر هنا أيضا أن أول من قام بترجمة كتابات أرسطو إلى العربية كانوا من المفكرين السوريين، وقد بدأت المرحلة الأولى لحركة الترجمة عن التراث اليوناني إلى السوريين في مدرسة الرها في بلاد ما بين النهرين "العراق" التي كان قد

أسسها القديس أفرام من بلدة نصيبين سنة ٣٦٣م، والتي أمر الإمبراطور البيزنطي زينون بإغلاقها سنة ٤٨٩م، بحجة انتشار أفكار أرسطو "المهرطقة" فيها، وقد تم في الزها ترجمة بعض أعمال أرسطو وفي مقدمتها كتب المنطق وكذلك كتاب "المدخل" للفيلسوف فورفوريوس إلى اللغة السورانية، كما تابع العلماء والسوريان جهودهم في الترجمة عندما انتقلوا إلى مدرستي نصيبين، وجد سبور بعد إغلاق مدرسة الرها، وهنا قاموا بترجمة أعمال أرسطو وأفلاطون إلى اللغة الفارسية أيضاً، وقد شهد القرن السادس ترجمات لأعمال أرسطو، وفورفوريوس، وديونيسيوس المنحول إلى اللغة السورانية في المدارس المونوفيزيقية "أصحاب مذهب الطبيعة الواحدة للمسيح" في بلاد الشام.

أما المرحلة التالية فقد شهدت نقل هذه الترجمات السورانية إلى اللغة العربية، والمعروف أنه حتى ظهور الدعوة الإسلامية كان هناك عدد وافر من المسيحيين الناطقة "على المذهب الذي قال به أرسطو" ممن كانوا يعملون كأطباء عند وجهاء العرب، عندما قامت الخلافة العباسية في أعقاب سقوط الخلافة الأموية سنة ٧٥٠م، رحب الخلفاء العباسيون بالعلماء السوريين في بلاط بغداد، حيث اضطلوعوا في بادئ الأمر بترجمة الأعمال الطبية الكلاسيكية، ثم انتقلوا بعد ذلك إلى ترجمة التراث في بغداد حيث أخرجت ترجمات عربية لأعمال كل من أرسطو، وإسكندر من أفروديزياس، وثيمستئوس، ويورفيرئوس، وأمونيوس، كذلك تمت هناك ترجمة كتابي "الجمهورية، والقوانين لأفلاطون".

وفي النصف الأول من القرن التاسع تمت ترجمة ما أطلق عليه -عن خطأ- "لاهوتيات أرسطو" التي هي في الحقيقة كتاب "التاسوع" Enneads لأفلاطون الإسكندري، كذلك قام هؤلاء العلماء بترجمة شروح الأفلاطونيين المحدثين لأفكار أرسطو، الأمر الذي روج للفكر الأرسطي من خلال الرؤية الأفلاطونية المحدث في الأوساط العلمية العربية، وفي هذا كله تبلورت في نهاية المطاف فلسفة إسلامية مرموقة، بروافد كلاسيكية يونانية فارسية أيضاً.

٢ - ويمكن تقسيم الفلاسفة المسلمين إلى مشرقين ومغربيين، ففي المشرق برزت أسماء لامعة هي: الفارابي، وابن سينا، والإمام الغزالي.

(أ) - الفارابي ت ٩٥٠ م:

كان الفارابي من أعلام مدرسة بغداد، ويُعد مثالا للمفكر الذي أثرى الفكر الفلسفي وأثر إلى حد بعيد على الحركة الفكرية في عصره، فهو الذي قدم المنطق الأرسطي للدوائر الفكرية المختلفة في العالم الإسلامي، كما أن فهرسته لفروع الفلسفة والعلوم الدينية قد ساعدت في إبراز مجال الفلسفة هو الطريق المهد للفلسفة الحقة، التي يقسمها إلى: الفيزيكا "متضمنة علوم النفس ونظرية المعرفة"، ثم الميتافيزيكا، ثم الأخلاق أو الفلسفة العملية، أما العلوم الدينية فإنه يقسمها إلى:

١ - القدرة الإلهية.

٢ - وحدانية الله وأسمائه الحسنى.

٣ - القصاص في العالم الآخر.

٤ - ٥ - حقوق الفرد والجماعة.

وبهذا يكون الفارابي قد خصص للفلسفة مجالها الخاص بها، حتى تكون في خدمة العلوم الإلهية، ولقد استخدم الفارابي بعض الأفكار الأرسطية في إثبات وجود الله، من قبيل فكرة "المحرك الأول" لكل أمور الكون، وفكرة عرضية أمور هذا العالم؛ لأنها من جوهر زائل، وأن وجودها يعود إلى الجوهر الأعلى الموجود بالضرورة وعلة كل وجود.

يلاحظ أيضاً أن الفارابي قد تأثر بفكر الأفلاطونيين المحدثين في نظريتهم عن "الفيض الإلهي" وانبثاق الإدراك "العقل"، وعالم الروح، والكون... إلخ.

ويعتقد الفارابي أن الأجساد تتألف من المادة والصورة، إن العقل يستنير يوماً بالعقل الكوني "الذي نادى به الفيلسوف إسكندر من "أفروديزياس" وهو يقول أيضاً إن

الإدراك العقلي للبشر عندما يستتير فهو إنما يفسر لنا أن مفاهيمنا تلائم الأشياء، وذلك بإلهام من المثل العلوية الإلهية:

وهذه الرؤية عن التنوير تتصل بفكر الأفلاطونيين المحدثين، وأيضاً بالأفكار الصوفية الشرقية، ولقد انضم الفارابي إلى طائفة صوفية، اتخذت من فلسفته ورؤاه مساقاً على درب الزهد والروحانية، ومن كلماته الماثورة قوله إن أعظم ما يمكن للمرء أن يجنيه في هذا العالم هو أن يكون عارف بالله، الذي منه وإليه تعود كل الأمور، ومن ثم فإنه يتوجب على الإنسان أن يجاهد مستعيناً بالله - نحو الهداية وحسن المناب.

(ب) - أما أعظم الفلاسفة المسلمين في المشرق على الإطلاق فهو ابن سينا (٩٨٠-١٠٣٧م) الذي أرسى قواعد النظام المدرسي في العالم الإسلامي، وهو فارسي المولد، من مدينة بخارى، وقد تلقى تعليمه باللغة العربية، كما أن جل مؤلفاته بالعربية أيضاً وقد تضيع ابن سينا في علوم القرآن الكريم، والأدب العربي، والهندسة والشريعة والمنطق ويقال إنه قد علم نفسه، دون عون من الأساتذة، علوم الإلهيات، والفيزياء، والرياضيات، والطب، كما أنه مارس الطب وهو في السادسة عشرة من عمره، ثم كرس نفسه لعام ونصف في دراسة الفلسفة والمنطق، وبعد أن اطلع على شروح الفارابي لأرسطو تمكن من استيعاب كتاب "الميتافيزيقا" الذي كان قد قرأه قبل ذلك - كما يعترف - أربعين مرة لكن دون استيعاب كامل، وقد قضى ابن سينا حياته الوظيفية منشغلاً في أروقة السياسة، فقد عمل وزيراً لبعض السلاطين السلاجقة، إلى جانب ممارسة الطب، ولكن هذا لم يشغله عن متابعة أبحاثه في الفلسفة ووضع مؤلفاته، حتى وهو في غياهب السجون أو وهو مسافر على ظهر جواده، وقد توفي ابن سينا في بلدة همدان وهو في السابعة والخمسين من العمر، بعد أن توضح وأدى الصلاة، وأبدى الندم على ما قد يكون قد ارتكبه من معاصي، ويعد أن وزع العطايا والهبات على الفقراء والمساكين، ويعد أن أعتق ما ملكت يده من عبيد!

ومن أهم كتب ابن سينا الفلسفية كتاب "الشفاء" الذي عرف في الغرب اللاتيني باسم "الكفايات" Sufficleriae الذي يضم المنطق، والفيزيكا مشتملة العلوم الطبيعية، والرياضيات، وعلم النفس، والميتافيزيقا.

أما كتاب النجاة فهو مجموعة من النصوص، تتحدث عن الكتاب السابق، ومرتببة في تسلسل مختلف .

ويقسم ابن سينا الفلسفة بمعناها الواسع إلى المنطق كمدخل للفلسفة والفلسفة العقلية وتشمل الفيزيكا والرياضيات والعلوم الإلهية ثم الفلسفة العملية وتشمل الأخلاق والاقتصاد والسياسة ثم يقسم العلوم الإلهية إلى علوم أولية تبحث في الغائية والإلهيات الطبيعية ولاهوت ثانوى عن بعض القضايا الدينية .

وهذه القسمة للعلوم الإلهية تختلف عن التقسيم اليونانى التقليدى للاهوت، أما كتابات ابن سينا فى الميتافيزيقا، فرغم رجوعه فيها إلى أرسطو والأفلاطونيين المحدثين، فإنها تحمل الكثير من العطاء الخلاق والمبتكر، مما يجعل فلسفته ذات طابع متميز خاص به هو فقط: تتصل بعالم الميتافيزيقا، إلا أنه يستخدم تفسيراً مخالفاً لتفسير أرسطو، مبيناً أن العقل من حيث هو كعقل قادر على إدراك كنه الوجود دون الحاجة إلى الخبرة العملية، وهو يقول فى ذلك: فليتصور إنساناً ما وقد وقد أصم، وأعمى، سابحاً فى الفضاء، وأعضاؤه الجسدية الحسية متفرقة لا تلامس واحدها الأخرى، بحيث لا يمكنه أن يميز بخبرة تعتمد على حاستى البصر واللمس، فهل يعنى هذا أن عقل هذا الإنسان لا يدرك شيئاً؟ ويجب ابن سينا عن هذا التساؤل بالنفى، ليؤكد على فكرة الوعى الذاتى للعقل دون الحاجة إلى الحواس كأدوات معينة⁽¹⁾.

ويوضح ابن سينا فكرة "الضرورة" ويضعها فى المقام الأول، مبيناً أن كل الكائنات مخلوقات بالضرورة أيضاً، ولكنه يميز بين نوعين من الضرورة: فبعض الأشياء فى هذا العالم ليست ضرورية فى ذاتها؛ لأن جوهرها لا يتضمن الوجود بالضرورة لأنها توجد ثم تزول، وتلك ضرورتها فى أنها تمثل وجوداً يتأتى من علة خارجية ضرورية.

(1) Sifa, 1, 281 and 363.

وهذه الكائنات العرضية تفصح بذلك عن ضرورة علّة خارجية أوجدتها في هذا العالم، فهي إذن من خلق عليّة ضرورية أعلى.

ويمضى ابن سينا ليقول بأن التسلسل في العلل لا يمكن أن يكون بلا نهاية؛ لأن ذلك يعنى انتفاء عليّة وجود أى شىء، ومن ثم لا بد من التسليم بوجود عليّة أولية موجودة في ذاتها دون سبب خارجي، وهذه الكينونية غير المعلنة هي الكائن الضروري، الذي لا يتأتى جوهره من آخر، ولا يتألف وجوده من جوهر آخر، إن الجوهر والوجود هنا متطابقان تماما في الكائن الأعلى الضروري أما الكائنات العارضة، فهي ليست ضرورية في ذاتها؛ لأنها وجدت من خلال الضرورة الأسمى، وعليه فإن مفهوم الكائن الضرورة أصلا تختلف عن مفهوم الكائن الضروري عرضا، كما أنهما ليسا نوعين من جنس واحد.

ويتصل بهذا التمايز بين الضروري والممكن تمايز آخر بين "الاحتمال" و"العقل" والاحتمال كما يقول أرسطو، هو مبدأ التحول من شىء إلى شىء آخر، ما هي الحال بطريقة إيجابية في إدارة التحويل، وبطريقة سلبية في المستهدف "الملتقى" للتحويل، وهنا دوامات من الاحتمال.

يتدرج من الحد الأدنى حتى المادة الأولية، بينما يتدرج الفعل بين الحد الأعلى والعقل الخالص، والكائن الضروري "وإن كان ابن سينا لا يستخدم، الفعل الخالص حرفيا"، ويخلص ابن سينا من هذا إلى أن الله هو الفاعل أبداً، والحق والخير والحياة، دون تحول أو نقصان، ولما كانت الصفات الإلهية غير متميزة غالباً، لا بد وأن يكون الخير الإلهي متطابقا مع الحب المطلب الخالص.

إن الله، الخير الخالص، يفيض بخيره، ومن هنا كانت الخليقة بالضرورة، وينطوى هذا على القول بأن الخلق أزلي؛ لأنه من عند الخالق الأزلي، ولكن الأشياء المادية قد تأتت بطريق غير مباشر، يمضى أن العقل هو الذي انبثق من عند الله أولاً، وبعدها جاءت الأشياء المادية، ولا ينطوى هذا على أية ازدواجية بالنسبة للخالق، وإنما الازدواجية قد تأتت من الإدراك البشرى ما بين الجوهر والوجود والإدراك هنا نوعان:

إدراك أول الذى به يعرف العقل خالقه الواحد الضرورى، وإدراك ثان من باب "الإمكان" أو "التحول بالنسبة للأشياء المادية".

ويخلص ابن سينا بعد ذلك إلى تعديد ما أسماه "المدركات العشرة" التى تكشف عن التوالد والاطراد تباعاً، وذلك لكى يميز بين وحدانية الله وتعددية خلقاته— وهو يعرف "الإدراك العاشر" بأن" الذى يهب الصورة للمادة الأولية أو للاحتتمال الذى ليس له صورة، وبهذا يتم التوالد فى مختلف الأنواع، وتختلف المدركات واحدها عن الأخرى فقط فى خصوصيتها، أو من حيث العظم أو الضالة حسب قربها أو بعدها من الفيض الإلهى، والصور متعددة فى الأشياء المحسوسة المفردة، وذلك بفعل العوامل الخارجية التى من خلالها تتخذ صورة بعينها من حيث النوع.

ويخص ابن سينا الإدراك العاشر بمهمة أخرى "إلى جانب خاصية تشكيل الصورة للمادة" ألا وهى تحضير ملكة العقل عند البشر.

وفى تحليله للتجريد، يقول ابن سينا إن العقل الإنسانى غير قادر بمفرده على إدراك المجردات والكليات، ومن ثم فهو فى حاجة إلى قوة خارجية تعينه على تجاوز حالة السلبية إلى حال من التحرك الإيجابى، ولذا فإنه يميز بين الإدراك الفاعل وبين الإدراك الخامل "الإيجابى لا السلبى" والإدراك الفاعل مستقل ومتكامل، وهو الذى ينير العقل البشرى لكى يدرك الأشياء المجردة وجوهرها فى الكليات "وهو إدراك لاحق Post rem وليس إدراكاً قبلياً ante rem".

لقد أثارت فكرة ابن سينا عن ضرورة الخلق ثم تعددته زوبعة شديدة، وكذلك فإنه سعى نحو مصالحة أفكاره الأرسطية والأفلاطونية المحدثه مع قواعد الإيمان الصحيح. فهو مثلاً لم يذكر خلود الروح، رغم قوله عن استقلالية الإدراك الفاعل، كما أنه آمن بالقصاص فى الحياة الأخرى، وإن كان قد فسر ذلك بطريقة فلسفية بأن جعل الثواب ثواباً معرفياً للأشياء الخالصة، فى حين جعل القصاص حرماناً من هذه المعرفة الخالصة^(١).

(١) هناك خلاف حول نقطة الإدراك بين ابن سينا وابن رشد.

كذلك يلاحظ أن تحليل ابن سينا وشروحه لمسألة الخلق وصلة المخلوقات بالخالق قد تشي بفكرة "الفيض الإلهي" ونظرية "وحدة الوجود" ولكنه في نفس الوقت يؤكد على التميز بين الجوهر الوجود في كل الخلائق التي تنبثق من عند الله بطريق مباشر أو غير مباشر، ويتضمن هذا قبول ابن سينا بفكرة وحدة الوجود، وإن كان لم ينص صراحة على ذلك.

هذا وعندما تمت ترجمة بعض النصوص من أفكار ابن سينا إلى اللغة اللاتينية في القرن الثاني عشر، وجدت أوروبا المسيحية نفسها أمام منظومة محكمة من الرؤية الفلسفية، فراح مفكرو أوروبا من كل صوب يتهافتون عليها، فلقد قام جوندير النيرس "١١٥١" بترجمة النص الإسباني الذي قام به هانس هسبانوس لأفكار ابن سينا إلى اللاتينية، واستخدم تلك الأفكار في كتابه "عن النفس" متضمنا الصورة المجازية التي رسمها ابن سينا للإنسان السابح في الفضاء وهي مبشرة الأعضاء "وإن كان جوندينير النيرس قد استعان أيضا بفكر أغسطينوس في مسألة "الإدراك الفاعل" كمصدر للتنوير الذي هو من عطايا الرب، كذلك نجد نفس الكاتب في مؤلف آخر له بعنوان "تكوين العالم" يحاول المصالحة بين النظرية الكونية عند ابن سينا وبين قواعد الإيمان المسيحي، وإن كانت هذه المحاولة لم تلق قبولا عند المفكرين اللاحقين.

يلاحظ أيضا أنه قبل أن يظهر كتاب أرسطو عن "الميتافيزيقا" بكامله في الغرب اللاتيني كان هنالك خلط عند مفكري أوروبا بين أفكار أرسطو وأفكار ابن سينا، من ذلك أن روجر بيكون- على سبيل المثال لا الحصر- قد - ظن أن ابن سينا قد سار على خطى أرسطو بشكل مطلق، وإن كان روجر لم يطلع على باين كاملين من هذا الكتاب "الميتافيزيقا" ليتحقق من دقة أحكامه حول الفيلسوفين.

أما وليم من أوفرن "ت١٢٤٩م" فقد كان مناهضا لأفكار ابن سينا، وأرجع نظرية ابن سينا عن الكون إلى أرسطو نفسه، معلنا أن النظرية الكونية مليئة بالأغلاط، من حيث قولها بوجود وسائط في عملية الخلق، مما يعنى انتفاء الصفات الإلهية عن المخلوقات، كما أن وليم يعتقد بأن هذه النظرية تتناول على الحرية العلوية بقولها بأزلية

العالم، تجعل المادة أساس الاختلاف بين الأفراد، كما أنها تجعل الإدراك المستقل الفاعل علّة خلق الأرواح، ورغم هذه الانتقادات، فإن وليم هذا قد اقتفى أثر ابن سينا في تبنيّة فكر التمييز بين الجوهر والوجود، كما أنه يطابق الإدراك الفاعل "الذي قاب به ابن سينا" بالله نفسه.

ومن ناحية أخرى نجد مفكرين من أمثال إسكندر من هيلز، وجون من لاروشيل، وألبرت الكبير وغيرهم ينكرون نظرية ابن سينا عن الإدراك الفاعل، ولكنهم في نفس الوقت يستخدمون نظريته في التجريد والتجلي الإلهي، في حين أن كلا من روجر بيكون، وروجر مارستون قد اعتقدا أن ابن سينا قد أخطأ فقد في المطابقة بين التجريد والتجلي.

ولا يمكن بطبيعة الحال الاستطراد أكثر من هذا في توضيح أثر فكر الفيلسوف ابن سينا على مفكرى الغرب الأوروبي، ولكن ينبغي تأكيد حقيقة أن ابن سينا هو الذي أثر على جماعة "المدرسين" اللاتين في ثلاث قضايا هامة: قضية المعرفة والتنوير، وقضية الصلة بين الجوهر والوجود، ثم قضية المادة "الهيولي" كأساس لاختلاف الأفراد⁽¹⁾.

إن توجيه من أحد "المدرسين" اللاتينيين إلى أفكار ابن سينا لا يعنى إطلاقاً أن هؤلاء المدرسين أنفسهم لم يستفيدوا الشيء الكثير من أفكار ابن سينا ونظرياته: فالقديس توما الإكويني، على سبيل المثال - قد انتقد نظرية ابن سينا عن "الاحتمال" ولكن هذا لم يمنع توما الإكويني نفسه من أن ينهل الشيء الكثير من نبع ابن سينا، وأن كان من الصعب تحديد هذا القدر من الاستفادة، أما سكوتوس فقد كان متأثراً بأفكار ابن سينا أكثر من تأثير توما الإكويني، عليه، وإن كان لم يعترف مباشرة بهذا الفضل.

(1) See: Goland- Gosselin, Commentary on the De ente et essentia, PP. 59 and 150.

(ج) الإمام الغزالي (١٠٥٨-١١١١ م).

كان الإمام الغزالي يحاضر في مدارس بغداد لبعض الوقت، وكان مناهضاً لأفكار الفارابي وابن سينا الفلسفية.

على أنه في كتابه "مقاصد الفلاسفة" قد لخص آراء هذين الفيلسوفين، وبعد أن تمت ترجمة هذه الكتاب إلى اللاتينية بواسطة جونديز النيوس، ظن المفكرون اللاتين أن الغزالي يوافق على آراء الفارابي وابن سينا، وتحت هذا الوهم هاجم وإيم من أوفرن من أسماهم "بأتباع أرسطو" وهم الفارابي وابن سينا، ومعهم الإمام الغزالي أيضاً، غير مدرك أن الإمام الغزالي قد انتقد كلا من الفارابي وابن سينا في كتابه "تهافت الفلاسفة" الذي بين فيه بعض التناقضات التي وردت في كتابات هذين الفيلسوفين، وقد حفز هذا الكتاب الفيلسوف ابن رشد للرد على الإمام الغزالي في كتاب بعنوان "تهافت التهافت" غير أن الإمام الغزالي قد عبر عن وجهة نظره في كتاب آخر بعنوان "إحياء علوم الدين" حيث دافع عن نظرية خلق العالم في زمن معين، ومن العدم، وذلك بخلاف ما قال به ابن سينا في "الفيض" وأزلية العالم، كذلك دافع الإمام الغزالي عن عقيدة العلوية الكونية، بأن جعل الصلة بين السبب والنتيجة تابعة من القدرة الإلهية، ولي من خلال حدث عرضي فاعلي من جانب الخلاق.

ويرى الإمام الغزالي في فلسفته تتابعاً وديمومة متواصلة بين السبب والنتيجة "العلة والفعل" مع ملاحظة أن هذا التتابع يرجع إلى القدرة الإلهية في كل شيء، وهذا يعني اعتقاد الإمام الغزالي في نظرية "الاقتضاء" أي وقوع الشيء في حينه.

ولم يكن الإمام الغزالي فيلسوفاً يتعدى للأفكار الهيئية التي لا تتساوى مع قواعد صحيح الدين فحسب، وإنما كان أيضاً من مشاهير الصوفية والزهد والدرج الروحاني؛ فلقد اعتزل التدريس في بغداد، وتوجه إلى بلاد الشام حيث أمضى بقية عمره زاهداً متأملاً وكان في بعض الأحيان يخرج من هذه الخلوة لملاقاة تلاميذه، كما أنه أسس مدرسة للعلوم الدينية وأخرى للطرق الصوفية في مقر خلوته في بلدة طومس.

لقد كان الشغل الشاغل للإمام الغزالي "إحياء علوم الدين" في غلالة صوفية، ونجد في كتاباته تعريجا على مصادر مبكرة، والأفكار الأفلاطونية المحدثه، والأديان السماوية، ولقد بلور لنفسه مساقاً روحانياً خاصاً، جاء من تجربة ذاتية، وقد تبدو بعض عباراته أحيانا ذات مذاق أفلاطوني محدث عن وحدة الكون، ولكن هذا كله كان لخدمة فكره عن التصوف أكثر من كونه نظرية فلسفية خالصة، ولعل تركيزه على القدر المكتوب والقدرة الإلهية في كل شيء قد جعل البعض يظنون أنه كان يعتقد في وحدة الكون، والواقع أن عقيدة التوحيد، عندما ينظر إليها من زاوية أفلاطونية محدثة، مخلطة بفكر صوفية، قد تؤدي بالبعض إلى الظن بأنه كان يعتقد في وحدة الكون.

ولكن الإمام الغزالي كان شديد الريبة في أمور الفلسفة والفلاسفة، ولذا فإنه يغلب روح التصوف الديني على طغيان العقل، كما أنه يضع صحيح الإيمان فوق كل ما نادى به أرسطو نفسه.

٤ - إذا انتقلنا إلى الفلاسفة المسلمين في الغرب، فإننا نجد رموزاً وضاءة في الفلسفة الإسلامية المتألفة في إسبانيا في القرن العاشر، والتي لم يكن هنالك في الغرب الأوروبي المسيحي كله شيء يدانيها على الإطلاق.

وكان أول هؤلاء الفلاسفة - ابن مسرة "٩٣١م" الذي اقتبس بعض الأفكار من امبادقليس المنحول، في حين أن كلا من ابن باجة " (Auempace) ت١١٣٨" وابن طفيل "ت١١٨٥م" يمثلان الدرب الصوفي. ويأتى على رأس القائمة بطبيعة الحال العملاق ابن رشد (Averroes) الذي يحتل في الغرب موقع الصدارة الذي كان يحتله ابن سينا في المشرق.

ولد ابن رشد الذي يعرف عند المدرسين اللاتين بلقب "الشارح الكبير" في مدينة قرطبة سنة ١١٢٦م، وكان يعمل بالقضاء، وبعد أن درس العلوم الدينية والشريعة والطب والرياضيات، والفلسفة، شغل مناصب قضائية متعددة، أولا في إشبيلية، وبعدها في قرطبة، ثم أصبح بعد ذلك طبيباً للخليفة المنصور سنة ١١٨٢م، وقد حدث أن غضب

عليه الخليفة المنصور بفعل الوشاية المعرضة، من الحاقدين عليه، فتم إبعاده عن بلاط الخليفة، وبعدها قصد إلى مراکش حيث توفي سنة ١١٩٨م.

كان ابن رشد مقتنعا أن أرسطو يمثل قمة الفكر الإنساني، ولذا فإنه رصد نفسه لشرح أفكار هذا الفيلسوف الفذ، وتقع هذه الشروح في ثلاث مراتب:

١ - الشروح المتوسطة التي يعرض فيها ابن رشد آراء أرسطو، مضافا إليها شروحه وأفكاره هو، بطريقة تجعل من الصعب التمييز بين ما قاله به أرسطو وما قال به ابن رشد.

٢ - الشروح الطويلة حيث يسوق ابن رشد أجزاء من نصوص أرسطو ويعقب عليها بشروحه.

٣ - الملخصات، وفيها يقوم ابن رشد ما وصل إليه أرسطو من نتائج، دون الإشارة إلى المصادر، أو القرائن التاريخية، وهي معدة أساساً لتصبح أداة للطلاب، والدارسين الذين لا يتمكنون من الحصول على المصادر الأصلية لكتابات أرسطو أو الشروح.

ويبدو أن ابن رشد قد وضع الشروح المتوسطة والملخصات قبل وضعه للشروح الطويلة.

ويأتي كتاب الأورجانون "Organon" لأرسطو بكامله في الشروح المتوسطة والملخصات أما الترجمة اللاتينية للشروح الثلاثة كاملة، فإنها تحتوى على شروح ابن رشد، لكتب أرسطو: التحليلات الثانية، والفيزيكا "والسما، والنفس" ثم "الميتافيزيكا"، وإلى جانب هذا ترجم المدرسيون الأوروبيون رد ابن رشد على الإمام الغزالي في كتابه "تهافت التهافت"، مع بعض الأعمال المتصلة بالمنطق، ورسالة عن العلاقة بين الإدراك المجرد والإنسان، وكتاب آخر عن "الروح".

ويتدرج المساق الميتافيزيقي عند ابن رشد من المادة الخالصة كحد أدنى وصولاً إلى العقل الخالص، وهو الله كالحَدِّ الأعلى، وما بين هذين الحدين توجد الأشياء القائمة على "الاحتمال" و "الإدراك العقلي" وهي التي تكون ما أطلق عليه

المترجمون اللاتينيون مصطلح "الطبيعة الطابعة" ونجد هذه العبارة اللاتينية عند الفيلسوف إسبينوزا⁽¹⁾.

ويقول ابن رشد إن المادة الأولية تعنى العدم؛ إذ يعوزها الإدارة أو الحتمية، ومن ثم فهي ليست مبدعة أو خالقة، وهي موجودة عند الله منذ الأزل، ويجعل الله الصورة لهذه الأشياء المادية من واقع هذه المادة الأولية، وبهذا تأتت المدركات العشرة المتصلة بمجالات الكون.

ومن هذا يتضح أن ابن رشد لا يقبل نظرية ابن سينا عن "الفيض" كما أنه لا يقبل فكرة "وحدة الوجود" والرأى عنده أن نظام الخلق وتوالد الأشياء أمراً محتوماً من عند الله كذلك يرفض ابن رشد فكرة "الخلود الذاتى" أو الفردى التى قال بها ابن سينا، وهو فى هذا يتبع رأى ثيمستىوس وبعض الشراح الآخرين الذين قالوا بأن الإدراك المادى من نفس جوهر الإدراك الكلى، وأن الاثنين يبقيان بعد الموت، كذلك يوافق ابن رشد على رأى اسكندر من أفروديزياس بأن جوهر الإدراك يتسم بالاستقلالية وبالنسبة للإنسان- يقول ابن رشد- فإن الإدراك من خلال العقل إدراك مكتسب من الإدراك الأول، الذى يشمل ويستوعب الإدراك السلبى أيضاً، وعلى هذا فإن هذا الفصل الأخير من الإدراك يبقى بعد موت الجسد، لا بصفته الفردية وإنما ك لحظة من لحظات الإدراك العام للجنس البشرى برمته، وبهذا فالخلود حقيقة قائمة، ولكنه ليس خلوداً فردياً.

ولقد عارض القديس توما الإكوينى هذا الرأى لابن رشد، ولكن أتباع ابن رشد من المدرسين حازوا على نظرية ابن رشد فى الإدراك كحقيقة فلسفية.

ولعل ما يثير الانتباه فى فكر ابن رشد أكثر من نظرياته الفلسفية فكرته عن العلاقة بين الفلسفة والإلهيات، فبعد أن أعلن أن أرسطو مثل قمة اكتمال المعرفة

(1) De Anima, 3,2.

الإنسانية^(١) وأنه النموذج الأحسن للكمال الإنساني والمبدع المنظومة فكرة يفضح عن الحقيقة نفسها، ويأته فوق هذا وذاك الذى نادى بوحدة العقل الفاعل وأزلية المادة، راح ابن رشد يعمل على المصالحة بين أفكاره الفلسفية وبين قواعد الإيمان الصحيح، خاصة وأن خصومه كانوا يقفون له بالمرصاد لاتهامه بالخروج عن قواعد الدين الصحيح، بسبب ولأته المفرط للفيلسوف أرسطو الوثنى، وعليه فإن ابن رشد قد أخذ على عاتقه مهمة المصالحة بين الفلسفة، واللاهوت عن طريق ما أسماه "نظرية الحقيقة المزدوجة" ولا يعنى هذا أن مقولة ما قد تصدق فى الفلسفة ولا تصدق فى اللاهوت أو العكس، وإنما ما قصده هو أن الحقيقة الواحدة تفهم فى الفلسفة بوضوح فى حين يعبر عنها فى اللاهوتيات بطريقة رمزية، ويعنى هذا أن البلورة العلمية للحقيقة تكمن فقط فى مجال الفلسفة، وإن كان فى الإمكان التعبير عن نفس الحقيقة بطريقة أخرى مختلفة.

ويعتقد ابن رشد أن الحقائق الواردة فى الكتب السماوية تصور بطريقة يدركها البسطاء من الناس والكافة أما فى الفلسفة فإن الرمز يختفى لتحل محله الحقيقة بغير مجاز أو رموز^(١)، وتشبه هذه الفكرة ما قال به فيما بعد الفيلسوف هيجل عن العلاقة بين الفلسفة والدين.

ولكن أهل الدين لم يقبلوا هذا الرأى الذى نادى به ابن رشد، وظن بعضهم أن هذه النظرية تتطوى على القول بأن ما قد يبدو صحيحا من وجهة نظر الفلسفة قد يبدو غير صحيح من وجهة النظر الدينية، ولكن ابن رشد لم يقصد إلى هذا، وإنما كان يحاول وضع الفلسفة فى مقام عال، فى حين تظل اللاهوتيات حكما على الفلسفة نفسها، وبهذا يصبح الفيلسوف هو الذى يقرر أى المبادئ الدينية ينبغى فهمها بالرمز وكيفية تفسير هذه الرموز.

(١) فصل المقال فيما بين الحكمة والشريعة من الاتصال، لابن رشد

واقـد لقي هذا التفسير الرشدي ترحيبا شديداً لدى المدرسين اللاتين الذين عرفوا باسم "الرشديين" وهناك بعض العبارات لابن رشد، التي إن أخذت بمعناها الحرفي فقد يستفاد منها أن ما قد يبدو صحيحا في الفلسفة قد يبنو غير متساوٍ مع قواعد الإيمان، من قبيل قوله بأن المدرك الفاعل مفرد عدديا، وقد علق البعض على هذه الفكرة بأنها جاءت بمثابة السخرية من جانب ابن رشد من خصومة المتزمتين.

والحق أن المتشددين من رجال الدين كانوا لا يقبلون ابن رشد، وبالمثل لم يكن هو يقبلهم أيضا، ولذا فإن موقفه هذا قد أدى إلى صدور قرارات بتحريم دراسة الفلسفة اليونانية في إسبانيا، وإلى إحراق العديد من كتب الفلسفة.

هـ - هذا وسوف نتناول تأثير الفيلسوف ابن رشد على مفكرى غرب أوروبا المسيحى مرة أخرى في موضع لاحق، ولكننا هنا نود أن نشير إلى أن الشاعر دانتي (١٢٦٥-١٣٢١م) قد وضع ابن رشد وابن سينا "في الكوميديا الأهلـية" في المظهر ثم وضع سيجر من برابانت وهو من "الرشديين" في السماوات، مع مديح استتطق به توما الإكويني نفسه في حق سيجر، رغم الخصومة الشديدة المعروفة بين الاثنين.

لقد تعمد دانتي أن يضع الفلاسفة في مرتبة أعلى، ولكنه، بسبب روح العصر، لم يمكن أمامه إلا أن يضع ابن رشد وابن سينا في المطهر، وإن كان قد وضع تلميذا من تلاميذ ابن رشد المخلصين، وهو سيجر، في الجنة، كما أن دانتي يقدم توما الإكويني وهو يمتدح سيجر، الواقف عن يساره، في حين يضع ألبرت الكبير واقفا على يمين الإكويني، ليوحى إلى القارئ بأن الإكويني كان أيضا ينادى بفلسفة تقوم على العقل الطبيعي، وهذا ما كان يدعو إليه سيجر من برابانت الرشدي ومع أن دانتي نفسه لم يقبل كل ما قال به سيجر، فإنه يتخذه رمزا فإنه للفلسفة الخالصة.

وهنا نجابه بالسؤال التالي: لماذا اختار دانتي شخصيات ابن سينا، وابن رشد، وسيجر من برابانت بالذات... هل لمجرد أن هؤلاء الثلاثة كانوا فلاسفة مرموقين، الآن دانتي كان مدينا بالشئ الكثير للفكر الإسلامى.

لقد بين لنا كل من الأستاذ برونز ناردى^(١) والأستاذ أسين بلاسيوس^(٢) أن دانتي كان مدينا بالشئ الكثير لأفكار الفارابى، وابن سينا، والإمام الغزالى، وابن رشد فى أفكاره، ومن ذلك تأثره بنظرية، النورانية الإلهية، ونظرية "المدركات" وتأثير المجالات السماوية، والنظرية القائلة بأن الشق العقلانى للروح هو الذى يخلق بطريقة مباشرة، ونظرية الحاجة إلى "التجلى الإلهى" من أجل الإدراك بواسطة العقل البشرى- الخ.

إن بعض هذه الأفكار قد وردت فى كتابات أغسطينوس، ولكن دانتي، الذى لم يكن أبداً من أتباع توما الاكوينى المخلصين، كان مدينا بالشئ الكثير للفكر الإسلامى ولابن رشد بوجه خاص، وهذا ما جعله يضع الفلاسفة المسلمين فى رتب أخرى عالية، وأن يضع واحداً من أتباع ابن رشد "سيجر الرشدى" فى ملكوت السموات نفسها!.

(1) Inferno al tomismo di Dante e alla quistioone di Sigieri (Giotnale Dantesco), xx11.5.

(2) Islam and the Divine Comedy (abridged English Transl, London, 1926).

الفصل العشرون

الفلسفة اليهودية

الكابالا - ابن كبر (Avicbron)

مايمونيدس "ابن ميمون"

١ - استقى فلاسفة اليهود أفكارهم من منابع ثقافات الأمم الأخرى. كنا في الجزء الأول من هذا التاريخ قد توقفنا عند فيلون اليهودي السكندري "حوالي ٢٥ ق م - ٤٠ م" الذي حاول مصالحة اللاهوت اليهودي مع الفلسفة اليونانية، في منظومة جمعت بين الفكر الأفلاطوني "نظرية المثل" وأفكار الرواقيين "نظرية اللوغوس أو العقل" وبعض الأفكار الشرقية "عن الكائنات الوسيطة" ويؤكد فيلون في فلسفته على المفارقة الإلهية، التي صارت فيما بعد من سمات عقيدة "الكابالا" بعد أن نهلت من الفكر الأفلاطوني وتبدور الكابالا حول فكرتين: فكرة "السوفار" Sohar أو الإشراق التي ظهرت مع أوائل القرن الثالث عشر، وهي من وضع يهودي إسباني قرابة سنة ١٣٠٠ م، مع تعديلات، وإضافات لاحقة، تكشف فلسفة "الكابالا" عن تأثيرات أفلاطونية محدثة عن الفيض الإلهي، والكائنات الوسيطة بين الله والعالم، وتظهر الأفكار الأفلاطونية المحدثّة أيضاً بشكل أوضح في "السوفار" وذلك على يد اليهودي الأسباني ابن كبر الذي عرفه المدرسيون اللاتين باسم "افيكبرون" Avicbron.

٢ - سليمان بن جبريل أو ابن كبر:

كان المدرسيون اللاتينيون يظنون أن ابن كبر فيلسوف عربي، وقد ولد ابن كبر في مدينة ملقا سنة ١٢٠١ م، وتلقى تعليمه في مدرسة سرقطة، وتوفي سنة ١٠٦٩ / ١٠٧٠ م، وكان ابن كبر متأثراً بالفلسفة العربية الإسلامية، وقد وضع كتابه الرئيسي

بعنوان "تنبوع الحياة" باللغة العربية، ولكن هذا النص العربى قد ضاع، وبقيت الترجمة اللاتينية له التى أُلِمَ بها كل من يوهانس هسبانوس، ويومنيكوس جونديز النيوس، ويقع هذا الكتاب فى خمسة أبواب، وكان له أثر واضح على المفكرين الأوروبيين فى العصور الوسطى.

وتتضح الأفكار الأفلاطونية المحدثّة فى كتابات ابن كبر عن "الفيض الإلهى" فله هو مدر كل الخليفة، الذى يعجز العقل البشرى عن إدراكه، وإنما يتأتى إدراكه فقط عن طريق الحدس، أو شفاف القلب، وهو يتحدث أيضا عن "الإرادة" الإلهية التى يتم من خلال فيضها خلق كل شىء، وهى المشيئة الإلهية تتجاوز كل ما هو مادى وصورى، ولا يمكن إدراكها إلا بمساق صوفى، وإن كانت الصلة بين هذه المشيئة وبين الله من الأمور التى يصعب الخوض فيها، وهو يميز أيضا بين الجوهر الإلهى وبين المشيئة الإلهية، بأن يضع المشيئة فى "أقنوم" خاص بها، والتى من خلالها تتم صنائع اله لتتبدى لهذا العالم، كذلك يضع ابن كبر الإرادة الإلهية كصنو للعقل "اللوجوس" التى من خلالها تنبثق الروح الكونية وعالم الروح، من الهيولى "المادة" الصورة الكونية، ومن هذه الروح الكونية تنبثق الأرواح الخالصة والأشياء الجسدية أيضا.

ومن النقاط الهامة فى فلسفة ابن كبر أيضا فكرته عن البنية المادية لكل المخلوقات وهى فكرة مستقاة من أفلوطين "السكندرى"، والتى تأثر بها كثيراً بعض المدرسين فى أوروبا الغربية، وفى هذا يقول ابن كبر إنه مثلما تنبثق عن عالم الروح صور للأفراد، فكذلك تنبثق مادة روحانية أيضا، تبدو واحدة فى الإدراك "العقلى" وفى الروح العقلانية، وفى المادة الجسدية، وعلى هذا فالمادة لا تحتوى على شىء جسدى فى حد ذاتها، ولكنها هى التى تحدد البنى المادية المحدودة لكل الخلائق.

وقد تبنى هذه النظرية عن البنية المادية للخلائق القديس بونايفنتورا، وهو من أعلام جماعة الفرنسيسكان المعاصرين للقديس توما الإكوينى.

ويعتقد ابن كبر فى وجود تعددية فى البشر، مما يعنى أيضا تعددية فى الرتب نحو الكمال، وهو يقول بأن المخلوق الفرد يشبه كونا مصغرا microcosm من الناحية البنيوية، من حيث امتلاكه للأعضاء الجسدية كاملة، والحواس، والعقل جميعا،

وكل مخلوق جسدى يمتلك الصورة التى تحدد موقعه فى سلسلة الكائنات الحية، سواء من البشر أو من مملكة الحيوان.

ولقد قيل إن نظرية ابن كبر هذه هى نفسها التى نادى بها أغسطينوس وأتباعه من حيث تعددية الصور، وفى قول أغسطينوس بأن الصور الأبدى تجاهد فى المسيرة قبالة الصور الأسمى ما هو حاصل فى عقل الإنسان الذى يتدرج من المستويات الدنيا فى المعرفة نحو المراتب الأعلى فى التفكير.

٢ - أما أكثر الفلاسفة اليهود شهرة فى العصور الوسطى فهو موسى بن ميمون "ميمونيدس" الذى ولد فى قرطبة سنة ١١٣٥ وتوفى فى القاهرة سنة ١٢٠٤م، والذى كان قد استقر بها بعد هجرته إليها من بلاد المغرب.

وفى كتابه "دلالة الحائرين" يحاول ابن ميمون تقديم قاعدة عقلانية للفلسفة، وذلك على أساس الفكر الأرسطى الذى كان يجله كمثل أعلى للفكر الإنسانى، بل ووضعه فى مرتبة بعد مرتبة الأنبياء، ويقول ابن ميمون إنه ينبغى أن نحكم العقل فى قضايا اللاهوت، فلو أن بعض ما ورد فى التوراة يتعارض مع ما يقره العقل، فلا مناص هنا من تفسير هذه النصوص التوراتية بطريقة رمزية.

ولا يعنى هذا أن ابن ميمون لا يقبل ما تقول به اللاهوتيات، استنادا إلى قناعاته بالمنطق الأرسطى، وإنما هو يقول بأن خلق العالم فى لحظة زمنية يعينها من عدم يعنى أن العالم ليس أزليا كما هو متواتر من اللاهوتيات، ولكن لو أن أزلية العالم يمكن إثباتها بالبرهان العقلى. وتكون متعارضة مع اللاهوت، فليس أمامنا سوى اللجوء إلى التفسير الرمضى أو المجازى، بمعنى أنه عندما تعجز الفلسفة عن إثبات أزلية العالم، فلا بد من رفض المنهج الفلسفى وحتى ما قال به أرسطو نفسه فى هذا الخصوص.

ولذا فإن ابن ميمون يعترف بأن أفلاطون فى هذه النقطة أقرب إلى الحقيقة من أرسطو؛ لأن أفلاطون قد نادى بأزلية المادة "الهيولى" فقط.

ومع ذلك فإن ابن ميمون، يعود ليعلم أن خلق المادة والصورة قد تم من العدم، ولا يفهم هذا - قى تقديره- إلا بالتسليم بالمعجزات التى تقول بها التوراة: لأن الله هو القادر على تسيير دفة قوانين الطبيعة وفق إرادته، فهو الخالق للكون بكل ما تعنيه هذه الكلمة.

ولقد تصدى الكثيرون من اللاهوتيين لآراء ابن ميمون هذه، واتهموه بأنه يضحى بما ورد فى التوراة إرضاء للفلسفة اليونانية، كما أن بعض اليهود فى فرنسا طلبوا من محاكم التفتيش محاكمته كواحد من الهرطقة.

والواقع أن ابن ميمون قد نادى فقط بأن هناك حقائق يقينية كثيرة إلى جانب ما ورد فى اللاهوتيات، كما أنه أعطى الفلسفة دوراً هاماً فى أعمال العقل، مما حفز الكثيرين من المشتغلين بالفلسفة من اليهود فى إسبانيا.

وواضح أنه كان شديد الإعجاب بأرسطو، وإن كان لم يقره فى القول بأزلية العالم، فالرأى عنده أنه عندما تعجز الفلسفة عند إقامة البراهين على خلق العالم فى لحظة معينة من الزمن، فإنها أيضاً "الفلسفة" ليست بعاجزة أبداً عن إثبات مصدر حجج أرسطو نفسه فى هذه النقطة، لقد اعتمد ابن ميمون فى إثبات وجود الله على اللاهوتيات الطبيعية كما شرحها كل من الفارابى وابن سينا، مبيناً يدلل الله هو المحرك الأول، لكل الخليقة، ويأتى الضرورى الوجود والعلّة الأولى، كذلك اتخذ ابن ميمون من شرحها أرسطو فى الفيزيكا، و "الميتافيزيكا" ما يدل به على رأيه، وإذا كان ابن ميمون قد قدم عدة براهين سبق بها ما نادى به توما الإكوينى، إلا أنه أكثر تأكيداً على قصور عقولنا البشرية عن الخوض فى صفات الله، فإله هو العقل المطلق الخالص، المنزه فوق كل الخلائق، وإذا فإننا نستطيع أن نشير إلى الصفات الإلهية بأسلوب السلب، وليس بالإيجاب، كأن نقول مثلاً: الذى ليس كمثله شئ.

والله هو المتعالى والمفارق "مع وجود وسائط بين الله والعالم هناك هيراركية من العقول أو الأرواح خالصة".

ويتلق توما الإكويني مع هذا الرأي، ولكن ابن ميمون كان يؤكد على صيغة النفي بشكل أكثر. *Via negative*.

ورغم هذا النهج من أسلوب النفي، فإن ميمون ينادى بإيجابية القول بأن الله هو خالق الكون ورب العناية، الواحد الأزلي.

ويختلف ابن ميمون عن ابن كبر في أنه يقول بأن الله يخص بعض خلائقه من البشر بعنايته، كما أنه يعتقد، أن الإدراك الفاعل هو الإدراك العاشر الخالي من المادة، والخلود- وفق رأيه- نصيب أهل العدل في هذا العالم، وهو أيضا يقر بحرية إرادة البشر في اختياراتهم للعدالة، ولكنه يفكر فيما قيل عن تأثير الأجسام السماوية والأخلاق على سلوك بني البشر.

وباختصار فإن موسى بن ميمون قد حاول جاهداً أن يصلح بين الفلسفة اليونانية وعقيدته الدينية بطريقة أفضل من نهج ابن كبر، كما أن تأثيره بأرسطو قد أتى أشد وضوحاً في مجمل فلسفته.

الفصل الحادى والعشرون

الترجمات - الأعمال المترجمة - الترجمة عن اليونانية والعربية أثر الترجمات على الفكر الأوروبي الوسيط ومناهضة الفكر الأرسطى

قبل حلول القرن الثانى عشر كانت قد تمت ترجمة جزء من كتاب "الأورجانون" Organon لأرسطو "المقولات والشروح" إلى اللغة اللاتينية على يد الفيلسوف بونثيوس بعنوان "المنطق القديم" Logica Vetus ولكن عمل أرسطو هذا فى مجمله قد اكتملت ترجمته إلى اللاتينية فى القرن الثانى عشر. فى سنة ١١٢٨م، على وجه التقريب قام جيمس من البندقية بترجمة "التحليلات" Analytics والمواضيع Topice والجدليات السفسطائية - sophistical Arguments عن اليونانية إلى اللاتينية تحت مسمى المنطق الجديد Logica nova ويبدو أن أجزاء من أبواب أخرى من "منهج" أرسطو، إلى جانب "المقولات" والتحليلات قد حفظ حتى القرن الثانى عشر فى الترجمة التى اضطلع بها بونثيوس وفى كل الأحوال، ظهرت الترجمة الكاملة لهذا العمل باللاتينية فى منتصف القرن الثانى عشر.

ويلاحظ أن الترجمة التى قام بها جيمس قد جاءت عن النص اليونانى، وكذلك الحال مع الباب الرابع من كتاب البحث الآثار العلوية Meterologica على يد هنريكوس من كتانيا فى صقلية، التى كانت مركزا هاما من مراكز الترجمة فى العصور الوسطى. وفى صقلية أيضا تمت ترجمة كتاب بطليموس بعنوان القواعد الكبرى megale syntaxis وكتاب "البصريات" وبعض أعمال إقليدس، وكتاب "عناصر الطبيعة" Ele-mentatis Physica إلى اللاتينية.

كذلك نشطت حركة الترجمة في مدرسة طليطة في إسبانيا، تحت رعاية كبرى الأساقفة رايموند (١١٢٦-١١٥١م) فلقد قام يوهانس هسبانوس بترجمة "منطق" ابن سينا إلى الإسبانية فاللاتينية، في حين أن دومينيكوس جونديزا النيبوس قام "بمعرفة بعض العلماء" بترجمة الميتافيزيقا لابن سينا، وأجزاء من "الفيزيقا" و"الكفاية عن السماء والأرض" De Dufficientia, De Caeb et de Mundo أيضا لابن سينا إلى جانب كتاب "الميتافيزيقا" للإمام الغزالي وكتاب "العلوم" Scientiis للفارابي، كذلك قام دومينيكوس ويوهانس بترجمة كتاب "نبع الحياة" لابن كبر من العربية إلى اللاتينية.

ولعل من أبرز هؤلاء المترجمين كان جيرارد من كريمونة، الذي انكب على الترجمة في مدينة طليطة ما بين أعوام ١١٣٤-١١٨٧ وفيها قام بترجمة كتاب أرسطو "التحليلات الثانية" Posterior Analytics عن العربية "إلى جانب شروح ثيمسقيوس" وكتاب "الفيزيقا" وكتاب "السموات والأرض" وكتاب "الكون والفساد" De Generatione et Corruptione والأبواب الثلاثة الأولى من كتاب "البحث في المنطق"، ثم كتاب الكندي عن "الإدراك والرؤى والبصر والحواس الخمس الجوهرية" De Intellectu, De sommo et Visione De, quinque Essentie وكتاب العلل Liber de Causis وغيره.

وظلت مدرسة طليطة للترجمة مزدهرة في القرن الثالث عشر، فلقد قام مايكل سكوت "ت ١٢٣٥م" بترجمة كتاب "عن السماء والعالم" وكتاب "عن النفس" وكتاب "عالم الحيوان" ثم كتاب "الفيزيقا" لأرسطو، إلى جانب شروح ابن رشد لكتاب "عن السماء والعالم" وكتاب "عن النفس" وكذلك مختصر ابن سينا "عن الحيوان".

أما هرمان الألماني "ت ١٢٧٢م" الذي كان أسقفا لمدينة استورجا، فقد قام بترجمة كتاب ابن رشد "الشروح الوسط" لكتاب "الأخلاق النيقوماخية" وملخص آخر لنفس العمل، ثم شروح كتابي "الخطابة" و"الشعر" لأرسطو.

٢ - يتضح مما سبق أن المدرسين اللاتينيين قد اعتمدوا في تعرف فلسفة أرسطو ليس فقط من خلال الترجمات العربية لأعمال أرسطو، وإنما أيضا من خلال ترجمات مباشرة عن اليونانية، من ذلك أن هنريكوس أريستويوس، على سبيل المثال، قد قام بترجمة الباب الرابع من كتاب "البحث في المنطق" عن اليونانية قبل قيام جيرارد من كريمونة بترجمة الأبواب الثلاثة الأولى لنفس العمل عن الترجمة العربية.

كذلك تمت ترجمة أجزاء وافرة من "الميتافيزيقا" عن اليونانية مباشرة، وكانت هذه الترجمات عن اليونانية، التي شملت الأبواب الثلاثة الأولى وجزءا صغيرا من الباب الرابع، متداولة في أيدي الدارسين في باريس مع حلول سنة ١٢١٠م، حين عرفت تحت مسمى "الميتافيزيقا القديمة" تمييزاً لها عن الترجمة عن العربية التي قام بها جرارد من كريمون، ومايكل سكوت، والتي عرفت باسم "الميتافيزيقا الجديدة" في النصف الأول من القرن الثالث عشر" ويلاحظ أن الأبواب المرقمة "ك،م،ن" = "K,M,N" إلى جانب بعض الأجزاء، الصغيرة الأخرى لم ترد في هذه الترجمة، وفي النصف الثاني من القرن الثالث عشر عرفت هذه الترجمة إما باسم "الميتافيزيقا الجديدة" أو "الترجمة الجديدة" ارتبطت باسم وليم من مويربيكي "Moerbeke" ت بعد ١٢٦٠"، وهي الترجمة التي اعتمد عليها توما الإكويني، في شروحه، كذلك وجدت هناك ترجمة أخرى عرفت باسم الترجمة المتوسطة عن اليونانية، وهي التي اعتمد عليها ألبرت الكبير في شروحه، التي كان توما الإكويني على علم بها أيضا.

أما عن ترجمة "الأخلاقيات" لأرسطو، فقد تمت ترجمة البابين الثاني والثالث من "الأخلاقيات النيقوماخية" مع نهايات القرن الثاني عشر عن اليونانية وربما كانت نسخة من الترجمة التي كان قد قام بها يوثيوس قبل ذلك بعدة قرون" والتي عرفت باسم "الأخلاقيات القديمة" في حين أن ترجمة لاحقة للكتاب الأول عرفت باسم "الأخلاقيات الجديدة" وبعد ذلك ظهرت ترجمة كاملة للأخلاقيات الأرسطية بواسطة روبرت جروستت "ت ١٢٣٥م"، ضمت الكتب الثلاثة الأولى منها، الأخلاقيات القديمة، و"الأخلاقيات الجديدة" معاً، أما "الأخلاقيات الكبرى" Magna فقد قام بترجمتها

بارثولوميو من مسيتا فى عهد الملك ما ينفّر (١٢٥٨-١٢٦٦م) من صقلية، وإن كان القرن الثالث عشر فى غرب أوروبا لم يعرف سوى "أخلاقيات يوديموس" Eudemian Ethics.

أما كتاب "عن النفس" لأرسطو فقد تمت ترجمته عن اليونانية قبل سنة ١٢١٥م ثم جاءت ترجمة مايكل سكوت لنفس الكتاب عن العربية بعد ذلك بوقت وجيز، كما أن وليم من مويربيكى أخرج نصا آخر عن اليونانية، أغلب الظن فى ترجمة مماثلة للترجمة السابقة، وبالمثل كانت هناك ترجمة لكتاب، الفيزيكا عن اليونانية قبل ظهور الترجمتين العربيتين اللتين قام بهما كل من جيرارد من كريونة، ومايكل سكوت، فى حين أن ترجمة كتاب "الكون والفساد" عن اليونانية قد جاءت أيضا قبل ظهور الترجمة عن العربية على يد جيرارد من كريمةونة.

أما كتاب السياسة فقد تمت ترجمته عن اليونانية قرابة سنة ١٢٦٠م، بواسطة وليم منمويربيكى "ولم تكن هناك ترجمة لهذا العمل عن العربية" والذي يرجح أيضا أنه هو الذى قام بترجمة كتاب "الاقتصاد" ١٢١٥م، وتوفى سنة ١٢٨٦م، وكان كبيراً لأساقفة كورنث، وهو الذى قام بترجمة أعمال أرسطو عن اليونانية، وأعاد تنقيح الترجمات المبكرة "وبهذا أسدى خدمة لصديقة توما الاكوينى الذى كان فى حاجة إلى كتاب "شروح" أرسطو، كذلك عكف وليم هذا على ترجمة بعض الشروح التى سجلها كل من اسكندر من الأفروديسى، وسمبيليقيوس، ديوهانس فيلويونوس، وثيمستيس، وأيضاً بعض أعمال بروقلوس ومن بينها طرحه لمحاورة "طيمائوس" لأفلاطون^(١)، كما أن ترجمة وليم لكتاب "عناصر اللاهوت" ابروكلوس كانت الأساس الذى بنى عليه توما الإكوينى رأيه بأن كتاب "العليات" لم يكن لأرسطو كما كان يظن، الدراسون، وإنما هو من تأليف بروكلوس، ومن الأعمال الأخرى لوليم أنه قام بترجمة كتاب "الخطابة" لأرسطو أيضاً،

(١) كانت محاورة "طيمائوس" معروفة فى الغرب الأوروبى من خلال شيشيرون، وكالكيديس، ولكن محاورات "مبينون" و "قيونون" لم تظهر حتى القرن الثانى عشر على يد هنريكوس أرسنيوس.

أما كتاب "الشعر" لأرسطو، فلم يكن لدى مفكرى العصور الوسطى سوى ترجمة هرمان الألمانى لهذا العمل نقلا عن شروح ابن رشد^(١).

هذا وتشير الأبحاث الحديثة إلى أن الترجمة عن اليونانية لأعمال أرسطو كانت قد سبقت الترجمة عن العربية لهذه الأعمال، ولكن فى حالة نقصان الترجمة عن اليونانية كان البديل هو الترجمات اللاتينية عن العربية، إلى أن تمت ترجمة الأجزاء الناقصة من أعمال أرسطو عن اليونانية مباشرة، ويعنى هذا أن مفكرى العصور الوسطى اللاتين لم يكونوا يجهلون أفكار أرسطو، ولكن لا بد من الاعتراف بأن هؤلاء المغتربين لم يكونوا يميزون بين ما هو أرسطى وما هو ليس من أفكار أرسطو بالمرة.

ومن الخطوات الهامة فى إزالة هذا اللبس ما توصل إليه القديس توما الإكوينى من أن كتاب "العلل" Liber de Causis ليس من وضع أرسطو، وكان توما الإكوينى مدركا إلى أن شروح ابن رشد لأرسطو تتضمن آراء خاصة بابن رشد نفسه، كما أنه كان يعتقد أن ديونسيوسوس المنحول كان من أتباع المدرسة الأرسطية.

وحقيقة الأمر هى أن مفكرى الغرب اللاتينى كانوا عاجزين عن إدراك التتابع الزمنى لتاريخ الفلسفة، فهم على سبيل المثال لم يكونوا على وعى بالعلاقة بين أرسطو وأفلاطون، أو بالصلة بين أفلاطون والأفلاطونية الحديثة وأرسطو، وبهذا يمكن القول بأن القديس توما الإكوينى، كان شارحاً جيداً لأفكار أرسطو، ولكنه فى نفس الوقت لم يكن مدركا للتتابع التاريخى لحركة الفلسفة اليونانية، كما يدركها المفكرون المعاصرون، ورغم ذلك فلقد أحسن الإكوينى استخدام ما وصل إليه من معلومات عن أرسطو، وإن كانت معلوماته مجزوءة وناقصة فى الحكم النهائى.

٢ - لقد ساهمت ترجمات أعمال أرسطو والشروح المتعلقة بها، إلى جانب ترجمات شروح وأفكار الفلاسفة العرب إلى اللاتينية، فى إنعاش الحركة الفكرية بين

(١) هناك جدل حول مدى استفادة توما الإكوينى من ترجمة وإيم من مويربيكى لأعمال أرسطو.

المدرسين الأوروبيين؛ إذ إن هذا الزخم الفكرى قد أمدهم بمذاهب فلسفية مستقلة منهجياً عن نواتر اللاهوتيات، فى أطر تشبع طموحات العقل الإنسانى فى تأمله لقضايا الكون، ولا شك فى أن مذاهب أرسطو، وابن سينا، وابن رشد قد عززت من معالم الدرب أمام العقل الإنسانى، بعيداً عن قضايا العقيدة المسيحية وأركانها، لأنها تبلورت أساساً على قاعدة من الفكر الفلسفى اليونانى الكلاسيكى، وعلى شروح رؤى الفلاسفة المسلمين، وما من شك فى أن هذه الترجمات الجديدة قد ساعدت على تجلى العقل الأوروبى وتمكينه من التمييز بين ما هو فلسفى وما هو لاهوتى، وكان لمنظومة أرسطو الفلسفية قصب السبق فى هذا المضمار، إذ نظر المدرسيون الأوروبيون إلى أرسطو على أنه قمة الفكر الإنسانى فى عقلانية لم يسبقه إليها أحد.

أما بالنسبة لنا، ونحن نقوم برصد هذه التطورات الفكرية عن بعد، فإنه يبدو لنا أن مفكرى العصور الوسطى قد بالغوا كثيراً فى مدح عبقرية أرسطو "فهم مثلاً لم يكونوا على وعى بالمراحل المختلفة فى تقلب أفكار أرسطو" ولكننا مع هذا لو أننا وضعنا أنفسنا فى عصر هؤلاء المدرسين، لكانت أفكار أرسطو ستبدو لنا مثلاً بدت لهم على أنها أعظم إنجاز عقلى كامل، لا مثيل له على مدار تاريخ الفكر الغربى فى العصور الوسطى.

وبمع ذلك فإن منظومة أرسطو الفلسفية قد جوبهت بمعارضة من جانب بعض النواتر الكنسية الغربية، وإن كان قد صعب على هذه الدوائر تجاهل قيمتها وتأثيرها، ويرجع السبب فى هذه المعارضة إلى أن كتاب "العلل" الذى ظل حتى اكتشاف توما الإكوينى لحقيقة مؤلفه وكتاب اللاهوتيات الأرسطية (*) وهو فى الحقيقة مقتطفات من تساعيه أفلوطين السكندرى وكتاب "سر الأسرار" الذى وضعه فيلسوف عربى فى أواخر القرن الحادى عشر أو أوائل الثانى عشر كانت كلها تُعزى إلى قلم أرسطو، وبهذا نُسبت إلى أرسطو بعض الأفكار التى لم يقل بها أصلاً، كما أن نسبة هذه الأعمال لأرسطو كان يبرر شروح الفلاسفة للأفكار الأرسطية من منظور أفلاطونى محدث.

(*) وهو المعروف عند الإسلاميين باسم "أثولوجيا أرسطو طاليس" وباسم "كتاب الربوبية" وهو مجموعة مقتطفات من أفلوطين (المراجع).

ولقد جاءت المعارضة للفكر الأرسطى من جانب بطرس من كوربي - cor beil كبير أساقفة سنز Sens فى مجمع إقليمي عُقد فى باريس سنة ١٢١٠م، حيث يقر منع تدريس كتاب أرسطو عن "الفلسفة الطبيعية" وبشرطها سواء فى المحاضرات العامة أو فى الحلقات الخاصة، كما توعد المجمع من يقوم بتدريسها بالحرمان الكنيسى.

وأغلب الظن أن "الفلسفة الطبيعية" المشار إليها فى هذا المجمع قد تضمنت "الميتافيزيقا الأرسطية"؛ لأنه عندما تم اعتماد لوائح جامعة باريس على يد المنسوب البابوى روبرت دي كورسون سنة ١٢١٥م، تقرر حظر تدريس "الميتافيزيقا" والفلسفة الطبيعية، وملخص هذه الأعمال إلى جانب كتابات كل من داود من دينانت، وعمودى من بنى Bene وموريس الإسبانى "هناك خلط هنا مع اسم ابن رشد" وإن كان قد أبقى على "المنطق الأرسطى" و"الأخلاق" نون تحريم.

وهذا الحظر، كما أوضحنا سلفاً، يرجع أساساً إلى أن أعمالاً كثيرة قد نُسبت إلى أرسطو، التى لم تكن بالفعل من وضعه، أما بالنسبة لعمودى، من بنى، فقد تم تحريم كتاباته؛ لأنها- وفقاً لرأى المجمع- تناقض العقيدة المسيحية وتقارب الفكر الأرسطى، كذلك جاءت إدانة كتابات داود من دينانت بالهرطقة؛ لأنه كان يحاج بالميتافيزيقا الأرسطية، التى كانت قد تُرجمت عن اليونانية ووفدت إلى الغرب اللاتينى من بيزنطة قبل سنة ١٢١٠م.

يضاف إلى كل هذا، أن أرسطو كان ينادى بأزلية العالم، كما أن أفكار داود من دينانت، وعمودى من بنى كانت تمثل تهديداً لأركان العقيدة كما قال اللاهوتيون، فى النواثر السلفية المسيحية.

لقد كان كتاب "الأورجانون" Organo متداولاً بين المفكرين الأوروبيين منذ فترة وجيزة قبيل تاريخ الإدانة، ولكن الأفكار المتعلقة بالميتافيزيقا، وأزلية الكون كانت جديدة على العالم الغربى، ومن ثم فقد رأى فيها الكنسيون تهديداً خطيراً، بل وهرطقاً، يتهدد قواعد الإيمان المسيحى.

ومع ذلك فإن الباب جريجورى التاسع، رغم وقوفه إلى جانب المعارضين للفكر الأرسطى، قد قام بتعيين لجنة من وليم من أوكزير، وستيفن من بروفين Provens وسيمون من أوثنى Authie للنظر فى أمر كتب أرسطو المحظورة، ولما كان هذا التوجه يتضمن وجهة نظر أقل تشدداً عما قد سبق من مواقف، فإن الدارسين راحوا ينكبون على الفكر الأرسطى دون توجس أو خشية من الدوائر الكنسية.

وقد حاول البابا إنوسنت الرابع سنة ١٢٤٥م اتباع نفس خطى سلفه الباجريجورى التاسع فى مدينة تولوز، ولكن موجة الحماس للفكر الأرسطى كانت قد انتصرت وثبتت أقدامها على الساحة وعلى ذلك فإنه بدءاً بسنة ١٢٥٥م، صار مسموحاً بتدريس كل أعمال أرسطو فى جامعة باريس، ولم يكن بوسع الكرسي البابوى فى روما أن يفعل شيئاً، وإن كان البابا انوسنت الرابع قد جدد تحريم كتب أرسطو سنة ١٢٦٣م.

بعد أن ازداد أتباع الفيلسوف ابن رشد فى الغرب اللاتينى يوماً بعد الآخر، ولكن هذا التحريم البابوى ظل ورقة ميتة أو حبراً على ورق؟

وأخيراً فى سنة ١٣٦٦م، أخذ المنديون عن البابا أوربان فى الخامس على أن يقوم طلاب الليسانس فى الآداب فى جامعة باريس بدراسة كل أعمال أرسطو، وعند هذا المنعطف كان قد تحقق لدى الجميع أن كتاب "العلية" موضع الجدل لم يمكن من وضع أرسطو، وأنه رغم الشروح الرشدية لفكر أرسطو، فإنها وفلسفة أرسطو ذاتها لم تكن متعارضة مع قواعد الإيمان، وهكذا باتت المبادئ الوثنية المسيحية تطرح دون حرج من خلال رؤى أرسطية الطابع.

إن هذا العرض الموجز عن الموقف الرسمى تجاه فلسفة أرسطو من جانب رجال الكنيسة الرومانية النواثر الأكاديمية يبين أن الأرسطية هى التى انتصرت فى نهاية المطاف.

ولكن هذا لا يعنى أن جميع الفلاسفة اللاتينيين فى القرنين الثالث عشر والرابع عشر كانوا يتقبلون كل أفكار أرسطو بنفس الدرجة، وسوف نعرض لهذه النقطة فى الفصول التالية.

ومع هذا وذاك تبقى حقيقة ثابتة ومؤادة أن شبح أرسطو قد ظل مهيمنا على الساحة الأوربية فى مجال الفلسفة فى العصور الوسطى، ولكن هذه الحقيقة لا ينبغى أن تقودنا إلى الاعتقاد بأن مفكرى الغرب اللاتينى قد تقبلوا تقبلاً أعمى كل كلمة قالها هذا الفيلسوف اليونانى العظيم.

الباب الخامس

القرن الثالث عشر

الفصل الثانى والعشرون

جامعة باريس - الجامعات والدوائر العلمية الأخرى -

المناهج الجامعية - الأنظمة الدينية فى باريس -

تيارات الفكر فى القرن الثالث عشر

١ - ارتبط كبار الفلاسفة اللاهوتيين فى حقبة بعينها من القرن الثالث عشر بجامعة باريس، وكان هؤلاء من الخريجين وأعضاء هيئة التدريس، من أبناء مدرسة نوتردام الكاتدرائية والمدارس الأخرى فى باريس، وكانت لوائح جامعة باريس قد اتخذت الصفة الرسمية بعد أن صدق عليها روبرت دى كورتسون المندوب البابوى سنة ١٢١٥م.

ومن بين الأسماء المرموقة فى أروقة جامعة باريس نجد أن إسكندر من هيلز، والقديس بنونا فنتورا، والقديس ألبرت الكبير، والقديس توما الإكوينى ومتى من أكوا بارتا، وروجر مارسستون، وريتشارد من مدلتاون، وروجر بيكون، وجيل من روما، وسيجر من أرابانت، وهنرى من غنت، ورايموندل، ودون سكوتوس "ت١٣٠٨م" وبعض هؤلاء كان قد تخرج فى جامعة باريس أو كان قد حاضر فيها، أو أنه يجمع بين الحالين.

وفى نفس الحقبة انتعشت مراكز أخرى للتعليم العالى فى الغرب الأوروبى، وصار لها سماتها الخاصة؛ فلقد ارتبطت بعض الأسماء المرموقة أيضا بجامعة أكسفورد، من أمثال روبرت جروستست، وروجر بيكون، ودون سكوتوس، وفى حين أن باريس كانت مركز انتعاش للفكر الأرسطى، كانت أكسفورد تقترب بفكر القديس أغسطينوس، وأيضا بالمناهج التجريبى الإمبريقي أو العلمى، والذى كان يمثله روجر بيكون.

ورغم أهمية جامعة أكسفورد، وبرز جامعة بولونيا، وشهرة البلاط البابوي في الحركة الفكرية من حين لآخر، فإن مقام الدراسات العليا ظل مرتبطاً في القرن الثالث عشر بجامعة باريس.

فلقد دأب العلماء على السفر إلى جامعة باريس، ثم العودة بعد حين إلى مواقعهم في أكسفورد أو بولونيا أو غيرها، وقد حملوا معهم روح وأفكار أروقة جامعة باريس، وحتى الأساتذة الذين لم تطأ أقدامهم مدينة باريس كانوا أيضاً متأثرين إلى حد بعيد بالتيارات الفكرية بجامعة باريس، ومن هؤلاء على سبيل المثال لا الحصر كان العالم روبرت من جروسست.

ولقد أدى هذا المركز المرموق الذي كانت تحتله جامعة باريس، إلى جانب تصدى أساتذتها للدفاع عن قواعد الإيمان الصحيح، إلى اهتمام البلاط البابوي بهذه الجامعة بوجه خاص، وعلى هذا فعندما احتدم الجدل في جامعة باريس حول الفكر الأرسطي وشروح ابن رشد لهذا الفكر ثم ظهور بعض الآراء التي لا تتسق مع قواعد الإيمان - من وجهة نظر بعض اللاهوتيين - رأت البابوية ضرورة التدخل لفض هذا الاشتباك، وواقع الأمر أنه كان من الصعب على أي دائرة فكرية في الغرب الأوروبي أن تفرض على جامعة باريس منظوراً فلسفياً أو لاهوتياً بعينه؛ فالقديس توما الإكويني، على سبيل المثال، قد وجد صعوبة في قبول كل ما قال به أرسطو، ولكنه سرعان ما تجاوز هذه الحيرة، وفي كل الأحوال كانت الغلبة في نهاية الأمر للمدرسة الأرسطية، مع بقاء وجهات نظر مغايرة طيلة القرنين الثالث عشر والرابع عشر.

٢ - كان يلزم للجامعات الأوروبية لكي تقف على أرض صلبة أن تتلقى ميثاقاً رسمياً يعتمدها كمؤسسات ثقافية وتعليمية إما عن الباب أو الإمبراطور أو الملك "يلاحظ أن جامعة نابلي تلقت ميثاقها من الإمبراطور فريريك الثاني هو هنشتاوفن" وكانت هذه المواثيق تضمن امتيازات هامة للأساتذة والطلاب، والتي كان الكثيرون يحسدونها عليها، ولعل أهم امتياز بينها كان: حق تشريع لوائح الجامعة "وهو ما تتمتع به جامعة أكسفورد حتى اليوم".

ثم حق منح الدرجات العلمية التي تخول لحاملها صلاحية "إجازة أو إيسانس" التدريس، كذلك كان طلاب الجامعات معفيين من الخدمة العسكرية، إلا في حالات الضرورة القصوى، كما كانت الجامعات معفاة من كثير من الضرائب، خاصة الضريبة المحلية.

وفي الشمال الأوروبي كانت إدارة الجامعة في أيدي الأساتذة العاملين بها، وكان منصب رئيس الجامعة يتم بالانتخاب في حين أن جامعات الجنوب الأوروبي كانت تتبع أساليب أكثر ديمقراطية، ولكن في الحالتين كانت للجامعة استقلاليته عن كل من الكنيسة والدولة جميعا، والاستثناء الوحيد كان بالنسبة لجامعتي أكسفورد وكيمبريدج، حيث كان تعيين مديري الجامعتين وأساتذتهما يتم من قبل الدولة.

٢ - كان الطلاب في العصور الوسطى وأعقابها لبعض الوقت يلتحقون بالجامعات في سن مبكرة إن هي قورنت بما هو سائد اليوم، فقلد كان الشباب يلتحقون بالجامعة في سن الثالثة عشرة أو الرابعة عشرة، وكان على الطالب أن يمضى ما بين أربع سنوات ونصف وست سنوات للحصول على شهادة الليسانس أو البكالوريوس كانت المدة في جامعة أكسفورد قرابة السبع سنوات" وبعدها يحتم على الطالب اجتياز اختبار تأهيلي في الآداب قبل السماح له بدراسة الكتاب المقدس، وستين آخرين في دراسة كتاب "الأحكام" Sentences لبطرس الومباردي، وعادة ما كانت سن الطالب عند حصوله على درجة البكالوريوس تقارب السادسة والعشرين، وبعدها يسمح له بالمحاضرة عن إنجيليين من الأناجيل الأربعة، ثم عن كتاب "الأحكام" لبطرس لومبارد، وبعد عدة سنوات أخرى من الدراسة وملفات البحث يمكن للطالب الحصول على درجة الدكتوراه والمحاضرة في اللاهوتيات، وذلك في عمر يقارب الرابعة والثلاثين. وبالنسبة لتدريس الآداب كان الحد الأدنى للأعمار عشرين عاما.

وكانت السنوات المطلوبة للحصول على درجة الدكتوراه من جامعة باريس أطول نسبيا عن غيرها من الجامعات الأخرى، وفي أكسفورد كانت درجة الدكتوراه في الآداب تتطلب مدة زمنية أطول، في حين أن درجة الدكتوراه في اللاهوت كانت أقصر نسبيا من مثيلتها في جامعة باريس.

وكان الطلاب الذين يحصلون على درجة الدكتوراه ثم يتركون الجامعة يقبلون بلقب الأساتذة غير المتفرغين *magistri non regents* أما من يبقون للتدريس فى الجامعة فكانوا يقبلون بالأساتذة العاملين *regents* وفى معظم الحالات كان الكثيرون ممن يحصلون على درجة الدكتوراه يبقون فى جامعتهم للتدريس فيها.

أما المناهج الجامعية فى القرنين الثالث عشر والرابع عشر فكانت تنصب على دراسة بعض النصوص المختارة، ونظريات بعض النحويين من أمثال بيركسيان، وبوناتوس، وغيرهما من الكلاسيكيين، إلى جانب كتابات أرسطو التى كانت تحتل موقع الصدارة فى كلية الآداب.

ويلاحظ أن "الرشدية اللاتينية" أى أفكار ابن رشد المترجمة إلى اللاتينية" كان لها أساتذة متخصصون، وفى مجال اللاهوت كانت الدراسة منصبة على الكتاب المقدس، وكتاب المقولات لبطرس اللامبارد، إلى جانب شروح الأساتذة القائمين بالتدريس.

وإلى جانب هذه المسافات المنهجية كانت هناك أيضا حلقات للمناقشة والبحث حول القضايا الفكرية المطروحة، وحول بعض القضايا العادية التى يبنى عليها الاختيار *Quodlibet* وذلك فى مواسم الأعياد الهامة والمناسبات الأخرى، حيث يتبارى فريقان بالرأى، والرأى لآخر حول واحدة من القضايا الجدلية للوصول إلى فخر الاشتباك، أو لصيغ توفيقية بين الفريقين- *de termination* ويتولى أستاذ المادة المعنية نشر ما قد يتوصل إليه هذا السيمانار من نتائج وتلك كانت الحال بالنسبة للقضايا العادية ونشر نتائج مناقشاتها *Quaestio disputata*.

كذلك كانت هناك مناقشات من نوع آخر، وإن كانت أقل أهمية عن سابقتها، والتى قُصد بها توسيع آفاق الطلاب وتعويدهم على المهارة الجدلية، وتفنيد بعض الآراء، والواقع أن الجامعات فى العصور الوسطى كانت تسعى نحو تزويد طلابها بقدر كاف من المعلومات والتدريس على مطارحة الأفكار بطريقة نقدية، ربما بشكل أفضل من طريقة الحشو المعلوماتى المتبع فى جامعاتنا فى العصر الحديث. وبطبيعة الحال كان

جل هذا النشاط منصبا حول القضايا الفلسفية، ولكن المعرفة "العلمية" بمعناها الدقيق كانت هزيلة في مناهج هذه الجامعات وإن كان القرن الرابع عشر قد شهد بعض الإرهاصات الهامة نحو هذا الهدف. في كل من باريس وفينا.

٤ - من العلامات الهامة في الحياة الثقافية في كل من باريس وأكسفورد كانت الأنظمة الدينية، وفي مقدمتها في القرن الثالث عشر رهبان الدومنيكان والفرنسيسكان وقد تأسست جماعة الدومنيكان في باريس سنة ١٢١٧م، ثم تبعتها جماعة الفرنسيسكان بعد ذلك بوضع سنوات، ولقد طالب لاهوتيو هاتين الجماعتين بأحقيتهما في تبوأ كراسي أستاذة اللاهوت في جامعة باريس، وفي التمتع بالامتيازات المكفولة للأستاذة والطلاب.

وقد قوبل هذا المطلب بمعارضة شديدة في أول الأمر، ولكن في سنة ١٢٢٩م، حصل الدومنيكان على كرسي واحد في الجامعة، وبعدها بعامين حصلوا على كرسي آخر في نفس السنة التي حصل فيها، الفرنسيسكان على كرسي للأستاذية "لم يحصلوا على كرسي ثانٍ وكان من بين الأساتذة الدومنيكان الأوائل في جامعة باريس رولان من كريمونة، وجون من سان جيل، في حين كان أول رهبان الفرنسيسكان، ليحتل موقع الأستاذية في نفس الجامعة إسكندر من هيلز.

وفي سنة ١٢٤٨م أصدر الدومنيكان قراراً بإقامة مؤسسات تعليمية خاصة بأبناء جماعتهم في كل من كولوني، وبولونا، ومونبييه، وإكسفورد، في حين قام الفرنسيسكان بإنشاء معاهد مماثلة في كل من وإكسفورد وتولوز، وفي سنة ١٢٦٠ أسس الرهبان الأغسطينيون مؤسسة تعليمية في باريس، وكان أول من حصل على درجة الدكتوراه من هذه المؤسسة هو جيل (Giles) من روما أما رهبان الكرمليات فقد افتتحوا بدورهم مؤسسة تعليمية في أكسفورد سنة ١٢٥٣م، وأخرى في باريس سنة ١٢٥٩م، ثم نهجت جماعات ديرانية أخرى نفس الخطى في مجال التعليم العالي.

ولقد ساهمت هذه المؤسسات الديرانية، وبخاصة الدومنيكان والفرنسيسكان، بالكثير من العطاء الفكري الذي أثرى الحياة الثقافية في أوروبا في العصور الوسطى،

ومن أعلام هؤلاء الديرانيين كان ألبرت الكبير، وتوما الإكويني من جماعة الدومنيكان، ثم إسكندر من هيلز، ويونافنتورا من جماعة الفرنسيسكان، وإن كان هؤلاء جميعاً قد جوبهوا بمعارضة شديدة، أغلب الظن بدافع الحقد والغيرة، وقد طالب معارضوهم ألا تحتل أى جماعة رهبانية أكثر من كرسي واحد للأستاذية فى جماعة باريس، ثم تفاقت الحملة إلى حد شن هجوم شرس على هذه الجماعات نفسها، فلقد نشر وليم سان أمور سنة ١٢٥٥م كتيباً بعنوان "الأخطاء العديدة فى بدع العصر" (De Periwlis novissimorum temporum) ليرد به على آراء القديس توما الإكويني التى وردت فى كتابه ضد المناهضين للمشيشئة الإلهية Contra im pugnantes Del Caltum ولكن تمت إدانة الكتلة المناهضة للرهبان، ورغم ذلك أخرج جيرارد من أسبقييل كتاباً بعنوان "ضد أولئك الذين يعانون كمال العقل المسيحى، يندد فيه بهؤلاء الرهبان.

وهنا اتفق كل من القديس بونافنتور والقديس توما الإكويني، رغم خلافاتهما حول بعض القضايا الفلسفية، على الدفاع عن المؤسسات الرهبانية، ومفكرها، مقاما بالرد على كتاب جيرارد، واحتدمت المعركة بين الفريقين، وأصدر نيقولاس دى ليزيه كتاباً يدافع فيه عن العلمانيين ومواقفهم، واستمرت المعركة سجلاً بين الطرفين، ولكن هذا لم يؤثر على تخصيص كراسى للأستاذية للجماعات الرهبانية فى جامعة باريس.

ولعل من أهم نتائج هذا الصراع بين الرهبان العلمانيين أن أقدم روبرت دى سوربون، وهو الكاهن الخاص للملك الفرنسى لويس التاسع، على إنشاء كلية السوربون سنة ١٢٥٢م لتدريس اللاهوتيات، وقد سمح للطلاب العلمانيين بالالتحاق بهذه الكلية اللاهوتية الجديدة، ويعنى هذا أن تأسيس كليات جديدة خاصة باللاهوت قد جاءت لخلق توازن بين الفريقين المتصارعين، وأيضاً للتوسع فى التعليم العالى، ولتوصيل رسالة اللاهوتيين لأكبر عدد من طلاب العلم.

ه - هذا ويمكننا أن نميز عدداً من التيارات الفكرية التى سادت فى القرن الثالث عشر بين هذه الجماعات الديرانية التى تركت بصماتها على روح تلك الفترة الزمنية؛ فلقد كان التيار الأغسطينى يمثل موقفاً محافظاً فى نظريته إلى فلسفة أرسطو، يتراوح

بين العداوة المعلنة لفكر أرسطو وبين القبول ببعض محدود من هذا الفكر، وهذا الموقف هو الذى اتخذته جماعة الفرنسيسكان، وكذا الرعيل الأول من جماعة الدومنيكان، ومن أهم أعلام هذا التيار كان جروستست، وإسكندر من هيلز، والقديس بوناڤنتورا.

ثم كان هنالك التيار الأرسطى الذى صار من سمات جماعة الدومنيكان ويمثله جزئياً القديس ألبرت الكبير، ويمثله كلياً القديس توما الإكوينى.

ثم كان هنالك أيضاً التيار الرشدى ويمثله سيجر من براڤانت فى حين أن فريقاً رابعاً من المفكرين المستقلين راح يقتطف من كل بستان زهرة، دون التشدد على مدرسة فكرية بعينها، ويمثلها جيل من روما، وهنرى من غنت.

وأخيراً عندما نصل إلى نهاية القرن الثالث عشر نصادف مفكراً مرموقاً هو "توم سكوتوس" الذى قدم طرحاً للتيار الفرنسيسكانى الفكرى على ضوء الفلسفة الأرسطية، والذى أصبح المفكر المعترف به لدى جماعة الفرنسيسكان، بشكل أكثر من القديس بوناڤنتورا نفسه.

وغنى عن البيان أننا إن نعرض تفصيلاً لجميع فلاسفة القرن الثالث عشر، وإنما سوف نكتفى بإبراز أهم معالم أفكارهم فى إطار محدد، لنبين كيف تبلورت أفكار هذه الجماعات بمختلف تياراتها الفكرية.

الفصل الثالث والعشرون

أسباب الوقوف عند كتابات وليم من أوفرن Auvergne

الله والخلقة - الجوهر والوجود - الله الخالق بطريقة مباشرة

وفى زمن بعينه - براهين وجود الله - البنية المادية للكون

الروح - المعرفة - وليم من أوفرن كممثل لمرحلة انتقالية

١ - وضع وليم من أوفرن "أو من باريس" كتابا عن "الثالث" أو "المبدأ الأول" قرابة سنة ١٢٢٥م وكتابا آخر عن "النفس" (١٢٣٠م) وكتابا ثالثا عن "الخلق الكوني" (١٢٣١م) إلى جانب أطروحات أخرى صغيرة، وقد شغل وليم منصب أسقف باريس ما بين أعوام ١٢٢٨-١٢٤٩م أى حتى وفاته.

ووليم ليس من المفكرين المرموقين في العصور الوسطى، ولكنه يستحق الاهتمام نظراً لما خاض فيه من قضايا فلسفية ولاهوتية، وأيضاً لأنه كان يشغل منصباً دينياً هاماً عندما قام الباب جريجورى التاسع بتعيين لجنة من اللاهوتيين لإجراء تعديلات فى كتابات أرسطو، مما يشير إلى حدوث تغيير فى موقف الكنيسة الرومانية تجاه هذا الفيلسوف الوثنى، ويمثل وليم نفس الموقف الذى اتخذه البابا جريجورى التاسع، حيث يقول فى كتابه عن "النفس" على الرغم من أن أرسطو كثيراً ما يناقض الحقيقة، فإنه مع ذلك لا حرج فى قبول بعض أفكاره التى لا تتعارض مع تعاليم الدين.

يتضح من هذا الاعتراف بأن الأسقف وليم يتبع نفس الخط الذى سار عليه كل من القديس أغسطينوس، وبونتيوس، وأنسلم، ولكن الجديد فى كتابات وليم أنه لم يكن فقط على علم بأعمال أرسطو، وإنما أيضاً بكتابات الفلاسفة العرب، واليهود، وأنه لم يتردد فى استخدام هذه الأفكار فى كتاباته، وبشكل عام يمكن القول بأن وليم يمثل المفكر المتفتح العقل، الذى يتمسك بالتقاليد المحافظة، مع استعداد فى نفس الوقت لأن

يستفيد من الفكر الجديد الوافد من المنابع العربية، وأيضا من أرسطو نفسه رغم عدم اتفاق بعض الأفكار الأرسطية مع قواعد الإيمان، وهو بذلك يمثل تجسيدا لنقطة لقاء بين فكر القرنين الثاني عشر والثالث عشر.

يضاف إلى هذا أنه كان من رجال الكهنوت العلمانيين الذى شغل كرسي الأسقفية فى باريس، فى الوقت الذى يحدث فيه الجماعات الرهبانية فى الحصول على كراسى الأستاذية فى جامعة باريس.

ولعل هذا كله يبرر لدينا الوقوف عند كتابات وليم من أوفرن، قبل مناقشة أفكار الأساتذة اللاهوتية من جماعتي الفرنسيسكان وال دومنيكان، ولابد من القول أيضا بأن وليم كان شخصية هامة، وصاحب فكر ثرى فى إطار منظومى.

٢ - تبنى وليم من أوفرن وجهة نظر الفيلسوف ابن سينا فى التمييز بين الجوهر والوجود، وبنى على هذه القاعدة مسألة محدودية الخلق واعتمادها على الخالق، إن الوجود (Esse) من وجهة النظر هذه - لا ينتمى إلى الجوهر إلا فى الله وحده، حيث يتحد الجوهر والوجود، أما الأشياء وأمور هذا الكون فإن وجودها قد تأتى بصفة "عرضية" ويعنى هذا أن الموجودات "الخالق" تنتمى إلى هذا الجوهر بالشركة فقط Per Participationem فلو أننا نظرنا إلى شيء ما محدود، لتأكد لنا أن هناك فرقا بين جوهره الطبيعى وبين وجود هذا الشيء، كما أنه ليس من الضرورة أن يكون لهذا الشيء وجود بالمرة، أما إذا نحن تأملنا فى "الكائن الضرورى" لتأكد لنا أن جوهره لا يمكن أن يدرك فى معزل عن وجوده.

وبخلاصة هنا القول إن كل شيء "خلا الله" يمثل الجوهر فيه شيئا، فى حين يمثل وجوده شيئا آخر^(١).

(1) Cf De Universo, 1,3,26, 2,1,87, Se Trinitate I and 2.

ويعنى هذا أن الله وحده هو الوجود الخالص، وهذا الوجود هو أيضا الجوهر الإلهي، في حين أن أشياء هذا الكون لا توجد بالضرورة، وإنما هي توجد بمشيئة الخالق، ويعنى هذا أن العلاقة بين أشياء هذا الكون الله هي علاقة المخلوقات بخالقها، وعلى ذلك- وفق رأى وليم- تنتفى النظرية القائلة "بالفيض" الإلهي؛ لأن الله بسيط خالص، كما أن الأشياء لم يكن لها وجود "قبلى" عند الخالق "مثما هي الحال مثلا في الماء المتدفق من أحد الينابيع" وإنما جبلت الأشياء، وظلت الخليفة بمشيئة الله، فهو العلة الأولى لكل المخلوقات^(١).

٣ - وإذا كان وليم من أوفرن يرفض نظرية "الفيض" الأفلاطونية المحدثّة، فهو أيضا يرفض فكرة الخلق عن طريق "الوسائط"؛ لأنه لا يقبل القول بوجود، هيراركية من المدركات بالطريقة التي نادى بها أرسطو وأتباعه، إن الله خلق العالم بطريق مباشر، وهو يرمى خليقته بعنايته الربانية، وهو يستشهد بالأفعال الفطرية التي تستجيب بها الحيوانات من فعل ورد فعل، للتدليل على وجهة نظره عن "العناية العلوية"^(٢).

كذلك هو يرفض فكرة أرسطو عن أزلية العالم، وذلك رغم ما يتلمسه الكثيرون لأرسطو وابن سينا، من مبررات لذلك، ثم يمضى لينفذ حجج كل من أرسطو وابن سينا في هذا الأمر على النحو التالي، عندما يقال إن الله قد سبق "خلق العالم، فإن هذا يعنى وجود مسافة زمنية غير محدودة تسبق الخلق قد تكون ذات دلالة لو أن الأزلية تعادل الزمن، وهذا غير صحيح، وعليه فإن القول بوجود مسافة زمنية خالية قبل الخلق غير ذات معنى؛ لأنه قبل الخلق لم يكن هناك زمن.

إن الله موجود قبل خلق العالم، وهذا الوجود أزلي يتجاوز حدود الزمن.

(1) De Universo, 1,1,17.

(2) Ibid., 1,1,17.

ويلاحظ ولیم أن العبارات التي نستخدمها في هذه القضية عبارات عاجزة، لأنها مرهونة بحسابات عقلنا البشري المحدود، الذي لا يمكنه أن يدرك معنى الأزلية، مهما اجتهد العقل في المجاز أو القياس.

ويمضي ولیم من أوفرن ليلاحظ أنه لا يكفي أن نعارض خصوصاً في الرأي لمجرد المعارضة، وإنما ينبغي أن نبرهن لهم على صحة ما نذهب إليه بأسانيد ودلائل إيجابية، وعليه فإنه يطرح بحدة حججاً تؤيد وجهة نظر القائل بخلق العالم عند لحظة معينة في الزمن، وهذا ما سوف يردده أيضاً القديس بونا فنتورا فيما بعد، إلى أن يأتي القديس توما الإكويني ويعلن أن هذه البراهين غير قاطعة.

ويقول ولیم بأنه لو كان العالم موجوداً منذ الأزل - حسبما يقول البعض - فإن ذلك يعني مضي زمن غير محدود قبل وصولنا إلى اللحظة الآتية، غير أنه من المستحيل، أن نتصور الوجود في زمن غير محدود، ومن ثم فإن العالم لا يمكن أن يكون موجوداً منذ الأزل، بل إن الله قد خلق هذا العالم في لحظة زمنية معينة، وعندما يتحدد الزمن بداية، كذلك لو أننا افترضنا - على سبيل المثال - أن الكوكب زحل بالنسبة لدورات الشمس يمثل نسبة واحد إلى ثلاثين، فإن هذا يعني أن الشمس قد قامت بدورات تبلغ ثلاثين ضعفاً لدورات زحل منذ بدء الخليقة، ولو أن العالم موجود منذ الأزل، لكان معنى ذلك أن كلا من زحل والشمس يحققان عدداً لا نهائياً من الدورات لا يمكن حسابها بحال.

مما سبق يتضح أن ولیم من أوفرن لم يقبل المفهوم الأفلاطوني المحدث عن الفيض، كما أنه لم يوافق على نظرية أرسطو عن أزلية العالم، وإنما هو يقر النظرية الأغسطينية القائلة بالخلق المباشر الحريدي الخالق عند لحظة زمنية معينة.

وهو يتصدى لتفنيد آراء خصومه ببراہین وحجج خاصة به لإثبات وجهة نظره، ولعل مما سهل على ولیم هذه المهمة الصعبة أنه كان متعلقاً بكتابات أرسطو والفلاسفة العرب، وأنه لم يتردد في استخدام منطق ومقولات أرسطو نفسه، وكذا مثاليات أرسطو وابن سينا وغيرهما في تلمس النقاط التي قد تعزز ما ذهب إليه، وكنا قد ذكرنا من قبل أنه استخدم فكرة ابن سينا في التمييز بين الجوهر والوجود على سبيل المثال، والحق

أنه كان من أوائل المدرسين اللاتين في العصور الوسطى الذي أوضح هذا التمييز بشكل قاطع.

ولقد أضاف وليم بُعداً آخر يقوم على قاعدة القياس لتوضيح الصلة بين الخالق ومخلوقاته، فهو يقول في ذلك، إن القول بامتلاك الأشياء المحدودة وجوداً عن طريق الشركة مع الخالق "ينبغي ألا يزجج التطابق، فالوجود الحقيقي هو لله وحده فقط. وبالنسبة "للشركة" أو تلقي الوجود من عند خالق الكون فهي أيضاً مستحدثة من باب المجاز لا غير. ثم يستطرد قائلاً بأننا نصف الإنسان بالصحة والعافية على ضوء ما يتبادل من طعام ودواء، وما يفرزه من إفرازات أيضاً، ولكن لا هذا ولا ذاك منفرداً يعنى اكتمال الصحة.

ومع أن هذا التل يبدو هزيلا وغير مقنع في هذا السياق، فإنه يدل في نفس الوقت على أن وليم كان ملما بطرق القياس، التي تمثل حجر الزاوية في فلسفته.

٤ - وإذا انتقلت إلى البراهين التي يسوقها وليم من أوفر عن وجود الله، فإننا نلاحظ أنه لم يستفد كثيراً من براهين أرسطو أو ابن ميمون، فهو لا يتحدث عن الله "المحرك الأول" الذي لا يحركه شيء، وإن كان يقول بأن الله هو العلة الأولى الكاملة، ويبدو برهان وليم في هذه المسألة شبيهاً، ببرهان القديس أنسلم، وإن كان مجرداً، وتدور جدليته حول الكائن بالشركة وصلته "بالكائن بالضرورة" وينطوي هذا على القول بالوجود بالصدفة أو العرض، وهذا ما نجده عند الفلاسفة العرب واليهود. وهو في نفس الوقت يلجأ إلى الحاجة بمفهوم ينقله إلى مفهوم آخر يتولد عنه، فهو على سبيل المثال يقول بأن "الوجود المتوحد" (*esse adunatum*) له معامل ارتباط من "الوجود بغيره" (*ess non Cousaum*) أو "الوجود الأول" مقارنة بالوجود بعله (*ess Caus atum*) أو "الوجود الثاني"^(١) وهو هنا ينمى القياس بالمتضادات - (*analogia op positorum*)

(1) Ibid., 6.

حيث إن بعض المفاهيم والمصطلحات لها ارتباطات متضمنة مع مفاهيم ومصطلحات أخرى، ولعل هذا ما دفع الأستاذ جرنوالد^(١) - Grun eald إلى القول بأن وليم من أوفرن يفضل الكتابة بطريقة منطقية صرفة أو ببراہین نحوية خالصة، بمعنى أنه ينتقل من كلمة معينة إلى كلمة أخرى بذاتها إما متضمنة فيها أو تستبقيها في معناها.

وهذه الملاحظة قد تبدو صحيحة لو أننا بصدد الحديث عن قضية لغوية، أو عن تداخل بين المفاهيم من قبيل "الوجود بالضرورة" أو "الوجود العلة" فهي تتضمن الإشارة إلى "الضرورة" أو "بغير الضرورة" وفي جميع الأحوال فإن براهين وليم من أوفرن لا تعدو أن تكون أكثر من ترديد للرأى الذى سبقه إليه القديس أنسلم عن "الوجود القبلى. a priori.

وفي كل الأحوال فرغم أن وليم لا يقدم براهين دامغة توصله إلى نتائج محددة، فإنه "لا يمكن لنا الحكم بأن حججه مجرد قرائن كلامية؛ لأنه يحاج بقوة كل شيء يصبح له وجود لا يمكن أن يوجد من ذاته "أو مغلولا بذاته"؛ لأن الوجود بالضرورة indi(gentiae) له كفاية عليّة الوجود فى حين أن الوجود بالاحتمال يتطلب فاعلا يعطى هذا الاحتمال إمكانية النشاط والتواجد وخالصة القول عنده إن الكون كله، فى حاجة إلى "كائن بالضرورة" كعلة أولى للوجود كله، وتستخلص من هذا أن وليم من أوفرن لا يقوم فقط بتحليل المفاهيم وربطها ببعض، وإنما يقدم أيضا براهين منطقية، بل وميتافيزيقية فى العديد من أفكاره.

٥ - مع أن وليم من أوفرن يقبل ما قال به أرسطو عن البنية المادية للكون، فإنه يرفض فكرة "ابن كبر" عن البنية المادية للمدركات أو للملائكة^(٢).

(1) Geoch der Gottesbeweiss in Mittelalteri Neitrage, 6,3, P,92.

(2) De Universo, 2,2,8.

ومن المعروف أن أرسطو لم يعتقد بأن الروح العاقلة تحوى شيئاً من المادة الأزلية؛ لأنه يعلق فى وضوح أن الروح صورة لا مادية، كما أن نظرة "المادة الأولية" التى قال بها ابن رشد كمصدر قوة للأشياء الحسية، تؤدى نفس المعنى الذى ذهب إليه أرسطو.

أما بالنسبة لطبيعة الملائكة فإن وليم يستهجن فكرة وجود أى بعد مادى فيها؛ لأن المادة ترادف الموت، ولا يمكنها أن تسهم فى تكوين العقل أو الروح، أو حتى فى تلقى هذه السمات، وكما ميز بين الجوهر والوجود يبين محدودية الخلاقة واختلافهم عن الخالق، فإن وليم لم يكن فى حاجة إلى نظرية البنية المادية للكون لإقامة حجته عن طبيعية الملائكة، ذلك أن مجرد افتراض وجود مادة أولية فى الملائكة سوف يقصر المادة على العالم الحسى فقط، وهذا ما فعله القديس توما الإكوينى من بعده.

٦ - وإذا انتقلنا إلى مجال علم النفس، نجد أن وليم من أوفرين فى كتابه "عن النفس" يجمع بين النهج الأرسطى والفكر الأغسطينى، فهو يتبنى التعريف الأرسطى على أنه "كمال الجسد" والأعضاء الذى يعطى الحياة قوة دامغة^(١) (*perfectio corporis physici organic potential vitam habentis*) وهو إذ يسوق هذا النص لأرسطو يلت نظر القارئ إلى أن هذا لا يعنى تسليمه بكل أفكار أرسطو، وإنما هو يقر أرسطو على هذا التعريف بالذات. ويمضى وليم ليجادل بأن لكل إنسان نفساً "روحاً" يعنى بها ويحكم بمقتضاها^(٢)، ولكن هذه الروح ليست كل مكونات الطبيعة الإنسانية، فلو أن الأمر كذلك لأمكن للروح البشرية أن تتحد مع جسم أثير- على سبيل المثال- لتكون إنسان، وهذا أمر من ضرور المستحيل. وعليه فإن أرسطو كان محقاً فى قوله بأن الروح بالنسبة للجسد هى بمثابة الصورة بالنسبة للهوىلى "المادة"^(٣)، على أن هذا لا يمنع القول بأن الروح هى جوهر وليست مادة، هو هنا يستخدم مقارنة القديس أغسطينوس للروح بعازف القيثارة، فى حين تبقى القيثارة نفسها مجرد أداة العزف.

(1) De Anima, 1,1.

(2) Ibid., 1,3.

(3) Ibid., 1,2.

كما أن وليم من أوفرني لا يقبل بالقول بوجود ثلاثة أرواح في الطبيعة البشرية "الروح النامية، والروح الحسية، أو الحيوان، والروح العاقلة"^(١)، ويصر على أن للإنسان روحا واحدة تقوم بوظائف متعددة، وهي من عند الله وجبلته وحده، من الطاقة المادية، كما أنها غير مائتة^(٢)، ويستعين وليم في جدله هذا ببعض الأفكار الأفلاطونية ليدل على خلود الروح، قائلا بأنه إذا كان البشر الذي قد يعتور روحا شريرة لا يعطى جوهرها، فكيف إذن يمكن للموت الجسدى أن يقضى على الروح^(٣) كذلك حيث إن الجسد يتلقى الحياة والحيوية "الروح الدفاقة" فإن توقف الجسد عن الحياة لا يعنى أبدا نهاية الطاقة الكامنة فى الروح^(٤)، ويلاحظ وليم أيضا أنه فى مقدور الروح أن تتواصل مع جواهر بنقطة عنها؛ لأنها شريكة فى هذا الجوهر، ولما كانت الروح الإنسانية واحدة لا تنقسم، فإن هذا يعنى خلودها؛ لأنها ليست مجرد مكون عقلانى فى الإنسان^(٥).

ومع أن وليم يقبل نظرية الفلاسفة "المشائين" بأن الروح هى صورة للجسد 'وعلىنا أن نتحفظ هنا، لأنه يستخدم أيضا عبارات أفلاطونية-أغسطينية عن اتحاد الروح بالجسد'، إلا أنه يتبع خطى أغسطينوس فى رفض الفعل بين الروح وملكانها^(٦)، وهو يقول فى هذه النقطة إن الجوهر فقط هو الذى بمقدوره أن يدرك وأن يقدر، أما "العرض" الفانى فلا يمكنه إتيان ذلك. وعلى هذا فالروح هى التى تملك الإدراك وإجلاء الإرادة تجاه الأشياء، المختلفة وتلك المتشابهة تارة بملكة الإدراك وأخرى، بدافع الرغبة.

ويتضح من هذا الطرح أن وليم من أوفرني يرفض تمييز أرسطو بين "المدركات الفاعلة وبين المدركات السالبة"، وحقيقة الأمر أن أتباع أرسطو وشراحه يعمدون إلى غض الطرف عن مسألة "الإدراك الفاعلة"؛ لأنه فى الإمكان إثبات عكس ذلك تماما.

(1) Ibid., 4, 1-3.

(2) Ibid., 5, I. FF.

(3) Ibid., 6, 1.

(4) Ibid., 6, 7.

(5) Ibid., 6, 8.

(6) Ibid.

ويخلص وليم إلى رفض فكرة "المدركات" الفاعلة؛ لأنها محض خيال لا يفيد^(١) كذلك يرفض فكرة وجود مدركات فاعلة مستقلة، وهى الفكرة التى طرحها ابن رشد وعزاها "عن هدف ويقين" أيضا لأرسطو.

٧ - من الواضح أن وليم من أوفرّن نظرية، الإدراك الفاعل التى قال بها أرسطو، وأنه ينحاز تماما إلى رأى القديس أغسطينوس فى هذه القضية وهو يتخذ نفس الموقف الأغسطينى من قضية معرفة الروح لنفسها ووعيتها الذاتى، مقلدا من شأن الحواس. وهو يقول فى ذلك، إن الإنسان يميل إلى التركيز على الأشياء الحسية، غير مبال بالوعى الذاتى للروح، فمع أن الإدراك الحسى يتأتى من خلال ملامسة الحواس للأشياء، فإن الصيغ العقلية من مجردات وكميات لا تتأتى من الأشياء ذاتها أو من أوهام على هذه الأشياء، فهذه كلها جزئيات وليست من الكميات فى شىء.

ولنا أن نتساءل، كيف إذن تتم الرؤى المجردة والأفكار الكلية عن الأشياء المحسوسة؟ يجيب وليم بأن هذا يتم عن طريق الإدراك الناشط الإيجابى الذى لديه الملكة لمعرفة ما يفد عليه من هنا أو هناك^(٢)، وهذا النشاط هو نشاط الروح من خلال تجريدها لفعل وربود فعل الحواس الإنسانية.

بعد هذا يأتى السؤال عن الضمان الذى يؤكد على موضوعية ما هو مجرد وكلى من الأفكار، إن الضمان - عند وليم هو واقعة أن ملكات العقل تنطوى على الفاعل الإيجابى، أن الله هو الذى ينعم على العقل "أو الإدراك" بالمبادئ الأولى وأيضا بالمثل المجردة لعوالم المحسوس من الأمور، ويؤكد وليم فى كتابه، عن النفس^(٣) أنه بنفس النعمة الإلهية فقط يمكننا كبشر أن نتعرف بالمبادئ الأولى وقوانين الأخلاق وكذا الصيغ الكلية العقلية للمحسوسات من أشياء هذا العالم.

(1)Ibid., 7,3.

(2) De Anima, 5,6.

(3)Ibid., 7,6.

ويمضى وليم فى طرحه ليقول بأن الروح الإنسانية تحتل موقفاً على حافة عالين، عالم الأشياء المحسوسة الذى تتواصل معه الروح عن طريق الجسد، ثم عالم آخر، ليس عالم مثاليات أفلاطون الكلية، ولا هو عالم الإدراك المستقل الأرسطى، وإنما هو الله ذاته الخالق، والمثل الأعلى، والكتاب الحى القيوم أبداً الذى يطالع فيه البشر كل المبادئ والقواعد والصور المدركة، وعلى هذا فإن وليم يجعل ما قاله به أرسطو والفلاسفة المسلمون عن العقل الفاعل من الصفات الإلهية، وبعد ذلك يحاول وليم أن يساون من رأيه هذا وبين نظرية القديس أغسطينوس عن "التنوير" الإلهى، فى تفسير قريب من النظرية المثالية.

٨- لعل القارئ يدهش أننا قد خصصنا فصلاً كاملاً لشخص، لم يكن اسمه من بين الأسماء المرموقة من مفكرى العصور الوسطى، ولكن واقع الأمر أن وليم من أوفرن يمثل أهمية خاصة ليست فقط كمستقبل دؤوب بالفلسفة، وإنما لأنه يعكس لنا كيف أن أفكار أرسطو الكسمولوجية والميتافيزيقا والنفس، جنباً إلى جنب من أفكار الفلاسفة المسلمين قد وقعت على أذان صاغية وعقول مفتحة فى الغرب المسيحى، رغم أن هؤلاء الغربيين كانوا من دائرة السلفيين والمحافظين، فلقد كان وليم من أوفرن، وهو أسقف باريس، مستعداً لتقبل آراء أرسطو كما أنه تبنى تعريف أرسطو للروح، بل إنه استخدم تمييز ابن سينا بين الجوهر والوجود، ولكن هذا كله لم يتعارض مع كونه فيلسوفاً مسيحياً، ينحاز إلى القديس أغسطينوس، كما أنه لم يتبين من أفكار أرسطو إلا ما وجد أنه لا يتعارض مع أركان عقيدته المسيحية.

عن ذلك أنه رفض دون تردد نظرية أرسطو عن أزلية العالم، وكذا نظرية الأفلاطونيين المحدثين، وبعض الفلاسفة المسلمين عن "الفيض الإلهى" وكذا نظرية الخلق عن طريق الوسائط وغيرها من النظريات الأخرى، ولكننا نخطئ لو أننا نظن أن وليم من أوفرن قد توقف عن مجرد رفض هذه النظريات؛ لأنه وهو يعلن رفضه راح يقدم الحجج والأسانيد لكى يفند هذه النظريات، بناء على قناعات شخصية، ويعنى هذا أن صاحبنا كان فيلسوفاً يعالج ما يعن له من قضايا بعقل متفتح، وإن كانت أفكاره تحمل

بين جنباتها كلا من الفلسفة واللاهوت جنباً إلى جنب، وهذه سمة الطبيعة عند معظم مفكرى العصور الوسطى فى أوروبا.

ويمكن القول إذن إن وليم من أوفرن يمثل مرحلة انتقالية فى العصور الوسطى، فلقد ساهم من خلال معرفته الوثيقة بكتابات أرسطو والفلاسفة المسلمين واليهود، وبحكم قبوله لبعض هذه الأفكار، فى تمهيد الطريق لظهور مدرسة أرسطية مكتملة على يد من ألبرت الكبير وتوما الإكوينى فيما بعد.

ومن ناحية أخرى، جاءت مناهضة لبعض أفكار أرسطو وأتباعه لتشجيع القديس بونافنتورا فى فترة لاحقة على اتخاذ موقف مناهض تماماً للفكر الأرسطى، مع الانحياز الكامل لفكر أغسطينوس.

إن وليم من أوفرن، كما ذكرنا سابقاً، يمثل نقطة التقاء بين القرنين الثانى عشر والثالث عشر، أو هو بمعنى آخر يمثل اللقاء بين القرنين معاً، بمشاعر من الود والتعاطف، التى لا تخلو من وجهة النظر النقدية أحياناً، ومن القبول أحياناً أخرى.

ومع أنه يحق لنا من جانب أن ننظر إلى وليم من أوفرن كممثل لمرحلة انتقالية تتناهى خلالها الفكر الأرسطى، بعيداً عن الأغسطينية التقليدية، والتى يمثلها بحق القديس توما الإكوينى، فإنه يحق لنا من جانب آخر أن ننظر إلى فلسفة وليم كمرحلة هامة فى تطور الفكر الأغسطينى نفسه، لقد حاول القديس أنسلم أن يستعين بفكر أرسطو بالقدر الذى سمحت له به معرفته المحدودة بأرسطو، ولكن الأغسطينيين اللاحقين وجنوا أنفسهم مضطرين إلى أخذ أفكار أرسطو فى الاعتبار، من ذلك ما أقدم عليه دون سكوتوس، مثلاً، فى القرن الثالث عشر من محاولة إقامة مؤالفة أغسطينية- أرسطية، وبطبيعة الحال، سواء نظرنا إلى هؤلاء المفكرين كأغسطينيين أثروا الفكر الأغسطينى بأفكار أرسطية، أو كأرسطينيين لم يكتملوا، فإن الحكم هنا قابل للأخذ والعطاء، وعلى هذا فإن النور الذى قام به وليم من أوفرن سوف يختلف بقيمه طبقاً لوجهة النظر هذه أو تلك.

على أننا لو تحررنا من استحواذ مدرسة توما الإكويني على فلسفة العصور الوسطى، فإنه يصبح في إمكاننا أن نوفى وليم من أوفرن حقه، وأن نعتزف بأنه هو الذى مهد الطريق لدون سكوتوس وأيضاً لتوما الإكويني نفسه، ولا يمكن والحال كذلك، أن نرجح وجهة نظر على أخرى، فربما أن النظرتين صحيحتان، ولكن يمكن القول بأن المفكرين فى الغرب سبقوا توما الإكويني مما استعانوا بمفردات من الفكر الأرسطى، قد جهدوا الطريق بحق لتبنى الفكر الأرسطى فيما بعد فى مجمله.

ولنا أن نتساءل أيضاً عما إذا كانت بعض الأفكار الأرسطية قد سخرت لخدمة المدرسة الأوغسطينية، لكى تظل لها مكانة الصدارة، أم أن التوجه كان يقينياً قبالة الأرسطية، فى مجملها كمنظومة فلسفية فى ذلك الحين.

وبالنسبة لدور وليم من أوفرن فى هذا الخصوص، فإن خير جواب هو ما ورد على لسان الأستاذ م. جلسون فى قوله: 'إن خير ما يمثل الفكر الأوغسطينى المركب، فى القرن الثالث عشر هو وليم من أوفرن، والحق أن لا شيء كان بمقدوره أن يوقف الغزو الكاسح للمدارس الأرسطية، إلا أن تأثير وليم من أوفرن قد ساهم من تحجيم، بل وتأخير هذا التيار الأرسطى⁽¹⁾.

(1) Le philosophie au Moyeu Age.

الفصل الرابع والعشرون

روبرت من جروسنتست وإسكندر من هيلز :

أ - حياة روبرت جروسنتست وكتاباتاته - نظرية النور

الله والخلق - نظرية الحق والتنوير

ب - موقف إسكندر من هيلز من الفلسفة براهين وجود الله

الصفات الإلهية - تكوين الخلائق الروح، العقل، والإرادة -

فحوى فلسفة إسكندر من هيلز

عندما نتبع تاريخ الفلسفة في العصور الوسطى، نجد أنه من العسير تصنيف مفكرى تلك الحقبة الزمنية في تسلسل تاريخى دقيق، ولذا فإنه يبدو من الأصوب أن نعالج النشاط الفكرى لجامعة أكسفورد في معزل عن الحركة الفكرية السائدة في جامعة باريس.

لقد كان هناك تحفظ واضح في أكسفورد نحو الميثافيزيقا وعلوم النفس، وذلك تمشياً مع التقاليد الأغسطينية، مع اهتمام بالدراسات الإمبريقية، وهذا الجمع بين المساق الأغسطينى والمساق الإمبريقى يمكننا من تقصى مسار الفلسفة في أكسفورد من خلال نتاج روبرت جروسنتست وصولاً إلى روجر بيكون في تسلسل متواصل.

أما بالنسبة لجامعة باريس، فإنه نظراً لزخم التيار الأغسطينى بقيادة إسكندر من هيلز والقديس بوناغنتورا من ناحية، وتنامى التيار الأرسطى بقيادة القديس توما الإكوينى من ناحية أخرى "مع الأخذ في الاعتبار الصلات القائمة بين المدرستين" فإنه من المفيد أن نعرض لرؤى المدرستين الفكرتين في دراسة مقارنة.

على أن هذا الطرح ينطوى على بعض المخاطر؛ فلقد توفي روجر بيكون "حوالى ١٢٩٢م" بعد وفاة إسكندر من هيلز بمسافة طويلة "١٢٤٥م"، وكان بيكون قد عبّر عن

عدة ملاحظات يستخف فيها من أفكار هيلز، كما أنه لم يخف عداؤه للقديس ألبرت الكبير (ت ١٢٨٠م) وعليه فإنه يبدو من الأصوب أن نعرض لروجر بيكون، بعد معالجة أفكار كل من إسكندر وألبرت. كذلك يمكن عرض وجهات نظر روبرت جروستست، وروج بيكون معا.

ويلاحظ أن روبرت جروستست وقد توفى سنة ١٢٥٣م، أى قبل إقدام مجمع أكسفورد على إدانة بعض الآراء التى كان يقول بها القديس توما الإكوينى (١٢٧٧-١٢٨٤م) أما روجر بيكون فقد بادر بانتقاد الإدانة التى أصدرها مجمع أكسفورد سنة ١٢٧٧م ضد أفكاره.

ونظراً لتشابك هذه الأحداث، ورغم ما قد يقال عن خطتنا فى تتبع مجريات الأمور زمنياً، فإننا قد أثرنا البدء بروبرت جروستست فى أكسفورد، وإسكندر من هيلز فى باريس، وبعدها ننتقل إلى تلميذ إسكندر وهو القديس بوناغنتورا وهو أبرز مَنْ يمثل الفكر الأغسطينى فى القرن الثالث عشر. وبعدها نمضى للنظر فى الفكر الأرسطى لدى كل من ألبرت الكبير، وتوما الإكوينى، وما تبع ذلك من جدل، وأخيراً نتوقف عند روجر بيكون، للكشف عن صلاته الروحية مع جروستست.

أ - روبرت جروستست.

١ - ولد جروستست فى بلدة سفوك Suffolk حوالى سنة ١١٧٠م، ثم أصبح مستشاراً لجامعة أكسفورد سنة ١٢١١، وما بين أعوام ١٢٢٩-١٢٣٢م صار كبير شماسة مدينة ليستر، وفى سنة ١٢٣٥م اختير أسقفاً لمدينة لنكون.

وإلى جانب قيام جروستست بالعديد من الترجمات عن اليونانية "كنا قد ذكرنا فى موضع سابق أنه ترجم كتاب "الأخلاق لأرسطو" فإنه وضع شروحا لأعمال أخرى لأرسطو، منها "التحليل البعدى"، "الجدل السفسطائى" و "الفيزيقا" وإن كان العمل الأخير قد جاء فى مختصر للأصل اليونانى، وليس شروحا بمحتواه، كذلك قدم جروستست بعض الشرح لكتابات ديونسيوس المنحول.

وكذا فإن حكم روجر بيكون بأن جروستست قد أهمل أعمال أرسطو ومناحيها في مجملها⁽¹⁾ يبدو غير مبرر على الإطلاق، ولعل ما كان يقصد إليه بيكون هو أن جروستست قد طرح القضايا الفلسفية بمتهج مخالف للمنهج الأرسطي، وهذا ما نستدل عليه من عبارات لاحقة لروجر بيكون، حيث يقول بأن جروستست كان يعتمد على مفكرين آخرين غير أرسطو، وأيضاً على خبراته الذاتية.

ولقد أخرج جروستست العديد من الأعمال عن: "وحدة الصورة الكلية" و"المدرجات العقلية" و"العلية" و"الاحتمال والفاعلية" و"الحقيقة"، و"حقيقة الفرضيات"، و"معرفة الله"، و"الفيض الإلهي"، و"العلية الإلهية"، و"التقييم الحر". أما بالنسبة لعمل آخر بعنوان "عن النفس" يعزى إلى جروستست، فالأمر ليس محسوماً بشكل قاطع.

وتشئ عناوين أعمال جروستست عن تمسكه بتلاييت التقاليد الأغطسينية، رغم أنه كان ملماً بفلسفة أرسطو واستخدم بعض أفكاره أيضاً، كذلك أبدى جروستست اهتماماً بالعلوم التجريبية، الأمر الذي أثار إعجاب روجر بيكون به، فأعلن أن أستاذه "جروستست" كان على معرفة بالعلوم الطبيعية أكثر من جميع من كانوا حوله⁽²⁾، مما مكّنه من تفسير الكثير من الظواهر باستخدام الرياضيات⁽³⁾.

والحق أن جروستست قد كتب العديد من الأطروحات في مجال العلوم نذكر منها "عن المجالات الطبيعية"، و"عن الحسابات"، و"عن أصل النجوم" و"عن الشهب والنيازك" و"عن تأثير الهواء الجوي" و"عن الضوء" و"عن الخطوط والصدود"، و"عن الزوايا والأشكال"، و"عن طبيعة الضوء"، و"عن الجفاف"، و"عن تأثير العناصر أو المكونات"، و"عن الألوان"، و"عن الشمس"، و"عن اختلاف المواقع الجغرافية"، و"عن حركة الأجسام"، و"عن الحركة فيما وراء الفضاء"، و"عن نهاية الحركة والزمن" و"عن لماذا يمثل الإنسان عالماً صغيراً".

(1) Compendium Studii ed. Brewer, P. 469.

(2) Ibid., 472.

(3) Opus Maius, ed. Bridges, 1, 108.

١ - وتدور فلسفة جروستست حول فكرة "الضرورة"، وهي فكرة اعتز بها جميع أبناء المدرسة الأغسطينية؛ ففي كتابه "عن الضوء"^(١) يلاحظ جروستست أن الصورة الجسدية الأولية، التي يطلق عليها البعض "الجسدانية" هي الضوء عندما يتحد مع المادة "الأولية" وفقاً لرأى أرسطو "ليكونا جوهرًا بسيطاً له أبعاد.

ولكن لماذا يجعل جروستست الضوء أساساً للصورة الجسدانية؟.

يجيب جروستست على ذلك بأن طبيعية الضوء الانتشار الذاتي، وهذه الخاصية هي التي تفسر كيف يصبح الجوهر ذات أبعاد ثلاثة من هيولى وصورة وضوء، ونظراً لخاصية الضوء فى الانتشار والتوالد الذاتى فهو بذلك الذى يحدد الصورة الجسدانية، كما أن الضوء هو أكثر الصور نبلاً؛ لأنه يحاكي المدركات العقلية المستقلة.

وينتشر الضوء فى كل الاتجاهات بطريقة ذاتية، مكونا الجمال الخارجى للكون، أو السديم، وذلك بعد أبعد نقطة للانتشار، حيث يتمازج الضوء فى المادة الأولية، ومن هذا السديم ينساب الضوء قبالة مركز المجال ليؤلف "الروح الجسدانية"^(٢).

ويتم الانتشار بالتوالد الذاتى للضوء، لينشأ مجال جديد وراء مجال آخر حتى تكتمل مجالات السماوات التسع، التى يقع فى قلبها القمر، وفى "مجال القمر ينتشر ضوء جديد، ولكن بقدر أقل من الإشعاع، وذلك كلما اقتربنا من نقطة المركز لهذا المجال.

وعلى هذه الشاكلة نشأت المجالات الأدنى من القمر وهى: النار، والهواء، والماء، والتراب، وبذلك يكون لدينا ثلاثة عشر مجالاً فى عالمنا المحسوس، تسعة منها سماوية تتسم بالثبات والنقاء، أربعة نون سماوية، وهى قابلة للفساد والتبدل والتغير^(٣).

(1) Ed. Baur, P. 51.

(2) P. 55.

(3) P. 56.

ويمضى جروستست ليقول بأن طبيعة كل جسد تتحد حسب درجة الضوء التي ينعم بها هذا الجسد، وذلك قد تدرج هيراركية، لأى ضوء هو الذى يحدد "النور" والاكتمال الجسدانى، كذلك يشرح جروستست ماهية الألوان من خلال فكرته عن الضوء، معلنا أن اللون هو "إدراكنا للضوء متجسدا"^(١)، وهو يعتقد أن غزارة الضوء أو وفرة تجعل اللون أبيض ناصعا، فى حين أن ندرة الضوء تجعل اللون مائلا إلى السواد، وهنا يعرج جروستست لشرح مقولة كل من أرسطو^(٢) وابن رشد بأن الأسود هو "انتفاء" أو سلب الضوء وهو يقول أيضا بأن الضوء هو مبدأ الحركة، التى ليست إلا "مسارا" لانتشار الضوء"^(٣).

٢ - وإلى هذا الحد يكون جروستست قد عبّر عن رأيه فى الضوء كشيء "جسدانى" أو مكون لما هو جسدى، وبعدها يمضى ليوضح مفهومه عن الضوء فى العالم الروحانى أيضا: فإله هو النور الصافى الأزلّى، ولكن ليس بالمعنى السابق "الجسدانى" كما أن الملائكة نوارنيات لا جسدية، فى شركة مع النور الأزلّى، وإله أيضا هو "صورة كل الأشياء" ولكن دون دخول فى جوهرها المادى أو اتحاد معه؛ لأن إله هو "الصورة المثلى العلوية"^(٤) وإله سابق على كل خلقة، بالمعنى الأزلّى وليس الزمنى الخاص بالخلقة، وذلك دون خلط أو مشاركة بين المخلوقات وخالقها^(٥).

ونحن بعقولنا البشرية قد تراودنا فكرة وجود إله فى زمن معين قبل بدء الخليقة، بنفس الطريقة التى نتصور بها القضاء الخارجى على سبيل المثال، ولكن مثل هذا التصور قد يؤدى إلى الضلالة.

٤ - وفى كتابه عن "حقيقة الفرضيات"^(٦) يقول جروستست بأن حقيقة الأفكار تتأتى من تطابق الفكرة عن الشيء من هذا الشيء الذى نتمعن فيه، ثم يمضى ليعبر

(1) De. Colore, P. 78.

(2) Physics, 201 a 6, Metaph., 1085 b11.

(3) De motu Corporali et luce, P. 92.

(4) De unica forma omnium, p. 109.

(5) De ordine emanandi Causarum a Deo, P. 149.

(6) P. 144.

عما هو أبعد من ذلك في البحث عن "الحقيقة الغائية" التي نادى بها من قبل القديس أغسطينوس، وهو هنا لا يجد غضاضة في قبول نظرية أرسطو عن "التجلى المتماثل" حيث تكون الكلمة المنطوق بها متطابقة مع الشيء المقصود، أو عندما يتماثل شيء بعينه مع العقل، وأن كانت الحقيقة عند جروستست في نهاية الأمر تعنى تساوى الأشياء مع "كلمة الله الأزلية التي لا تزول"^(١)، إن الشيء يكون حقيقيا عندما يصبح على الشاكلة التي ينبغى أن يكون عليها، في اتساق مع "كلمة الله وهي المثلى والعليا"، وهذا أمر لا يمكن إدراكه إلا عن طريق العقل المستنير وحده، الذي بقدره أن يسلم بالحقيقة وإدراك فحواها، كما قال القديس أنسلم^(٢).

وينتج عن هذا أنه لا يمكن لنا أن ندرك الحقائق من حولنا إلا على ضوء الحقيقة العليا، وهي الله ولقد بين القديس أغسطينوس من قبل أن الحقائق "المخلوقة" تفصح عن فحواها بقدر ما ينعم به الله على العقل البشرى من نعمة نورانية^(٣).

ولكن كيف يتأتى إذن للأشرار وغير الأطهار أن يتوصلوا إلى معرفة الحقيقة؟

يجب جروستست على هذا التساؤل بأن هؤلاء أولئك لن يقدر لهم معاينة الله، لأن أنقياء القلوب فقط هم الذين يعاينون الله، مضييفا بأن العقل لا يدرك الكلمة الإلهية الأزلية بطريق مباشر، وإنما من خلال "نورانية الكلمة نفسها" للعقل المستنير، وكما هي الحال بالنسبة للعين الجسدية في إبصارها للأشياء المادية بفعل ضوء الشمس، دون أن تنظر مباشرة إلى قرص الشمس، فكذلك العقل الإنساني، يدرك الحقائق بفضل النور الإلهي المحيط في كل مكان، دون معاينة الله نفسه، ودون أن نعنى بالضرورة هذا النور الرياني.

(1) De Veritate, PP. 134-5.

(2) Ibid., P.135.

(3) Ibid., P.137.

وبهذا يكون جروستست قد تبنى النظرية الأغسطينية فى موضوع "النورانية الإلهية" ولكنه يرفض أى تفسير يتضمن مقدرة العقل البشرى على معاينة الله نفسه. أما أفكار جروستست عن الرياضات والرؤى وغيرها من القضايا، فإنها أمور لا يتسع لها هذا الكتاب. ويكفى هنا أن نؤكد على أن فلسفة جروستست قد قامت على القواعد الأغسطينية، مع استعداد للتكواء أحياناً على بعض الأفكار الأرسطية.

ب - إسكندر من هيلز

ه - يظهر من بين جماعة الفرنسيسكان "الرهبانية ضرب من الغلاة الذين اتخذوا موقفاً عدائياً من العلم ومتطلبات الحياة اليومية، ووصفوا الانشغال بأمور هذا العلم على أنه خيانة للحياة الروحانية ولبساطة العرش الإلهى "الصاروفينى" "الصاروفين هم الملائكة حول العرش الإلهى غير أن البابوية نفسها لم تكن ترتاح لهذه الطائفة من الغلاة.

ومع ذلك فإن جماعة فرنسيسكان، قد أفرزت سلسلة طويلة من اللاهوتيين البارزين والفلاسفة، وفى مقدمتهم كان الإنجليزى إسكندر من هيلز، الذى ولد فى ولاية "جلوستر يثاير" (١١٧٠-١١٨٠م) والتحق بدير الفرنسيسكان سنة ١٢٣١م، وتوفى سنة ١٢٤٥م.

وكان إسكندر أول راهب فرنسيسكان يشغل موقع أستاذ اللاهوت فى جامعة باريس، وقد ظل يشغل هذا الكرسي حتى قبل وفاته بسنتين قللاً، ثم خلفه فى الأستاذية جون من لاروشيل.

ومن الصعوبة بمكان أن نحدد على وجه الدقة ما أضافه إسكندر للفكر الفلسفى، نظراً لأن كتاب ملخص اللاهوت الشامل (Summa Theologia) الذى ينسب إليه والذى يتضمن بعض الأفكار التى طرحها روجر بيكون، يعتمد فى كثير من أجزائه على كتابات مفكرين آخرين، خاصة فى الأجزاء الأخيرة منه، كما أن هذا الكتاب، لم يتخذ شكله النهائى الذى ظهر عليه إلا بعد وفاة إسكندر نفسه بمئتين سنة أو يزيد^(١).

(1) Summa Theologia, in the Quaracchi edition.

وبشكل عام فإن هذا الكتاب يمثل مرحلة فى تطور الفلسفة فى الغرب الأوروبى، كما أن صاحبه يتخذ موقفا نقديا من الفكر الأرسطى فلم يكتف إسكندر بمهاجمة بعض نظريات أرسطو وأتباعه.

وإنما اعتبر الفلاسفة الوثنيين عاجزين عن بلورة فلسفة مقنعة بالمعنى الواسع؛ لأنهم- على حد تعبيره- لم يمتلكوا بعد مفردات الرسالة المسيحية، ويمضى قائلا إن الإنسان الذى يقف على قمة أحد التلال يمكنه أن يرى مساحة أكبر من أرض الوادى عن ذاك الذى يقف عند قدم هذا التل نفسه.

ويعنى هذا القول إن إسكندر يسير على نفسه خطى أسلافه من الآباء الكنسيين، وبخاصة القديس أغسطينوس، وبونثيوس، وديونيسيوس المتحول، والقديس أنسلم، والقديس فكتور، أكثر من أتباعه لآراء أرسطو.

٦ - وعندما يعرض إسكندر من هيلز العقيد، الثالث المقدس، فإنه يعلن أنها عقيدة تستعصى على العقل البشرى، وإذا فلايد من عون سماوى يفتح بصيرة العقل القاصر لتفهمها^(١).

أما وجود الله فإنه حقيقة يمكن لكافة الخلق أن يعرفوها، الطيب منهم وغير الطيب^(٢)، وهو يميز بين "وجود الله" ما هو حاصل وبين "الطبيعة الإلهية" سمات ما هو حاصل ليقول بأن كل البشر قادرين على معرفة وجود الله من خلال صنائعه فى هذا العالم، ومن ثم التسليم بوجود الخالق وهو الأول والآخر^(٣).

أما بالنسبة للطبيعة الإلهية، فرغم عجز العقل البشرى، فإنه بإمكانه أيضا أن يدرك بعض الصفات الإلهية كالقوة والحكمة العلوية ويشمل هذه العقول التى لم تنعم بالنعمة الربانية^(٤) وتتأتى هذه المعرفة عن طريق القياس^(٥)، فالخير على سبيل المثال

(1) 1, no. 10.

(2) 1, no. 15.

(3) 1, no. 21.

(4) 1, no.15.

(5) 1, no.21.

وهو من الصفات الإلهية، موجود أيضا في بعض الأفراد من البشر، ولكن في حين أن الخير الإلهي من الصفات الطبيعية ذاتية الوجود في الخير كله، فإن الخير في البشر يتأتى عن طريق "الشركة" بالقدر الذي ينعم به بعض البشر إعتقاداً على الله، ليجازوا على ذلك بنصيب محدود من الخير الكلي الخالص في الأعلى عند الله.

وفي حديثه عن براهين وجود الله، يستعين إسكندر من هيلز بحجج كل من القديس أغسطينوس عن "ضرورة الوجود الإلهي" ويوحنا الدمشقي عن "العلّة الأولى" وهيو من سان فكتور عن "معرفة الروح للبداية والنهاية" إلى جانب براهين أخرى مستقاة من القديس أغسطينوس والقديس أنسلم عن "أزلية الحقيقة"، وهو يستعير من القديس أنسلم بالذات فكرة "الله الكامل" كما وردت في كتابه "المقال أو الموعظة"⁽¹⁾ ProsLogium ومؤداه أنه من المستحيل أن يجهل البشر حقيقة الوجود الإلهي⁽²⁾، ويمضى إسكندر ليعلم أنه ينبغي علينا كبشر أن نميز بين عدة ملكات من التمييز للعقل، فعلى أن نميز بين المعرفة المعتادة من متاع كل يوم وبين المعرفة "الحقة" -Cognitu habi- (tux Cognito actu) فالأولى هي من طبيعة الأمور العادية التي تترك انطباعاتها على العقل لتعيّنه على معرفة الله، وهي أعلى درجة نسبياً من المعرفة "الضمنية" هذا إذا جاز لنا أن نضع ما هو "ضمني" في ماعون المعرفة على الإطلاق.

ولقد علّق القديس ألبرت الكبير على هذه التفرقة المعرفية لإسكندر بأنها "من قبيل الحلول العجيبة".

وبالنسبة للمعرفة الحقة، فإن إسكندر من هيلز يحاج بأنّها تتضمن، معرفة روحانية من جانب، ومعرفة "موحاة" إلى العقل من جانب آخر، أما المعرفة الروحانية فإنّها كفيلة بهداية العقل البشري إلى معرفة الوجود الرباني، ولكن تتوقف هذه المعرفة على قدر ابتعاد الروح عن دروب الخطيئة والضلال وأمور هذا العالم.

(1) 1, no, 26.

(2) S.T., Pf, tr, 4, q., 19.

ويمضى إسكندر فى جدليته هذه ليبين أن الإنسان الذى يرصد كل سعادته فى جمع الثروة أو فى الملذات الحسية، قد يعرف الله بمعنى أو بآخر؛ لأن الله الطوباوى موجود فى كل مكان وأوان، ولكن هذا الفصل من المعرفة عاجز عن إدراك الوجود الإلهى الحق، ثم إنه يضرب مثلا آخر من عالم عبدة الأوثان، فهؤلاء، لديهم آلهة كثيرة، يتعبون إليها، ولكنهم بعيدون تماما عن الله، بالمعنى الحقيقى.

وقد تبدو هذه الحجج شطحات من جانب إسكندر من هيلز، ولكنه - على ما يبدو - يضع فى حسبانها بعض العبارات التى وردت على لسان القديس بولس^(١)، من قبيل أن عبدة الأوثان، يعرفون الله ولكنهم لا يمجّدونه طاعة، وأيضا من إعلان للقديس يوحنا الدمشقى بأن معرفة الله "أمر مطبوع بالفطرة فى العقل البشرى"^(٢).

والجدير بالذكر هنا أن وجهة النظر القائلة بمعرفة البشر لله "فطرية" تمثل واحدة من مكونات المدرسة الأغسطينية. على أنه على ضوء حقيقة وجود عبدة الأوثان، وملاحظة كثيرون فى هذا العالم، فإن من يمعن فى وجهة النظر هذه يجد لزاما عليه أن يميّز بين "المعرفة الفطرية" أو الضمنية غير المعلنة، وبين المعرفة "المعلنة" والواضحة، أى بين المعرفة بما هو "مشاع" وبين المعرفة بما هو "صائب" عقليا.

٧ - ويمضى إسكندر من هيلز بعد ذلك للحديث عن الصفات الإلهية من ديمومة وبساطة ولا محدودية وتقال عن إدراك العقل البشرى، ومن عظمة وأزلية ووجدانية وحق وخبير وقوة وحكمة وتصريف ونهى" وهو فى هذا السياق يستعين باقتباسات من الثقات السابقين من أمثال أغسطينوس وأنسلم، ولكنه لا يطرح رؤيته الخاصة بطريقة إبداعية، وإن كان العرض لا يخلو من التدقيق والتعريج على بعض الأفكار الفلسفية بصفة عامة، فهو على سبيل المثال عندما يعرج لوحدانىة الله، يبدأ بمفهوم الوجدانية بشكل عام، معرفا إياها بأنها غير منقسمة، وواحدة فى ذاتها^(٣)، ثم ينتقل ليشرح العلاقة بين الوجدانية والكيثونة والحق والخير^(٤).

(1) Romans, 1.

(2) De podo Ortod., 1, cc. 1 and 3, P.G., 94, 790 and 794.

(3) 1, no. 72.

(4) 1, no. 73.

أما عن المعرفة الإلهية فهو يسير على خطى أغسطينوس وأنسلم بأن الله سيعلم بكل شيء^١ في ومن خلال ذاته الإلهية، كما أن جميع المثاليات التي تتركها الخلائق موجودة عند الله، مع ملاحظة أن هذه المثاليات لا تؤلف تعددية بأية حال؛ لأنها في مجموعها تتطابق مع الجوهر الإلهي الواحد، العارف لذاته وبكل شيء.

ولكن، كيف يعلم الله أمور الشر والإثم في هذا العالم؟

يعتقد إسكندر من هيلز بأن الشر والإثم والخطيئة أن هي إلا "نقائص سلبية" بمعنى أن لا وجود لها إلا في غيبة أو انتفاء الخير، الضوء، مثلاً قال من قبل ديونيسيوس المنحول، ينساب بنوره، رغم أن بعض الخلائق ليست مؤهلة لاستقبال والتعّم بنوره، بمعنى أن الضوء من حيث هو لا يعرف معنى للظلام، هذا مؤداها المثال عند إسكندر أن الظلام أو الشر ليس شيئاً إيجابياً، وإنما هو بالأحرى "سلب الضوء أو الخير أو انتقاؤه"^(١).

وعندما ينتقل إسكندر للحديث عن المشيئة الإلهية، فإنه يتساءل إذا كان الله يسمح بأمور مضادة للناموس الطبيعي، ومرد هذا التساؤل يرجع إلى بعض الأحداث التي وردت في العهد القديم وطريقة تفسيرها، فكيف لنا أن نفسر أمر الله لليهود "وهم يخرجون من مصر" بأن يسرقوا كل ما لدى المصريين من كنوز؟

يجيب إسكندر على ذلك بأنه حاشا لله أن يأمر اليهود بسرقة متاع المصريين، فهذا وزر واضح، وهنا يخرج لنا إسكندر بتفسيره الخاص بأن الله أراد أن يؤدب المصريين وأن يحرمهم مما يملكون، ولذا فإنه جعل من اليهود أداة لهذا العقاب.

ويسوق صاحبنا مثالا آخر من العهد القديم عن قصة الزنا الذي اقترفه النبي أوسيا، مع امرأة لم تكن زوجة له، قائلاً بأن هذا الإثم من طبع أوسيا الشهوى، وليس من الناموس الرباني في شيء.

(1) Cl., 1, nos. 123. Ff.

وواضح أن تفسيرات إسكندر في هذا وذاك تتسم بالسفسطة الكلامية، ولا تحوى شيئاً مقنماً يقبله العقل^(١).

ولربما أنه يقصد أن مسألة الأخلاق بين البشر ليست مملاة عليهم من فوق، بل هي من محض اختيارهم هم. وهذا ما كان يردده فيما بعد المفكر أو كهام OCKHAM

٨ - ثم ينتقل إسكندر من هيلز إلى القول بأن الله هو خالق العالم سواء من حيث المادة أو الصورة وهو يرفض فكرة أزلية العالم التي قال بها أرسطو^(٢)، ولكنه يقبل القول بالبنية المادية للكون، وهذه البنية موجودة في كل الخلائق، لأن المادة تساوى الاحتمال، أو "الإمكانية" كذلك يعلن عن بنية أخرى أساسية في كل الخليقة، تتراوح بين ما هو جوهري وبين ما هو موجود، أى بين ما هو مجرد وما هو محسوس، فالإنسان - كما يقول - موجود، ولكن الجوهر هو الإنسانية مجردة، أما الله والألوهية فوحدانية واحدة، فهي الجوهر والوجود جميعاً.

٩ - وتمشياً مع منهجه في الاعتماد على الشتات من السلف، فإن إسكندر من هيلز يقدم سبعة تعريفات للروح الإنسانية^(٣)، ومن بينها: النغمة الإلهية للحياة، أو الجوهر العاقل، الذى يحكم الجسد^(٤)، أو الجوهر الروحاني الذى جبله الله، والذى به يحيا الجسد^(٤)، إلى جانب عدة تعريفات أخرى استقاها إسكندر من القديس أغسطينوس، والقديس يوحنا الدمشقي، وأيضاً من الفيلسوف الرومانى سنيكا.

ويصر إسكندر على أن الروح ليست مجرد جوهر بسيط يتخذ له صورة معينة، وإنما هي جوهر في ذاتها بسيط متألف من مدركات "هيولية وصرية" وهو في هذا ينقل عن التراث الأفلاطوني الأغسطيني، بل إنه يذهب إلى حد القول بأن الروح مادة، لأنها

(1) 2, no. 67.

(2) Cf. De Sp. Er an., 0, 42 (Placed among works of Augustine, Ph, 40, 811) and St. Aug., De Gen, ad litt., 7cc 11-3.

(3) St. Aug., De quant. An., c.13, n.22.

(4) Cassiodorus, De Anima, e.2.

بالنسبة للجسد بمثابة الریان بالنسبة للسفينة التى يقودها فى البحر والروح فى كل الأحوال هى التى تضخ الحياة فى الجسد.

أما الملائكة فهم "نسمة حياتية روحانية" (Spira Culum Vitae) ولكنهم ليسوا "نسمات جسدانية، وتبقى الروح هى مبدأ الحياة بالنسبة للجسدين جميعا.

وكل الأرواح من خلق الله من العدم^(١)، وليست الروح "فيضاً" من الله أو الجوهر الإلهي^(٢)، ولا هى منبثقة بالطريقة التى قال بها إن النقليون^(٣) – Trad ucianists أى انتقال الأرواح من الآباء إلى الأبناء، وعليه فإن الخطيئة الأولى "لآدم وحواء" يمكن تفسيرها بون النظر إلى رأى جماعة "النقليين"^(٤).

تتحد الروح بالجسد مثلاً تتحد الصورة بالهيولى^(٥) وفقاً للمفهوم الأغسطيني، حيث تتصل الروح العقلانية بالجسد لتدفعه للحركة والكمال^(٦)، وللروح ثلاث فعاليات هى: النماء، والحسى، والإدراك، فى غير انفصال^(٧) بينها ولكن فى تمايز فى خصالها وأيضاً عن جوهر الروح الكلية.. وبهذا يكون إسكندر قد شرح مقولة أغسطينوس عن روية الروح وفعاليتها، بإرجاع تكوين الروح إلى هذه الفعاليات الثلاث، وليس إلى جوهرها^(٨).

ولما كانت الروح لا يمكن أن تحيا بدون فعاليتها الناشطة، فبالمثل لا يمكن لهذه الفعاليات أن تنفصل عن الروح، وحيث أنه لا يمكن مطابقة الوجود بالفاعلية، فكذلك لا يمكن مطابقة الجوهر بالإمكانية.

(1) 2, nos. 328 and 322.

(2) 2, nos. 322.

(3) 2, nos. 327.

(4) 2, nos. 347.

(5) 2, nos. 345.

(6) 2, nos. 351.

(7) 2, nos. 349.

ثم يمضى إسكندر ليميز أيضا بين الإدراك الفاعل والإدراك الخامل بالنسبة للروح العاقل: ففي الحالة الأولى تكون الروح فى كينونتها الروحانية الخالصة، وفى الحالة الثانية تكون الروح فى اتحادها مع الهيولى "الجسد". ويلاحظ أيضا أن الإدراك الفاعل لا ينفصل عن الروح أبداً^(١).

وهنا يسوق إسكندر التصنيف الأرسطى للقوى العقلانية للروح جنبا إلى جنب مع التصنيف الذى قال به كل من أغسطينوس ويوحنا الدمشقى، كما أنه يحاول جاهدا أن يوفق بين المدرستين، قائلًا بأن الإدراك عند أرسطو يسير إلى قدرتنا كبشر فى الحصول على معرفة الصور المدركة بطريقة تجريدية^(٢)، وهذه الفكرة تتساق مع فكرة القديس أغسطينوس عن "المدركات" Ratio وليس مع فكرة "التملى" Intelligentia الذى هو من الأمور الروحانية المعرفة.

وهو يقول أيضا إن الإدراك عند أرسطو يتصل بالأمور والصور المجسدة مع تجريدها من التهيؤ أو الخيال، أما عند أغسطينوس فالإدراك لصيق بالصور الروحانية، وعندما يجابه الإدراك بما هو فوق الطاقة البشرية، يصبح عاجزا ما لم ينعم الله عليه بالاستبصار النوارنى^(٣)، ولكن إسكندر لا يقدم لنا شرحا شافيا لمفهوم "التنوير" ويكتفى بأن يعلن قبوله لنظرية أرسطو عن التجريد بالنسبة لعالم الجسد، ولكنه بالنسبة لعالم الروح فإنه يلقي بثقله وراء أغسطينوس مستبعدا أفكار أرسطو.

وجدير بالملاحظة فى هذا السياق أن إسكندر من هيلز كان محققا فى النظر إلى تصنيف الفلاسفة المشائين من وجهة نظر سيكولوجية تحليلية فى حين أنه نظر إلى التصنيف الأغسطينى من مقاربة معرفية.

(1)2, nos. 372.

(2)2, nos.368.

(3)2, nos. 372.

بعد ذلك يقدم إسكندر من هيلز ثلاثة مفاهيم لحرية الإرادة: واحد من أفكار القديس أنسلم "القدرة على اختيار ما هو صالح للشخص، وآخر للقديس أغسطينوس "ملكة العقل في اختيار الصواب والابتعاد عن الخطأ" ومفهوم للقديس برنارد "الإرادة الصائبة الحرة والحكم العقلاني"، ثم يحاول مصالحة هذه التعريفات الثلاثة واحدا مع الآخرين^(١).

والإرادة الحرة هي من عطايا الله، وهي من صفات الروح، ولكنها لا تنطوي على سمات كلية أو مائعة، وإنما هي تتأني بالقياس، فمشيئة الله هي الحرية أصلاً، ويعدها تتأني مشيئة البشر^(٢)، وإرادة الإنسان الحرية ملكة واحدة يجمع بين التعقل والمشيئة في شكل متحد، ولهذا يمكن تمييزها عن مجرد القول بالتعقل أو العزم، كما أنها ليست منفصلة عن الروح، ويقدر ارتباط الإرادة بالتعقل والعزم والتماسك بالروح، يقدر ما تتواصل مع الحرية الطبيعية بمعناها الأشمل.

ويميز إسكندر من هيلز مثلما فعل القديس برنارد- بين حرية الإرادة وحرية الاختيار، فالثانية قد تتوارى، ولكن الأولى باقية ثابتة.

يتضح من العرض السابق أن إسكندر من هيلز قد طرح منظومة في شكل مدرسي لكل من اللاهوت المسيحي والفلسفة. وهذا النمط من الفكر ينتمي إلى الحقبة التي راجت فيها مفاهيم، "اللاهوت الشامل" بما له وما عليه من تتابع ونظام وأيضا من حفاف ومجاافة للتطور، وإن كان جهد الرجل لا بأس به في حينه.

١٠ - أما عن المحتوى، فإن كتاب إسكندر "ملخص اللاهوت الشامل" فهو لا ينفك من حين لآخر وبالوفاء للثقافات السابقين، أن ينقل عن أغسطينوس، أو برنارد، أو يوحنا الدمشقي، دون أن يجادل في إضافة شيء أصيل من عنده، ولا نقصد بهذا الحكم أنه قد انكأ كلية على هؤلاء الأسلاف، وإنما نقصد بالأحرى أنه لم يعرض لبعض الحجج

(1) Cf, 2, nos. 393-6.

(2) 2, nos. 402.

والأفكار المتطورة التي كانت رائجة في عصره، ولعل العذر الذي يمكننا أن نلتمسه له هو أن أطروحته كانت مجرد مسح شامل لللاهوت في دراسة مختصرة.

كذلك ينبغي القول من باب الإنصاف أن كتابات إسكندر من هيلز تشي بمعرفة الكاتب بالفكر الأرسطي، وإن كان هو لا يعبر عن ذلك صراحة، كما أنه يعرج أحيانا على بعض الآراء، لجماعة "المشائين القدامى".

ولكن الهم الأكبر عند إسكندر من هيلز هو أن يصلح أو يناغم بين الأفكار التي يستقيها من أرسطو وبين تعالم القديس أغسطينوس وأنسلم، وهو يصر في كل حين على إبراز التناقض بين ما يقوله المفكرون المسيحيون في العصور الوسطى، والذين ينطقون بوحى من الحكمة الإلهية النورانية وبين الفلاسفة الوثنيين.

وخلاصة القول إن إسكندر من هيلز لم يكن مفكرا مثيرا للجدل، فهو لم يخلط بين الفلسفة واللاهوت، وإنما كان منشغلا في المقام الأول بمعرفة الله والمسيح "على حد قوله" انطلاقا من قناعات عامة بالفكر الأغسطيني.

الفصل الخامس والعشرون

القديس بوناڤنتورا (١)

حياته و أعماله - قضية الروح -

اللاهوت والفلسفة - موقفه من الأرسطية

١ - ولد جيوفاني فيدانزا بوناڤنتورا في بلدة باجنوريا في توسكانيا سنة ١٢٢١م، وقد أصيب في طفولته بمرض خطير، فراحت أمه تبتهل للسماء وإلى القديس فرنسيس الأسيسى أن يشفع له بالشفاء، وما إن عوفي من مرضه حتى قرر بوناڤنتورا الانخراط في سلك الرهبنة الفرنسيسكانية، وإن كان قبل أو بعد سنة ١٢٤٠م، بفترة وجيزة؛ لأننا نعلم أنه قد قصد إلى جامعة باريس للدراسة بها تحت إشراف إسكندر من هيلز الذي توفي سنة ١٢٤٥م.

ولقد أعجب بوناڤنتورا بأستاذه إسكندر، كما يسجل لنا في كتابه بعنوان "أضواء" على الكتاب الثاني من المقولات قائلا: "مثما فعلت في الكتاب الأول عن المقولات، سوف أتمسك بتعاليم أساتذتي، خاصة بأفكار أستاذنا وأبينا طيب الذكر الراهب إسكندر، ويضيف بوناڤنتورا في أطروحاته اللاحقة أنه "لن يخرج عن الخطى التي سار عليها أساتذتي" (١).

ويعنى هذا الاعتراف أن بوناڤنتورا قد تشرب بتراث الفرنسيسكانية- أرى الأغسطينية- وأنه قد عقد العزم على المضي قدما على نفس الدرب، وقد يفسر هذا الاعتراف أيضا بأن صاحبه قد اختار طريقا تسكليا محافظا، وأنه يجهل أو يتجاهل

(1) Sent., 23, 2, 3, II, P. 547.

اتخاذ موقف إيجابى تجاه التيارات الفلسفية الرائجة فى باريس آنذاك، ولكن لابد من ملاحظة أن شروحه لكتاب، المقولات، قد ظهرت سنة ١٢٥٠ / ٥١م، ولم يكن بونافنتورا وقتها متواجداً فى باريس، كذلك لابد من التأكيد على أن بونافنتورا قد اتخذ موقفاً مجدداً من الفلسفة، وأنه لم يكن غافلاً عن الجدل الفلسفى الدائر فى أروقة جامعة باريس.

والحق أنه قد وجد نفسه طرفاً فى الصراع الدائر بين الأساتذة من الرهبان وبين العلمانيين منهم، والتي شملت أيضاً القديس توما الإكوينى، والمعروف أنه فى سنة ١٢٥٥م، تم استبعاد بونافنتورا من التدريس بجامعة باريس، مع رفض الاعتراف بدرجة الدكتوراه التى كان قد حصل عليها، على أنه قد أعيد للتدريس بالجامعة بعد ذلك بعام واحد، هو والقديس توما الإكوينى (١٢٥٧م) تبعاً، بعد تدخل ووساطة من جانب البابوية نفسها.

وراح بونافنتورا يدرس اللاهوت فى جامعة باريس حتى تم تعيينه كاهناً لجماعة الفرنسيسكان فى الثانى من فبراير ١٢٥٧م.

وكانت جماعة الفرنسيسكان فى تلك الحقبة تعاني من خلافات فى الرؤى الفكرية وأيضاً فى الممارسات، والمهام الرهبانية، ووجد بونافنتورا أن واجبه الأول يتمثل فى العمل على تهدئة الأمور والخواطر بكل السبل بين أفراد جماعته.

وفى سنة ١٢٥٩م، أصدر بونافنتورا كتاباً بعنوان "رحلة العقل نحو الله" وفى سنة ١٢٦١م أخرج سيرتين لحياة القديس فرنسيس الأسيسى، وفى سنة ١٢٦٧م أو ١٢٦٨م، ظهر له كتاب بعنوان "مجل القواعد السبع" وهو مجموعة عظات عن الصوم الكبير" وفى سنة ١٢٧٠م، أصدر كتاب "عطايا الروح القديس" وفى سنة ١٢٧٣م، أصدر كتاب "المجل السداسى" أما كتاب "مختصر العبارة" فقد أتم بونافنتورا كتابته قبل سنة ١٢٧٥م، وإلى جانب ذلك وضع بونافنتورا العديد من الشروح للكتاب المقدس، والأطروحات القصيرة عن الزهد وحياة النسك والمواظ والرسائل حول القضايا التى تتصل بمشاغل جماعته الفرنسيسكانية فى تواريخ لاحقة.

٢ - ولم يكن القديس بونافنتورا طالب علم فحسب، وإنما راح يشجع العلم والدراسة بين أفراد جماعته الديرانية، وقد يبدو هذا التوجه غريباً بالنسبة لجماعة الفرنسيسكان؛ لأن مؤسسى الجماعة "القديس فرنسيس الأسيسى" نفسه كان زاهداً حتى فى طلب العلم، ولم يكن يدور بخلده أن أبناء جماعته سوف يكرسون حياتهم للبحث العلمى.

ولكن بونافنتورا كان شديد الاقتناع بأن العلم والدراسة يمثلان حاجة حتمية لأبناء جماعته، كى يتمكن الرهبان من تفهم قضايا اللاهوت، ومن ثم الاقتدار على إلقاء المواعظ الجيدة، وبطبيعة الحال استوجبت دراسة اللاهوت التعرّيج على قضايا الفلسفة، وهكذا انطلقت الدراسات والبحوث فى هذين المجالين دون توقف. ولكى يتحقق هذا الهدف كان لابد من توافر أساتذة ضالعين يقومون بتدريس هذين المساقين، وخلق كوادرات تخلفهم فى مواقع الأستاذية، ولما كانت رسالة الفرنسيسكان تنطوى أيضاً على مهمة تبشيرية، فلقد كان لزاماً على الجماعة أن تفتح المجال للدراسة والبحث فى مختلف فروع المعرفة، دون مصادرة مسابقة على مناهج أو مدارس بعينها.

ويمكن لنا أن نرصد الكثير من الاعتبارات العملية التى ساهمت فى ازدهار الدراسة والعلم بين أبناء جماعة الفرنسيسكان، ولكن فى حالة بونافنتورا تحديداً هناك اعتبارات خاصة تستحق التنويه بها، فلقد كان بونافنتورا مخلصاً لذكرى وروح القديس فرنسيس الأسيسى مؤسس الجماعة الذى جعل الصلة بالله والتوحد فى رحمته أهم غاية فى الحياة، ولقد وجد بونافنتورا أن هذا الهدف النبيل سوف يتحقق عن طريق تعميق المعرفة بالله وخصائمه، لتهيئة الروح للانطلاق فالتقارب فالتوحد فى باريها، ولذا فإن التوجه نحو دراسة الكتاب المقدس واللاهوت، مبتعداً عن القضايا التى لا صلة لها بالخالق، وهذا ما يفسر عزوفه عن الميتافيزيقا الأرسطية؛ لأنها - فى رأيه - بعيدة عن توثيق العرى بين العبد وخالقه، وأيضاً عن شخص المسيح.

ولقد لاحظ الأستاذ م. جلسون أن هناك تشابهاً بين حياة القديس فرنسيس وبين التعاليم التى نادى بها القديس بونافنتورا، فمثلاً انتهت رحلة الأول بالدعوة إلى الشركة

الطوباوية مع الله، انتهت رحلة الثانى بقناعاته نسكية زاهدة، وكما وجد القديس فرنسيس طريقه إلى الله من خلال سيرة المسيح "كلمة الله" فأمثال أصر بونا فنتورا على أنه يتوجب على الفيلسوف المسيحى أن ينظر إلى العالم من خلال صلاته بهذه "الكلمة" فالمسيح عنده الوساطة والأمور لكل العلوم، ومن هذا المنطلق، لم يكن ثمة مجال للميتافيزيقا الأرسطية؛ أعنى أنه لم يكن ثمة مجال للميتافيزيقا الأرسطية؛ لأنها إلى جانب بعدها عن شخص المسيح، كانت لا تقبل فكرة المثالية التى نادى بها أفلاطون.

ومن عجب أنه فى نهاية المطاف يقع اختيار جماعة الفرنسيسكان على شخص الفيلسوف جون سكوتوس لينصبوه على قمة أسانذتهم دون منازع، ومع أن هذا الاختيار له ما يبرره؛ نظراً لأن سكوتوس كان عبقرىً وقديراً فى قضايا اللاهوت والتحليل الفكرى، إلا أن بونا فنتورا أيضاً كان يقارب هذا المستوى الفكرى الرفيع، ولهذا فإن مريديه قد أطلقوا عليه لقب "الدكتور الصاروفينى" "الصاروفيم هم الملائكة حراس العرش الإلهى".

٣ - ويشرح القديس بونا فنتورا فضل العلم والدراسة من واقع تجربته الذاتية وتدريبه تحت رعاية أستاذه إسكندر من هيلز، إلى جانب عضويته فى جماعة الفرنسيسكان، التى تتمسك بالتقاليد الأغسطينية.

ولقد تركزت أفكار بونا فنتورا على نفس الرؤى التى كان أغسطينوس شديد التمسك بها، والتى تدور حول الله وصلة الروح بخالقها، وأيضاً حول الإنسان بعد أن اقتداه الخالق بالنعمة الإلهية، وهذا الإنسان الذى يركز عليه أغسطينوس هو الإنسان بالمعنى الملموس فى عالمنا، وليس الإنسان بالمفهوم الفلسفى الطبيعى، ومعنى ذلك أن أغسطينوس لم يضع حداً فاصلاً بين الفلسفة واللاهوت، وإن كان قد ميز بين بصيرة العقل الطبيعى وبين نور الإيمان، الذى يتجاوز حدود العقل الطبيعى.

وبهذا التمييز يبرز أغسطينوس معالجة الفلاسفة للإنسان فى حال من الطبيعة وبين معالجة الإنسان تحت مظلة النعمة الربانية التى تتجاوز هذه الطبيعة، وفى هذا ما يوضح الفرق بين النعمة الإلهية وبين ناموس الطبيعة.

ولكننا نود في هذا السياق أن نوضح أنه إذا كانت الغاية هي علاقة الروح الله - كما قال أغسطينوس وبوناغنتورا - فإن هذا يعني التركيز على الإنسان العادي في حياتنا الدنيوية، وهو إنسان له رسالة تتجاوز التاموس الطبيعي، ومن ثم يصبح هذا الإنسان تجزئاً مشروحاً، دون التعويل على التسلسل التاريخي لسجل الإنسان على الأرض.. المسألة هنا تتمحور حول المنهج والمطابقة، فلم يكن بوسع أغسطينوس ولا بوناغنتورا أن ينكر الفرق بين ما هو طبيعي وما هو متجاوز للطبيعي، ولما كان الاثنان يهتمان في الدرجة الأولى بالإنسان العادي في هذا العالم أو الإنسان التاريخي، فإنهما قد خلطا أفكار اللاهوت بالفكر الفلسفي في مؤلفه عن "الحكمة المسيحية" دون أن يتوقفا لوضع فواصل بين ما هو فلسفي وما هو لاهوتي.

وقد يعترض البعض على هذا الحكم؛ لأنه قد يشي بأن بوناغنتورا كان رجل لاهوت وليس من أهل الفلسفة، ولكن في إمكاننا الرد على ذلك بنفس الحجة التي دافعنا بها من قبل عن أغسطينوس، فلو أننا عرفنا الفيلسوف بأنه ذلك الشخص الذي يتقوى بدراسة "الوجود" أو "العلّيات النهائية" أو ما شغل بال الفلاسفة عموماً من قضايا، دون الإشارة إلى الرسائل السماوية أو اللاهوتيات وما تتطوى عليه من أبعاد، ميتافيزيقية، فإن هذا سوف يؤدي إلى خروج كل من أغسطينوس وبوناغنتورا من دائرة الفلسفة تماماً، أما إذا نحن أدرجنا ضمن قوائم الفلاسفة كل من يسعى وراء أفكار لها صفة فلسفية، فإن كلا الرجلين يدخلان في الحساب ضمن زمرة الفلاسفة.

وفي حالة بوناغنتورا - على سبيل المثال - فإننا نجده يعرض لمراحل صعود الروح على درج المعرفة بالله، من خلال الخبرة الذاتية الجوانية للإنسان الفرد، وهو يتحدث عن هذه المراحل من الصعود دون ترسم للحدود بين ما هو لاهوتي وما هو فلسفي صرف، ولكن هذا لا يعني أنه يقدم البراهين عن وجود الله بدون تقديم حجج عقلانية، وهذا في حد ذاته أعمال لفكر فلسفي دون جدال.

يضاف إلى هذا أن بوناغنتورا كان مهتماً أيضاً بقضايا العالم المادي، الذي رأى فيه تجلياً لقدرة الخالق، ولعله كان يفتش في ثناياه عن صورة يوضح بها "الأقانيم الثلاثة".

وهذا التوجه من جانبه لا يغير حقيقة أنه كان متمسكا بمبادئ محددة، وهو وإن كان ينحى بعض المبادئ الفلسفية أحيانا، فى جدله، إلا أن هذا لا يبسر العصف بمنظومته الفكرية ككل؛ لأن هذه المنظومة تتضمن العديد من الأفكار الفلسفية، الأمر الذى يعطى له الحق فى شغل موقف فى تاريخ الفلسفة.

يذكر أيضا - كما سوف نتبين فيما بعد- أن بوناغنتورا قد اتخذ موقفا محددا تجاه الفلسفة بشكل عام، وتجاه أرسطو بشكل خاص، وهذا بدوره يؤهله للحاق بموكب تاريخ الفلسفة، وإذا كان من الصعب علينا- مثلا- أن نستبعد مفكرا معاصرا مثل كيركجارد من سجل تاريخ الفلسفة، فرغم عدائه الشديد للفلسفة "بمفهومه الخاص" فإنه رغم ذلك راح يتفلسف حول الفلسفة نفسها، وقياسا على ذلك، فإنه من الصعب أن نستبعد مفكرا مثل بوناغنتورا من دائرة الفلسفة، خاصة وأنه كان أقل عداوة للفلسفة من كيركجارد، يضاف إلى هذا أن بوناغنتورا كان يمثل وجهة نظر خاصة، وفحواها أن هنالك فلسفة مسيحية. وأن ما عداها من فلسفات أخرى هى بالضرورة عاجزة وناقصة ومغلوبة، وسواء كانت هذه الرؤية "صواب أم على خطأ، مبررة، أو غير مبررة، إلا أنها تستحق التوقف عندها، ونحن بصدد تسجيل وتتبع تاريخ الفكر الفلسفى.

ولا جدال فى أن بوناغنتورا كان شديد التمسك بالخيط الأغسطينى وتقاليده المدرسة الأغسطينية، ولكن علينا أن نتذكر أيضا أن كما واغرا من الماء كان قد تناثر تحت القنطرة بعد زمان أغسطينوس نفسه- كما يقول المثل- بمعنى أنه مع ظهور المفكرين المدرسين تبدلت أحوال الفكر اللاتينى ليتخذ شكل المذهب، بعد أن تعرف القوم الميتافيزيقا الأرسطية.

واقصد اضطلع بوناغنتورا نفسه بتقديم الشروح لكتاب "الأحكام" لبطرس اللومباردى، مما يعنى أنه كان على علم بفكر أرسطو، ولنا أن نتوقع أمام هذه الحقيقة أن نجد فى كتابات "سلفه أغسطينوس" كما أن بوناغنتورا كثيرا ما يلجأ إلى الحاجة بأفكار مستنقاة من أرسطو.

ومؤدى هذا كله أن بوناغنتورا لم يكن رافضاً لأرسطو جملة وتفصيلاً، بل على العكس كان ينظر إليه فى احترام زائد كـ"فيلسوف طبيعى" وأنه كان لا يمكن للميتافيزيقا واللاهوتيات، الأرسطية ما تستحقه من تقدير وخلاصة القول أن منظومة بوناغنتورا الفكرية- من منظور القرن الثالث عشر- تمثل فكراً أغسطينياً متجدياً ونامياً، مع قراءة جديدة للأرسطية.

٤ - ماذا كانت إذن وجهة نظر بوناغنتورا عن طبيعة العلاقة بين الفلسفة واللاهوت، وماذا كان رأيه فى الفكر الأرسطى؟

يمكن الإجابة على هذين التساولين معاً؛ لأن الإجابة عن الشق الأول تحدد الإجابة عن الشق الثانى:

وكما أوضحنا فى موضع سابق، كان أغسطينوس قد ميز بين الإيمان والعقل، وبطبيعة الحال سار بوناغنتورا على نفس النهج، فهو دائماً يستشهد بكلمات أغسطينوس للقول بأن ما نؤمن به يستند إلى مرجعية لا غبار عليها، وأما نفهمه فإنما يستند إلى العقل^(١)، ويعنى هذا أن الفلسفة واللاهوت مساقان فكريان مستقلان، ويعنى أيضاً أن إرساء قواعد فلسفية مستقلة ذات طابع معقول من الناحية النظرية أمر وارد أيضاً. والواقع أن بوناغنتورا يميز فى وضوح بين مجال اللاهوت البوجماتيقي وبين الفلسفة، فهو- على سبيل المثال لا الحصر- فى كتابه "مختصر العبارة" يقول بأن اللاهوت يبدأ بالله، العلة الأولى، الذى إليه تؤوب كل الفلسفات ويعنى بذلك أن اللاهوت يستمد مادته من الرسالة السماولة الإلهية، التى تتجلى فى صنائع الخالق، فى حين أن الفلسفة تبدأ من الأشياء المرئية فى هذا العالم ثم تعزوها إلى العلة الأولى أو الله.

(1) Aug., De utilitate Credendi, II, 25, Bonav., Breviloq., I, 1, 4.

وفى كتابه "قصود الفنون العلوم" عن اللاهوت^(١)، يقسم بونافتورا الفلسفة الطبيعية إلى الفيزيكا، والرياضيات، والميتافيزيكا، فى حين أنه فى كتابه "المجلد السادس"^(٢) يقسم الفلسفة إلى الفيزيكا والمنطق والأخلاق.

على ضوء هذا كيف يمكن القول بأن بونافتورا لم يميز بطريقة واضحة بين مجالى الفلسفة واللاهوت؟ إن بونافتورا يعرف بأنه يميز فعلاً بين المجالين من حيث المنهجية والمحتوى، ولكنه فى نفس الوقت يصر على أنه لا يمكن بلورة "ميتافيزيكا" مقنعة أو منظومة فلسفية بدون الاسترشاد بنور الإيمان، ومع ذلك فهو مدرك تماماً أنه بمقدور الفيلسوف أن يتوصل إلى حقيقة وجود الله دون نحو من فحوى الرسالة السماوية، حتى من واقع فلسفة أرسطو نفسه، ولكنه يمضى ليتحفظ بقوله بأن معرفة الله التى تتم على هذه الشاكلة تصبح معرفة منقوصة، وفى حاجة إلى الاكتمال، ولا يتأتى هذا الاكتمال إلا خلال الكتب السماوية، وإلا بقيت هذه المعرفة العقلية مصابة بالخلل فى الكثير من مفرداتها.

ثم يستطرد بونافتورا ليقدم حجة من واقع تجريبي، بقوله: "إن أفلوطين النبيل من جماعة أفلاطون، وكذا المفكر تولى Tully من جماعة الأكاديميين، رغم أن أراءهما عن الله والروح أفضل من أراء أرسطو، فإنهما قد وقعا فى خطأ فادح؛ لأنهما كانا غافلين عن النهاية فوق- الطبيعية للإنسان، وعن مضمون قيامة الجسد، وعن السعادة الأبدية"^(٣)، ويقصد بونافتورا بقوله هذا أن هذين المفكرين قد ضلوا الطريق؛ لأنه كان ينقصهما نور الإيمان الحقيقى.

وبالمثل، فإن مجرد التمسك بتلابيب الميتافيزيكا قد يؤدى بالمرء إلى معرفة "العلّة الأولى" ولكنه سوف يتوقف عند هذا الحد، وبهذا يكون قد ضل الطريق؛ لأنه سوف

(1) 1, 1.

(2) 4.

(3) In Hexaem., 7,3 FF.

يتوهم فكرة عن الله مخالفة لحقيقة الألوهية، وأقانيهما الثلاثة: "إن العلوم الفلسفية هي الطريق نحو علوم أخرى، ولكن ينبغي على كل من يرغب في أن يتوقف عند هذا الحد، أن يعلم بأنه واقع لا محالة في دياجير الظلمات"^(١).

ويعنى آخر فإن بوناغنتورا لا ينكر قدرة الفيلسوف على الوصول إلى الحقيقة، ولكنه في نفس الوقت شديد الاقتناع بأنه من يكتفى بهذا القدر الفلسفي، سوف يقع في الخطأ لا محالة. إن توصل إنسان ما عن طريق العقل إلى أن هناك إلها واحداً، ومن ثم يستنير بقبس الإيمان ليؤمن بالأقانيم الثلاثة في واحد، ويختلف عن إنسان آخر يتوقف عند حدود القول بأنه يعرف الله.

ومؤدى حجة بوناغنتورا هذه أن الفلسفة وحدها عاجزة عن تفهم طبيعة الأقانيم الثلاثة، بسبب غيبة نور الإيمان، مضيفاً أن هذا التنوير الإيماني لا يقدم بالمرّة حججاً فلسفية، وإنما يفتح أمام الفيلسوف الباب على مصراعيه دون أن يدخل عليه ضلال أو خلل.

من هذا العرض يصبح من اليسير علينا أن نتبين موقف بوناغنتورا من الفلسفة الأرسطية، فهو يسلّم بأن أرسطو كان فيلسوفاً طبيعياً مرموقاً، وذلك فيما يتصل بالأمور المحسوسة، ولكن أرسطو لم يكن ميتافيزيقياً صادقاً؛ لأن أفكاره الميتافيزيقية ليست مقنعة بحال.

ويمضى بوناغنتورا ليشرح أن بعض الناس قد افتتنوا بأرسطو لتفوقه في عدة أفرع من فروع المعرفة والعلوم، ولذا فإنهم قد تصوروا أنه قد توصل إلى لب الحقيقة من خلال الميتافيزيقا، ولكن هذا غير صحيح؛ لأن أرسطو كان محروماً من نور الإيمان، ومن ثم جاءت ميتافيزيقاه هزيلة منقوصة، لقد كان أرسطو مضل إلى حد ما في العديد من العلوم؛ لأنه كرس عقله واهتماماته في هذه المساقات لم يحاول أن يبلور لنفسه،

(1) De Donis, 3,12.

فلسفة تتجاوز هذه العلوم، بل إنه رفض أفكار أستاذه أفلاطون^(١)، وراح ينادى بأزلية العالم^(٢) ويستطرد بوناغنتورا ليعان أن أرسطو قد تنكر لنظرية أفلاطون عن "المثاليات" ومن ثم راح ينكر طبيعة الخالق، ومعرفة الله بالجزئيات، كما أنه أنكر ما هو مقدر "قبلا" من عند الله، بل إنه أنكر العناية الإلهية نفسها^(٣).

ويلاحظ بوناغنتورا سينيا في صدد أحكامه على أرسطو أن فكرة أحادية العقل التي يعزوها ابن رشد لأرسطو تتعارض مع حقيقة الثواب والعقاب لكل مخلوق فرد من حيث هو بعد الموت^(٤).

وباختصار فإن بوناغنتورا يعتقد أن الفلاسفة الوثنيين قد وقعوا في الضلال، وأن أرسطو كان أشد ضللا من أفلاطون وأفلاطون!

إن موقف بوناغنتورا هذا من العلاقة بين الفلسفة واللاهوت يعكس نفس الموقف الذي اتخذته العديدين من المفكرين (أو الفلاسفة) الكاثوليك، الذين كان مهمهم الأول منصبا على البرهنة على وجود الله، دون أن يعرضوا أنفسهم لشبهة الإلحاد، أو التنكر لأركان العقيدة الكاثوليكية عن الأقانيم وغيرها، وكانوا يكتفون بالتفلسف على ضوء ما يعتقدون فيه أصلا على أسس عقائدية. ومع ذلك تبقى حجج هؤلاء وبينهم بوناغنتورا بطبيعة الحال قائمة على قواعد فلسفية بما لها وما عليها، ذلك أن الفيلسوف الكاثوليكي الذي يتقفى حججه على ضوء الإيمان أولا، ولو من الناحية السيكلوجية، وهو لا يتخلى عن هذا الإيمان حتى وهو يقوم بأبحاثه الفلسفية، تحسبا لمغبة الخروج بنتائج مغلوطة، مع أنه لا يستخدم الإيمان وهو يحاول إقامة حججه الفلسفية.

(1) In. Hexaem., 6,2.

(2) Ibid., 4.

(3) Ibid., 2-3.

(4) Ibid., 4.

أما القديس توما الإكويني وأتباعه فإنهم يقولون بأن الإيمان بالنسبة للفيلسوف يتجرد من هذا الإيمان، وإن كان لا ينكره، وأنه بمقدور المفكر الوثني أيضاً، ولو من الناحية النظرية أن يصل إلى نفس النتائج من خلال دروب الفلسفة، التي يصل إليها الفيلسوف المؤمن.

ولكن بوناغنتورا ينصح الفلاسفة بمطابقة الأمور على ضوء من الإيمان؛ لأن هذا هو النهج الإيجابي للنتائج ومن يفعل يؤتي ثماره الإيمانية على العقل المتفلسف، وبدون الإيمان يتردى العقل في الخطأ.

ومع هذا فإن بوناغنتورا يعترف في أطروحته بتصنيف العلوم، ويضع الفلسفة بين هذه العلوم، بنور "الكلمة" Logos الساطع على الحقائق اللاهوتية والفلسفية جميعاً، والتي بدونها لا يمكن الوصول إلى الحقيقة.

لقد حاولنا في العرض السابق أن نبين أن القديس بوناغنتورا كان مهتماً بالقضايا الفلسفية، ومن ثم فإنه يستحق مكاناً في تاريخ الفلسفة، وهذه حقيقة لا يمكن الجدل حولها، ولكن يبقى صحيحاً أيضاً أن نسلّم بأنه كان رجل لاهوت في المقام الأول، وبأنه قد كتب من هذا المنطلق، وبأنه لم ينظر إلى القضايا الفلسفية ومشاكلها من حيث هي فلسفة، وإنما من وجهة نظر اللاهوتية.

وينطبق نفس الحكم على القديس توما الإكويني، فهو رجل لاهوت في المقام الأول، ولكنه مع ذلك قد خاض في القضايا الفلسفية بالتفصيل، بل ووضع مؤلفات في مواضيع فلسفية، وهذا ما لم يفعله بوناغنتورا، إن شروح بوناغنتورا لكتاب "الأحكام" لبطرس لومبارد لا يمكن حسبانها ضمن أطر العمل الفلسفي، وإذا فإن ما ذهب إليه الأستاذ م. جليسون عن وجود "منظومة فلسفية بوناغنتورا" نظراً لاعترافه بالفلسفة كفرع هام من العلوم في معزل عن اللاهوت، أمر مبالغ فيه ومن ثم فإنه يمكن القول بأنه في أحسن الأحوال كان بوناغنتورا مجرد "فيلسوف بالصدفة" وهذا الحكم ينطبق على كل مفكرى العصور الوسطى الأوروبية؛ لأنهم بالدرجة الأولى أهل لاهوت، وينسحب هذا التقييم حتى على توما الإكويني نفسه.

ويلاحظ أيضا أن الأستاذ جلسون يبالغ في تجسيم العداء الذي أظهره بوناغنتورا للفلسفة الوثنية ولأرسطو بوجه خاص، وكنا قد اعترفنا سلفا بأن بوناغنتورا قد هاجم ميتافيزيقا أرسطو، وأنه اعتبر أي فيلسوف لا يتجاوز حدود الفلسفة إلى الإيمان سوف يقع لا محالة في الخطأ، ولكن ينبغي عند هذا المنعطف أن نذكر أن القديس توما الإكويني أيضا قد اتخذ موقفاً قريباً من هذا التوجه، على أنه إنصافاً للحق ينبغي أيضا الاعتراف بأن كلا من بوناغنتورا والإكويني قد اتخذوا موقف الرفض للفلسفة الوثنية عندما تتعارض، مع أركان العقيدة المسيحية، وإن كان الاثنان قد اختلفا على مواضع التعارض وعلى المدى الذي يمكن الوصول إليه في الأخذ عن أفكار أرسطو.

هذا ومع تسليمنا بعبقرية الأستاذ جلسون في محاولة رصد روح بوناغنتورا الخاصة كمفكر وسيط، رغم أنه قد بالغ كثيراً في تقرير ما أسماه "المنظومة البوناغنتورية"، وفي كشفه لنقاط التعارض بين بوناغنتورا والإكويني، إلا أننا لا يمكن لنا أن نشاطر الأستاذ م. فريماند فان ستينبرج⁽¹⁾ الرأي بأن فلسفة بوناغنتورا كانت فلسفة انتقالية، تضم الأفلاطونية المحدث، والأرسطية في حزمة واحدة، سخرها صاحبها لخدمة اللاهوت الأغسطيني.

وكما أشرنا من قبل عند الحديث عن "وليم من أوفرن"، فإن الأمر يتوقف في مثل هذه الأحكام على وجهات نظر ذاتية الطابع، سواء أطلقنا على هؤلاء اللاهوتيين الأغسطينيين الذين انتقوا بعض المبادئ الأرسطية في كتاباتهم "أرسطيين ناقصين" أو "أغسطينيين معدلين".

وخلاصة القول أن المفكر الذي يرصد نفسه كلية للبحث عن مسعى الروح على الدرجة قبالة معرفة الله، يوحى من تجلى النور الرياني، لا يخرج بمنظومة فلسفية بالمعنى الدقيق لمصطلح فلسفة. ولعلم التقويم الموضوعي لبوناغنتورا هو أنه أغسطيني الفكر، مع جرعة من ماعون الفلسفة، ولعل حكمنا هذا يصدر عن اقتناع بالمبدأ القائل: إن الجزء الأكبر هو الذي يجيب الجزء الأصغر، وأن للروح قصب السبق على القول.

(1) Aristote en Occident, P. 147

الفصل السادس والعشرون

القديس بوناڤنتورا (٢) : وجود الله

روح الأدلة على وجود الله عند بوناڤنتورا- أدلة مستمدة من العالم المحسوس. المعرفة القبلية Apriorii لله - دليل القديس أنسلم دليل مستمد من الحقيقة.

١ - لقد رأينا أن القديس بوناڤنتورا اهتم أساساً مثل القديس أوغسطين بالعلاقة بين النفس والله، وكان لهذا الاهتمام أثره في دراسته للأدلة على وجود الله، فقد عنى بصفة رئيسية بالأدلة بوصفها مراحل في صعود النفس إلى الله أو بالأحرى معالجتها من حيث دورها في هذا الصعود.

ولابد أن ندرك تماماً أن الله الذي تساعد هذه الأدلة على وجوده ليس ببساطة مبدأ مجرداً يسهل فهمه، وإنما هو إله الوعى المسيحى، الإله الذى يصلى له الناس، وأنا لا أعنى بذلك أن هناك اختلافاً أنطولوجياً أو تعارضاً لا يمكن حله بين إله "الفلاسفة" وإله التجربة، لكن ما دام بوناڤنتورا مهتم قبل كل شيء بإله التجربة الذى يكون موضوعاً للعبادة والصلاة، فقد مال إلى تقديم أدلة تكون بمثابة أفعال كثيرة لجذب الانتباه إلى التجلى الذاتى لله، سواء فى العالم المادى أو داخل النفس ذاتها. والواقع أنه- كما يتوقع المرء- يشدد كثيراً على البراهين المستمدة من الداخل "من النفس" أكثر من البراهين المستمدة من الخارج من العالم الحسى" صحيح أنه كان يريد أن يبرهن على وجود الله ببراهين مستمدة من العالم الحسى الخارجى، "ولقد فعل القديس أوغسطين ذلك" كما أنه يبين كيف أنه من الموجودات المنتهية والناقصة والمركبة والمتحركة والحادثة يستطيع الإنسان أن يرتفع إلى إدراك الموجود اللامتناهى الكامل، البسيط، غير المتغير، والضرورى، إلا أن البراهين ليست مفصلة بطريقة نسقية وليس السبب فى ذلك عجز القديس بوناڤنتورا عن تطوير البراهين بطريقة جدلية، بل هو

بالأحرى المتعاد أن وجود الله يبلغ حداً من الوضوح يجعل النفس بمجرد ما تفكر في ذاتها، تدرك أن هناك مخلوقات تفوق العقل تذكرنا به وموقفه هنا هو نفسه موقف النبي داود عندما قال: "السماوات تحدث بمجد الله والفلك يخبر بعمل يديه.." (١) وهكذا نجد أنه من الصواب تماماً أن نقص الأشياء الحادثة والمتناهية تستدعي وتبرهن على وجود المطلق الكامل: الله. غير أن القديس بوناغنتورا يتساعل بطريقة أفلاطونية تماماً "كيف يمكن للعقل أن يعرف أن الموجود ناقص وغير كامل طالما أنه لم تكن لديه على الإطلاق فكرة أو معرفة بالموجود الذي يخلو من كل نقص أو عيب؟" (٢) وبعبارة أخرى فإن فكرة النقص تفترض مقدماً فكرة الكمال، لدرجة أنه لا يمكن أنه نحصل فكرة الكمال أو الكامل ببساطة عن طريق السلب والتجريد واعتبار الموجودات في نقصها ومتناهيها واعتمادها، تصلح في تكثير النفس أو الوصول بها إلى إدراك أوضح، لما هو واضح جداً أمامها بالفعل، أو معروف لها تماماً.

٢ - لم ينكر القديس بوناغنتورا - لحظة واحدة أنه يمكن البرهنة على وجود الله من مخلوقاته، على العكس فهو يؤكد ذلك، ففي شرحه على الأحكام (٣) نراه يعلن أن الله يمكن أن يُعرف عن طريق مخلوقاته كما يعرف السبب من خلال النتيجة، ويستطرد ليقول إن هذا الأسلوب من المعرفة طبيعي بالنسبة للإنسان، طالما أن الأشياء المحسوسة هي بالنسبة لنا وسائل نصل من خلالها إلى معرفة "المعقولات" أي الموضوعات التي تجاوز الحس، غير أنه لا يمكن البرهنة على "الثالوث المقدس" بنفس الطريقة؛ أعني عن طريق النور الطبيعي للعقل، ما دما لا نستطيع أن ننتهي إلى "ثالوث الأقانيم" لا عن طريق إنكار أو تحديد للمخلوقات ولا بالطريق الإيجابي؛ أي بأن ننسب له خصائص معينة للمخلوقات (٤)، وهكذا يعلمنا القديس بوناغنتورا بوضوح إمكان

(١) مزامير داود: المزمور التاسع عشر (الترجم).

(2) Rim, 3,3.

(3) 1, 3,2. Utrum Deus set Cognoscitur per Creatures

وعنوان الكتاب "شرح على كتب الأحكام الأربعة"، وكتاب "الأحكام" من تأليف بطرس المباردي أستاذ بوناغنتورا (الترجم).

(4) I Sent 3,4.

المعرفة الطبيعية و "الفلسفية" لله وملاحظته على النزعة الطبيعية السيكلوجية فى هذا المنحى من الاقتراب من الله من خلال الموضوعات الحسية هو منحى أرسطى فى طابعه، ومن ناحية أخرى نراه يذهب فى كتابه (N Hexa emeron)⁽¹⁾ إلى إنه إذا كان هناك موجود ينتج موجودات أخرى فلا بد أن يكون هو الموجود الأول، طالما أنه لا بد أن يكون هو السبب، لو كان هناك موجود مركب فلا بد أن يكون هناك موجود بسيط، وإذا كان هناك موجود متغير، فلا بد أن يكون هناك موجود ثابت لا يتغير، ثم رد المتحرك إلى الثابت ومن الواضح أن العبارة الأخيرة هى إشارة إلى برهان أرسطو على وجود المحرك الذى لا يتحرك على الرغم من أن بوناغنتورا لا يذكر إلا بقوله إن أرسطو يسير فى هذا الطريق نحو أزلية العالم، وإنه ها هنا أخطأ الفيلسوف.

وقل مثل ذلك فى كتابه "فى أسرار الثلاث"⁽²⁾ فهو يقدم لنا سلسلة من البراهين الموجزة ليبين لنا كيف أن المخلوقات تعلق بوضوح عن وجود الله؛ فمثلاً إذا كان هناك وجود يخرج من غيره كان لا بد أن يكون هناك وجود لا يخرج من غيره، لأنه لا شيء يخرج ذاته من حالة العدم إلى حالة الوجود؛ وفى النهاية لا بد من وجود أولى موجود بذاته، ومن ناحية أخرى فإذا كان هناك موجود ممكن، موجود يمكن أن يوجد، ويمكن أن لا يوجد، فلا بد أن يكون موجوداً ضرورياً ليس فيه إمكان للعدم أو اللاوجود فلا بد أن يكون هناك موجود أول يوجد بذاته، لتفسير الوجود الممكن ولكى يضعه فى حالة الوجود، وإذا كان هناك وجود فى حالة الإمكان أو وجود بالقوة ens in Potentia فلا بد أن يكون هناك وجود فى حالة الفعل ens in actu ؛ لأن القوة لا يمكن أن ترتد إلى الفعل إلا من خلال عمل ما يوجد بذاته فى حالة فعل، وأخيراً لا بد أن يوجد فعل خالص

(1) 529.

ومنوان الكتاب هو "المباحث فى الأيام الستة" والمقصود الأيام الستة للخلق (المترجم).

(2) I. I. 10-20.

actus purus وهذا الوجود الذى هو فعل خالص، لا أثر فيه للإمكان هو الله، ومن ناحية أخرى فإذا كان هناك وجود متغير فلا بد أن يكون هناك وجود لا يتغير؛ لأنه كما برهن الفيلسوف^(١)؛ لأن مبدأ الحركة هو الوجود الذى لا يتحرك، ويوجد كوجود لئى تحرك وهو علة الحركة النهائية.

وربما ظهر بالفعل من خلال هذه الفقرات أين استخدم بوناغنتورا حجج أرسطو وبراهينه، وأن بوناغنتورا نظر إلى شهادة المخلوقات على وجود الله فى علاقتها بصعود النفس إلى الله— وأنه نظر إلى وجود الله فى أنه حقيقة واضحة بذاتها هى كلها أمور لا نستطيع تأكيدها— لكنه يجعل ذلك واضحاً فى نصوص أخرى فى أماكن متفرقة^(٢).

حيث نَظر إلى العالم المحسوس على أنه مرآة الله أو إلى المعرفة الحسية، أو المعرفة التى نحصلها عن طريق الحس، والتفكير فى الموضوعات الحسية هى الخطوة الأولى من مراحل الصعود الروحى للنفس، وأعلى مرحلة فيه فى هذه الحياة هى المعرفة التجريبية لله بواسطة "قمة العقل" (وفى هذه النقطة يكشف لنا عن إخلاصه تراث القديس أوغسطين وفيكتورينوس^(٣))، وفى نفس مقاله عن سر الثالث حيث قدم البراهين التى ذكرناها يؤكد بإصرار أن فكرة وجود الله هى بلاشك حقيقة مغروسة بالفطرة فى النفس البشرية^(٤)، ويستطرد ليعلم أنه بالإضافة إلى ما سبق أن قيل بالفعل فى هذا الموضوع، هناك طريقة ثانية لبيان أن وجود حقيقة لاشك فيها؛ وتعتمد هذه الطريقة الثانية على بيان أن كل مخلوق يعلن أنه حقيقة لاشك فيها، وعند هذه النقطة يقدم سلسلة من البراهين أو بالأحرى إشارات حول الطريقة التى يعلن بها كل مخلوق عن وجود الله بالفعل، ثم يضيف أن هناك طريقة ثالثة تبين أنه لا يمكن الشك فى وجود

(١) لاحظ باستمرار أن "الفيلسوف" بآلف لام التعريف هو أرسطو (المترجم).

(٢) على سبيل المثال "رحلة العقل إلى الله".

(٣) لاهوتى لاتينى من شمال إفريقيا القديس أوغسطين أنه تأثيره فى تحوله للسيحية (المترجم).

(٤) يفرق بوناغنتورا بين فكرة وجود الله وبين طبيعته، فالأولى موجودة بالفطرة أما إدراك طبيعته فيأتى عن طريق الاكتساب، ويختلف فى إدراكها (المترجم).

الله، ثم يتقدم بنسخته من البرهان الذي ذكره القديس أنسلم في كتاب "الموعظة" ومن ثم فلا يمكن أن يكون هناك شك على الإطلاق في أن القديس بونايفنتورا يؤكد بطريقة جازمة أن وجود الله واضح بذاته ولا يمكن أن يوضع موضع شك؛ والسؤال هو ما الذي يعنيه بذلك على وجه التحديد، هذا ما سوف نناقشه في القسم التالي.

٣ - أولاً: لم يفترض القديس بونايفنتورا أن كل إنسان لديه معرفة واضحة وصريحة بالله، وأبعد من ذلك أنه لا يمكن أن يملك مثل هذه المعرفة منذ لحظة الميلاد، أو أنها تظهر مع أول استخدام للعقل، فهو على وعى تام لوجود عبدة الأصنام والحمقى *Insipiens* وأن الأحق قال في قلبه ليس يوجد إله^(١)، إن وجود عبدة الأصنام لا يسبب، بالطبع، مشكلة كبيرة طالما أن عبدة الأصنام والوثنيين لا ينكرون وجود الله، بل لديهم فكرة خاطئة عنه فحسب لكن ماذا عن الحمقى *Insipiens* إنهم يرون مثلاً أن غير الاتقياء لا يعاقبون دائماً في هذا العالم، أو أنهم على الأقل يظهرون أحياناً أنهم أفضل كثيراً من الاتقياء، ثم يستنتجون من ذلك أنه لا توجد "نعمة إلهية" ولا قانون إلهي في هذا العالم^(٢)، وبفضلاً عن ذلك فإنه يؤكد بوضوح^(٣) في ردّه على الاعتراض القائل بأنه من العقم البرهنة على ما هو واضح بذاته، وعلى ما لا يحتمل أى شك، وأنه على الرغم من أن وجود الله هو بلا شك واضح وضحاً موضوعياً، فإن إمكان الشك لا يزال قائماً بسبب نقص الانتباه والتفكير من جانبنا، ولا يبدو أن ذلك فيه زيادة عن قول القديس بونايفنتورا إن وجود الله، من الناحية الموضوعية مسألة لا شك فيها "أى إن الدليل- إذا ما تدبرناه مؤكداً وحاسماً".

لكن ربما أمكن الشك من الناحية الذاتية "لأنه ربما لا يلتفت الموجود البشري أوداك على نحو، كاف إلى الدليل الموضوع".

(١) من أقوال النبي داود في المزامير "قال الجاهل في قلبه ليس إله" المزمور الرابع عشر: ١ (الترجم).

(٢) عن سر التالوث ١، ١ النتيجة.

(٣) المرجع نفسه: ١٢

وإذا كان هذا هو ما يعتيه بقوله إن وجود الله واضح ذاتيا ولا شك فيه، فكيف يختلف موقفه عن موقف القديس توما الإكويني؟^{٩٠}

يبدو إن الجواب سيكون على النحو التالي: على الرغم من أن القديس بوناڤنتورا لم يفترض أن فكرة وجود الله واضحة وبسيطة عند كل موجود بشرى - ولا يزال أقل من ذلك الرؤية أو التجربة المباشرة بالله، فلا شك أنه يفترض وجود، إدراك معتم، أو معرفة ضمنية لا يمكن إنكارها تماما، وهى التى يمكن أن تصبح معرفة واضحة وصريحة من خلال التأمل الداخلى وحده، حتى وإن احتاجت فى بعض الأحيان أن تدعم بالتفكير فى العالم المحسوس، ومن ثم فالمعرفة الكلية بالله معرفة ضمنية وليست علنية أو صريحة، وإنما هى ضمنية بمعنى أنه يمكن جعلها واضحة وصريحة من خلال التأمل الداخلى وحده، ولقد سلم القديس توما الإكويني بالمعرفة الضمنية لله، لكنه كان يعنى بذلك أن لدى العقل القوة لبلوغ المعرفة بوجود الله من خلال التفكير فى أشياء الحس، وعن طريق التدليل من النتيجة إلى السبب.

بينما يقصد القديس بوناڤنتورا بالمعرفة الضمنية، شيئا أكثر من ذلك، أعنى معرفة فعلية بالله، أو إدراكا معتماً يمكن أن يجعله واضحا دون أن نلجأ إلى العالم الحسى.

والأمثلة العينية التى يفترضها بوناڤنتورا دعما لهذه القضية، تجعل فهمها أسهل، فكل موجود بشرى على سبيل المثال لديه الرغبة فى السعادة *Appetit us Beatitudinis* إلا أن السعادة تمتلك الخير الأقصى الذى هو الله، ومن ثم فكل موجود بشرى يرغب فى الله، لكن لا يمكن أن تكون هناك رغبة بدون قدر من المعرفة للموضوع، ومن ثم فالمعرفة التى تقوم أن الله أو الخير الأقصى موجود من الطبيعى أن تكون مغروسة فى النفس^(١).

(١) المرجع نفسه: ١٠

وبالمثل فإن للنفس العاقلة معرفة طبيعية بذاتها؛ لأنها حاضرة أمام ذاتها معروفة بنفسها، إلا أن الله أشد حضوراً أمام النفس ومعروفاً أكثر، ومن ثم فالمعرفة بالله مغروسة في النفس، وإذا اعترض على ذلك بأنه إذا كانت النفس موضوعاً لذاتها للمعرفة "المناسبة" فإنه يرد" على ذلك بأن الله لا يمكن عندئذ أن يكون موجوداً ولو صح ذلك فإن النفس لا يمكن أن تصل إلى معرفة بالله، التي من الواضح أنها ستكون كاذبة.

وطبقاً للنمط السابق من الحجة فإن من الطبيعي أن تتوجه الإرادة البشرية نحو الخير الأقصى الذي هو الله، وهذا التوجه الذي سيصبح لا يمكن تفسيره إذا لم يكن الله - أو الخير الأقصى - موجوداً وجوداً حقيقياً، لكنه يفترض أيضاً معرفة قبلية لله^(١)، وليست هذه المعرفة بالضرورة واضحة أو علنية، إذ لو كانت كذلك لما كان هناك ملاحظة، وإنما هي معرفة ضمنية وغامضة ما كانت معرفة على الإطلاق، فإنه يمكن الرد على هذا الاعتراض بأن الإنسان غير المتحيز الذي يتأمل توجه إرادته نحو السعادة يستطيع أن يتحقق من أن اتجاه إرادته يتضمن وجود موضوع مناسب، وأن هذا الموضوع، وهو الخير الكامل، ينبغي أن يكون موجوداً وأنه هو الذي نسميه بالله، وأنه لن يتحقق فقط. إنه في بحثه عن السعادة فإنه يبحث عن الله، بل إن هذا البحث يتضمن، هاجساً إن صح التعبير، بوجود الله، طالما أنه لا يمكن أن يكون هناك بحث عما هو مجهول تماماً. ومن ثم فإن النفس وهي تتأمل ذاتها، وتفكر في افتقارها ورغبتها في الحكمة والسلام أو الفبطة تستطيع أن تتعرف بل حتى تتصور الله، والنشاط الإلهي بداخلها، وليس من الضروري بالنسبة لها أن تبحث في الخارج، فما عليها سوى أن تتبع نصيحة القديس أوغسطين في أن تعود إلى ذاتها، إلى داخل نفسها، عندئذ سوف تتحقق من أنها لم تكن أبداً بدون هاجس، بدون قدر من المعرفة

(١) عندما أتحدث هنا عن توجه طبيعي للإرادة، فإنني لا أقصد استخدام اللفظ بالمعنى اللاهوتي الدقيق، بل بالأحرى بمعنى إرادة الإنسان العينية تتجه نحو الوصول إلى الله، وتبعد تماماً عن مسألة ما إذا كان هناك أولاً.

الغامضة بدون معرفة "فعلية" لله، إن البحث عن السعادة "وكل موجود بشرى يبحث عن السعادة"، وإنكار وجود الله يعنى فى الواقع ارتكاب إثم التناقض، فهو يعنى يعنى أن ينكر المرء بالشفاه، ما تؤكد الإرادة والعقل، على الأقل فى حالة الحكمة.

وسواء أكان هذا الخط من الحجة مشروعاً أم لا، فذلك ما لا أريد أن أناقشه هنا؛ إذ من الواضح أنه معرض للاعتراض عليه سواء اعتراضاً مفصلاً أم لا— بأنه إذا لم يكن هناك إله فإن الرغبة فى السعادة يمكن أن تكون بغير طائل أو ربما كان لها سبب آخر غير وجود الله، لكن من الواضح على الأقل أن القديس بوناغنتورا لم يفترض وجود فكرة فطرية عن وجود الله بالصورة التى هاجمها جون لوك فيما بعد عندما انتقد الأفكار الفطرية^(١).

من ناحية أخرى عندما أعلن القديس بوناغنتورا أن النفس تعرف الله عن طريق حضوره فى داخلها، فإنه لم يكن يدعم نظرية أنطولوجية، كما أنه لم يقل إن النفس ترى الله رؤية مباشرة، لكنه ذهب إلى أن النفس، وهى تدرك افتقارها، تدرك لو أنها تأملت أنها صورة الله، فهى ترى الله فى صورتها، فهى كما تعرف نفسها بالضرورة وتكون واعية بذاتها، فإنها بالضرورة تعرف الله — على الأقل— بطريقة ضمنية. وهى يتأملها لنفسها تستطيع أن تجعل هذا الإدراك الضمنى علنياً صريحاً دون الإشارة إلى العالم الخارجى، وسواء كان غياب الإشارة إلى العالم الخارجى ليس صورياً تماماً، بمعنى أن العالم الخارجى لم يذكر صراحة، فإن ذلك يمكن أن يكون موضع جدال.

٤ - لقد سبق أن رأينا أنه عند القديس بوناغنتورا، فإن الحجج نفسها المستمدة من العالم الخارجى تفترض مقدماً ضرباً من معرفة الله، ذلك لأنه يتساءل كيف يستطيع العقل أن يعرف أن الأشياء الحسية ناقصة ومعيبة ما لم يكن هناك وعى سابق

(١) انظر عرضاً لهذا الدليل والانتقادات التى وجهها جون لوك ضده كتابنا "مدخل إلى الميتافيزيقا" الجزء الخاص بالأدلة على وجود الله" مع ترجمة كاملة لميتافيزيقا أرسطو" دار نهضة مصر بالقاهرة (الترجم).

بالكمال، تعرف عن طريق المقارنة معه أن المخلوقات ناقصة فلا بد أن نضع هذه النقطة في ذهننا عندما نتدبر عرضه لدليل القديس أنسلم في كتابه "الموعظة".

ويخلص القديس بونا فنتورا في شرحه لكتاب "الأحكام"^(١)، دليل القديس أنسلم، فبالله هو الموجود الذي لا يمكن أن نتصور موجوداً أعظم منه، لكن ما لا يمكن أن نتصور عدم وجوده، ومن ثم فما دام الله هو ما لا يمكن أن نتصور عدم وجود ما هو أنه غير موجود وهو في "سر الثلاث"^(٢) يقتبس ويعرض هذا البرهان بتفعيل أطول إلى حد ما، ويشير^(٣) إلى أن الشك يمكن أن يظهر إذا ما كان عند شخص ما فكرة خاطئة عن الله، وإذا لم يتحقق أن الله هو الموجود الذي لا يمكن تصور موجود أعظم منه، وما إن يتحقق الذهن من أن الله موجود، فلا بد أن يتحقق كذلك لا فقط أن وجود الله لا يمكن أن يكون موضع شك، بل أيضاً أن عدم وجوده لا يمكن التفكير فيه. أما بالنسبة لاعتراض "جونيلو Gaunilo" بخصوص أفضل الجزر الممكنة^(٤)، فإن القديس بونا فنتورا يرد على هذا الاعتراض بقوله^(٥) أنه ليس ثمة وجه ممكن للمقارنة؛ لأنه على حين أنه يوجد أي تناقض في تصور الموجود الذي لا يمكن أن نتصور أعظم منه، فإن فكرة الجزيرة السعيدة التي لا يمكن أن نتصور ما هو أسعد منها، فكرة تحتوي على تناقض في الألفاظ، مادام لفظ "الجزيرة" يشير إلى موجود ناقص في حين أن عبارة "ما لا يمكن التفكير فيما هو أفضل منه" تشير إلى موجود كامل.

(1) I, 8, 1, 2.

(2) I, 21-4.

(3) Ibid, Conclusio.

(٤) راهب بنداكتي في القرن الحادي عشر هاجم البرهان الأنطولوجي للقديس أنسلم على وجود الله بعد فترة وجيزة من ظهوره في كتاب "الموعظة" فكتب رداً على عبارة المزامير تحت عنوان "في صالح الأحمق" فقال أن جزر السعداء التي لا يمكن أن نتصور بلاداً أسعد منها، لا وجود لها مع ذلك، فبرهان أنسلم غير مشروع؛ لأنه يتضمن انتقالاً غير منطقي من نظام تصوري إلى نظام واقعي (المترجم).

(٥) سر الثلاث ١، ٦، ٦.

قد تبدو هذه الطريقة في الحجاج طريقة جدلية خالصة، إلا أن القديس بوناڤنتورا - كما سبق أن ذكرنا لا ينظر إلى فكرة الكامل على أنها مأخوذة ببساطة من سلب النقص في المخلوقات، بل كشيء يفترضه سلفاً معرفتنا بنقص المخلوقات، على الأقل، بمعنى أن رغبة الإنسان في الكامل تتضمن وعياً مسبقاً، ويفترض القديس بوناڤنتورا سلفاً، متفقاً في ذلك مع التراث الأفلاطوني - الأرسطيني - فكرة نظرية بالفعل عن الكامل، لا تكون سوى طبعة الله على النفس، لا بمعنى أن النفس كاملة، بل بمعنى أن النفس تستقبل فكرة الكامل، أو تشكل فكرة الكامل بنور من الله، أو بفضل التنوير الإلهي، وهذه الفكرة ليست شيئاً سالباً، يمكن إنكار تحققه في الوجود العيني؛ لأن وجود الفكرة ذاته يتضمن بالضرورة وجود الله، وعند هذه النقطة يمكن أن نلاحظ التشابه على الأقل بين نظرية القديس بوناڤنتورا ونظرية ديكرت^(١).

هـ - الدليل المفضل عند القديس أوغسطين على وجود الله هو البرهان المستمد من الحقيقة، ووجود الحقائق الأزلية: ولقد استخدم القديس بوناڤنتورا هذا الدليل أيضاً فمثلاً: كل قضية موجبة تؤكد شيئاً ما حقيقياً غير أن إثبات أية حقيقة يؤكد أيضاً سبب كل حقيقة^(٢)، فحتى لو قال شخص ما إن الإنسان حمار، فإن هذه العبارة سواء أكانت صادقة أم كاذبة - تؤكد حقيقة ما. وحتى لو أعلن إنسان أنه لا توجد حقيقة، فإنه يؤكد هذا النفي على أنه حقيقة، ومن ثم يتضمن وجوداً أساسياً وسبباً لحقيقة ما^(٣).

ولا يمكن أن نرى حقيقة إلا من خلال الحقيقة الأولى، الحقيقة التي نرى من خلالها كل حقيقة أخرى هي الحقيقة المؤكدة التي لا شك فيها، ومن ثم، فيما أن الحقيقة الأولى هي الله، فإن وجود الله مسألة لا شك فيها^(٤).

(١) قارن شروح "اتين جيسون" على كتاب ديكرت "مقال عن المنهج" فيما يتعلق بفكرة الكامل.

(2) I, Sent, 8, 1, 2, Conclusio.

(3) Ibid, 5 and 7. ٢٦، ١، "سر الثالث"

(4) De My Sterio Teinitatis, 1, 1, 25.

لكن القديس بوناافتورا لا يسير فى برهان لفظى وجدلى خالص فى فقرة من كتابه "مباحث الأيام الستة"^(١) حيث يشير إلى أن الإنسان الذى يقول إنه لا توجد حقيقة يناقض نفسه، طالما أنه يؤكد ذلك على أنه حقيقة، وهو يؤكد أن نور النفس هو الحقيقة؛ لأنه ينير النفس على نحو لا يمكن معه إنكار وجود الحقيقة دون الوقوع فى تناقض ذاتى. وهو يؤكد فى كتابه "رحلة العقل إلى الله"^(٢) فى مقدور العقل أن يفهم الحقائق الأزلية، وأن يستخرج نتائج يقينية وضرورية فى النور الإلهى فحسب، وليس فى استطاعة العقل أن يفهم حقيقة ما على وجه اليقين إلا بهداية الحقيقة ذاتها. ومن ثم فإن إنكار وجود الله لا يعنى ببساطة الوقوع فى تناقض جدلى، وإنما هو كذلك إنكار لمصدر ذلك النور الذى هو ضرورى لبلوغ العقل رحلة اليقين إنه إنكار للمصدر باسم ذلك الذى يخرج من المصدر.

(1) 4.1.

(2) 3,2 ff.

الفصل السابع والعشرون

القديس بونا فنسورا (٣)

"علاقة المخلوقات بالله"

- ١ - المشابهة ٢ - المعرفة الإلهية ٣ - استحالة الخلق من الأزل
- ٤ - الأخطار الناجمة من إنكار المشابهة والخلق ٥ - تشابه المخلوقات
- لله ٦ - هذا العالم: هل هو أفضل العوالم الممكنة ؟

١ - لقد سبق أن رأينا أن خط البرهان الذي أخذ به القديس بونا فنسورا يؤدي إلى المحرك الذي لا يتحرك، المفارق المنفلق على ذاته كما هي الحال عند أرسطو رغم أنه لا يتردد في الاستفادة من فكر الفيلسوف، والاعتباس منه عندما يتدبر وجهة النظر "المعارضة" بل يؤدي إلى الله: المفارق والمحايث معاً، الخير الذي يجذب الإرادة، الحقيقة التي ليست فقط أساساً لجميع الحقائق الجزئية، بل أيضاً التي من خلال إشعاعها داخل النفس تجعل فهم الحقيقة المؤكدة ممكناً، الأصل الذي ينعكس في الطبيعة وفي النفس البشرية، والكامل المسئول عن الفكرة التي لدينا عن الكمال، الموجودة في النفس البشرية، وبهذه الطريقة فإن الأدلة على وجود الله ترتبط ارتباطاً وثيقاً بالحياة الروحية، وتكشف بداخلها الإله الذي كانت تبحث عنه على الدوام، وإذا كان ذلك بطريقة نصف شعورية وهو الإله الذي ظل باستمرار يعمل بداخلها، وتتوج المعرفة الأبد لله الذي يأتي بها الوحي - المعرفة الفلسفية وتفتح أمام النفس مستويات عليا من الحياة الروحية، إمكان الوحدة الوثيقة بالله، وهكذا تكمل الفلسفة واللاهوت الواحد منهما الآخر؛ إذ تؤدي الفلسفة إلى اللاهوت، في حين أن اللاهوت يشع نوره على المغزى العميق للفلسفة.

ويمكن أن ترى مثل هذا التكامل بين الفلسفة واللاهوت في نظرية القديس "بوناونتورا" عن المشابهة التي هي في نظره مسألة على جانب كبير من الأهمية، فهو في كتابه "مباحث الأيام الستة"⁽¹⁾ يجعل من المشابهة نقطة مركزية في الميتافيزيقا ويقول إن الفيلسوف الميتافيزيقي - يسير من تأمل الجوهر الجزئي المخلوق إلى الجوهر الكلي غير المخلوق "ليس بمعناه في وحدة الوجود بالطبع" وهكذا نجد أنه في حدود المعالجة بصفة عامة للمبدأ الأصلي لجميع الأشياء، فإنه يشبه الفيلسوف الطبيعي الذي يتدبر كذلك أصول الأشياء.

لكنه من حيث إنه يتدبر وجود الله كغاية نهائية، فإنه يشارك الفيلسوف الأخلاقي في موضوعه إلى حد ما الذي يتدبر كذلك الخير الأقصى باعتباره غاية نهائية.

وينشغل بالسعادة في النظام العملي أو النظري لكن من حيث إنه يتدبر وجود الله والخير الأقصى، كسبب يقتدى به في جميع الأشياء، وهو في ذلك لا يشارك أحدا غيره في موضوعه، غير أن الفيلسوف الميتافيزيقي إذا ما أراد بلوغ الحقيقة فيما يتعلق بالقوة، فإنه لا يستطيع أن يتوقف عند الواقعة المحض التي تقول إن الله هو السبب الذي يقتدى به في جميع الأشياء؛ لأنه وسيط الخلق، والصورة المعبرة عن الأب والقوة لجميع المخلوقات: إنه الكلمة الإلهية. ومن حيث هو فيلسوف على وجه الدقة فإنه لا يستطيع أن يصل إلى معرفة يقينية بالكلمة، وهذا حق⁽²⁾ لكنه إذا ما عندئذ أن يكون فيلسوفا فحسب فسوف يقع في الخطأ؛ إذ لا بد أن يستنير بنور الإيمان وأن يجاوز الفلسفة المحض، وأن يتحقق من أن الكلمة الإلهية هي السبب الذي يقتدى به في جميع الأشياء، وبهذا الشكل فإن النظرية الفلسفية الخالصة للقوة تمهد الطريق أمام لاهوت الكلمة، والعكس، فإن لاهوت الكلمة يلقي بضوئه على الحقيقة التي نحصلها عن طريق الفلسفة وبهذا المعنى، فإن المسيح هو الوسيط، لا الوسيط الخاص باللاهوت فحسب بل الخاص بالفلسفة أيضا.

(1) I, 13.

(2) In Hexaem I, 13.

وينتج عن هذا الموقف نتيجة واضحة فيما يتعلق بأرسطو. لقد سبق أن اقترح أفلاطون نظرية الماهيات أو المثل النموذجية، ويغض النظر عما كان أفلاطون يعتقد أنه لا يعتقد، فإن الأفلاطونية المحدثّة - على أقل تقدير - وضعت هذه المثل والأفكار أو الماهيات في الروح الإلهي لدرجة أن القديس أغسطين كان في مقدوره أن يثني على أفلاطون وأفلوطين من هذه الزاوية في حين أن أرسطو رفض المثل "أو الأفكار" الأفلاطونية وهاجم نظريته بعنف "في بداية الميتافيزيقا وفي نهايتها، وفي أماكن أخرى كثيرة يلعن المثل الأفلاطونية"^(١) كما هاجم أرسطو نظرية أفلاطون أيضا في كتاب "الأخلاق"^(٢) رغم أن المبررات التي يقدمها لا قيمة لها.. فلماذا هاجم أفلاطون على هذا النحو؟.. لأنه ببساطة كان فيلسوفا طبيعيا مهتما بأشياء العالم لذاتها، وذلك لأنه موهوب بالخطاب العلمي، وليس بخطاب الحكمة، إن أرسطو عندما رفض الاستخفاف بالعالم الحسي، وعندما رفض قصر اليقين على معرفة الوجود المتعالى المفاوق، كان على حق في معارضته لأفلاطون الذي بحماسة لطريقة الحكمة دمر طريق العلم وكان له الحق أن يلوم أفلاطون في ذلك، إلا أنه سار هو نفسه في الطريق الأقصى المضاد فدمر خطاب الحكمة^(٣). والواقع أنه بأفكار أرسطو لنظرية المشابهة، فإنه قد تورط بالضرورة أيضا في إنكار الخلق الإلهي والنعمة الإلهية، وبذلك كان خطؤه أسوأ من خطأ أفلاطون، ونظرية المشابهة التي أصر عليها أفلاطون، كما سبق أن رأينا هي مفتاح الميتافيزيقا ومركزها، لدرجة أن أرسطو برفضه لنظرية المشابهة قد أبعد نفسه عن فئة الميتافيزيقيين، بالمعنى الذي فهم به بوناغنتورا هذا المصطلح.

لكن علينا أن نجاوز أفلاطون لتتعلم من أغسطين الذي وهب خطاب الحكمة وخطاب العلم في آن معا^(٤)؛ لأن أوغسطين عرف أن المثل "أو الأفكار" موجودة في

(1) Ibid., 6, 2.

(2) Ibid., 6, 2.

(3) Sem., 18.

(4) Sem., 4, 19.

الكلمة الإلهية، وأن الكلمة هي المثل النموذجي للخلق، والأب يعرف نفسه معرفة كاملة، وفعل المعرفة هذا هو صورة ذاته والتعبير عن نفسه ذاته كلمته التعبير المماثل لذاته، وبما أن الكلمة صادرة عن الأب فهي إلهية، إنها الابن الإلهي، وتدل كلمة الابن على الأقنوم المشابه، والمعرفة المشابه مقدار ما تمثل الكلمة: باعتباره الصورة، كتعبير مماثل، فإنها تعبر أيضا وتمثل كل ما يستطيع الأب أن ينجزه أو يؤثر فيه^(١). وإذا استطاع شخص ما أن يعرف الكلمة، فإنه يستطيع أن يعرف جميع الموضوعات التي يمكن أن تُعرف^(٢) ففي الابن أو الكلمة يعبر الأب عن كل ما يستطيع أن يعلمه "أعني أن جميع الموجودات الممكنة موجودة بطريقة مثالية أو نموذجية في الكلمة، وكل ما سوف يعمل^(٣) أن "الأفكار" عن جميع المخلوقات، الواقعية أو الممكنة، متضمنة في الكلمة، وأن هذه الأفكار لا تكمن فقط إلى الكليات "الأجناس والأنواع" وإنما أيضا الأفراد أو الأشياء الفردية^(٤). وهي لا متناهية من حيث العدو بوصفها ممثلة لكل الممكنات، وبوصفها ممثلة لقوة الله اللامتناهية^(٥)، لكن عندما يقال إن هناك لا تنهايا للأفكار في داخل الكلمة، فإن ذلك لا يعني أن الأفكار متميزة حقا عن الله؛ إذ لا تميز في الله فيما عدا تميزات الأقانيم بوصفها موجودة في الله. وهي ليست متميزة عن الماهية الإلهية، أو عن بعضها البعض وينتج عن كونها لا تتميز بعضها عن بعض أنها لا تشكل هيراركية حقيقية^(٦). ومع ذلك، فعلى الرغم من أن الأفكار من الناحية الأنطولوجية واحدة، وليس ثمة تميز حقيقي بينها، هناك تميز العقل، وهي لذلك كثرة من العقول الثانوية^(٧)، ولا يمكن أن يكون أساس التميز أي تميز حقيقي في الماهية الإلهية.

(1) Breviloqu. I, 3.

(2) Ibid.

(3) In Hezaem. 3,4.

(4) Ibid.

(5) Ibid., I, 13.

(6) I, Sent. 35 Art 4.

(7) Ibid.

طالما أن الأفكار ليست فقط ممتدة أنطولوجيا في الماهية الإلهية البسيطة، وإنما لا توجد أيضا علاقة واقعية من جانب الله بمخلوقاته؛ لأنه لا يعتمد على مخلوقاته على الإطلاق، رغم أن هناك علاقة حقيقية من جانب المخلوقات بالله؛ فאלله والمخلوقات ليسوا شيئا واحداً، وعلى ذلك فمن وجهة نظر الأشياء المشار إليها، فإن الأفكار متميزة كعقول "ثانوية" أما في الله فالأفكار واحدة، لكنها تقف موقفاً وسطاً، إن صح التعبير، بين الله العارف والشيء المعروف، والتمييز بينهما ليس تمييزاً في الطريقة التي توجد بها "أعني ليس تمييزاً واقعياً" بل تمييزاً بما تشير إليه أو توحى به، وأساس التمييز هو الكثرة الواقعية للأشياء المشار إليها "أعني المخلوقات" وليس تمييزاً واقعياً داخل الماهية الإلهية أو داخل المعرفة الإلهية.

لقد كان أفلاطون يجاهد للوصول إلى نظرية الأفكار هذه، لكن لما كان ينقصه نور الإيمان، فإنه لم يستطع الارتقاء إلى النظرية الحقيقية، فتوقف دونها بالضرورة لكي يكون لديك النظرية الحقيقية عن الأفكار فمن الضروري معرفة الكلمة، وفضلاً عن ذلك فكما أن المخلوقات قد نتجت عن طريق وساطة الكلمة، ولم يكن في استطاعتها أن تنتج إلا من خلال الكلمة، فإنها كذلك لا يمكن أن تعرف إلا على ضوء علاقتها بالكلمة، وربما كان أرسطو فيلسوفاً طبيعياً مرموقاً، لكنه لم يستطع أن يعرف حقاً الموضوعات المختارة في دراساته، طالما أنه لم يرها في علاقاتها بالكلمة بوصفها انعكاسات للصورة الإلهية.

٢ - وإذن قاله حين يعرف نفسه، فإنه يعرف أيضاً كل الطرق التي يمكن أن تنعكس بها الماهية الإلهية في الخارج، أنه يعرف جميع الأشياء المنتهية الخيرة المتحققة في الزمان، وبونا فنتورا يسمى هذه المعرفة، "بالمعرفة المؤكدة" المعرفة بالأشياء التي تمتد إليها إرادته الخيرة وهو يعرف كذلك لا فقط جميع الأشياء الخيرة القائمة أو التي ستظهر في مجرى الزمان، بل أيضاً جميع الأشياء الشرطية، وهذه المعرفة يسميها بونا فنتورا "معرفة الظاهر" وليس ثمة حاجة إلى أن نقول إن بونا فنتورا لا يقصد أن يقول للشر فكرة مثالية في ذهن الله. إن الشر على العكس هو افتقار في

المخلوقات لما ينبغي أن تكون عليه طبقاً لفكرتها في ذهن الله، كما أن الله يعرف أيضاً جميع الأشياء الممكنات، وهذه المعرفة يسميها بونافتورا "بالمعرفة العقلية" موضوعاتها، الممكنات لا متناهية من حيث العدد، بينما موضوعات النوعين السابقين من المعرفة متناهية⁽¹⁾. غير أن الأنواع الثلاثة من المعرفة ليست عارضة في ذهن الله، متميزة الواحدة عن الأخرى: إذا ما نُظر إليها من الناحية الأنطولوجية كما هي في ذهن الله، فإنها تكون فعلاً واحداً للمعرفة متحدة في هوية واحدة مع الماهية الإلهية.

الفعل الإلهي للمعرفة لا متناه وأزلي، لدرجة أن جميع الأشياء حاضرة أمامه، حتى أحداث المستقبل، وليس هناك تتالي في المعرفة الإلهية. وإذا ما تحدثنا عن "علم سابق" لله فلا بد أن نفهم المستقبلية على أنها تتعلق بالموضوعات ذاتها "بمعنى أنها تتبع الواحدة منها الأخرى في الزمان ويعلم الله أنها تتعاقب في الأمان". لكن ذلك لا يتعلق بالمعرفة الإلهية ذاتها، فالله يعلم الأشياء جميعاً بفعل أزلي واحد، وليس ثمة تتابع زمني في هذا الفعل، فليس هناك قبل وبعد، فالله يعرف بطريقة أزلية—بواسطة— هذه الفعل الفريد الأشياء ثم تتابعها والزمان. ومن ثم فإن بونافتورا يضع تميزاً بخصوص العبارة التي تقول إن الله يعرف جميع الأشياء وهي حاضرة يشير إلى أن هذا الحضور ينبغي أن يفهم بالإشارة إلى الله، "أي جانب الشخص العارف" وليس بالإشارة إلى الشيء المعروف، وإذا ما فهمت بالمعنى الأخير، فإن ذلك لا بد أن يعني أن جميع الأشياء حاضرة أمام بعضها البعض، وهو خطأ؛ لأنها ليست حاضرة بعضها لبعض، رغم أنها جميعاً حاضرة أمام الله⁽²⁾.

يقول: تخيل أن عينا مركزة وثابتة على جدار تلاحظ الحركات المتتابعة تحت الجدار لجميع الأشخاص والأشياء بفعل واحد من أفعال الرؤية. العين لم تتغير، ولا فعل الرؤية، وإنما الأشياء تحت الجدار هي التي تتغير ويلاحظ بونافتورا أن المقارنة

(1) CF. I Sent, 39, 1 2 and 3. Descientia.

(2) CF. I. Sent. 39, 2, 3. Conclusio.

لا تشبه أبدا ما يريد توضيحه، ذلك لأن المعرفة الإلهية لا يمكن تصويرها بهذه الطريقة، لكنها قد تساعد في فهم ما يعنيه.

٣ - إذا لم يكن هناك أفكار إلهية، وإذا لم تكن لله معرفة بذاته، ولا بما يستطيع أن يفعله، ولا بما سيفعله، فإنه لن يكون هناك خلق، مادام الخلق يتطلب معرفة من الخالق: المعرفة والإرادة، وعندئذ لن يدهشنا أن أرسطو الذي رفض المثل "الأفكار" رفض أيضا فكرة الخلق وقال بأزلية العالم، أي العالم الذي لم يخلقه الله، هذه على الأقل هي النظرية التي ينسبها إليه كل أساتذة الإغريق: جريجورى أوف نيسا^(١) وجريجورى نازيانزوس^(٢)، ويوحنا الدمشقي^(٣) وبازل^(٤) وكل الشراح العرب، في حين أنك لن تجد أرسطو نفسه يقول إن للعالم بداية، والواقع أنه يلوم أفلاطون الفيلسوف اليوناني الوحيد الذي أعلن فيما يبدو أن للزمان بداية. ولم يكن القديس بونا فنثورا بحاجة إلى أن يتحدث بمثل هذا الحذر، ذلك لأن أرسطو لم يكن يؤمن، بلا شك، بأن الله خلق العالم من العدم *EX Nihilo*.

ولم يجد القديس توما أى تناقض من وجهة النظر الفلسفية بين فكرة الخلق من ناحية، وفكرة أزلية العالم من ناحية أخرى، فعنده أن العالم يمكن ألا تكون له بداية في الزمان وأن يكون مع ذلك مخلوقًا، بمعنى أن يكون الله قد خلق العالم من الأزل، إلا

(١) جريجورى أوف نيسا (٣٢٠-٣٩٤) لاهوتى مسيحى، وأب من آباء الكنيسة الشرقية، رفض دموع شقيقه بازل الأكبر Basil للانضمام إلى جماعة الرهبان، وتزوج وأصبح معلما للبيان، وفي عام ٣٧٢ عين جريجورى أسقفًا لـ"نيسا" (المترجم).

(٢) جريجورى نازيانزوس (٣٢٠-٣٩٠) شاعر ولاهوتى وأسقف تلقى تعليمًا ممتازًا في فلسطين، وجامعة الإسكندرية وأثينا، كان من صغره صديقًا لجريجورى أوف نيسا وبازل (المترجم).

(٣) يوحنا الدمشقي (٦٧٥-٧٤١) أحد أساتذة الكنيسة الشرقية، كتب "نبوغ المعرفة" وطبق على كتابات آباء الكنيسة الشرقية مبادئ المنطق الأرسطى، وكان موسوعيًا من منظور العقيدة (المترجم).

(٤) بازل (٣٢٩-٣٧٩) هو باسيليوس القيصر الملقب بالأكبر "الأتمار الثلاثة" كان أخواه أسقفين- كتب "الرد على أونوميوس" و "مقال عن الروح القدس" ... إلخ (المترجم).

أن القديس بوناغنتورا، ذهب إلى أن أزلية العالم مستحيلة، وأن الله لا يمكن أن يكون قد خلق العالم منذ الأزل، فإذا كان قد خلق فلا بد أن يكون للزمان بداية، وينتج عن ذلك أن إنكار أن يكون للزمان بداية، يعنى إنكار أن يكون العالم مخلوقاً وأن البرهنة على الحركة الأزلية، أو الزمان الذى لا بداية له مستحيلة يعنى البرهنة على أن العالم مخلوق، ومن ثم فقد نظر القديس بوناغنتورا إلى الفكرة الأرسطية عن أزلية العالم على أنها ترتبط بالضرورة- بإنكار الخلق، وهذه الفكرة التى لا يوافق عليها القديس توما- تجعل معارضة لآرسطو أكثر حدة. ومن الطبيعى أن يقبل القديس بوناغنتورا والقديس توما واقعة أن للعالم بداية فى الزمان طالما أن اللاهوت يقول بذلك، لكنهما يختلفان فى مسألة الإمكان المجرد للخلق من الأزل، ومن الطبيعى أن اقتناع بوناغنتورا باستحالة هذا الخلق يجعله يكف عن عداء أرسطو، طالما أنه يؤكد ذلك كحقيقة، وليس فقط كإمكان، فلا بد أن يظهر ذلك بالنسبة له على أنه تأكيد لاستقلال العالم فى علاقته بالله، وهو يريده أساساً إلى رفض الفيلسوف للمشابهة.

ما الأسباب التى جعلت القديس بوناغنتورا يرى أن الحركة الأزلية أو الزمان بلا بداية، مستحيلان؟، إن حججه هى تقريبا تلك الحجج التى عالجها القديس توما على أنها اعتراضات على رأيه، وسوف أسوق بعض الأمثلة.

أ - إذا كان العالم موجوداً منذ الأزل، فإنه ينجم عن ذلك أنه يمكن إضافته إلى اللامتناهى فمثلاً لابد أن يكون هناك بالفعل عدد لا متناه من الدورات الشمسية ومع ذلك تضاف دورة جديدة كل يوم إلى الدورات السابقة، لكن من المستحيل إضافة شيء إلى اللامتناهى، ومن ثم فالعالم لا يمكن أن يوجد بصفة مستمرة⁽¹⁾.

ويجب القديس توما⁽²⁾ على ذلك بقوله إننا لو افترضنا أن الزمان أزلى، فسوف يكون لا متناهيًا من قبل *EX part ante* ولكن ليس من بعد *ex parte post* وليس ثمة

(1) 2 Sent. 1,1, 1,2,1.

(2) Contra Gent. 2,28.

اعتراض حاسم يثار ضد إضافة تضاف إلى اللاتناهي في النهاية التي يصبح الزمان عندها متناهيا؛ أعني عندما يتحدد في الحاضر ويرد القديس بوناونتورا على ذلك بقوله لو أن المرء تدبر الماضي ببساطة فلا بد له أن يُسلم بعدد لا متناه من الدورات القمرية لكن هناك اثنتي عشرة دورة قمرية بالنسبة لدورة شمسية واحدة، ومن ثم فإننا نواجه أنفسنا أمام نوعين من اللامتناهي أحدهما أكبر من الآخر اثنتي عشرة مرة، وتلك استحالة.

ب - من المستحيل أن نجتاز سلسلة لا متناهية، بحيث إذا كان الزمان أزليا؛ أعني بلا بداية، فلن يستطيع العالم أبداً، أن يصل إلى يومنا الراهن، لكن من الواضح أنه وصل^(١). ويرد القديس توما على ذلك بقوله^(٢) إن كل عبور أو انتقال يتطلب نقطة بداية ونقطة نهاية، لكن إذا كان الزمان ديمومة لا متناهية، فلن يكون هناك حد أول أو نقطة بداية، وبالتالي لن يكون هناك انتقال، ومن ثم فإن هذا الاعتراض لا يمكن إثارته، ويرد القديس بوناونتورا على ذلك بقوله إنه ما إنه توجد دورة للشمس بعيدة بشكل لا متناه، في الماضي عن الدورة في يومنا الراهن، أو أنه لا توجد فإذا لم توجد فإن المسافة عندئذ تكون متناهية، ولا بد أن تكون للسلسلة بداية أو أن توجد. وعندئذ: فماذا في الدورة الشمسية يتبع مباشرة ما هو على مسافة لا متناهية من دورة اليوم؟ فهل هذه الدورة تبعد كذلك عن دورتنا اليوم بمسافة لا متناهية أم لا؟ فإذا لم تكن فإن مسافة الدورة المفترضة بشكل لا متناه لا يمكن أن تكون مسافة لا متناهية أيضاً، ما دامت المسافة بين الدورة الأولى والثانية، فلو كانت، فما إذن الدورات الثالثة والرابعة.. هلم جراً؟ أهى أيضاً مسافة لا متناهية عن دورتنا الحالية؟. فلو كان الجواب بالإيجاب فإن دورتنا الحالية لن تقل في بعدها عنها عن بعدها عن الدورة

(1) II Sent, I, I, 2, 3.

(2) Contra Gent 2, 33. S.T. Ia 46, 2, ad.

الأولى، وفي هذه الحالة ليس هناك تتالي، وإنما هي كلها مترامنة وهو خلف محال.

ج- من المستحيل أن يوجد لاتناه للموضوعات العينية في وقت واحد، لكن إذا ما كان العالم قد وجد منذ الأزل، فلا بد أن يكون هناك وجود الآن لـ "لاتناه" للأنفس العاقلة وعلى ذلك فلا يمكن للعالم أن يكون قد وجد منذ الأزل.

ويرد القديس توما الإكويني على ذلك بقوله⁽¹⁾ هناك من ينكر وجود النفس البشرية بعد موت البدن، في حين يؤكد آخرون أن العقل "المشترك" هو وحده الذي يبقى، وفريق ثالث يأخذ بتناسخ الأرواح، بينما يؤكد بعض الكتاب أن عدداً لا متناهما من الأفعال ممكن في حالة الأشياء التي لم تنظم، ومن الطبيعي ألا يضع القديس توما في ذهنه أيّاً من هذه المواقف الثلاثة: أما بخصوص الموقف الرابع، فإن رأيه النهائي موضع شك فيما يبدو لدرجة أن بوناغنتورا استطاع أن يلاحظ سخريّة أن نظرية تناسخ الأرواح هي خطأ فلسفي، كما أنها تعارض سيكولوجيا أرسطو: بينما نظرية العقل المشترك الذي يبقى هو وحده هي خطأ أشد سوءاً، أما بالنسبة للعدد اللانهائي من الفعل، فقد اعتقد أنها فكرة هي نفسها بالغة الخطأ، على أساس أن الكثرة اللامتناهية لا يمكن أن تنظم، وبالتالي لا يمكن أن تخضع للنعمة الإلهية، في حين أن جميع المخلوقات التي خلقها الله تثال نعمته الإلهية.

وهكذا اقتنع القديس بوناغنتورا أنه يمكن البرهنة فلسفياً على عكس ما يقوله أرسطو، إن العالم كانت له بداية وإن فكرة الخلق من الأزل تحتوي على تناقض صارخ؛ لأنه إذا كان العالم قد خلق من العدم، فقد أصبح موجوداً، بعد أن لم يكن موجوداً *esse post non- esse*⁽²⁾ بالتالي لا يمكن أن يكون قد وجد منذ الأزل ويجب القديس

(1) Contra Gent 2, 38.

(2) 2, Sent. 1, 1, 2, 6.

توما بأن أولئك الذين يؤكدون الخلق منذ الأزل لا يقولون إن العالم صنع من العدم
Ni lūm لكنه خلق من العدم، وهى فكرة ضدها أن يكون قد خلق من شىء ما، أعنى أن
فكرة الزمان لم تكن متفمئة، على الإطلاق، ومن الخطأ- فى نظر بوناغنتورا، أن نقول
أن العالم أزلى، وأنه غير مخلوق، "وهو خطأ يمكن تقيده من الناحية الفلسفية" غير أن
القول بأن مخلوق على نحو أزلى من العدم، يعنى الوقوع فى تناقض صارخ،
فمما يضاد العقل ألا تؤمن بأن أى فيلسوف- حتى ولو كان قليل الفهم- يمكن أن يؤكد
ذلك^(١).

٤ - إذا ما أنكرنا نظرية المشابهة وإذا لم يكن الله قد خلق العالم، فإن النتيجة
الطبيعية هى أن الله لا يعرف سوى ذاته، وأنه لا يتحرك إلا كعلة غائية، كموضوع
للرغبة والحب، Desideratum et Amatum وأنه لا يعرف شيئاً جزئياً خارج ذاته^(٢). فى
هذه الحالة فإن الله لن يهب أية نعمة؛ لأنه لن يكون لديه داخل ذاته أفكار الأشياء التى
يمكن أن يعرفها عن طريقها^(٣)، نظرية القديس بوناغنتورا بالطبع أن الله يعرف الأشياء
الأخرى غير ذاته وإن كان يعرفها من خلال ذاته أو عن طريقها، من خلال الأفكار
المشابهة وهو إن لم يأخذ بهذه النظرية لكان عليه أن يقول إن المعرفة الإلهية تصل إلى
كمالها من خلال أشياء تقع خارج الله، وإنه يعتمد على مخلوقاته بطريقة ما مع أن
الواقع هو أن الله مستقل استقلالاً تاماً، وأن المخلوقات، هى التى تعتمد عليه،
ولا تستطيع أن تضيف على وجوده أى كمال^(٤).

لكن إذا كان الله منعكفاً على ذاته، بمعنى أنه لا معرفة له بالمخلوقات ولا يضيف
عليها أية نعمة إلهية، فإنه ينتج عن ذلك أن تغيرات العالم أو حركاته، تنبع إما من

(1) Ibid, Conclusio.

(2) In Hexaem. 6,2

(3) In Hexaem.3.

(4) Cf I Sent. 39. I.I. Conclusio.

الصدفة- وهو مستحيل- أو من الضرورة كما ذهب فلاسفة العرب، وإن الأجرام السماوية هي التي تنور حركات الأشياء في العالم، لكن لو صح ذلك لاختفت أية نظرية عن الثواب والعقاب في هذه الحياة. والواقع أنك لا تجد أرسطو أبداً يتحدث عن سعادة أو غيبة بعد هذه الحياة الدنيا، وتنتج جميع هذه النتائج الخاطئة من أفكار المشابهة، ويتضح أكثر من أي وقت مضى أن المشابهة هي مفتاح الميتافيزيقا الحق، وأنه بدونها لا مندوحة للفيلسوف من السقوط في الأخطاء إن هو ناقش الموضوعات الميتافيزيقية^(١).

هـ - وينجم عن نظرية المشابهة أن هناك تشابهاً ما بين المخلوقات والله، وإن كان علينا أن نفرق بين أنواع مختلفة من التشابه حتى نصل إلى الفكرة الصحيحة عن العلاقة بين الله والمخلوقات إذا أردنا أن نتجنب الوقوع في مذهب وحدة الوجود pantheism من ناحية ومذهب العالم المستقل "عن الله" من ناحية أخرى. ويقول بوناغنتورا في شرحه على كتاب الأحكام^(٢)، إن التشابه قد يعنى الاتفاق بين شيئين وشيء ثالث "ويسميه التشابه بالتواطؤ" أو إنه قد يعنى تشابه شيء مع شيء آخر دون أي اتفاق مع شيء ثالث، وفي هذا المعنى يقال أن المخلوق متشابه مع الله، وفي نفس النتيجة "إضافة رقم ٢" يفرق بين تشابه التواطؤ إذا كانت مشاركة مشابهة المحاكاة والتعبير، ويلاحظ أن الأولى لا تعبر تعبيراً جيداً عن العلاقة بين الله ومخلوقاته؛ لأنه لا يوجد حد مشترك "أي لا يوجد شيء مشترك بين الله والمخلوق"، وما يعنيه هو أن الله؛ والمخلوقات لا يشتركان في الوجود بطريقة متواطئة "بنفس المعنى بالضبط" إذ لو صح ذلك لكان المخلوق هو الله وكانت النتيجة هي مذهب وحدة الوجود غير أن المخلوق هو محاكاة لله، أو لفكرت في ذهن الله، كما أن الله يعبر عن الفكرة بطريقة خارجية في المخلوق المتناهي ومن ثم عندما رفض بوناغنتورا التشابه بالمشاركة فلا بد أن تفهم أن المشاركة هنا تشير إلى شيء مشترك بين الله والمخلوقات بمعنى متواطئ أو كما يسميها الثالث المشترك.

(1) In Hexaem. 6,3.

(2) I, 5, art Un 1, Conclusio.

ويمكن الاعتراض بأنه إذا لم يكن هناك شيء مشترك بين الله والمخلوقات فلا يمكن أن يكون هناك تشابه بينهما، إلا أن الخاصية المشتركة التي يريد القديس بوناغنتورا استبعادها هي خاصية مشتركة بالتواطؤ التي يعارضها بالمماثلة إن شابه المخلوق الخالق، أو الخالق للمخلوق هي نوع من المماثلة أما النوع الآخر فهو تشابه كالذي يوجد بين أشياء تنتمي إلى أجناس مختلفة، رغم أنه في حالة العلاقة بين المخلوقات والخالق، فإن المخلوق هو وحده الذي يكون عضواً في فئة الجنس، وهكذا يكون المدرس في مدرسته هو القبطان في سفينته، طالما أن كلا منهما يقوم بفعل التوجيه⁽¹⁾ وأخيراً يفرق بوناغنتورا بين النسبة بالمعنى الواسع- الذي يشمل التناسب- والنسبة بالمعنى الضيق، التي توجد بين أعضاء نفس الفئة كالأعداد النسبية على سبيل المثال، ولا يمكن بالطبع أن تكون النسبة بهذا المعنى الضيق موجودة بين الله ومخلوقاته.

غير أن بوناغنتورا يتحدث عن مماثلة التناسب أما المماثلات التي أولاهما اهتماماً كبيراً فهي مماثلات التشابه؛ لأنه كان مغرماً بالبحث عن التعبيرات، والتجليات، والصور، وعلامة لله في عالم المخلوقات، وهكذا تجده في شرحه على كتاب الأحكام⁽²⁾، بعد أن يستبعد التشابه بالاتفاق في الطبيعة من كل وجه، وهو الذي يصلح أن يكون قائماً بين الأشخاص الإلهية، كل منهم يتحد في هوية واحدة مع الطبيعة الإلهية، بين التشابه عن طريق المشاركة في الطبيعة الكلية مثل التشابه الموجود بين الإنسان والحصان بفضل مشاركتهما معا في جنس الحيوان، وهو يسلم بالتناسب أو التشابه عن طريق النسبة وهو يعطينا هنا مثال القبطان وسائق العربة في علاقتهما بالأشياء التي يوجهانها" وكذلك التشابه بالاتفاق في النظام ثم يسير إلى مناقشة هذه الأنواع الأخيرة من المماثلات، وهي كما سبق أن ذكرنا تصلح للمماثلة بين الله ومخلوقاته.

(1) Cf. I Sent 3, I, art. un. 2,3.

(2) Sent. 16, I, I, Conclusio.

فكل مخلوق كما يقول بونا فنسورا هو علامة على وجود الله. أما نوعا المماثلة، فإن المخلوق العاقل هو وحده صورة الله؛ لأنه يشبه من حيث حيازته لقوى عقلية، يمكنه من خلالها أن يصبح على الدوام أكثر تطابقا مع الله.

ويمكن أن تلاحظ اختلافاً مماثلاً بين الكائن العاقل وغير العاقل، إذا ما تأملنا مماثلة التناسب في استطاعتنا أن نقول مع التسليمات والتحفظات الواجبة، إن الله بالنسبة للمخلوق أشبه بالسبب لنتيجته. وكذلك المخلوق بالنسبة لنتيجته المناسبة، ويصدق ذلك على جميع المخلوقات من حيث إنها فاعل إيجابي نشط. إلا أن النتيجة التي نتحدث عنها خارجية بالنسبة للفاعل، في حين أنه في حالة المخلوق العاقل - هو وحده بين المخلوقات جميعاً - هناك نسبة ذاتية داخلية، هناك في الله وحده الطبيعة في ثالث الأقسام، وهناك في الإنسان وحدة الماهية مع ثالث القوى الذي ينتظم الواحد مع الآخر، والعلاقة بينها تشبه بطريقة ما العلاقة في الله. ولا يقصد بونا فنسورا من ذلك أننا نستطيع أن نبرهن على نظرية الثالث عن طريق النور الطبيعي للعقل من تأمل الطبيعة البشرية؛ لأنه ينكر إمكان أى برهان فلسفي دقيق على سر "التثليث" بل إننا عن طريق نور الإيمان الذي يرشدنا، نستطيع أن نجد مماثلة التثليث في الطبيعة البشرية العاقلة، والطبيعة الإلهية هي بالنسبة للأشخاص الإلهية الثالثة، مثل الطبيعة البشرية أو الماهية البشرية بالنسبة لقواها الثلاث، وهذا تشابه معبر عن تشابه النسبة، والإنسان من هذه الزاوية أيضاً يسمى صورة الله، وكلمة معبر تعنى أن الثالث المبارك قد عبر عن نفسه وتجلي بدرجة ما في تكوين الطبيعة البشرية. ومن الواضح أن المماثلة عند القديس بونا فنسورا، أساسية أكثر من مماثلة التناسب، وإذا ما عولجت الثانية في صلتها بالأولى، ليس لها قيمة عينية أو معنى بمعزل عنها.

وبهذه الطريقة كان بونا فنسورا قادراً على تنظيم هيراركية الوجود طبقاً لقسريها أو بعدها من تشابه المخلوق لله، إن عالم الأشياء الحسية الخالصة هو علامة لله أو ظل الله *Umbra Dei, Vestigium Dei* رغم أننا نجد هنا أيضاً معادلات التثليث، وهي التي عندما يتأملها الفيلسوف الطبيعي الذي لا يكون شيئاً سوى فيلسوف طبيعي، تكون ببساطة:

طبيعة Natura فمثل هذا الرجل لا يمكن أن يقرأ كتاب الطبيعة الذي يخلو بالنسبة إليه مما نسميه علامة على وجود الله، لكنها شيء يدرس في حد ذاته نون الإشارة إلى وجود الله ^(١) والكائن العاقل يقف أعلى من الكائن الحسي الخالص، وصورة الله ima-go Dei بمعنى خاص إلا أن عبارة صورة الله هي نفسها ذات تطبيق واسع؛ لأنه يغطي لا الجوهر الطبيعي للناس والملائكة فحسب، بل أيضا التشابه لما فوق الطبيعة الذي هو نتيجة لامتلاك النعمة. والنفس بفضل النعمة هي صورة الله بمعنى أعلى مما هو في الماهية الطبيعية الخالصة للإنسان، والنفس في السماء، تستمتع بالرؤية السعيدة هي صورة الله بمعنى أكثر عمقا، وهكذا يكون هناك درجات من المماثلة، ومن التشابه بالله، ولابد من رؤية كل درجة في ضوء الكلمة، التي هي الصورة المجانة لطبيعة الأب والنموذج المثالي للخلق كله، منعكسا في المخلوقات على درجات مختلفة من التعبير، وفي استطاعتنا أن نلاحظ لا فقط التكامل بين اللاهوت والفلسفة، بل أيضا واقعة الدرجات المختلفة من التشابه ترتبط في علاقة وثيقة بالحياة الروحية العقلية للإنسان. إن الصعود إلى الله من جانب الفرد يتضمن تحولا من الظل Umbra أو العلامة الخالصة Vestigium التي تتأملها عن طريق الحواس إلى التأمل الداخلي لله صورة الله imago Dei أو الكتاب الداخلي استجابة لقلب القديس أوغسطيني أن ينظر المرء إلى داخل ذات حتى نصل إلى تأمل المثال أو القدوة أي تأمل لله في ذاته، وواقعة أن القديس بوناغنتورا لم يضع روابط وثيقة بين اللاهوت والفلسفة مكنته من أن يربط رؤيته للكون بالحياة الجمالية والصوفية، وأن يستحق بذلك لقب المفكر المسيحي بوجه خاص.

٦ - هل هذا العالم الذي يعكس بطريقة تثير الإعجاب الخالق الإلهي، هو أفضل العوالم الممكنة جميعاً؟ لابد لنا أولاً وقبل كل شيء أن نميز بين سؤالين: هل يستطيع الله أن يخلق عالماً أفضل من العالم الحالي؟ هل كان يمكن لله أن يجعل من هذا العالم أفضل مما هو عليه؟ يجيب بوناغنتورا عن السؤال الأول بأن الله كان يمكن أن يخلق عالماً أفضل من العالم الحالي، بأن يخلق ماهيات أكثر نبلا، ولا يمكن إنكار ذلك نون أن

(1) In Hexaem, 19, 15.

نحد من قدرة الله، أما بالنسبة للسؤال الثاني، فإن الأمر كله يتوقف على ما تعنيه بكلمتي "العالم" و"أفضل" فإذا ما كنت تشير إلى الجواهر التي يصنع منها العالم بسؤالك عما إذا كان الله يستطيع أن يجعل هذه الجواهر أفضل بمعنى أن يصنع ماهيات أو جواهر أكثر نبلا أى من أعلى، أو ما إذا كان السؤال عما إذا كان الله يستطيع أن يجعل هذه الجواهر أفضل بطريقة عارضة؛ أعنى فى الوقت الذى تظل فيه داخل طبيعتنا؟ فلو كانت الأولى فإن الجواب هو أن الله يستطيع، فى الواقع، أن يغير الجواهر إلى جواهر أكثر نبلا، لكنه لن يكون هو العالم، ولن يكون الله بذلك قد جعل هذا العالم أفضل، ولو كانت الثانية فإن الله عندئذ يستطيع أن يجعل هذا العالم أفضل، ولنأخذ مثالا: لو أن الله غير الإنسان إلى ملاك، فإن الإنسان لن يكون بعد ذلك إنساناً، وإن يكون الله بذلك قد جعل الإنسان أفضل، لكن فى استطاعة الله أن يجعل الإنسان أفضل عن طريق زيادة قواه العقلية وصفاته الأخلاقية^(١).

ومن ناحية أخرى فعلى حين أن الله يستطيع أن يجعل هذا الإنسان أو هذا الحصان، إنساناً أفضل أو حصاناً أفضل، فلا بد لنا أن نضع تفرقة أخرى إذا ما كان السؤال عما إذا كان الله يستطيع- أولا يستطيع- أن يجعل الإنسان على ما هو عليه- أفضل، بمعنى أن يضعه فى ظروف أفضل، أو أن يسمح له أن يكون فى مثل هذه الظروف، فربما كان ذلك يعنى أنه لا يستطيع أن يجعل الإنسان أفضل، فلو أن الله- مثلاً- أراد أن يجعل الناس تعبدوه بطريقة جيدة، فإنه بذلك يجعل الإنسان أفضل من وجهة نظر مجردة، لكن لو أنك تأملت الغرض الذى من أجله جعل الله الإنسان يعبدوه بطريقة جيدة أو سيئة، فإنه لا يجعله أفضل من الناحية العملية- لو أنه ألغى إرادته الحرة أو أبطلها. وأخيراً لو تساءل شخص ما إذا كان فى استطاعة الله أن يجعل العالم أفضل فلماذا لم يجعله كذلك أو يجعله الآن كذلك، فلا يوجد جواب يقدم عن هذا السؤال سوى هذا: أنه هكذا شاء وهو نفسه يعرف السبب^(٢).

(1) I, Sent. 44, I, I, Conclusio.

(2) Ibid, ad 4.

الفصل الثامن والعشرون

القديس بونا فنتورا (٤) : الخلق المادى

- ١ - التركيب الهيولى أو المادى لجميع المخلوقات ٢ - التفريد
٣ - النور ٤ - تعدد الصور ٥ - العلل البذرية

١ - أخذ القديس بونا فنتورا على أستاذه ألكسندر أوف هاليس^(١)، نظرية التركيب الهيولى "المادى" لجميع المخلوقات، وهى النظرية التى ترى أن جميع الأشياء تتألف من مادة وصورة، ومن الطبيعى أن يقصد بالمادة فى هذا السياق مبدأ الوجود بالقوة بالمعنى الواسع، وليس "المادة" بالمعنى الذى تكون فيه مضادة للروح "فالمادة منظوراً إليها فى ذاتها لا هى روحية ولا جسمية" ومن ثم فهى فى ذاتها محايدة وعلى استعداد لتقبل ما له صورة روحية أو جسدية، لكنها كمادة لا يمكن أبداً أن توجد بذاتها، بمعزل عن صورة ما محددة، وما إن تتحد ذات مرة بالصورة الروحية أو البدنية حتى تظل على الدوام على حالتها بدنية أو روحية، وينتج عن ذلك أن المادة التى تكون بالفعل حاضرة فى جوهر بدنى تختلف من حيث النوع عن "المادة" التى تكون موجودة فى جوهر روحى^(٢)، ويمكن النظر إلى "المادة" بأكثر من طريقة، فلو أن المرء نظر إليها من منظور "الحرمان" بعد أن يجردها من كل الصور الجوهرية أو العرضية، فلا بد له أن يُسلم بأنها من الناحية الماهوية واحدة فى جميع المخلوقات: "لأنه إذا كان هذا النوع أو ذاك من المادة محروم من جميع الصور وجميع الأعراض، فإنه إن يرى هناك أى فرق

(١) إلكسندر أوف هاليس (1170_1248) A.Hales لاهوتى إنجليزى "درس فى باريس ودخل فى سلك الرهبنة الفرنسيسكانى، طور نظرية تجمع بين فكر أغسطين وعناصر من أرسطو، أثر فى القديس بونا فنتورا، وكتب شروحاً على كتاب "الأحكام" وأجزاء فى "الخلاصة اللاهوتية" (المترجم).

(2) Sent. 31, E.2 Conclusio ad 3

أو اختلاف"، لكن إذا ما نظر إلى المادة "بطريقة المماثلة" أى كوجود بالقوة أو كأساس للصورة، فلا بد للمرء أن يضع تمييزاً، وبمقدار ما ننظر إلى المادة بوصفها أساساً للصورة فى علاقتها بالوجود، فسوف يجدها بالضرورة واحدة سواء فى المخلوقات الروحية أو المادية، طالما أن المخلوقات الروحية والمادية معاً موجودة وباقية، ويمكن للمرء أن يتأمل وجودها بذاتها دون أن يستمر ليتأمل الطريقة الدقيقة التى توجد عليها أو نوع الأشياء التى تكونها، وبذلك هى الطريقة التى يتأمل بها الفيلسوف الميتافيزيقى المادة، وهكذا تكون المادة فى نظر الميتافيزيقى متشابهة فى المخلوقات المادية والروحية فإذا ما نظر إلى المادة فى علاقتها بالحركة بالمعنى الواسع، وفهمت على أنها تغير، فلن تكون فى هذه الحالة هى نفسها فى المخلوقات التى لا يمكن أن يطرأ عليها تغير جوهرى، وتتلقى صوراً مادية، رغم أنه يمكن النظر إليها على أنها متشابهة بطريقة المماثلة، بمقدار ما تعرض الملائكة مثلاً للفعل الإلهى، وهذا هو المنظور الذى ينظر منه الفيلسوف الطبيعى *physicus* إلى المادة.

دون أن ندخل فى التميزات الأخرى التى أشار إليها القديس بوناغنتورا ودون محاولة الحكم على هذه النظرية، فإن المرء يستطيع أن يقول إن تعاليمه حول التركيب الهيولى "المادى" لجميع المخلوقات هى أن المادة هى مبدأ الوجود بالقوة بما هو كذلك، فالموجودات المادية والموجودات الروحية معاً هى موجودات مفتقرة، وليست موجودات معتمدة على نفسها، ومن ثم فلو أن المرء تدبر وتأمل الوجود بالقوة مجرداً من كل صورة ناظراً إليه كمبدأ مشارك للوجود، فإن المرء يستطيع أن يقول مع الميتافيزيقى إنها واحدة أساساً فى النوعين؛ إن الفيلسوف الطبيعى يدرس الأجسام، ويهتم بالمادة، لا ماهيتها المجردة، بل وجودها فى نوع معين من الوجود، على نحو ما ترتبط بعلاقة عينية بنوع معين من الصورة؛ الصورة المادية، والمادة - منظوراً إليها على هذا النحو - لا توجد فى الموجودات الروحية، وقد يعترض معترض بالطبع. قائلًا: إن المادة بوصفها موجودة بطريقة عينية، وبوصفها متحدة مع الصورة على أنواع مختلفة وتظل مختلفة، ولا بد أن يكون هناك شئ فى المادة ذاتها يجعلها على أنواع مختلفة، حتى إن تشابهها فى النظامين الروحى والمادى لا يمكن أن يكون أكثر من مماثلة، إلا أن بوناغنتورا يسلّم

بأن المادة لا يمكن أن توجد بالفعل منفصلة عن الصورة، هو يكتفى بأن يقرر أنه إذا ما نظر إليها- ويمكن أن ينظر إليها على هذا النحو- منفصلة عن كل صورة على أنها محض وجود بالفعل، فإنه يمكن أن يقول، بحق، إنها واحدة أساساً، فلو كان لدى الملائكة عنصر الإمكان- أو الوجود بالقوة- كما هو حادث- فلا بد لهم من أن يحوزوا على المادة، ذلك لأن المادة إذا ما نظر إليها في ذاتها فهي إمكان أو وجود بالقوة، إنه فقط في الوجود الذي يكون فعلاً خالصاً، دون أى إمكان أو وجود بالقوة- لا توجد المادة.

٢ - هل المادة هي عنصر التفريد؟ يقول القديس بوناغنتورا إن بعض المفكرين^(١) يقولون بذلك، معتمدين على أقوال أرسطو التي يكون من الصعوبة بمكان أن نرى كيف يمكن أن يكون العنصر المشترك بين جميع الأشياء هو السبب الرئيسى للفرقة و التميز أعنى للتفريد أو التفرد. ومن ناحية أخرى فإذا قلنا إن الصورة هي مبدأ التفريد وافترضنا صورة فردية، متتبعين هذا المبدأ في النوع، فإننا بذلك نسير في الطريق المضاد، وتنسى إن كل صورة مخلوقة قابلة لأن يكون لها صورة أخرى شبيهة، من الأفضل أن نقول أن التفريد ينشأ من اتحاد الصورة والمادة التي تناسب الواحدة منهما الأخرى، إن صُح التعبير من خلال اتحادهما توضع الاختتام من انطباعات مختلفة من الشمع، بدون الشمع لن يكون هناك كثرة من الاختتام، لكن بدون الانطباعات المختلفة فإن الشمع لن يكون متعددًا، وقل مثل ذلك فإن المادة تكون ضرورية لو أريد أن يكون هناك تميز، وتعدد، وعدد، إلا أن الصورة ضرورية، لأن التميز والتعدد يفترضان مقدما تكون الجوهر من خلال العناصر المكونة له. أما أن الجوهر الفردي هو شيء محدد من نوع معين، فهي مسألة ترجع إلى الصورة، أما أن ذلك شيء ما فهو يرجع أساساً إلى المادة، التي بفضلها تتخذ الصورة وضعا ما في الزمان والمكان، ويدل التفرد أساساً على شيء جوهري أو جوهر يتألف من مادة وصورة، لكنه يدل كذلك على

(1) 2 Sent. 3, 1, 2,3, Conclusio.

شيء يمكن أن ينظر إليه على أنه عارض، أعنى مجرد عدد، إن الفردية تدل على شيئين: التفريد الذي ينشأ من اتحاد والمبدئين: المادة والصورة- وثانياً: يتميز عن الأشياء الأخرى، التي هي أقل عدداً، إلا أن الأول، أى التفريد هو أساساً أكثر عدداً

تنشأ الشخصية عندما تكون الصورة التى اتحدت مع المادة هي صورة عاقلة: وهي بذلك تضيف إلى الفردية كرامة الطبيعة العاقلة، التى تشغل أعلى مكانة بين المخلوقات العاقلة، وليس فقط فى القوة لصورة جوهرية أكثر رفعة لكننا نحتاج إلى شيء أكثر من ذلك إنما من أجل تكوين الشخصية، وهو أنه داخل "التبديل" لا توجد طبيعة أخرى تستحق أن تكون مرموقة أو لها كرامة أعظم، إذ لا بد أن تكون للطبيعة العاقلة مكانة فعلية مرموقة، "الطبيعة البشرية فى المسيح- رغم أنها تامة وكاملة؛ ليس لها مكانة فعلية مرموقة، ومن ثم فهي ليست شخصاً" وعندئذ لا بد لنا أن نقول: كما أن الفردية تنشأ من وجود صورة طبيعية فى المادة، فكذاك الشخصية تنشأ من وجود طبيعة نبيلة وسامية فى الجوهر^(١).

كما أن القديس بوناڤتورا يعزو المادة، أى المادة الروحانية إلى الملائكة فقد سلم بوجود كثرة من الملائكة الأفراد داخل نفس النوع، دون أن يضطر مثل القديس توما الإكويني- إلى افتراض أنواع ملائكية عديدة بعدد الملائكة. ويظهرنا الكتاب المقدس على وجود ملائكة تقوم بوظائف متشابهة وتلك هي حجة لصالح تشابه الوجود على حين أن "المحبة" تحتاج كذلك إلى كثرة من الملائكة داخل الأنواع نفسها^(٢).

٣ - هناك فى الخلق المادى صورة جوهرية تمتلكها جميع الأجسام، وتلك هي صورة النور^(٣) فقد خلق الله النور فى اليوم الأول، أى قبل أن يخلق الشمس بثلاثة أيام، وهو مادى فى رأى القديس بوناڤتورا، على الرغم من أن القديس أوغسطين يقول

(1) 2. Sent. 3, 1, 2, 2, Conclusio.

(2) Ibid. 3, 1, 2, 1.

(3) CF 2 Sent. 13.

إنه خلق ملائكى غير أن النور إن شئنا الدقة، ليس جسماً وإنما هو صورة لجسم، الصورة الجوهرية الأولى، المشتركة لجميع الأجسام ومبدأ نشاطها، والأنواع المختلفة لصورة الجسم، والأنواع المختلفة من الأجسام تشكل نظاماً تصاعدياً متدرجاً حسب مشاركتها الكبيرة أو الصغيرة فى صورة الضوء، وهكذا تقف "السموات العلاء" فى نهاية السلم من أعلى على حين تقف الأرض عند الطرف الآخر الأدنى، ومن هنا كان موضوع النور واضحاً كل الوضوح عند المدرسة الأوغسطينية، وهو يرتد إلى أفلوطين، وتشبيهه أفلاطون لمثال الخير بالشمس - وجد له مكاناً مرموقاً فى فلسفة القديس بوناغنتورا.

٤ - إذا كان بوناغنتورا يعتقد أن النور هو صورة جوهرية موجودة فى جميع الأجسام فمن الواضح أنه لا بد أن يعتقد أيضاً أنه يمكن أن يكون هناك كثرة من الصور الجوهرية فى جوهر واحد، وهو يرى أنه ليس شئاً مشكلاً فى الإيمان بهذه الفكرة طالما أنه ينظر إلى الصورة على أنها هى التى تهىء الجسم لاستقبال كمالات أخرى أعلى، فى حين أن الصورة الجوهرية عند القديس توما محدودة ومحددة حتى إنه لا يمكن أن يوجد أكثر من صورة جوهرية واحدة فى الجسم، أما عند القديس بوناغنتورا فتطلع وتنظر إلى أعلى، إن صح التعبير، لا على نحو يحيط بالجسم ويحصره، بل تعداه بالأحرى لتلقى إمكانات جديدة وكمالات جديدة. وهو فى كتابه "مباحث الأيام الستة"^(١) يذهب إلى حد القول بأنه من الجنون *Insanum* القول بأن الصورة النهائية قد أضيفت إلى المادة الأولى "وفرضت عليها" دون أن يكون هناك شئ أشبه بالاستعداد أو الوجود بالقوة من منظور تلك الصورة دون أن يكون هناك أى صورة وسيطة كما كان يجب أن يتعقب التوازى بين نظام النعمة أو الفضل الإلهى ونظام الطبيعة، وكما أن منحة المعرفة تفترض سلفاً منحة الحكمة، وهى نفسها لا تلقى منحة الحكمة، وكما أن المنح لا تلقى الفضائل اللاهوتية، فكذلك إحدى الصور تفترض سلفاً من أجل صورة أعلى، وهذه عندما تتلقاها فإنها لا تفرد الصورة السابقة، بل تتوجها.

(1) 4, 10.

ه - من الطبيعي أن نتوقع من القديس بوناغنتورا الذى سار فى طريق تراث القديس أغسطين، أن يتقبل نظرية "العلل البذرية Rationes Seminales لاسيما وأن هذه النظرية تضع تشبيدا على عمل الخالق، وتقلل من استقلال الفاعل الطبيعي، رغم أنها ليست نظرية "علمية" بالمعنى الحديث لهذا اللفظ عند القديس بوناغنتورا أكثر منها عند القديس أغسطين، لأنها عند الرجلين مطلوبة من التفسير الصحيح للكتاب المقدس أو بالأحرى من الفلسفة التى تضع فى اعتبارها معطيات الوحي، مع إضافة العقل فى حالة القديس بوناغنتورا التى اعتنقها فيلسوفه العظيم الفيلسوف المسيحى على الأصالة الذى منح فى أن معا "خطاب الحكمة" و"خطاب العلم": "فى اعتقاد أنه لابد من الأخذ بهذا الموقف، لا بسبب أن العقل يميل إليه فحسب، بل أيضا لأن سلطان القديس أوغسطين- فى شرحه الدقيق على سفر التكوين - يؤكد⁽¹⁾ وهكذا يحافظ بوناغنتورا على شكل مرن معين للأشياء فى المادة، لكنه رفض وجهة النظر التى تقول إن أشكال الأشياء التى تظهر فى الزمان، كانت أصلا فى حالة فعلية فى المادة مثل اللوحة التى يغطيها قماش، لدرجة أن الفاعل الجزئى هو وحده الذى يكشف عنها مثل الرجل الذى يزيح القماش من اللوحة ويجعل الرسم يظهر، وبناء على هذه النظرية فإن الصور أو الأشكال المتعارضة التى يطرد بعضها، سوف تتواجد معا فى وقت واحد فى نفس الموضوع- وهو مستحيل، كلا ولن يقبل النظرة التى تقول إن الله هو العلة الفعالة الوحيدة فى إنتاج الصور أو الأشكال؛ لأن ذلك لابد أن يعنى أن الله يخلق جميع الصور أو الأشكال بنفس الطريقة التى يخلق بها النفس البشرية العاقلة، وأن الفاعل الثانى لا يفعل شيئا حقيقيا على الإطلاق، فى حين أن من الواضح أن نشاطه يسهم بشيء ما فى النتيجة، والنظرية الثانية من هاتين النظريتين تقلص- أو تستبعد تماما- نشاط الفاعل، على حين أن النظرية الأولى تقلصه إلى الحد الأدنى، ولقد رفض بوناغنتورا قبول هاتين النظريتين، وهو

(1) 2 Sent. 7, 2,2,1, nesp.

يفضل النظرية: "التي يبدو أنها نظرية أرسطو، التي يُعتقد الآن بصفة عامة أساتذة الفلاسفة واللاهوت، وهي أن جميع الصور أو الأشكال الطبيعية أو على الأقل- جميع الأشكال المادية، مثل أشكال العناصر أو الأشكال المختلطة، متضمنة في وجود المادة بالقوة وحاضرة بالفعل عن طريق فعل الفاعل الجزئى"، غير أن ذلك يمكن أن يفهم بطريقتين: فقد يعنى أن المادة وجود بالقوة يتلقى الصورة، وميل إلى التعاون فى إنتاج تلك الصورة، وأن الصورة المنتجة هى فى الفاعل الجزئى كما هى فى المبدأ الأصلي الفعال، وهكذا فإن استخلاص الصورة يتم عن طريق مضاعفة صورة الفاعل، مثلما يشعل المرء شمعة، فإنه يستطيع أن يشعل منها العديد من الشموع أو أنها قد تعنى أن المادة تتضمن الصورة المراد استخلاصها لا فقط التى بها- وإلى حد ما- التى فيها تنتج الصورة، لكن أيضا تلك التى تخرج منه، رغم أن ذلك بمعنى أنها تخلق فى المادة ومع المادة لا كوجود بالفعل، بل كصورة بالقوة، الصور أو الأشكال الافتراض الأول، لا يقال أن الفاعل قد خلقها، طالما أنها لم تخرج من العدم، مما يعطى الانطباع بخلق ماهية جديدة بهذه الطريقة، أما الافتراض الثانى فلا تنتج فيه ماهية أو جوهر جديد، وإنما الصورة التى كانت موجودة بالقوة ترتد إلى الفعل، قد تلقى نظاما جديدا، ومن ثم فالافتراض الثانى ينسب إلى الفاعل المخلوق دورا أقل من الافتراض الأول، طالما أن الفاعل المخلوق يظهر ببساطة ما كان موجودا فى السابق بطريقة ما وهو الآن يوجد بطريقة أخرى، فى حين أن الفاعل المخلوق- على أساس الافتراض الأول - سوف ينتج شيئا جديداً بطريقة إيجابية، حتى ولو كان ذلك لا يعنى الخلق من العدم، فلو أن البستانى اعتنى - مثلاً- شجرة ورد حتى ازدهرت براعمها وتفتحت وأصبحت، وردة فإنه يكون قد فعل شيئا حقا، لكنه أقل مما كان سيفعله لو أنه أراد أن ينتج شجرة ورد من شكل آخر من أشكال الشجر، لقد كان بونافنتورا حريصا على أن يتجنب أن ينسب حتى شبهة قدر الخلق للفاعل المخلوق، فاختار الافتراض الذى ينسب أقل عمل للفاعل المخلوق وأكبر عمل للخالق.

ومن ثم فالأشكال أو الصور المستخلصة هي أصلا مادة في حالة فعلية، وهذه الصور الفعلية هي العلل البذرية^(١) rationes Seminales والعللة البذرية هي قوة فعالة داخل المادة، أو هي القوة الفعالة التي هي ماهية الصورة المراد استخلاصها، تقف مع الأخيرة في علاقة الوجود الناقص بالوجود الكامل أو الوجود بالقوة esse in potentia بالوجود بالفعل esse in act^(٢) وهكذا تكون المادة بذرة يخلق فيها الله الصور المادية في حالة فعل التي تخرج منها تباعاً، ولا ينطبق ذلك على صور الأشياء غير العضوية فحسب، بل أيضاً على أنفس الحيوانات والنباتات ولا حاجة للقول بأن القديس بوناغنتورا أدرك أن نشاط الفاعل الجزئي ضروري لمولد الحيوان أو الكائن الحي، لكنه لا يوافق على نظرية مضاعفة الأنفس وهي النظرية التي تبعا لها تنتج النفس في الحيوان الجديد من مضاعفة أنفس الآباء، بون أن يكون هناك أي تنقيص لأنفس كوالدين كما أن هذه النظرية تتضمن أن الصورة المخلوقة يمكن أن تنتج صورة مشابهة تخرج من العدم^(٣). فما يحدث هو أن بذور الوالدين تعمل عما تلقاه الوالدان نفسيهما: المبدأ البذري، والمبدأ البذري بما أنه قوة فاعلة أو وجود بالقوة يحتوي على النفس الجديد في شكل جرثومة، على الرغم من أن نشاط الوالدين ضروري حتى يتحول ما هو بالقوة إلى فعل، وهكذا فإن القديس بوناغنتورا يشق طريقا وسطا بين طرفين أقصيين: من ينسبون إلى الفاعل المخلوق أقل القليل أو أنه لا يقوم بشيء على الإطلاق، ومن ينسبون إليه أكثر مما ينبغي ومبدؤه العام هو أنه على حين أن الله ينتج شيئا ما موجود من قبل بالقوة وهو يعنى بذلك حالة الفعل^(٤)، لكن من العبث البحث عن وصف دقيق أو تفسير دقيق للعمل العيني لنظريته في "العلل البذرية" طالما أنها تتأسس من ناحية على أساس سلطة الثقات، ومن ناحية أخرى على استدلال فلسفي قبلي Apr-ori لا على الملاحظة التجريبية أو التجربة العلمية.

(١) العلل البذرية فكرة رواقية أساسا تذهب إلى أن الأشياء كانت في البداية على شكل بذرة كامنة أخذت تنمو وتتطور وتظهر منها ولقد وجد "أوغسطين" في هذه الفكرة حلا لمشكلة فعل الخالق الذي لا بد أن يكون واحدا على الرغم من أن الأشياء كثيرة، وهي دائمة النمو والتطور، فالأشياء وجدت من البذرة التي خلقها الله مرة واحدة ثم تطورت (المترجم).

(2) Sent, 18, 1, 3, Resp.

(3) Ibid, 2, 15, 1, 1, Resp.

(4) Cf. 2 Sent. 7, 2, 2, 2, Resp.

الفصل التاسع والعشرون

القديس بونا فنتورا (٥): النفس البشرية

١ - وحدة النفس البشرية^٢ - علاقة النفس بالبدن^٣ - خلود النفس البشرية^٤ - خطأ الواحدية السيكولوجية الرشدية^٥ - معرفة الأشياء الحسية، ومعرفة المبادئ المنطقية الأولى. ٦ - معرفة الوقائع الروحية ٧ - الإشراق^٨ - صعود النفس إلى الله ٩ - بونا فنتورا؛ فيلسوف الحياة المسيحية.

١ - سبق أن رأينا أن أنفس الحيوانات عند بونا فنتورا قد نتجت عن طريق البذور، لكن ذلك بالطبع، لا ينطبق على النفس البشرية التي خلقها الله على نحو مباشر، يخلقها من العدم، فالنفس البشرية هي صورة الله، تدعو إلى الوحدة مع الله، ومن هنا كان من المناسب أن يحتفظ الله بخلقها لنفسه، وهذا الاستدال يتضمن اللاهوت، إلا أن بونا فنتورا يذهب كذلك إلى أنه مادامت النفس البشرية خالدة ولا يمكن أن تفسد، فإن خلقها لا يمكن أن يحدث إلا عن طريق ذلك المبدأ، الذي يملك في ذاته الحياة الدائمة ويتضمن خلود النفس البشرية "مادة" في النفس، تعجز عن أن تكون عنصراً تخضع لتغير جوهري، غير أن نشاط الفاعل المخلوق ينحصر في العمل على المادة القابلة للتغير، أما إنتاج جوهر بمادة لا تقبل التغير، فذلك أمر يجاوز قدرة مثل هذا الفاعل، وينتج من ذلك أن نظرية مضاعفة الأنفس لابد من رفضها حتى لو مال إليها القديس أوغسطين لاعتقاده أنه يستطيع عن طريقها تفسير انتقال الخطيئة الأصلية^(١).

(1) 2 Sent. 18,2,3, Resp.

فما الذى يخلقه الله؟ إنه النفس البشرية بأسرها وليس الملكة العقلية وحدها؛ فهناك نفس واحدة فى الإنسان مزودة بملكات عاقلة وحاسة، وهذه النفس هى التى خلقها الله. وكان الجسم يحتوى "نسلا" أو بذورا فى جسم آدم الإنسان الأول، ثم انتقل من خلال "المنى" لكن ذلك لا يعنى أن للجسم نفسا حاسة، مستمدة من وجود المادة بالقوة، ومتميزة عن النفس العاقلة المخلوقة، صحيح أن المنى لا تحتوى فحسب على فائض الأب من الغذاء، بل شيئا أيضا أقرب إلى "العناصر الرطبة" حتى إنه يكون فى الجنين، قبل أن ينتشر فى النفس، ميل إيجابى نشط نحو فعل الإحساس، نوع من الحساسية غير الناضجة، غير أن هذا الميل أو الاستعداد هو ميل نحو إنجاز فعل الإحساس من خلال قوى النفس بمجرد انتشارها فى البدن؛ عند اكتمال الجنين من الناحية الحيوية عن طريق انتشار النفس، تتوقف هذه الحساسية المبتسرة غير الناضجة أو أنها بالأحرى تندرج تحت نشاط النفس التى هى مبدأ الإحساس كما أنها مبدأ التعقل، وبعبارة أخرى كان القديس بوناونتورا حريصا على المحافظة على استمرارية الحياة وواقعية الإنجاب بينما يتجنب تماما انقسام النفس إلى نفسين^(١).

٢ - النفس البشرية هى صورة البدن: ولقد استخدم القديس بوناونتورا نظرية أرسطو ضد أولئك الذين يذهبون إلى أن الأنفس البشرية عبارة عن جوهر واحد: "النفس العاقلة هى فعل وكمال أول الجسم البشرى؛ ومن ثم فلما كانت الأجسام البشرية متميزة، فسوف تكون الأنفس البشرية التى تكمل هذه الأجسام متميزة أيضا"^(٢)، فالنفس صورة موجودة حية عاقلة موهوبة بالحرية^(٣). وهى حاضرة تماما فى كل جزء من أجزاء البدن كما كان يعتقد القديس أوغسطين وهى النظرية التى استحسناها القديس بوناونتورا وفضلها على النظرية التى تقول إن النفس حاضرة أساسا فى جزء معين من البدن كالقلب مثلا، ولأنها صورة البدن كله فهى حاضرة فى البدن كله، ولأنها بسيطة فلا يوجد جزء

(1) CF. 2 Sent. 30, 3, I and 3.

(2) Ibid, 18, 2, I, Contra.

(3) Brevilogr, 2,9.

منها هنا، وجزء هناك ولأنها المبدأ المحرك الكافي للبدن، فليس لها مكان معين، وليست حاضرة في نقطة معينة أو في جزء معين^(١).

لكن على الرغم من قبول القديس بوناونتورا للتعريف الأرسطي للنفس على أنها صورة للبدن، فإن اتجاهه وميله العام كان في طابعه أفلاطونيا أوغسطينياً بمقدار ما يؤكد أن النفس البشرية جوهر روحاني يتألف من صورة روحانية ومادة روحانية فلا يكفي القول بأنه يوجد في النفس البشرية تركيب ينتج مما هو قائم ex quo est هو موجود quod est طالما أن النفس يمكن أن تؤثر وتتأثر، تحرك وتحرك، ويتطلب ذلك حضوراً للمادة أو وجودها: مبدأ التقبل والتغير، على الرغم من أن هذه المادة تجاوز الامتداد والفساد بما أنها روحانية وليست مادة جسمية^(٢). وتبدو هذه النظرية مناقضة للبساطة المعترف بها للنفس البشرية. إلا أن بوناونتورا يشير إلى أن "البساطة" درجات مختلفة ومعان كثيرة، ومن هنا قد تشير البساطة إلى غياب الأجزاء الكمية، وهو ما تتمتع به النفس بما أنها بسيطة مقارنة بالأجسام المادية، أو قد تشير إلى غياب الأجزاء المكونة وذلك ما لا تتمتع به النفس، غير أن النقطة الرئيسية هي أن النفس- رغم أنها صورة البدن- والمبدأ المحرك للبدن فإنها أيضاً أكثر من ذلك؛ إذ يمكن أن توجد بذاتها، بما أنها هذا الشيء Hoc aliquid رغم أنها ما دامت هي هذا الشيء الذي هو سلبي متقبل إلى حد ما وقابل للتغير لا بد أن تحتوى بداخلها على مادة روحية، وهكذا فإن نظرية التكوين من المادة والصورة Hy Lomorphic^(٣) للنفس البشرية تعد ضامناً أو كفيلاً لكرامة النفس وقدرتها على أن توجد منفصلة عن البدن.

(1) I Sent. 8.2, at Un. 3, resp.

(2) I Sent. 17, 1.2. Resp.

(٣) الهيلومورفيك مصطلح مؤلف من مقطعين يونانيين "هيلو" Hy وهي الهيولى، ومورفيك Morphe وهي الصورة، وهي نظرية مدرسية- أرسطية كانت تفسر تكون الأجسام بمبدأين أساسيين هما المادة والصورة، والمادة هي أساس الهوية في العالم الطبيعي، والصورة يمكن انتزاعها في أي تغير جوهري (المترجم).

فإن ما كانت النفس تتألف من صورة ومادة روحية، فإنه ينتج عن ذلك أنها تتفرد عن طريق مبادئها الخاصة^(١)، ولو أن الأمر كان كذلك فلهذا إذن تتحد بالبدن "مادامت، بحق جوهرية فردية روحية؟ والجواب هو أن النفس، حتى على الرغم من أنها جوهرية روحية، فإنها تتكون على نحو يجعلها لا تستطيع فحسب أن تلهم البدن، بل أن يكون لديها أيضاً ميل طبيعي لأن تفعل ذلك. وبالمثل فإن البدن على الرغم من أنه يتألف من مادة وصورة، فإن لديه نزوعاً appetites لأن تلهم النفس، ومن ثم كان اتحادهما هو كمال لكل منهما وليس فيه إساءة لا للنفس ولا للبدن.^(٢) ولا توجد النفس ببساطة - أو أساساً لتحريك البدن^(٣) إنما للاستمتاع بالله، ومع ذلك فهي لا تمارس قواها وقدراتها على نحو تام إلا في إلهام البدن وسوف تعود مرة أخرى يوماً ما - يوم البعث - إلى الاتحاد بالبدن - ولقد كان أرسطو يجهل ذلك، ولا يدهشنا أنه كان يجهل ذلك؛ لأن الفيلسوف لا بد بالضرورة أن يقع في بعض الأخطاء ما لم تساعده أنوار الإيمان^(٤).

٣ - من الطبيعي أن تيسر نظرية التكوين الهيلومورفي "أو من المادة والصورة" للنفس البشرية - البرهان على خلود النفس، طالما أن بونا فنتورا لا يربط بين النفس والبدن برياط وثيق على نحو ما كانت تفعل النظرية الأرسطية، إلا أن برهانه المفضل كان برهانا مستمداً من الغاية النهائية للنفس، فالنفس تسعى إلى السعادة التامة وهي واقعة لا أحد يشك فيها إلا إذا أساء استخدام عقله". لكن ليس في استطاعة أحد أن يصل إلى السعادة التامة إذا ما خشي أن يفقد ما يملك، بل على العكس فإن هذا الخوف نفسه هو الذي يجعله تعيساً، ومن ثم فلما كان لدى النفس رغبة طبيعية للوصول إلى السعادة التامة فمن الطبيعي أنها لا بد أن تكون خالدة وهذا البرهان يفترض سلفاً وجود الله. وبالطبع إمكان بلوغ السعادة التامة وكذلك وجود الرغبة

(1) Sent. 18, 2, 1 ad. 1.

(2) Cf. Ibid, 17, 1, 2 adg.

(3) Ibid, 18, 18, 9, 1, ad. 6.

(4) Ibid.

الطبيعية فى السعادة البشرية، لكنه البرهان المفضل عند بوناغنتورا لما يحمله من طابع روحى، ولارتباطه بحركة تجاه الله، فذلك عنده هو الحجة الرئيسية^(١).

وهو يستدل بطريقة مماثلة^(٢) من النظر فى العلة الصورية من طبيعية النفس بوصفها صورة لله. إن النفس قد جبلت على بلوغ السعادة التى تعتمد على امتلاك الخير الأقصى وهو الله، لا بد أن تكون قادرة على امتلاك الله، وبالتالي لا بد أن تكون مخلوقة على صورته ومثاله، لكن ما كان يمكن لها أن تكون على مثال الله لو أنها كانت فانية، وإن لا بد أن تكون خالدة، من ناحية أخرى فإن بوناغنتورا يعلن "مستدلا من الجانب المادى" أن صور النفس العاقلة، لها من السمو ما يجعل النفس شبيهة بالله، وتكون النتيجة أن المادة المتحدة مع النفس "أعنى المادة الروحية" تجد إشباعها واكتمالها فى اتحادها مع هذه الصورة وحدها لدرجة أنها لا بد أن تكون بالمثل خالدة.

ويقدم بوناغنتورا براهين أخرى كتلك البراهين المستمدة من ضرورة وجود عقوبات فى حياة أخرى^(٣)، وكذلك من المستحيل أن يترك الله الخير بلا جزاء، وهو يذهب البرهان الأخير إلى أنه سيكون منافيا للعدالة الإلهية، أن تؤدى الأفعال الخيرة إلى الشر والإحباط - وبناء على كل التعاليم الأخلاقية، فإنه أحرى بالإنسان أن يموت من أن يقترب ظلما لكن إذا كانت النفس فانية، فإن التزامها بالعدالة، وهو ما أثنى عليه جميع الفلاسفة، سوف تصبح عدما وذلك يتعارض مع العدالة الإلهية، وفضلا عن ذلك فإن الحجج المستمدة من قدرة النفس على التفكير فى ذاتها، ومن النشاط العقلى الذى ليس فيه تبعية ذاتية على البدن لإثبات تفوقها على المادة الجسدية وعدم قابليتها للفساد - هى حجج أرسطية الطابع^(٤) لكن على الرغم من أن هذه الأدلة الأرسطية ربما كانت أكثر

(1) Sent, 19, I, Resp.

(2) Ibid.

(3) Ibid, sed Contra 3.4.

(4) Ibid, 7 FF, Cf, De Anima Bk3.

قبولا بالنسبة لنا، على اعتبار أنها لا تحتوى على شيء من اللاهوت ولا تفترضه إلا في أقل القليل، إلا أنها كانت في نظر بوناغنتورا مستمدة من القديس أوغسطين أو معتمدة على خط تفكيره وهي الأكثر حسما ، لاسيما أنها مستمدة من الرغبة في السعادة كما أن البرهان الأوغسطيني المستمد من معرفة النفس وتمثلها للحقيقة الدائمة هو الذي يقدمه بوناغنتورا ^(١)، لكنه لا يظهر كطريقة أساسية potissimus modus للبرهنة على خلود النفس ويبقى هذا التحفظ للأدلة المستمدة من الرغبة في السعادة.

ولو أن معترض اعترض على بوناغنتورا قائلا إن هذه الصورة من البرهان تفترض سلفاً الرغبة في الاتحاد بالله؛ لأنه السعادة بمعناها الكامل، وأن هذه الرغبة لا تظهر إلا في فعل النعمة، وبالتالي فهي تنتمي إلى النظام الذي يعلو على نظام الطبيعة وليس إلى نظام الطبيعة التي هي هدف دراسة الفيلسوف، ولا شك أن القديس سوف يجيب أنه لم تكن لديه أدنى نية في إنكار عمل النعمة أو طابعها الذي يعطى على الطبيعة لكن من ناحية أخرى الفيلسوف الحق ينظر إلى العالم والحياة البشرية على نحو ما هما عليه وإن أحد المعطيات هو على وجه الدقة الرغبة في السعادة التامة، رغم ذلك فإن الرغبة قد تتضمن عمل النعمة فهي من معطيات التجربة ومن ثم فيمكن أن يضعها الفيلسوف في اعتباره، وإذا لم يستطع الفيلسوف أن يفسرها دون أن يلجأ إلى اللاهوت، فذلك في حد ذاته برهان جديد على مبدأ بوناغنتورا القائل بأنه لا توجد فلسفة مقنعة ما لم تضمنها أنوار الإيمان، وبعبارة أخرى فعلى على حين أن الفيلسوف "التومائي" يستبعد- بطريقة منظمة- من معطيات التجربة كل ما يعرف أنه يجاوز الطبيعة ثم ينظر بوصفه فيلسوفا- في الطبيعة التي تبقى بعد هذا الاستبعاد، فإن الفيلسوف الذي يقنع بوناغنتورا يبدأ من الطبيعة بقدر ما هي معطاة، ومن الصواب تماما أن نقول إن النعمة ليست "شيئا معطى" بالمعنى الذي تكون فيه مرئية أو مدركة، على نحو يقينى بغير عون من العقل، لكن بعض نتائجها معطاة في التجربة، وليس في استطاعة المرء أن يرغبها لتوضع في نفس القالب دون أن يشوه هذه أو تلك.

(1) 2 Sent, II.

٤ - كل ما سبق أن قلناه عن النفس البشرية يتضمن فردية النفس، إلا أن بوناقتورا كان على وعى تام بتفسير ابن رشد لأرسطو، وسار بصراحة ضد هذا التفسير، إذ يؤكد ابن رشد أن العقل الفعال *Active intellect* والعقل المتفعل *Passive* معا يبقيان بعد الموت، ويغض النظر عن تعاليم أرسطو نفسه فمن المؤكد أن شارحه- أى ابن رشد- يذهب إلى أن هذه العقول ليست فردية فى كل إنسان فهى ليست أجزاء ولا ملكات الإنسان الفرد، فليس ثمة سوى جواهر واحدة وعقل كونى واحد. مثل هذا الموقف ليس هرطقة فحسب وضد الديانة المسيحية، وإنما هو أيضا ضد العقل والتجربة^(١) فهو ضد العقل طالما أنه من الواضح أن النفس العاقلة هى كمال الإنسان بما هو إنسان، والبشر يختلفون من شخص إلى آخر، وهم شخصيات فردية كبشر وليسوا مجرد حيوانات، وسوف يكون ذلك هو الوضع نفسه لو أن النفس العاقلة كانت واحدة عدديا فى جميع البشر، وهذا القول السابق هو أيضا التجربة طالما أن التجربة تخبرنا أن لدى البشر المختلفين أفكار مختلفة، وليس من الأقوال الجيدة أن نقول أن اختلاف الأفكار يأتى ببساطة من اختلاف النوع فى خيالات البشر المختلفين؛ أعنى أن ذلك ليس سوى الخيال الفانى تغذيه الحواس التى هى مختلفة عند مختلف الأفراد طالما أن الأفراد يختلفون فى أفكارهم عن الفضيلة التى لا تتأسس على الإدراك الحسى ولا هى مستخلصة من الأنواع الخيالية. وليس من الحجج الجيدة فى نظر بوناقتورا إن نقول إن النفس العاقلة مستقلة عن البدن ومن ثم فهى لا يمكن أن تكون متفردة عن طريقه. ذلك لأن النفس لا تكون متفردة عن طريق البدن، وإنما عن طريق وحدة المبدأين المكونين لها: المادة الروحية والصورة الروحية.

٥ - أما بالنسبة لضمون معرفة النفس بالموضوعات الحسية فذلك يعتمد على الإدراك الحسى، ويتفق القديس بوناقتورا مع أرسطو فى أن النفس لا تحمل بذاتها معرفة ولا أنواعا من الموضوعات الحسية: فالعقل البشرى مخلوق فى حالة "عرى" وهو

(1) 2 sent., 18,2,1, resp.

يعتمد على الحواس وعلى المخيلة^(١)، ويؤثر الشيء الحسى فى عضو الحس وينتج عندئذ نوعاً حسياً، وهو يؤثر بدوره فى ملكة الإحساس، وعندئذ يوجد الإدراك الحسى، وسوف نلاحظ أن القديس بوناونتورا عندما يسمح بوجود عنصر سلبي فى الإحساس، فإنه يبتعد عن تعاليم القديس أوغسطين، لكنه يذهب فى الوقت نفسه إلى أن ملكة الإحساس أو القوة الحاسة فى النفس تحكم على مضمون الإحساس بأنه مثلاً: أبيض. وينسب التقبل السلبي للنوع فى البداية إلى عضو الحس، ونشاط الحكم إلى الملكة^(٢) وهذا الحكم ليس بالطبع حكماً فكرياً أو تأملياً، وإنما هو بالأحرى وعى تلقائى، لكنه ممكن؛ لأن ملكة الإحساس هى الملكة الحاسة للنفس العاقلة؛ لأن النفس هى التى تصل بين البدن وفعل الإحساس^(٣) الإحساسات المتفرقة الخاصة مثلاً باللون، واللمس يوحد بينها "الحس المشترك" وتظل فى المخيلة التى ليست هى نفسها "الذاكرة" لو أردنا من الأخيرة أن تعنى "تسجيلاً Recordatio أو تذكراً رهن الإشارة"^(٤)، وأخيراً فإن العقل الفاعل، والعقل المنفعل يعملان متعاونين فى تجريد النوع من المخيلة، وليس العقل الفاعل والعقل المنفعل كما تبين يمكن لأحدهما أن يعمل بدون الآخر، ولكنهما "مختلفان أو منفصلان" الملكة عقلية واحدة للنفس والواقع أننا نستطيع أن نقول إن العقل الفاعل مجرد وأن العقل المنفعل يتلقى، لكن القديس بوناونتورا يشكل هذه العبارة بتأكيد أنه العقل المنفعل لديه القدرة على تجريد النوع والحكم عليه رغم أن ذلك لا يحدث إلا بمساعدة العقل الفاعل، فى حين أن العقل الفاعل يعتمد فى نشاطه المعرفى على معلومات العقل المنفعل بالنوع، وليس هناك فى الواقع سوى فعل واحد كامل للتعقل ويتعاون العقل المنفعل والعقل الفاعل على نحو لا انفصام فيه داخل هذا الفعل^(٥).

(1) 2, Sent; 3,2,2, I resp, and ad 4.

(2) Ibid, I8, I, 3,2,ad, 7.

(3) Ibid, 25,2 art, un, 5 resp.

(4) Ibid, 7,2,1,2, resp.

حيث نجد القديس بوناونتورا يفرق بين الذاكرة بوصفها عادة وبين فعل التذكر أو التسجيل.

(5) Sent. 24, J9,4.

من الواضح إذن- بغض النظر - عن فرق الأوغسطينية المختلفة كذلك التي رفضت أن تقيم تفرقة حقيقية بين ملكات النفس، فإن وجهة نظر بوناغنتورا عن الطريقة التي نكتسب بها المعرفة بالموضوعات الحسية تقترب- قليلا أو كثيراً- من النظرية الأرسطية فهو يسلم بأن النفس في معرفتها بهذه الموضوعات تكون في الأصل صفحة بيضاء . Tabula Rasa⁽¹⁾ .

وليس ثمة مجال للأفكار الفطرية، وفضلا عن ذلك فإن هذا الرفض للأفكار الفطرية ينطبق كذلك على معرفتنا بالمبادئ الأولى. ولقد ذهب بعض الناس إلى أن هذه المبادئ فطرية موجودة في العقل الفعال، رغم أنها تكتسب بمقدار ما نتحدث عن العقل الممكن "بالقوة" غير أن هذه النظرية لا تتفق مع عبارات أرسطو ولا مع الحقيقة إذ لو كانت هذه المبادئ فطرية في العقل الفعال فلماذا لا يصلها إلى العقل الممكن "بالقوة" نون عون من الحواس، ولماذا لا يعرف هذه المبادئ من البداية ذاتها؟ وتقول نسخة معدلة من المذهب الفطري أن المبادئ فطرية في صورتها العامة جدا في حين أن النتائج أو التطبيقات فهي مكتسبة، لكن سيكون من الصعب بناء على مثل هذه النظرة أن نبين لماذا لا يعرف الطفل المبادئ الأولى في صورتها العامة، وفضلا عن ذلك فإننا نجد أنه حتى هذا المذهب الفطري المعدل يتناقض مع أرسطو وأوغسطين معاً، ولا شك أن بوناغنتورا يرى أن النظرية التي يتحد ضدها كل من أرسطو وأوغسطين لا يمكن أن تكون صحيحة، ويبقى عندئذ أن نقول إن المبادئ لا تكون فطرية إلا بمعنى أن العقل مزود بنور طبيعي يمكنه من فهم المبادئ في كليتها عندما يكتسب معرفة بالأنواع أو الأفكار المناسبة، فمثلا لا أحد يعلم: ما الكل أو ما الجزء، إلا إن اكتسب معرفة بالأنوع أو الفكرة التي تعتمد على الإدراك الحسي، لكن ما أن يكتسب الفكرة حتى يمكنه نور العقل من فهم المبدأ الذي يقول إن الكل أكبر من الجزء. ومن ثم كان بوناغنتورا في هذه المسألة متفقاً مع القديس توما.

(1) Ibid, resp.

٦ - لكن على الرغم من أننا ليس لدينا معرفة فطرية بالموضوعات الحسية أو ماهيتها ولا بالمبادئ الأولى، المنطقية أو الرياضية، فإنه لا ينتج من ذلك أن معرفتنا بالحقائق الروحية الخالصة إنما نكتسبها من خلال الإدراك الحسي: "فنحن لا نعرف الله عن طريق المشابهة المستمدة من الحس"^(١) وإنما عن طريق تأمل النفس لذاتها، فليس لها رؤية حدسية بالله أو بالماهية الإلهية في هذه الحياة، لكنها مخلوقة على صورة الله، وتتجه نحو الله بالرغبة والإرادة لدرجة أن تأملها لطبيعتها الخاصة وفي اتجاه الإرادة يمكن النفس من أن تشكل فكرة الله دون أن تلجأ إلى العالم الحسي الخارجى، وبهذا المعنى فإن فكرة الله "فطرية" وإن لم يكن ذلك بمعنى أن كل إنسان لديه هذه الفكرة بوضوح، منذ البداية، وبالتالي لديه معرفة واضحة ودقيقة بالله. إن توجه الإرادة ورغبتها في الوصول إلى السعادة التامة هو نتيجة للفعل الإلهي نفسه، وتأمل هذه الرغبة يكشف للنفس عن وجود موضوع الرغبة الذي تعرفه في الواقع، بالفعل، بضرب الوعي الغامض، رغم أنه ليس من الضروري أن تكون فكرة واضحة، ومعرفة هذه الحقيقة "أي وجود الله" فطرية في النفس العاقلة بمقدار ما تكون النفس صورة لله، وبسببها يكون لديها نزوع طبيعي نحوه ومعرفة به وتذكره له، ذلك الذي خلقت على صورته وتتجه نحوه بطريقة طبيعية، لعلها تصل إلى سعادتها معه^(٢)، ومعرفة الله على أنواع مختلفة: فله معرفة شاملة بذاته، وطوبى لمن يعرفه بوضوح، بشكل واضح ومتميز ونحن نعرفه معرفة جزئية وبطريقة مختفية *ex parte et in aenigmate* وهذه المعرفة الأخيرة بما أنها متضمنة في -أو تشملها- المعرفة التي تكون لدى كل نفس لا تكون موجودة على الدوام، ولابد لها من بداية^(٣).

(1) 2 sent, 39 l, 2 resp.

(2) De Myst, Trinit, I, I, resp.

(3) Ibid, 1,2, ad 14

إن معرفة الفضائل أيضا لابد أن تكون "فطرية" بمعنى أنها ليست مستمدة من الإدراك الحسى، فالإنسان الظالم يستطيع أن يعرف ما العدالة، لكن من الواضح أنه لا يستطيع أن يعرف العدالة من خلال وجودها فى نفس ما دام لا يملكها، كما أنه لا يستطيع أن يعرفها من خلال التجربة من الأنواع الحسية طالما أنها ليست موضوعا من موضوعات الحس، وليس لها شبيه فى عالم الحس، ولا يستطيع أن يعرفها من أثارها أو نتائجها طالما أنه لا يستطيع أن يعرف نتائج العدالة ما لم يكن يعرف مسبقا ما العدالة، مثلما أن المرء لا يستطيع أن يعرف نتائج أو سلوك إنسان ما بوصفها نتائج لنشاط هذا الإنسان ما لم يكن يعرف مسبقا ما الإنسان⁽¹⁾، ومن ثم فلا بد أن يكون هناك معرفة قبلية أو فطرية بالفضائل، لكن بأى معنى هى فطرية؟ ليس ثمة فكرة فطرية "أو نوع فطري" بمعنى الفكرة الواضحة أو التشابه العقلى للفضيلة فى النفس منذ بدايتها، وإنما يوجد نور طبيعى حاضراً فى النفس تستطيع بواسطته أن ندرك الحقيقة واستقامة الخلق، كما يوجد حاضراً أيضاً ميل ومحبة للإرادة، وبذلك تعرف النفس ما الاستقامة "استقامة الخلق" ولما كان ذلك إحساناً، فإنها تعرف ما الإحسان، رغم أنها قد لا تملك بالفعل فضيلة الإحسان أو الصدقة⁽²⁾.

وهكذا تكون معرفة الفضائل فطرية بنفس المعنى الذى تكون فيه معرفة الله فطرية وليس بالمعنى الذى يكون فيه النوع أو الفكرة فطرية على نحو واضح، وإنما بمعنى أن النفس تملك بداخلها كل ما هو ضرورى لتشكيل الفكرة الواضحة دون أن تكون بحاجة إلى الالتجاء إلى العالم الحسى، فالفكرة الفطرية عند بوناغيتورا هى فى واقع الأمر فكرة فطرية، هناك فارق كبير، بالطبع بين معرفتنا بالفضائل ومعرفتنا بالله، فليس فى استطاعتنا على الإطلاق أن نعرف ماهية الله فى هذه الحياة، على حين أننا نستطيع أن ندرك ماهية الفضائل، إلا أن الطرق التى نصل بواسطتها إلى معرفة الله وإلى معرفة الفضائل متشابهة، وفى استطاعتنا أن نقول إن النفس تملك معرفة فطرية بالمبادئ

(1) De Sientia Christi, 4, 23.

(2) I, Sent., 17, I, art. Un. 4, resp.

الضرورية لسلوكها، فهي تعرف بتأملها لنفسها ما الله، وما الخوف وما الحب، ومن ثم ما المقصود بمخالفة الله ومحبته^(١)، وماذا لو أن إنساناً، في مقابل ذلك، اعترض واقتبس عبارة الفيلسوف القائلة لا شيء في العقل لم يكن موجوداً من قبل في الحس...

(٢) "Nihil est intellectu, quod prius non fuerit in sensu".

الجواب هو أن العبارة ينبغي أن تفهم على أنها تشير إلى معرفتنا بالموضوعات الحسية فحسب، أو إلى اكتسابه الأفكار التي يمكن تشكيلها عن طريق التجريد من الأنواع الحسية^(٣).

٧ - لكن على الرغم من أن القديس بوناونتورا لا يسمح للمبادئ الأولى المرتبطة بالعالم من حولنا أو حتى المبادئ الأولى للسلوك أن تكون واضحة في الذهن Mind من البداية أو أن تتغلغل فيه من الخارج بغض النظر عن أي نشاط من جانب الذهن نفسه، فإنه لا ينتج عن ذلك أن يكون على استعداد أن يستغنى عن نظرية أوغسطين في الإشراف، بل على العكس لقد نظر إليها على أنها أحد الحقائق الأساسية، في الميتافيزيقا.

فالحقيقة هي مطابقة الشيء مع العقل^(٤) بحيث يتضمن الشيء المعروف والعقل العارف وحتى توجد الحقيقة بهذا المعنى - الحقيقة المدركة - فالمطلوب توافر بعض الشروط من جانب الذات والموضوع معاً: الثبات وعدم التغير من جانب الموضوع، والعصمة وعدم الخطأ^(٥) من جانب الذات، لكن إذا كان بوناونتورا على استعداد أن يردد بهذه الطريقة صدى كلمات "ثيائيتوس"^(٦) مطالباً بهذين الشرطين للوصول إلى

(1) 2 Sent., 39, 1, 2, resp.

(٢) هذه عبارة قيمة تنسب خطأ إلى أرسطو (ويبدو أنه هو المقصود بكلمة الفيلسوف في عبارة المؤلف، فهكذا كان يسمى في العصور الوسطى إذا كان يطلق عليه لقب الفيلسوف بألف لام التعريف) - وقد اقتبس هيجل هذه العبارة وقال إن الفلسفة النظرية (أي فلسفة هو) لا ترفض الأخذ بهذا المبدأ إلا من سوء فهم فقط، ذلك لأن هذه العبارة في جانبها الآخر ليست أقل تأكيداً للقول بأنه "لا شيء في الحواس دون أن يمر بالعقل" راجع ترجمتنا العربية "لوسوعة العلوم الفلسفية" من طبعة دار التنوير الطبعة الثالثة ٢٠٠٧ ص ٦٠ (المترجم).

(3) Ibid.

(4) 1 Sent., rc.p adt, 2,3. Cf Brewiloqu G,8.

(5) De Scientia Chrti, 4. Resp.

(٦) المقصود محاوره أفلاطون الشهيرة (المترجم).

المعرفة اليقينية فلا بد له من مواجهة مشكلات شبيهة بتلك المشكلات التي واجهها أفلاطون وأوغسطين طالما أنه لا يوجد موضوع مخلوق غير قابل للتغير، بل إن جميع الأشياء الحسية عرضة للفناء، في حين أن الذهن البشري ليس في ذاته معصوما من الخطأ بالنسبة لأي فئة من الموضوعات، ومن ثم فلا بد أن يتلقى عوناً من خارجه ومن الطبيعي أن يلجأ بوناغنتورا إلى نظرية الإشراق الأوغسطينية التي راقمت له، ليس فقط لأن القديس أوغسطين قال بها، وإنما لأنها كذلك تؤكد في آن معا: اعتماد العقل البشري على الله، ونشاط الله داخل النفس البشرية، فهي عنده حقيقة إبستمولوجية وحقيقة دينية في وقت واحد، شيء يمكن أن يوجد كنتيجة ضرورية لدراسة الطبيعة، ومتطلبات اليقين، وهي أيضا شيء يصلح أن يتأمله المرء بالمعنى الديني، والواقع أن الحياة العقلية عنده، وكذلك الحياة الروحية لا يمكن أن يكون من الصواب فصلهما.

الذهن البشري إذن، يخضع للتغير، والشك، والخطأ في حين أن الظواهر التي نعرفها وتمر بها التجربة هي أيضا قابلة للتغير، ومن ناحية أخرى فهناك واقعة لا يجوز الشك فيها وهي أن الذهن البشري، يمتلك ألوانا من اليقين ويعرف أنها كذلك، وإننا ندرك ماهيات ومبادئ لا تتغير، لكن الله هو وحده الذي لا يتغير وهذا يعني أن الذهن البشري يتلقى العون من الله، وأن الموضوع ومعرفة اليقينية إنما يرى، بطريقة ما، وهو يضرب بجنوره في الله، بوصفه يوجد في العقل الأزلي أو الأفكار الإلهية، لكننا لا ندرك هذه الأفكار الإلهية في ذاتها، على نحو مباشر، ويشير بوناغنتورا مع أوغسطين إلى أنك إذا ما تابعت نظرية أفلاطون، فإنك تفتح الباب أمام المذهب الشكي طالما أنه إذا ما كانت المعرفة اليقينية الوحيدة التي يمكن بلوغها هي المعرفة المباشرة بالنماذج الأزلية، وإذا لم تكن لنا معرفة مباشرة بهذه النماذج، فإن النتيجة الضرورية هي أن اليقين الحق لا يمكن للذهن البشري بلوغه⁽¹⁾، ومن ناحية أخرى لا يمكن القول بأن العقل الأزلي يؤثر في الذهن بهذه الطريقة وحدها، وأن الذهن العارف لا يصل إلى

(1) De Scientia Chriti, 4. Resp.

المبدأ الأزلى ذاته، وإنما إلى أثره فحسب كملكة ذهنية؛ لأن الأخير لابد أن يخلق هو نفسه ويخضع لنفس الشروط مثل ذهن الذى هو استعداد وطبيعى بالنسبة له^(١)، ومن ثم فلا بد "للعقل الأزلى" أن يكون لديها فعل منظم على ذهن البشرى، رغم أنها تظل هى نفسها غير مرئية، إنها هى التى تؤثر فى ذهن وتحكم ذهن فى أحكامه اليقينية وتمكنه من فهم الحقائق الأزلية اليقينية، فى النظم النظرية والأخلاقية، وإيصدر أحكاما صحيحة ويقينية على الموضوعات الحسية، إن فعلها الذى هو الإشراق الإلهى الذى يمكن ذهن من فهم الماهيات الثابتة التى لا تتغير فى موضوعات التجربة العابرة والمتغيرة، لكن ذلك لا يعنى أن بونافنتورا يناقض الاستحسان أو القبول الذى أبداه لنظرية أرسطو عن معرفتنا بالعالم الحسى، وإنما يعنى أنه اعتبر هذه النظرية غير كافية، فبدون الإدراك الحسى فإننا لن نعرف أبدا الموضوعات الحسية، ومن الصواب تماما أن العقل مجرد، لكن الإشراق الإلهى، والفعل المباشر للعقل الأزلى ضرورى حتى يرى ذهن فى الموضوع انعكاس العقل الذى لا يتغير وأن يكون قادرا على إصدار حكم معصوم عنه، والإدراك الحسى مطلوب حتى يظهر أفكارنا عن الموضوعات الحسية إلا أن استقرار وضرورة أحكامنا عنها تعود إلى تأثير "العقل الأزلى" ما دام لا يوجد شئ من الموضوعات الحسية التى تقع فى تجربتنا لا يتغير، ولا عقل من العقول التى نعرفها معصوم، فى ذاته، من الخطأ والأنواع الكلية، من عقولنا والمتأثرة بغموض الصور الذهنية تشرف على هذا النحو حتى يستطيع ذهن أن يعرف "فمعنى أن يكون لديك معرفة حقيقية هو أن تعرف أن شيئا ما لا يمكن أن يكون على خلاف ما هو عليه، فمن الضرورى أن يكون هو وحده "أى الله" الذى يجعلنا نعرف فهو الذى يعرف الحقيقة ويحتوى على الحقيقة فى ذاته^(٢).. وهكذا فإنه من خلال "العقل الأزلى" يحكم ذهن على جميع تلك الأشياء التى نعرفها عن طريق الحواس^(٣).

(1) Ibid.

(2) In Hexaem. 12,5.

(3) Itin, Mentis in Seum.

ويعرف القديس بونايفنتورا في كتابه "رحلة العقل إلى الله" Itinerarium Mentis in Deum⁽¹⁾ كيف تنتج الموضوعات الحسية الخارجية صورة مشابهة لنفسها أولاً في الوسط ثم من خلال الوسط في عضو الحس وبعد ذلك في الحس الداخلي، ويحكم الحس الجزئي أو ملكة الإحساس من خلال الحس الجزئي، بأن هذا الشيء أبيض اللون أو أسود أو أيًا ما كان لونه، وأن الحس الداخلي هو إحساس بالمتعة أو الجمال أو العكس، فالملكة العقلية تتحول نحو الواقع وتسال: لم كان الشيء المعروض جميلاً ولماذا نحكم عليه بأنه جميل؛ لأنه يمتلك خصائص معينة غير أن هذا الحكم يتضمن الإشارة إلى فكرة الجمال التي هي مستقرة ولا تتغير ولا ترتبط بزمان معين أو مكان محدد، وهذا هو ما يصل إليه الإشراق الإلهي إلى العقل الأزلي المنظم والموجه، وليس بإلغاء أو إبطال عمل الحواس أو نشاط التجريد. فجميع الموضوعات الحسية التي عرفناها تدخل إلى الذهن من خلال العمليات النفسية الثلاث وهي:

يقبض - *Apprehensio* يمسك

يجذب - *Oblectatio* يدهش يتمتع

يحكم - *Diludicatio* يقرر يحسم

إلا أن العملية الأخيرة لكي تكون صادقة ويقينية فلا بد أن يكون الحكم صادراً في ضوء العلل الأزلية.

والآن فإن "العلل الأزلية" كما سبق أن رأينا متحدة أنطولوجياً وهي في الواقع متحدة بالفعل مع كلمة الله، وينتج من ذلك إذن أن الكلمة هي التي تضيء الذهن البشري، تلك الكلمة التي تنير كل إنسان يأتي إلى العالم "فالمسيح هو المعلم الباطني، ولا تعرف أية حقيقة إلا من خلاله، ليس عن طريق كلامه على نحو ما نتحدث، لكن عن

(1) 1-2, 4-6.

طريق تنويره لنا باطنيا .. وهو حاضِر لكل نفس بعمق وألفة وبأفكاره الباقية الوضوح
يشع بنوره على الأفكار المظلمة المعتمدة الموجودة في أذهاننا^(١).. وليس لدينا رؤية لكلمة
الله، وعلى الرغم من أن النور موجود بعمق بداخلنا، فلا يمكن رؤيته فهو بعيد المنال-
In accessibills في استطاعتنا أن نستدل فقط على وجوده من ملاحظة نتائجه^(٢).

وهكذا نجد أن نظرية بونا فنكتورا في الإشراق وتفسيره للقديس أوغسطين
لا تتضمنان نزعة أنطولوجية Ontologism^(٣)؛ فنظريته تكمل تأكيدات الأرسطية
الظاهرة للتجربة وأفكاره للطابع الفطري للمبادئ الأولى معطيا تعاليمه طعما ولونا
أوغسطينيا وخاصة غير أرسطية إننا نجرد: نعم! لكن ليس في استطاعتنا أن نمسك
بما هو واضح ومستقر أثناء التجريد، كما أننا نحتاج أيضا إلى الإشراق الإلهي؛ فنحن
نستطيع بلوغ معرفة المبادئ الأخلاقية بالتأمل الباطني، نعم! لكن ليس في استطاعتنا
أن نفهم طابعها الضروري غير المتغير ودون تأثير النور الإلهي المنظم الوجه، ولقد
أخفق أرسطو في رؤية ذلك، كما أخفق في رؤية أننا لا نستطيع أن نعرف المخلوقات
معرفة تامة ما لم نرها كأمثلة للنموذج الإلهي، وبالتالي لا نستطيع أن نصدر أحكاما
عنها بدون نور الكلمة الإلهية، كلمة العقل الأزلي.

وترتبط فكرة النموذج بفكرة الإشراف ارتباطا وثيقا، والمفكر الميتافيزيقي الحق
يدركهما معا: ولم يدرك أرسطو أيًا منهما.

(1) In Hexaem.

(2) Ibid, 12,11.

(٣) النزعة الأنطولوجية Ontologism فلسفة دينية ذات ميول نحو العقلانية ووحدة الوجود قارن في القرن
التاسع عشر وكان ممثلوها أنطونيو روسميني (١٧٩٧-١٨٥٥) وفنسنتو جيومرتي (١٨٠١-١٨٥٢) في
إيطاليا، وأورست برويسن (١٨٠٢-١٨٧٣) في الولايات المتحدة، وهي تحمل وشائج قربي مع الهيكلية،
استهجنها الكنيسة وفضلت عليها النوماتية الجديدة (المترجم).

٨- ليس ثمة سوى أربع ملكات للنفس: القوى النباتية، والقوى الحسية، والعقل والإرادة، إلا أن بوناغنتورا يفرق بين "جوانب" مختلفة للنفس، وبصفة خاصة للعقل أو الذهن *Mind* ^(١) طبقاً للموضوعات التي يجذب انتباهه إليها وتبعاً للطريقة التي تجذبه وتوجهه، ولابد إذن أن يكون من الخطأ أن نفترض أنه يعنى أن العقل *Ratio* والتعقل *Intellectus*، والذكاء *Intelligentia* وقمة الذهن، والإشرقة العقلية هي كلها ملكات مختلفة للنفس، غير أن هذه المصطلحات تدل بالأحرى على وظائف مختلفة للنفس العاقلة أثناء صعودها من المخلوقات الحسية إلى الله ذاته، وهو يقول صراحة في شروحه ^(٢) على كتابه "الأقوال أو الأحكام" ^(٣) إنها ليست قسمة إلى ملكات مختلفة وإنما هي قسمة إلى وظائف، واستعدادات، وهي شيء أكبر كثيراً من القسمة إلى جوانب، العقل الأدنى هو العقل الذي تحول إلى الموضوعات الحسية، وهكذا نجد أن مصطلح "أدنى، وأعلى" إلى وظائف *Officia* مختلفة للملكة نفسها لكن هناك نقطة أبعد ينبغي إضافتها، وهي أن العقل وهو يتجه نحو المدركات العقلية إنما يقوى وينتعش وينشط في حين أنه عندما يتجه نحو المحسوسات فإنه يضعف ويهبط ومن ثم فعلى الرغم من وجود عقل واحد فقط *Ratio* فإن التفرقة بين عقل أدنى وعقل أعلى لا تتطابق مع الوظائف المختلفة فحسب، بل أيضاً مع الاستعدادات المختلفة للعقل الواحد.

مراحل صعود الروح إلى أعلى نادراً ما تحتاج إلى شروح طويلة على اعتبار أنها ترتبط بلاهوت الزهد والتصوف أكثر من ارتباطها بالفلسفة بمعناها عندنا، لكن طالما أنها ترتبط في فهم بوناغنتورا لهذا المصطلح فينبغي أن نعرض لها في إيجاز مادامت توضيح ميله إلى أن تتكامل الفلسفة واللاهوت بطريقة وثيقة قدر الإمكان. لقد اقتفى

(1) *Itin Mentis in Deum*, 1,6.

(2) أحد الكتب الرئيسية للقديس بوناغنتورا وعنوانه "الشروح على كتب الأقوال الأربعة لبطرس اللباردى" وكان أستاذاً للقديس بوناغنتورا، وكان يقوم بعملية التمرج هذه أثناء تدريسه في جامعة باريس سنة ١٢٤٨ واستمر حتى عام ١٢٥٥، وكذلك في مواعيله وخطبه ويقارن هذا الكتاب أيضاً بكتاب الأحكام بدلاً من الأقوال (المترجم).

(3) *Sent*: 24, 1,2,2, resp.

بونافنتورا آثار وخطوات أوغسطين وأتباع فيكتور^(١) في مراحل صعود حياة النفس، وهي مراحل تتطابق مع قوى النفس المختلفة وقادته من مجال الطبيعة إلى مجال النعمة.

ولقد بين ابتداء من قوى النفس الحاسة كيف أن النفس ربما رأت في الأشياء الحسية آثار الألوهية Vestigia Dei وكلما تأملت الأشياء الحسية أولا كآثار له ثم بعد ذلك كاشياء يكون الله فيها حاضراً، وهو يتابع- مع أوغسطين- تأملها لتكوينها الطبيعي وقواها بوصفها صورة الله، وعندئذ يظهر الذكاء على أنه يتأمل الله في ملكات النفس التي تجدها وترفعها النعمة، وهي قادرة على أن تفعل ذلك بواسطة كلمة الله، لكن النفس في هذه المرحلة لا تزال تتأمل الله في صورته التي هي النفس ذاتها، لكنها قادرة على السير أبعد من ذلك، إلى تأمل الله على أنه "أنا أعلى"، أولا بوصفه وجوداً ثم بعد ذلك على أنه الخير، الوجود خير "أو حسن" وتأمل الله كوجود، كمال الوجود، يؤدي إلى تحقق الوجود على أنه الخير المنتشر بذاته، وبالتالي يؤدي إلى تأمل الثالوث المقدس، ولا يستطيع العقل أن يسير أبعد من ذلك، فبعد ذلك يوجد ظلام مضيء للانجذاب والتأمل الصوفي، قمة المحبة التي لا تفوق الروح، ومع ذلك فالإرادة هي إحدى ملكات النفس البشرية رغم أنها انبعثت من جوهر الروح هي ليست عرضاً متميزاً، وذلك يعني أن القول بأن محبة الإرادة تجاوز العقل يرادف قولك إن النفس متحدة مع الله بواسطة الحب على نحو وثيق يجعل النور الذي ينتشر فيها يصيبها بالعمى، لا يمكن أن يكون هناك سوى مرحلة واحدة أعلى، محفوظة للحياة الأخرى، وتلك هي رؤية الله في السماء.

٩ - علينا أن نتذكر أن النقاط الثلاث الكبرى في ميتافيزيقا بونافنتورا هي: الخلق، والنموذج، والإشراق، ومن ثم كان مذهبه الميتافيزيقي وحده من حيث إن نظرية الخلق تكشف كيف ظهر العالم من الله. كيف خلق من العدم وكيف يعتمد اعتماداً تاماً على الله، في حين أن نظرية النموذج تكشف كيف يرتبط عالم المخلوقات بالله بعلاقة محاكاة النموذج، النسخة بالمثل في حين أن نظرية الإشراق تتعقب مراحل عودة الروح

(١) هوج دي سان فيكتور (1096-1141) Hugh De St. Victor أكبر ممثلي التصوف العقلي الذين ينتمون إلى دير سان فيكتور الأوغسطيني بباريس (المترجم).

إلى الله عن طريق تأمل المخلوقات الحسية، وتأمل ذاتها، وأخيراً تأمل الموجود الكامل، وهناك باستمرار تأكيد للفعل الإلهي، ويمكن البرهنة على الخلق من عدم كما يمكن البرهنة على حضور الله ونشاطه في مخلوقات لاسيما في الروح نفسها فالعقل الإلهي يتغلغل في كل حقيقة مؤكدة، وكذلك في إقامة المراحل العليا لصعود الروح مطلوب معطيات اللاهوت فهناك استمرار للعقل الإلهي بمعنى ما في زيادة الشدة، فالله يؤثر في ذهن كل إنسان عندما يبلغ الحقيقة، لكن نشاط الله في هذه المرحلة ليس كاف تامةً أو يشمل كل شيء؛ فالإنسان ينشط أيضاً من خلال استخدامه لقواه الطبيعية، ويزداد العقل الإلهي تدريجياً في المراحل العليا حتى يصل إلى مرحلة الانجذاب فيستولي الله على الروح ويلغى النشاط العقلي للإنسان.

وربما أطلق على بونا فنثورا على هذا النحو لقب فيلسوف الحياة المسيحية، الذي يستغل كلا من العقل والإيمان في تكوين مركب له، وهذا التكامل بين العقل والإيمان، بين الفلسفة واللاهوت، تؤكد المكانة التي جعلها للمسيح، كلمة الله، فكما أن الخلق والنموذج لا يمكن فهمهما فهما سليما بغض النظر عن تحقيقهما من خلال كلمة الله، إن جميع الأشياء خلقت، وإن كلمة الله: الصورة الجوهرية للأب^(١)، الذي تعكسه جميع المخلوقات، فكذلك الإشراق في مراحله المختلفة لا يمكن أن يفهم فهماً سليماً بمعزل عن التحقق من أن كلمة الله هي التي تشرق في كل إنسان؛ فكلمة الله هي الباب الذي من خلاله تبرح الروح إلى الله الذي يُعَلَى من قوتها هي ذاتها، كلمة الله التي تشغل الروح القدس الذي أرسله وتقودها إلى ما وراء حدود أفكارها الواضحة إلى وحدة الانجذاب، وأخيراً فإن كلمة الله هي التي تظهرنا على الأب، وهي التي تفتح أمامنا الباب للرؤيا السعيدة في السماء، والواقع أن المسيح هو "الوسيط لكل العلوم"^(٢) للميتافيزيقا مثلاً لللاهوت، فعلى الرغم من أن الميتافيزيقا بما هي كذلك لا تستطيع أن تبلغ إلى معرفة الكلمة- حتى إذا ما كانت لا تعي ذلك تامةً فضلاً عن أن علمها ناقص وهو يفسد عن طريق هذا النقص ما لم يتوجه اللاهوت.

(١) اتحاد جسد المسيح وبمه بخبز القربان المقدس وخمره (الترجم).

(2) In Hexaem, 1, 1.

المرجمان فى سطوو

١ - د . إسحق عبيد :

- أستاذ التاريخ والحضارة - كلية الآداب - جامعة عين شمس .
- دكتوراه فى التاريخ الوسيط - جامعة كوتنجهام - إنجلترا .
- له العديد من المؤلفات أهمها : محاكم التفتيش ، أوروبا فى بحر الظلمات ، معرفة الماضى، مصر منارة حوض البحر المتوسط ، عصر النهضة فى أوروبا ، مصر بين الهيلينية والرومانية، الإمبراطورية ، الرومانية بين الدين والبربرية .
- شارك فى المؤتمرات الدولية حول حوار الحضارات ، وأخلاقيات البيئة ، وفضل العرب على العقلية الأوروبية فى العصور الوسطى (صقلية ، قبرص - لندن - أكسفورد - فيلادلفيا - بواتيه فى فرنسا - الرباط - الكويت - صنعاء - أسوان - القاهرة) .

٢ - إمام عبد الفتاح :

- أستاذ الفلسفة الحديثة (حالياً أستاذ غير متفرغ فى جامعتي عين شمس والمنصورة) تخصص فى فلسفة هيجل فى بداية حياته الأكاديمية ، وانتقل منها إلى أعلام الفلسفة الحديثة ، خصوصاً الذين تميزوا بإنجازاتهم التى أسهمت فى تغيير المشهد الفلسفى العالمى .

من مؤلفاته :

- المدخل إلى الفلسفة .
- مدخل إلى الميتافيزيقا .
- سلسلة الفيلسوف والمرأة .
- كيركجور .
- الطاغية .
- توماس هوبز : فيلسوف العقلانية .

ومن أهم ترجماته ضمن المشروع القومي للترجمة :

- الجمال ، وحكاية إيسوب ، ومعجم مصطلحات هيجل .
- كما أشرف - في إطار المشروع القومي للترجمة - على ترجمة سلسلة "أقدم لك" وشارك في ترجمة بعض منها .

التصحيح اللغوي : غادة كمال

الإشراف الفني : حسن كامل



هذا هو المجلد الثانى من موسوعة كوبلستون الكبرى فى تاريخ الفلسفة الغربية، ويتناول هذا المجلد الفلسفة فى حقبة العصور الوسطى بدءاً من القديس أوغسطين، وصولاً إلى أوكام. وفى هذا الجزء أيضاً معالجة تأثير الفلسفة الإسلامية فى بلاد الأندلس على الغرب الأوروبى بطريقة تجعلنا نكرر ما أعلنته من قبل المستشرقة الألمانية زيجريد هونكه بأن شمس العرب قد سطعت بحق على الغرب الأوروبى، وبذلك تمكنت أوروبا أن تخطو من عصور الظلام إلى عصر النهضة الأوروبية.

